

أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

دراسة فنية بلاغية مقارنة

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

المركز الثقافي للنشر





mohamed khatab

www.books4aladab.me

أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

دراسة فنية بلاغية مقارنة

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

الدار الثقافية للنشر

إبراهيم، كمال عبد العزيز .
أسلوب المقابلة في القرآن الكريم : دراسة فنية بلاغية مقارنة .
كمال عبد العزيز إبراهيم - ط ١ - القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠١٠ .
٣٨٨ ص ، ٢٤ سم
تدمك ٥ - ٢٧٧ - ٣٣٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٧٢٩ / ٢٠١٠
١ - القرآن - بلاغة
أ . أسلوب المقابلة في القرآن الكريم : دراسة فنية بلاغية مقارنة .
٢٢٥

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناسر - الدار الثقافية للنشر - القاهرة

صندوق بريد ١٣٤ بانوراما ١١٨١١

تليفاكس ٢٤٠٢٠٥١٥ - ٢٤١٧٢٧٦٩ - ٢٢٧٥٩٥٠٢

Email: info@dar-althakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

موضوع هذه الدراسة هو أسلوب المقابلة في القرآن الكريم : دراسة فنية بلاغية مقارنة^(١)، والقرآن الكريم هو كلام الله المتزل على سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم، ليخرج به الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد ورحاب الهدى والرشاد :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾^(٢).

وهو معجزة الإسلام الباقية إلى يوم الدين، ودستور الحياة ومنهاجها القويم، كما أنه المرجع الأول لصحة اللغة العربية، وهو دليل أصالتها ورمز عظمتها، وإثما باقية - بإذن الله - ما بقي هذا القرآن، ولولاه لاندثرت في رمال الصحراء، كما اندثر غيرها من اللغات. إنه للمسلمين موئل وسند، وللعرب عزة وفخار وللإنسانية كثر وذخر. ولذلك التف حوله العلماء والبلغاء والأدباء ينهلون من مورده العذب، ويستروحون في ظلاله نسمات العلم والمعرفة. فكان - بذلك - محورا لكل الدراسات الإسلامية والعربية.

ولقد وجدته - بحمد الله منذ الصغر - أعيش مع القرآن حفظا ودرسا وتربية، فكنت أتشوف إلى اليوم الذي أستطيع فيه أن أرد بعض الجميل لكتاب الله على،

(١) حصل المؤلف بهذا البحث على درجة الماجستير بتقدير ممتاز عام ١٩٨٥ من كلية الآداب - جامعة الزقازيق بإشراف الأستاذ الدكتور: فتحي عامر و مناقشة الأستاذ الدكتور: عبد المجيد عابدين والأستاذ الدكتور : محمد زغلول سلام

(٢) المائدة : ١٥ - ١٦

وأودى في نفس الوقت، شيئا من حق الامانة لديننا الحنيف ولغتنا العربية، إلى أن شاء الله، وأذن بذلك.

ولطول صحتي للقرآن ومعايشتي له، استرعت - ظاهرة التقابل في أسلوبه - إنتباهي، ولفتت نظري، إذ وجدتها تنتظم القرآن كله، فلا تكاد تخلو منها سورة من سورته، أو موقف من مواقفه.

وكانت فكرة دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم تلح على حين أتأمل الكون من حولي، فأجدها تنتظم الوجود بأسره أيضا.

فالأرض تقابلها السماء، والليل يقابله النهار، وكذلك يتقابل الأبيض والأسود، والخير والشر، والذكر والأنثى، والصدق والكذب، ويمتد هذا التقابل مع امتداد البصر، وجولان الفكر في كل شيء.

وكنت أربط بين ظاهرة التقابل في الكون، وظاهرة التقابل في الأسلوب القرآني، فيروني صدق العلي القدير وهو يقول :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، وأتصور

أن هذه الثنائية الضدية التي تنتظم العالم كله إنما هي دليل على تفرد الله ووحدانيته وتزهه عن الشريك والضد والنظير ولا عجب. فالقرآن الكريم كتاب الكون المفتوح لكل ذي عينين.

كان الدافع لاختياري لهذا الموضوع إذن نابعا من حيي للقرآن الكريم ثم لإلحاح فكرة التقابل على خاطري كلما قرأت في كتاب الله أو نظرت في جنبات الكون، وأخيرا لإحساسي بأن حقل الدراسات القرآنية في حاجة ماسة إلى المزيد من البحوث اللغوية والبلاغية التي تكشف عن أسرارها، وتجلى نواحي الجمال في أسلوبه.

وترجع أهمية هذا البحث إلى كون (المقابلة) وهي التي تمثل ظاهرة واضحة في التعبير القرآني، لم تُدرس من قبل في بحث مستقل، إذ لم تحظ من الدارسين قديما إلا ببعض التعريفات المتواترة مع بعض الشواهد من النثر والشعر، ولم يتطرق بحثهم فيها إلى وجودها - كظاهرة - في الأسلوب القرآني، ناهيك بنظرة المتأخرين من البلاغيين إلى الألوان البديعية - بصفة عامة - على أنها من الفنون العرضية التي تجلب لتحسين الكلام وتزيينه بعد تمام المعنى.

وأما دراسة ابن أبي الإصبع عن (بديع القرآن) فإنها لم تتناول ظاهرة المقابلة في القرآن الكريم إلا في صفحتين اثنتين تحت عنوان (باب صحة المقابلات) ولم تقدم شاهدا عليها من القرآن سوى بعض آية هي قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

لقد كان الرجل مشغولا في هذه الدراسة بإثبات إعجاز القرآن الكريم عن طريق ما فيه من البدائع، ومن ثم كان مهتما بإيراد أكبر عدد من ألوان البديع في القرآن، فأوصل عدد المحسنات فيه إلى ثمان مائة، ولكن هذا - من جانب آخر - كان يعني تمزيق أوصال علم البديع، وما تبع ذلك من التصنع والتكلف في كثير من الأحيان.

وأما في العصر الحديث، فإن أحدا من الباحثين لم يعن بهذا الموضوع في دراسة مستقلة أيضا، ودراسة الدكتور عبد الفتاح لاشين (البديع في ضوء أساليب القرآن)؟ صورة مختصرة من (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع.

ومن هنا، فإنني أعتقد أن دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم على نحو متكامل تعتبر أمرا ضروريا، نؤكد به إعجاز القرآن عن طريق التعبير بأسلوب المقابلة في الكلمات والآيات والمواقف. بل وبين السور بعضها والبعض.

هذا التعبير الذي كان له الكثير من الأغراض الفنية والدينية، كما سيتضح من هذا البحث.

وهو لهذا يعتبر بحثا جديدا في ميدانه، أمل أن أضيف به إلى بحوث البلاغة القرآنية لبنة تساهم في إعلاء قدرها، كما أرجو أن يكون هذا البحث حافزا لمثلي من الدارسين إلى المزيد من هذه الدراسات وفاء للقرآن الكريم، وإثراء للغة.

والمسئع الذي سلكته في هذا البحث هو المسئع التكاملي الذي يمزج بين المسئع الساري والتحليلي اللغوي، وكذلك المسئع الفني والمقارن، فالمسئع الساري ضروري هنا لتبع مفهوم المقابلة وما شاكلها عند البلاغيين والنقاد والمهتمين بالدراسات البلاغية في القرآن.

والمنهج التحليلي اللغوي مفيد هنا في تحليل الآيات لغويا، لإدراك المعنى وما يقابله أو يناظره.

ثم إن بيان هذا التقابل وآثاره البلاغية، وقيمتها الجمالية يعتبر عملا فنيا خالصا وذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن الفن هو جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة عاطفة الجمال^(١).

أما المقارنة في هذه الدراسة، فهي متشرة في تضاعيفها على شكل موازنة بين موقف وموقف، أو بين طبيعة أسلوب المقابلة في السور المكية وطبيعته في السور المدنية أو بين تناول القرآن لفكرة معينة بأسلوب المقابلة، وتناول الشعراء لنفس الفكرة.

والمصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث كانت في الجزء النظري منه : كتب البلاغيين والنقاد الذين عرضت لأرائهم في معنى المقابلة، وكذلك كتب المهتمين بدراسة البلاغة القرآنية.

وفي الجزء التطبيقي كان القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي جمعت منه ظاهرة المقابلة في مختلف الآيات والسور والمواقف، ثم طائفة من كتب التفسير المختلفة للقدماء والمحدثين.

ولم يستغن البحث عن الاعتماد - كذلك - على بعض معاجم اللغة، وكتب الأعلام، وأسباب التزول، وقصص القرآن، بالإضافة إلى لمحات من بعض كتب النقد الحديثة، كانت ضرورية لتجلية غامض أو للكشف عن جديد.

ومع أن هناك بعض المراجع التي لم تتعرض لموضوعنا، إلا أنني استفدت منها في فهم المعنى المراد لبعض الآيات، مما أعانني على إبراز أسلوب المقابلة فيها وبيان أثره البلاغي، مثل كتاب : مجاز القرآن لأبي عبيده، أو تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي وغيرهما.

وقد اقتضت طبيعة المنهج أن تقوم هذه الدراسة على جانبيين أحدهما نظري والآخر تطبيقي، ومن ثم خرج البحث في باين عدا المقدمة والتمهيد والخاتمة. في المقدمة : جاءت دوافع البحث وأهميته ومنهجه وطريقة معالجته.

(١) المعجم الوسيط مادة (فن)

وفي التمهيد : جولة في معاجم اللغة مع إشارات مجملة لبعض من عرض للمقابلة من العلماء كالرمانى وقدامه وابن أبى الإصبع، وقفت فيها على العلاقة بين المقابلة والطباق، ونبهت إلى صعوبة فصل المقابلة عن بعض الفنون البديعية الأخرى التي تشاركها التضاد أو التناظر كالطباق، والعكس والتبديل والتقسيم، مشيراً إلى أن الأفضل ضم هذه الألوان تحت اسم المقابلة، مبيناً أسباب هذا الضم وأثره في حفظ البلاغة من الشتات والتمزق.

ولقد جاء الباب الأول - وهو الجزء النظرى من هذا البحث - في فصلين :

الأول بعنوان : (المقابلة عند النقاد والبلاغيين).

والثاني بعنوان : (المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن).

ورغم أنه من الصعب فصل النقاد والبلاغيين عن العلماء المهتمين ببلاغة القرآن، إلا أنني خصصت لكل منهما فصلاً، كنوع من التنظيم من جهة ولغلبة سمة معينة من الدراسات على كل فريق من جهة أخرى.

وقد تناولت في الفصل الأول - بالعرض والتحليل والنقد - مفهوم المقابلة عند طائفة من أعلام النقد والبلاغة - حسب الترتيب الزمني - منذ ظهرت عندهم كشذرات منتشرة، مختلطة بالطباق وبغيرها من الألوان كما عند الجاحظ وثلعب وابن المعتز، إلى أن بدأ قدامه يضع لها بعض الضوابط، ويحدد لها بعض الملامح.

وهنا وقفت مناقشة فكرة تأثره بأرسطو، ورجحت في النهاية وجهة النظر القائلة بأصالة البلاغة العربية، وعدم تأثر قدامه بالمنطق الأرسطى في موضوع المقابلة بالذات.

وتابع الفصل مسيرته مع البلاغيين والنقاد، فعرض لرأى ابن وهب الكاتب - الذي مزج فيه بين المقابلة وصحة التقسيم ومراعاة النظر ولرأى الجرجاني : صاحب الوساطة. مشيراً إلى أن كتابه يعتبر تطبيقاً عملياً للمقابلة بين المتبنى وخصومه.

وعرض هذا الفصل كذلك لرأى أبى هلال العسكري مشيداً بمقارنته بين الشعر والقرآن في تناولهما لمعنى من المعاني بأسلوب المقابلة، ومرجحاً القول بأن شواهد بعض الألوان البديعية الأخرى كالعكس والتبديل والسلب والإيجاب يصلح بعضها شواهد للمقابلة، وأن هذا أدعى إلى ضم تلك الألوان وعدم تقسيمها وتمزيقها.

كما حَسَّيَا الفصل جرأة ابن سنان الخفاجي في ضم معظم هذه الألوان تحت اسم واحد هو (الطباق).

ثم عرض لرأي عَلمين من أعلام المغرب العربي في هذا المجال، هما ابن رشيق وحازم القرطاجني، مؤكدا أنهما لم يستجيبا لموجة الإسفاف والتصنع التي بدأت تتسلل إلى البلاغة العربية، ولذلك أبرز الفصل نقد ابن رشيق لقدامة، وبين رأيه في المقابلة، وتوسيعه لمفهومها، لتشمل مراعاة النظر وصحة التقسيم.

وعرض لسرأي (حازم) في المقابلة، ومغزى مجيئها ضمن حديث الهام عن ماهيات المعاني، وأنحاء وجودها ومواقعها وطرق اجتلائها وكيفية التثامها، ثم تفرد بالحديث عن الهدف من المقابلة، وذلك في القرن السابع الذي شهد انحدار الأدب والبلاغة، ومال إلى التكلف والصنعة اللفظية.

وتستمر رحلة البحث عن مفهوم المقابلة في هذا الفصل إلى أن تصل إلى القرن الثامن الهجري حيث جمدت علوم البلاغة، وتحولت إلى متون ومختصرات، ثم شروح وحواش جافة تكتفي بترديد آراء السابقين.

والفصل الثاني من الباب الأول، يطوف حول مفهوم المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن، بدءا من مجاز القرآن لأبي عبيد معمر بن المثنى، ومرورا بمعاني القرآن للقرآن، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ثم يناقش رأي الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) الذي دعا فيه إلى استبعاد البديع من وجوه الإعجاز بحجة إمكان التوصل إليه بالتدريب والتعود. فبرّد هذا الفصل على هذا الرأي بالبرهان والدليل. ويؤكد أن ما ورد في القرآن من المقابلة والطباق، كألوان بديعية - لم يرد اعتسافا. وإنما جاء المعنى فيهما مصورا في ألفاظهما التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه ويستعين - في ذلك - بالآراء التي تثبت إعجاز القرآن بكل ما فيه.

كما وقف هذا الفصل وقفة متأنية مع عبد القاهر الجرجاني وكتابه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، مشيرا إلى اعتباره التطبيق وسائر أنواع البديع عنصرا جوهريا في المعنى وإلى أن الإعجاز عنده يرجع إلى بلاغة النظم الذي هو سر إعجاز القرآن.

وعرض الفصل - كذلك - لدور الزمخشري في الكشف، وما قام به من تطبيق عملي لنظرية النظم، ثم وقف البحث - هنا - حكما بين القائلين بإهمال الزمخشري للألوان البديعية - بما فيها المقابلة - والقائلين بعكس ذلك مؤكدا بالأمثلة أن الزمخشري لم يسر في ذلك على وتيرة واحدة فهو أحيانا يحفل باللون البديعي حين تفتح له طاقة الإبداع والإلهام وتتفجر أمامه كوة النور، فيرى في الآية القرآنية أو الموقف القرآني من ألوان البديع ما يزيد المعنى وضوحا والأسلوب جمالا.

وأحيانا أخرى يمر على الآية مروراً عابراً غير محتفل بما تحويه من مقابلة أو طباق، فلا يشير إليهما، ولا إلى ما يؤديانه من معان.

واستخرج هذا الفصل من الكشاف رؤية الزمخشري الخاصة للمقابلة والطباق، وأشار إلى توسعه في المقصود منهما، وإلى خلطه بينهما وبين بعض الألوان القريبة منهما كاللف والنشر، والتلاؤم بين الألفاظ كما أشاد باحتفاله بتقابل المعاني أكثر من تقابل الألفاظ، وذلك حين يكرر في أكثر من موضع قوله: (وترى المطاييع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني).

وعند الحديث عن ابن أبي الإصبع، أبرز الفصل أن اهتمامه ببديع القرآن كان رد فعل لنفي الباقلائي فكرة الإعجاز عن طريق البديع، فعرض نظرتهم إلى الطباق والمقابلة، وتقريبه المعنى اللغوي للطباق من المعنى البلاغي، ونوه باهتمامه بالبديع القرآني، وبإثبات الذاتية له، ونفى العرضية عنه، وإن أخذ عليه مبالغته في هذا الجانب، ومساهمته بذلك في تمزيق أوصال البديع وتشيت شمله.

ثم تحدث هذا الفصل عن جهود الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) وعن إفاضته القول في الطباق والمقابلة، ومزجه بينهما حين كان يستشهد بأمثلة كل منهما للآخر.

وعرض الفصل لما أورده من المقابلات الخفية، كالمقابلة بين الماء والنار في قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمَّ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ وبين البياض والسواد في قوله تعالى ﴿ظَلٌّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، ووقف عند تفريعه المقابلة إلى مقابلة بين النظيرين، ومقابلة بين النقيضين، وثالثة بين الخلافيين وما ينتج عن ذلك من أشكال رباعية أو سداسية، وضحتها بالرسم لتقريبها إلى الفهم.

ولم ينس الفصل - كذلك - الإشارة إلى إirاده ألوانا جديدة من المقابلة في القرآن الكريم، كمقابلة خمسة ألفاظ بخمسة وستة وستة، على حين وقف السابقون عند مقابلة أربعة بأربعة في سورة الليل.

وختم هذا الفصل بالحديث عن نظرة المرحوم الأستاذ سيد قطب فأبرز أهم ما أضافه في هذا الجانب، وهو أن التقابل طريقة من طرق التصوير الذي هو الركيزة الأساسية في التعبير القرآني، وعرض لنماذج مما استخرجه سيد قطب من صور التقابل

في القرآن الكريم مشيراً إلى أنه قد أكثر من التطبيق العملي لذلك في تفسيره المشهور (في ظلال القرآن).

وفي نهاية الباب الأول عرضت للنتائج التي أمكن استخلاصها من هذا الجزء النظري من البحث والتي كان من أهمها التقاء التيارين النقدي البلاغي، والقرآني حول مفهوم المقابلة، حيث دار كلاهما حول معنى التضاد والمماثلة ومراعاة النظر، واقتراحهما من بعض الصور البديعية الأخرى كالعكس والتبديل والتقسيم واللف والنشر، وتأكيد كليهما أن ذلك يكون في المعاني أهم من الألفاظ.

أما الباب الثاني :- وهو الجزء التطبيقي من هذا البحث - فقد جاء في أربعة فصول هي على التوالي :

١- أسلوب المقابلة في القرآن المكي.

٢- أسلوب المقابلة في القرآن المدني.

٣- أسلوب المقابلة في القصص والأمثال القرآنية.

٤- مقابلات متميزة في القرآن الكريم.

وقد مهدت لهذا الباب بحديث يحمل عن الفرق بين موضوعات السور المكية والمدنية حيث اتجهت الأولى إلى بناء العقيدة، والثانية إلى إقامة النظام وتطبيق الشريعة، وإلى ما نشأ عن ذلك من اختلاف في أسلوب المقابلة في كل منهما.

اشتمل الفصل الأول من هذا الباب على أربعة مباحث هي :

١- المقابلة في الدعوة إلى التوحيد وتصحيح العقيدة.

٢- المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين.

٣- المقابلة في مشاهد القيامة.

٤- مقارنة بين المقابلة في مشاهد القيامة في السور المكية والمدنية.

ففي المبحث الأول وهو الدعوة إلى التوحيد بينت أنها ارتكزت على أسلوب المقابلة في صفات الله تعالى، وعلى المقابلة في عرض مشاهد الكون والنفس وذلك كالمقابلة بين كونه سبحانه خالق السماوات والأرض، المحيي المميت عالم الغيب والشهادة، وأوضحت المغزى الفني والديني من التقابل هنا، وهو الإيحاء بالقدرة المطلقة، أو التوبيخ والاستنكار، أو تأكيد جدية أمر الوجود والغاية منه، أو تأكيد البعث وتقريبه إلى الأذهان.

أما المقابلة في مشاهد الكون والنفس، فلا تكاد سورة مكية تخلو منها، وذلك كالمقابلة بين الليل والنهار والشمس والقمر. والحركة والسكون، وهي تأتي مرتبطة بالدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد المسيطر على هذه المظاهر المتقابلة في الطبيعة الكونية والبشرية.

وبينت أن المقابلة - وإن تكررت - إلا أنها في كل مرة تعطي جديدا وتتميز بمذاق خاص ومختلف.

كما عقدت مقارنة بين التعبير بأسلوب المقابلة في مشاهد الكون والنفس في السور المكية ونظيره في السور المدنية.

وفي المبحث الثاني وهو المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين. وضحت في البداية أن المقصود بخطابهم إنما هو الحديث إليهم والحديث عنهم على السواء، حتى ولو لم يكن بضمائر المخاطب المعهودة عند النحويين.

وقد جاء التعبير بأسلوب المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين في مواقف متنوعة كل منها يناسب طورا من أطوار النفس البشرية، أو حالة من حالاتها، وإنما تأتي لأغراض بلاغية تتمشى مع هذه الأطوار كالترغيب والترهيب، والإقناع العقلي، وإزالة ما قد يعلق بأفكارهم من الشك والتوجس، كما تأتي لإظهار الفرق بين صدور الكافرين وإعراضهم عن الدعوة وإقبال المؤمنين وتحمسهم لها.

أو للتهديد والوعيد. وقد أشار البحث هنا إلى أن المقابلات الواردة في هذا المجال إنما هي مقابلات في المواقف والنتائج، لا تقف عند حدود اللفظة الواحدة وما يقابلها، بل تشمل التقابل في الموقف العام بأكمله وأن ذلك مما تتميز به المقابلة في القرآن الكريم.

وفي المبحث الثالث من الفصل الأول من الباب الثاني تحدثت عن (المقابلة في مشاهد القيامة) فأوردت العديد من النماذج للمقابلة في مشاهد القيامة في مختلف المواقف، وبينت أن القرآن الكريم اعتمد في وصف يوم القيامة على أسلوب المقابلة، لأن يوم القيامة هو بحق يوم المقابلة حيث يقابل الإنسان عمله، ويواجه مصيره، ويتقابل ما أسره في نفسه مع ما أعلنه، ويتقابل التابعون المستضعفون مع الأقوياء المستكبرين، ويتقابل أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والأبرار مع الفجار، كما يتقابل المؤمنون متكئين على سور موضونة. فأسلوب المقابلة هو الأسلوب الأمثل لعرض هذه الصور.

ثم عقدت في المبحث الرابع مقارنة بين المقابلة في مشاهد القيامة في السور المكية ونظيرها في السور المدنية، وأظهرت وجه الخلاف بينهما مع التعليل.

أما الفصل الثاني من هذا الباب وهو بعنوان (أسلوب المقابلة في القرآن المدني) فقد عرض للمقابلة في خمسة مباحث هي :-

- ١- المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين.
- ٢- المقابلة في خطاب اليهود والمنافقين.
- ٣- المقابلة في آيات التشريع.
- ٤- المقابلة في مواقف الجهاد.
- ٥- المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك.

في المبحث الأول عرض البحث لنماذج للمقابلة في خطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم تهدف إلى توضيح مهمته وتبين طبيعة رسالته أو تؤدي غرضاً تعليمياً وأخلاقياً. كما عرض لنماذج منها في خطاب المؤمنين في مواقف متنوعة كالحث على التمسك بولاية الله أو التحذير من الردة. أو العتاب كما في حديث الإفك، أو لإظهار الفرق بينهم وبين غيرهم. ولم يغفل المبحث هنا عقد مقارنة بين أسلوب المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين في القرآن المكي ونظيره في المدني، مرجعاً الفرق بينهما إلى الفرق بين طبيعة الدعوة في كلا البلدين، ومهمة الرسول في كلتا الحالتين، فامتازت المقابلة في المكي بحدة النبر وغلبة العاطفة وفي المدني بالهدوء والاسترسال.

وفي المبحث الثاني عرض الفصل لنماذج من المقابلة في خطاب اليهود تدحض كذبهم، أو تحذرهم أو تبين جوانب من أخلاقهم.

كما عرض لنماذج منها في خطاب المنافقين تفضح نفاقهم، وزيف عقيدتهم وتحاذلهم في الجهاد، كما تصور الفرق بينهم وبين المؤمنين.

وفي المبحث الثالث تناول الفصل المقابلة في آيات التشريع من عبادات ومعاملات فأورد نماذج منها في تشريع الصلاة والحج وبناء الأسرة، وتحريم الخمر والربا وحد القذف والقصاص، ونماذج للمقابلة في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم.

وفي المبحث الرابع عرض البحث للمقابلة في مواقف الجهاد كالحث على الجهاد والترغيب فيه، وتبكيك المتأقلين والقاعدين ومنازل الشهداء، ومعاهدات الصلح.

وفي البحث الخامس عرض لها في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك، كآداب الزيارة والمجالس، ومحاربة الشائعات وآداب الصدقة، ورعاية اليتامى.

وفي كل هذه المواقف يعرض البحث للآية أو للآيات - موضوع المقابلة - بالتحليل فيسبين موطن المقابلة فيها، ويظهر الأثر البلاغي والهدف الديني من إثارة القرآن الكريم التعبير بأسلوب المقابلة في هذا الموقف بحيث لا يغنى غيره عنه.

أما الفصل الثالث فقد عالج المقابلة في القصص القرآني والأمثال القرآنية وعند حديثه عن المقابلة في القصص القرآني. بين السبب في اعتماد القرآن الكريم على القصة كطريقة من طرق التعبير، والسبب في عرضها بأسلوب المقابلة وهو تصوير الصراع بين الخير والشر، وبين دعوة الإيمان ودعوة الكفر وذلك بالتطبيق على نماذج من قصص قابيل وهابيل، وبعض الأنبياء كنوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، وأصحاب الكهف والقصص التعليمي وفي الحديث عن المقابلة في الأمثال القرآنية، عرض لنماذج منها في طائفة من الأمثال، كالمقابلة في مثل الشرك والتوحيد، ومثل نور الإيمان وظلمات الكفر، ومثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة.

وأكد البحث في ختام هذا الفصل على أن المقابلة في القصص القرآني إنما تأتي لهدف ديني هو العبرة والعظة، ولغرض فني هو غالباً - إظهار الصراع وإذكاؤه.

كما تأتي في الأمثال القرآنية لتؤدي دوراً هاماً هو إظهار التناقض بين النماذج موضع المثل لكي يختار الإنسان العاقل النموذج الطيب الصالح ويطرح غيره.

أما الفصل الرابع والأخير في هذا البحث، فقد خصص للحديث عن الجديد والطريرف في المقابلات القرآنية تحت عنوان (مقابلات متميزة في القرآن الكريم) عرضت فيه لنماذج اختص بها القرآن الكريم وجاءت مخالفة في الشكل والمضمون للمعهود عند البلاغيين، وهي نماذج لم يسبق أن عرضها أحد من الباحثين، فيما أظن. وذلك كالمقابلة بين مطلع سورتي النساء والحج، حيث تحدث مطلع الأولى عن بدء الخلق، وتحدث مطلع الثانية عن نهايته.

والمقابلة بين ما ورد في سورة الأنفال من ذكر للعهد وما ورد في سورة التوبة من نبذ لها. والمقابلة بين مطلع سورة (المؤمنون) وختمها، وبين مطلع سورة (يوسف) وختمها إلى غير ذلك من المقابلات الجديدة والطريرفة.

ثم ألحقت بهذا الفصل مبحثاً عن أهم خصائص المقابلة القرآنية والملاحم التي تميزها عن غيرها، لكي يستبين الفرق بين تصور البلاغيين للمقابلة وبين واقعها في القرآن الكريم.

وأما الخاتمة : فقد أجملت فيها ما في البحث من أفكار، وما توصل إليه من نتائج . وبعد .. فهذا هو البحث بين يدي القارئ لمناقشته والحكم عليه فإن أكن أصبت فما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وإن تكن الأخرى، فحسبي متعة القرب من روح القرآن الكريم ومعاشته طوال رحلة البحث والحمد لله أولاً وآخراً.

كمال عبد العزيز إبراهيم

بندر سري بجاوان - بروناي دار السلام

مَهْيَدٌ

لا يستطيع الباحث في لون من ألوان البديع أن يتناوله منعزلاً عن بقية الألوان البديعية الأخرى، وبخاصة تلك التي تدور في فلكه أو تتصل به من قريب. ولقد كثرت أنواع البديع عند المتأخرين من علماء البلاغة، وتداخلت فروعها بدرجة كبيرة، مع أنه بالإمكان ضم المتشابه منها ووضعها تحت مبحث واحد : وعلى سبيل المثال فإن صور المقابلة والمطابقة والتقسيم وإيهام التضاد والعكس والتبديل بينها جميعاً نسب ورحم، ويمكن إطلاق تسمية تنطبق عليها كلها نظراً لما بينها من صلة العموم أو الخصوص.

والباحث في المقابلة يجد نفسه - من حيث لا يدري - يتعرض للطباق ولكل لون بديعي قائم على التضاد أو المناظرة. ومن هنا، فإنني أرى أن أعرض للطباق قبل المقابلة، حتى نبين مقدار ما بينهما من صلة:

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي^(١) (١٠٠ - ١٧٠م) أول من تحدث عن المطابقة، وقد نقل عنه كل من ابن المعتز في البديع، وابن رشيق في العمدة ما قاله في المطابقة وهو أنها من (طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما)^(٢). وهو تعريف لا يخرج عن الإطار اللغوي لكلمة المطابقة، وهذا في رأيي ينسجم مع طبيعة معجم العين الذي وضعه الخليل بن أحمد. ولكن سيبويه (ت ١٨٠هـ) يمر على قول الخنساء :

(١) انظر الأعلام للزركلي : ٢ / ٣١٤، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠
(٢) انظر البديع لابن المعتز ٦٦١، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، وهو ملحق بكتابه ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ١٩٤٥م.
وانظر أيضاً : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني : ٢ / ٦ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجيل، بيروت : ١٩٧٢م.

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ فَأَيْنَمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
فيشير إلى ما فيه من المجاز في الإقبال والإدبار^(١)، ولكنه لا يلتفت إلى ما في البيت
من طباق بين (نسيّت) و (ادكرت) وبين (إقبال) و (إدبار) .

وأنسا أوافق الدكتور حفني شرف حين يلتبس له العذر في ذلك.^(٢) فسيبويه نحوي
بالدرجة الأولى، فإذا تكلم عن أشياء تتعلق بأسرار التراكيب، وأوجه الدقة في استعمال
الألفاظ، فإنما يأتي ذلك في سياق حديثه عن بعض قواعد الإعراب. فهو هنا يستشهد
بجواز الإخبار عن اسم العين بالمصدر، كقولك : هارك صائم، وليلك قائم.^(٣)

ويتعرض الأصمعي^(٤) (١٢٢ - ٢١٦ هـ) لمعنى المطابقة وأصل الكلمة، فينتقل بها
خطوة من المعنى اللغوي إلى المعنى البلاغي حين يقول: (أصلها وضع الرجل في موضع
اليد في مشى ذوات الأربع، وينشد لنا بغي بني جعدة :

وَخَيْلٌ يُطَابِقْنَ بِالذَّارِعَيْنِ طِبَاقَ الْكِلَابِ يَطَّانَ الْهَرَّاسَا

كما يستحسن الطباق بين الصدق والكذب في بيت زهير :

لَيْثٌ بَعَثَ يَصْطَاذُ الرِّجَالِ إِذَا مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا^(٥)

ويمكن أن نستنتج من كلام الأصمعي، ومن استحسانه لبيت زهير أن المطابقة عنده
تعني الجمع بين الشيء وضده في الكلام.

أما معاجم اللغة المتداولة بين أيدينا، فيفهم من التحليل اللغوي فيها لمادة الطباق أنها
تعني : الموافقة والمساواة في المقدار.

فهذا الراغب الأصفهاني^(٦) (ت ٥٠٢ هـ) في كتابه (المفردات في غريب القرآن)
يستشهد بآيات من كتاب الله تعالى يفهم منها هذا المعنى، مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾^(٧)

(١) انظر الكتاب (كتاب سيبويه) أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنير : ١ / ٣٣٧ تحقيق : عبد
السلام هارون، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٧.

(٢) انظر الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، للدكتور : حفني شرف ١ / ١١٠، ط ١، مكتبة
الشباب، القاهرة، ١٩٦٦.

(٣) كتاب سيبويه : ١ / ٣٣٧.

(٤) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٤ / ١٦٢، ط ٥، بيروت، ١٩٨٠.

(٥) انظر العمدة : ٢ / ٦.

(٦) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٢ / ٢٥٥.

(٧) (٥) الملك : ٣

أي بعضها فوق بعض كما يستشهد بقول الشاعر :
إِذَا لَازَ الظِّلُّ الْقَصِيرُ بِخُفِّهِ وَكَانَ طِبَاقَ الْخُفِّ أَوْ قَلَّ زَائِدًا
ومن ذلك قولك: جواب يطابق السؤال.^(١)

وعلى درب الموافقة والمساواة في المقدار سار ابن منظور^(٢) (ت ٧١١هـ) في
(لسان العرب)، فهو يذكر أن (المطابقة: الموافقة) وأن (التطابق: الاتفاق) يقال: طابقت
بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألصقتهما وتطابق الشيئان: تساويا.

وهو ينتصر لهذا الرأي بما يورده من كتاب علي رضوان الله عليه إلى عمرو بن
العاص " كما وافق شئٌ طبقةً " محلا هذا القول بأنه مثل للعرب يضرب لكل اثنين أو
أمرين جمعتهم حالة واحدة اتصف بها كل منهما، وأصله أن (شنا) و (طبقة) : حيان
من أحياء العرب، اتفقا على أمر، فقليل ذلك.

وقيل إن (شنا) رجل من دهاة العرب، و (طبقة) امرأة من جنسه، زوجت منه.
كما إن المطابقة عند ابن منظور تعني - أيضا - (وضع الفرس رجله في موضع
يده)، وهو يستشهد على ذلك بقول النابغة الجعدي السابق :

وَخَيْلٍ يُطَابِقْنَ بِالْدَّارِعِينَ طِبَاقَ الْكِلَابِ يَطَانُ الْهَرَّاسُ^(٣)

ولا يبتعد (المعجم الوسيط) كثيرا عن معنى الموافقة حين تحدث عن الطباق من
الناحية اللغوية، فـ (أطبق القوم على كذا : اجتمعوا عليه متوافقين وأطبقت عليه
الحمى: استمرت به الليل والنهار، وقد قالوا: أطبق الرحي: وضع الطبق الأعلى على
الأسفل، وأطبق فمه : ضم شفة إلى شفة وأغلقه، وأطبق الصحيفة، أو طرفي الصحيفة:
ضمهما وسواهما، وطابق الفرس في مشيه أو جريه مطابقة وطباقا : وضع رجله موضع
يديه.^(٤)

والذي يظهر مما سبق أن المعنى اللغوي للطباق غير المعنى الاصطلاحي البلاغي الذي
يكاد يجمع عليه البلاغيون، فهو عندهم: (الجمع بين الضدين).

(١) انظر مادة (طبق) في (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني تحقيق وضبط : محمد سيد
كيلاني، ط : دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ١٠٨ / ٧.

(٣) انظر مادة (طبق) في (لسان العرب) لابن منظور، تحقيق مجموعة من أساتذة دار المعارف، ط :
دار المعارف، مصر.

(٤) انظر المعجم الوسيط مادة (طبق): ٢ / ٥٥٠، ط ٢، مجمع اللغة العربية، دار المعارف، ١٩٧٣.

ولذلك يذهب بعض الأدباء كابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) إلى أن تسمية هذا الضرب من الكلام مطابقا (من جانب أرباب هذه الصناعة). إنما كان لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه.^(١)

وفهم من كلامه التعجب من عدم انسجام الاشتقاق اللغوي للكلمة مع ما أجمع عليه البلاغيون تقريبا من أن الطباق هو (الجمع بين الضدين).

ونحن نتعجب معه ونتساءل: كيف يمكن أن ينصرف معنى الموافقة إلى التضاد؟ وكيف ينتقل الشيء إلى نقيضه؟ وقد حاول ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٥٦هـ) في (العمدة) أن يجيب على هذا التساؤل بأن البلاغيين ربما اعتمدوا على ما ذكره الأصمعي من أن المطابقة في الشعر أصلها من وضع الرجل في موضع اليد في مشى ذوات الأربع، منشدا بيت النابغة الجعدي السابق (وخيل يطابقن...) حيث شبه الجعدي مشى الخيل بوطء الكلاب المهراس، وهو حطام الشوك فهي لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت منه أيديها طلبا للسلامة، وذلك على اعتبار أن الرجل غير اليد أو عكسها.^(٢)

على أن ابن أبي الأصبع المصري^(٣) (٥٩٥ - ٦٥٤هـ) في كتابه (تحرير التحبير) لا يتركنا في هذه الحيرة، بل يأخذ بيدنا في تودة ورفق إلى تعليل لطيف لانتقال المعنى اللغوي وهو (الموافقة) إلى المعنى البلاغي وهو (التضاد) في المثال السابق، وهو أن البلاغيين رأوا أن البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطئ واحد، والرجل واليد ضدان أو في معنى الضدين، فكذا ذلك إذا جمع المتكلم بين الضدين، حسن أن يسمى كلامه مطابقا.^(٤)

(١) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٢٧٩، ط ١، الحلبي، مصر، ١٩٣٩.

(٢) العمدة لابن رشيق : ٢ / ٦، ٧

(٣) انظر ترجمة عنه في : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩هـ، مجلد ٥، ٦ / ٢٦٥، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت - والأعلام : ٤ / ٣٠.

(٤) انظر (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع : ١١١، تحقيق المرحوم الدكتور : حفني شرف ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٣.

ولا يستبعد ابن قيم الجوزية^(١) (ت ٧٥١هـ) أن يكون البلاغيون قد (سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة، لا اشتقاق لها ولا مناسبة). وهذا هو الظاهر من الأمر في رأيه، لكنه لا يستبعد أيضا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم.^(٢)

ولست أوافق ابن القيم على أي من الاحتمالين، فالعرب لا تطلق الكلام هكذا على عواهنه، دون بصر بمراميها، وإدراك لأسرارها، ولا تسمى الأشياء بأسماء مرتجلة لا اشتقاق لها، لأن اللغة العربية من أغنى لغات العالم اشتقاقا، وأغزرها تنوعا.

أما الاحتمال الثاني، وهو أن البلاغيين ربما علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم، فهو احتمال غير وارد بالمرة، لأن البلاغيين والنقاد، وسائر العلماء، لم يكتفوا عنا علما تعلموه ولم يخفوا عنا سرا من الأسرار فقهوه.

كيف ؟ وكتبهم مليئة بالكنوز والنفائس التي كانوا يتبارون في إشاعتها بين الناس، ويتفننون في تسجيلها وتوثيقها، وتناقلها جيلا بعد جيل.

ولكني في النهاية، أميل إلى محاولة ابن رشيق : التوفيق بين المعنى اللغوي وهو (الموافقة) والمعنى الاصطلاحي وهو (التضاد)، والذي يستنصر فيه برأي الرماني^(٣) في المطابقة، حين عرفها بأنها: (مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان)^(٤).

فهذا القول مشتمل على المعنيين جميعا، فعندما يجعل الطباق فوق الإناء يكون مساويا له في السعة، ولكنه مخالف له في النوع، وعلى هذا يفسر قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(٥)

(١) هو الإمام العالم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية ت ٧٥١هـ : شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي : ٦ / ١٦٨، دار الآفاق الجديدة - بيروت.

(٢) انظر كتاب (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) لابن القيم : ١٤٦، ط : مكتبة المتنبي - القاهرة، وقد صحح الدكتور زكريا سعيد نسبة هذا الكتاب واسمه فنسبه إلى ابن النقيب وطبعه في مكتبة الخانجي بمصر تحت عنوان (مقدمة تفسير ابن النقيب).

(٣) الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى) (٢٩٦ - ٣٨٤هـ)، نحوى متكلم، وأحد أئمة المعتزلة المشهورين صاحب رسالة (النكت في إعجاز القرآن) محققة ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله، والدكتور : محمد زغلول سلام. وانظر ترجمة عن الرماني في الأعلام : ٤ / ٣١٧، ووفيات الأعيان، ٢٩٩ / ٣.

(٤) العمدة : ٢ / ٦.

(٥) الملك : ٣

أي بعضها فوق بعض، مطبقة بالتساوي، وإن كانت كل سماء تختلف عن غيرها. وأود أن أضيف إلى ما قاله الأصمعي في بيت النابغة الجعدي السابق : أن الخيل تطابق رجلاها يديها وهي مسرعة بالفرسان المدرعين، فتضع رجلها مكان يديها بالضبط والتساوي، كما تفعل الكلاب، وهي تطأ حطام الشوك طلبا للسلامة، ووضع الرجلين موضع اليدين بالتساوي هو الموافقة، لكن التضاد وارد في نفس الوقت، لأن الرجلين عكس اليدين أو غيرهما.

ويؤكد ذلك ما ورد في كتاب الأضداد لابن الأنباري أن بعض أهل اللغة يذكرون أن الضد يقع على معنيين متضادين، ومجراه مجرى (الند)^(١) يقال فلان ضدي أي خلافي، وهو ضدي أي مثلي.^(٢)

فإذا انتقلنا بعد ذلك للبحث في معنى المقابلة في اللغة، وجدنا بينها وبين الطباق صلة كبيرة.

لقد رأينا الطباق ينصرف إلى التضاد، كما ينصرف أيضا إلى التوافق. وكذلك المقابلة في اللغة : يظهر فيها جانب التضاد، كما يظهر فيها أيضا جانب التوافق والاتلاف.

ففي جانب الائتلاف والاتفاق والتناظر، نرى الراغب الأصفهاني في (المفردات في غريب القرآن) يؤكد هذا المعنى بما يستشهد به من آيات القرآن الكريم. فالمقابلة والتقابل : أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات وإما بالعناية والتوفر والمودة، قال تعالى:

﴿ مُتَكِيْن عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ﴾^(٣) و ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾^(٤)،

(١) فقد ذكر في موضع آخر أن الند يقع على معنيين متضادين يقال : فلان ند فلان إذا كان ضده، وفلان نده إذا كان مثله، ص ١٩.

(٢) انظر : الأضداد في اللغة، محمد بن القاسم ابن بشار الأنباري النحوي : المطبعة الحسينية، القاهرة.

(٣) الواقعة : ١٦.

(٤) الحجر : ٤٧.

ويفهم معنى التوافق هنا من كون أهل الجنة المتقابلين على السرر أو الأرائك لا بد أن يكونوا متساوين في الدرجة والمزلة وصالح الأعمال، وإلا لما اجتمعوا في مكان واحد.

وفي جانب المضادة والمواجهة، يستدل الراغب على دلالة المقابلة على ذلك بقوله (يقال : لا قَبْلَ لي بكذا، ويقول تعالى ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَا قَبْلَ لَهُم بِهَا ﴾^(١)) أي لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها).

ويستأكد معنى المواجهة والمضادة من تقليب الفيروزابادي^(٢) (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) لمادة (قبل) على وجوها متعددة في القاموس المحيط، فعنده أن (قبل) نقيض (بعد)، و (قُبَالَتِه) بالضم: (تجاهه)، و (القَبْل) محرّكة: نشز من الأرض يستقبلك، و (قابله): (واجهه) و (قابل الكتاب): (عارضه)، و (تقابلا): (تواجهها).^(٣)

ويفهم من ذلك أن المقابلة لغويا تعني : المواجهة بين شيئين، فالقَبْل يواجه البعد، ومقابلة الكتاب بغيره تعني : المواجهة بينهما والبيوت المتقابلة : أي التي يواجه بعضها بعضا.

ومما يحمّد لابن منظور في (لسان العرب) أنه يتوسع في التمثيل للمقابلة بمعنى المواجهة، لتشمل المقابلة في الألفاظ والأشخاص وفي المواقف، بل وفي جميع الحالات المادية والمعنوية.

وهذا التوسع اللغوي من ابن منظور له أهمية كبرى في بحث المقابلة في القرآن الكريم، فإنها - على ما سنرى - تتسع لتشمل ما ذكر ابن منظور وأكثر.

وقد مثل ابن منظور للمقابلة بين الأشخاص بقوله : تقابل القوم : استقبل بعضهم بعضا، ويفسر قول الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾^(٤)، أي لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض ويمثل للمقابلة بين الإنسان والجّمداء بقوله : أقبله الشيء: قابله به، وأقبلته الشيء: أي جعلته يلي قُبَالَتِهِ، ويقال : أقبلنا الرماح نحو القوم.

(١) النمل : ٣٧.

(٢) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ٧ / ١٤٦.

(٣) القاموس المحيط: محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيزاوي، ط ٢، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة - ١٣٤٤ هـ.

(٤) الحجر : ٤٧.

كما يقابل الكلمة بالكلمة، مستشهدا بقول اللحياني : هذه كلمة قبال كلمتك، كقولك حيال كلمتك. ويقابل بين الأشياء : فيقول أخذت الأمر بقوابله : أي بأوائله وحدثانه.

والمقابلة : المواجهة، والتقابل مثله، وهو قبالك وقبالتك أي تجاهك. ويستشهد بالشعر على أن الرجل الكريم الطرفين من قبل أبيه وأمه يسمى (رجل مقابل ومدابر). فهذا شاعر يفتخر بكرم نسبه فيقول :

إِنْ كُنْتُ فِي بَكْرٍ تَمَّتْ خُثُولُهُ فَأَنَا الْمَقَابِلُ فِي ذَوِي الْأَعْمَامِ

ويقال : هذا جاري مقابلي ومدابري، وأنشد :

حمتك نفسي مع جاراتي مُقَابِلَاتِي وَمُدَابِرَاتِي

ولا نجد في المعجم الوسيط اختلافا كبيرا عما سبق في معنى المقابلة، فقابله : لقيه بوجهه، والقبال : أن يتقابل صدرا القدمين ويتباعد عقباهما، ورأيته قبلا : أي عيانا. ونستخلص مما سبق في معنى الطباق والمقابلة في اللغة : أنهما يشتركان في التضاد والمواجهة والمقابلة.

كما أن معنى المساواة في الطباق، لا يبعد كثيرا عن مراعاة النظير والتماثل بين الشئين المتقابلين في المقابلة.

ومن هنا يمكن القول بأن المصطلحين يدوران في فلك واحد وأنه لا مانع من الجمع بينهما في مبحث واحد، وإطلاق اسم المقابلة عليهما معا لأن في هذا الجمع ما يحفظ لبعض الألوان البديعية وحدتها ويحميها من الشتات، ويصونها من التمزق الذي أصابها ضمن ما أصاب البلاغة العربية عموما.

ولدينا من الأسباب - التي نظنها مقنعة - ما يحفزنا إلى هذا الجمع بين الطباق والمقابلة، ويجعلنا ندرسهما في إطار واحد، بل ونضيف إليهما - أيضا - ما يدور في فلكهما كالعكس والتبديل وإيهام التضاد والتقسيم^(١) ومن هذه الأسباب :

(١) العكس والتبديل : أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر مثل قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ وإيهام التضاد : مما يلحق بالطباق كقول دعبيل : لا تَعْجَبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحَكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى لأن الضحك هنا كناية عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة. والتقسيم : ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل على التعمين وهو أنواع كثيرة، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ .. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا .. ﴾ الخ الآيات) انظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني من (١٩٥ - ٢٠٥) ط : محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٧١.

(١) أنه لا يمكن الفصل بين علوم البلاغة من معان وبيان وبديع فصلا جازما، فعلم المعاني يهتم كما يقول المتأخرون (بصحة المعنى، ويحترز به عن الوقوع في الخطأ^(١)) ومن ثم فهو معنى بالإسناد وأحواله وبمتعلقات الفعل وبالفصل والوصل... إلى آخر الأبواب التي تسهم معرفتها في الأداء الصحيح للمعنى.

وعلم البيان (يهتم بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالتشبيه والاستعارة والكساية والمجاز^(٢)). وهي الطرق التي يلجأ إليها الأديب لإبراز المعنى في صورة مجسمة محسوسة.

وعلم البديع (يهتم بوجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال^(٣)). أقول: إذا كانت تلك هي اهتمامات علوم البلاغة، بهذا التقسيم المفتعل، فإن الثلاثة - في مجموعها - تكون الأسلوب الذي هو طريقة الأديب في التعبير عن نفسه في تناوله لموضوع ما أو قضية من القضايا، ولا بد أن يعبر الأديب عن المعنى الذي يدور في ذهنه بعبارة موحية عما يشعر به، مصورة لأحاسيسه، وبألفاظ مُشعَّة بما استَكَنَّ في أعماقه، بحيث تخرج العبارة في النهاية غير قابلة للتجزئة إلى معنى وصورة ولفظ بل تبدو متماسكة حية ونابضة يتعاون في حياتها الشكل والجوهر.

ومن هنا، فإن البلاغة الحديثة تطرح هذا التقسيم القلم جانباً، وتدرس ما يسمى بعلم الأسلوب بما يشتمل عليه من عناصر تتضافر جميعها في عملية التأثير في نفس الملتقى عن طريق ما أحس به الأديب نقلاً صادقاً وأميناً^(٤).

(٢) أن علم البديع نفسه قد تشعبت فروعها، وتعددت ألوانه لدرجة تدعو إلى العجب، حتى أن ابن أبي الأصبع أوصل عدد المحسنات إلى مائة واثنين وعشرين محسناً^(٥).

(١) الإيضاح للقزويني ٩.

(٢) نفسه : ١٢٠.

(٣) نفسه : ٩.

(٤) انظر الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية : الفصل الخامس ص ٣٦، الأستاذ أحمد الشايب، ط ٦، النهضة المصرية، ١٩٦٦.

(٥) انظر: (بديع القرآن) لابن أبي الأصبع: ٨٧، تحقيق: د. حفني شرف، ط ٢، دار نهضة مصر، ١٧٥٧.

ويكفي دليلا على هذا التمزق والتشتت أن ابن أبي الأصبع يباهي بأنه استطاع أن يجمع في بيت واحد من تأليفه ستة عشر ضربا من البديع، وهو البيت الذي يمدح به الملك الأشرف موسى الأيوبي، ويقول فيه :

فَضَحَّتَ الْحَيَا وَالْبَحْرَ جُودًا فَقَدْ بَكَى الْـ حَيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالتَّطَمَّ الْبَحْرُ

فهو يعلق على هذا البيت قائلا : وقع لي فيه ستة عشر ضربا من البديع :

ففيه الاستعارة في ثلاثة مواضع :

١- افتضاح الحيا ٢- وبكائه ٣- وحيائه

٤- والمبالغة : إذ جعلت الممدوح يفضح الحيا والبحر بجوده.

٥- والتفسير : في قوله (جودا) و (حيا) .

٦- والاغراق : لما في جملة القوافي من زيادة.

٧- والترشيح : بذكر الاستعارة الأولى للاستعارة الثانية.

٨- والتجنيس : بين الحيا والحياء.

٩- والتورية : في قوله (التطم البحر) .

١٠- والترشيح للتورية : بذكر البكاء.

١١- وصحة التقسيم : في حصر القسمين اللذين يضرب بهما المثل في الجود ولا

ثالث لهما.

١٢- والتصدير : في كون البحر مذكورا في صدر البيت وهو في قافيته.

١٣- والتعليل : في كون العلة في بكاء الحيا والتطام البحر وفضحهما بجوده.

١٤- والتسليم : في كون صدر البيت يدل على عجزه.

١٥- وحسن النسق : في كون جملة عطفت على بعضها بأصح ترتيب.

١٦- والإرداف : في التعبير عن عظم الجود ببكاء الحيا من الحياء والتطام البحر^(١)

ولعمري : لئن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على مقدار التكلف والتصنع لا غير.

(٣) وثالثا وهو الأهم : ما وجدته من خلط بعض علماء البلاغة بين الطباق

والمقابلة والتجنيس والعكس والتبديل، ومن إدخال بعضهم كل هذه الألوان تارة في

الطباق، وأخرى في المقابلة.

(١) انظر : ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة / ٣٢، دكتور : حفي شرف، ط ١، مكتبة

نخضة مصر.

فهذا قدامة بن جعفر^(١) (٢٦٥ - ٣٣٧هـ) في كتابه (نقد الشعر^(٢)) يضم المطابق إلى المجانس باعتبارهما داخلين في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، ولا يفرق بينهما إلا أن الأول: معنيان اشتركا في لفظة واحدة بعينها مثل قول زياد الاعجم :

وَبُتُّهُمْ يَسْتَصِرُّونَ بِكَاهِلٍ وَلِلُّومِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنَامٌ

والثاني : معان اشتركت في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق مثل قول حيان بن ربيعة الطائي :

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ أَنَّ قَوْمِي لَهُمْ حَدٌّ إِذَا لُبِسَ الْحَدِيدُ

ولسنا نرى فيما استشهد به قدامة سوى جناس تام في البيت الأول بين (كاهل وكاهل) وجناس ناقص في البيت الثاني بين (حد وحديد).

وفي الوقت نفسه نرى قدامة يعرف التكافؤ تعريفا ينطبق على الطباق عند غيره من العلماء، ويستشهد له بأمثلة يستشهد بها غيره للطباق.

فالتكافؤ عنده (الجمع بين معنيين متكافئين أي متفاوتين إما من جهة المضادة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل^(٣)).

وما سماه قدامة (التكافؤ) اعتبره ابن أبي الأصبع ضربا من الطباق يحمل نفس الاسم وهو (ما أتى بالألفاظ المجاز^(٤)).

واشترك الاثنان في التمثيل لذلك يقول أبي الشغب العبسي :

حُلُوُّ الشَّمَائِلِ وَهُوَ مُرٌّ بَاسِلٌ يَحْمِي الدَّمَارَ صَبِيحَةَ الْإِرْهَاقِ

وذهب كل منهما مذهبه في تفسير موطن الشاهد وهو (حلو ومر).

وهذا ابن سنان الحفاجي (٤٢٢ - ٤٦٦هـ) في (سر الفصاحة) يطلق لفظ المطابق على المقابلة، وعلى العكس والتبديل، وكل ما فيه تقابل أو تضاد.^(٥)

(١) انظر الأعلام : ١٩١ / ٥ .

(٢) انظر نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر: (١٦٢ - ١٦٣)، تحقيق كمال مصطفى، ط ٣، الخانجي، مصر، ١٩٧٨ .

(٣) نقد الشعر : ١٤٣ .

(٤) انظر تحرير التحيير : ١١١ .

(٥) انظر: سر الفصاحة، لابن سنان الحفاجي: ١٩٣ شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، ط صبيح، ١٩٦٩ .

وعلى العكس من ذلك يرى ابن الأثير أن (الاليق من حيث المعنى إطلاق اسم المقابلة على المطابقة^(١)).

بينما يمزج ابن وهب^٢ وابن رشيق^٣ المقابلة بالتقسيم والطباق.

من هذا وغيره، مما سنراه بالتفصيل بعد ذلك - يحق لنا أن نمزج بين هذه الألوان، ونفسح لها المجال في هذه الدراسة، حتى نخرج في النهاية بمفهوم موحد يجمع بين هذه الألوان - قدر الإمكان، دون تعسف - لعل هذا المفهوم يستوعب ظاهرة التقابل أو المقابلة في القرآن الكريم.

(١) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين) : ٢ / ٢٨٠.

(٢) انظر : البرهان في وجوه البيان لابن وهب: ١٣٩، تحقيق الدكتور: جفني شرف، ط: مكتبة الشباب بالقاهرة، وقد نسب هذا الكتاب حيناً من الدهر - على سبيل الخطأ - إلى قدامة باسم: نقد النشر.

(٣) انظر (العمدة في محاسن الشعر ونقده) لابن رشيق القيرواني: ٢ / ١٥، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجليل، بيروت - ١٩٧٢.

الباب الأول

مفهوم المقابلة

الفصل الأول

المقابلة عند النقاد والبلاغيين

سوف أحاول في هذا الفصل توضيح رأى النقاد والبلاغيين في المقابلة، لنقف على مدى التطور الذي لحق هذا اللون البديعي، ولنتعرف على نظرهم إليها : هل هي عندهم عنصر أساسي وهام في البنية الفنية للعبارة؟ أم عرض يجلب للزينة الشكلية فقط؟ وسوف أحاول - قدر الإمكان - الالتزام بالترتيب التاريخي، تمشياً مع المنهج العلمي المطلوب لمثل هذه الدراسة.

١- الجاحظ^(١) (ت ٢٥٥ هـ)

إن الناظر في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ أو في (رسائل الجاحظ) لا يكاد يعثر على تعريف - يشفى الغلة لمعنى المطابقة أو المقابلة.

فهو إذ يتحدث عن (التطبيق) فإنما يعني به (إصابة الكلام الغرض المسوق له^(٢)). وواضح أن التطبيق بهذا المعنى، إنما ينسجم مع معنى البيان والتبيين ومعنى الفصاحة والبلاغة، وهي الأمور التي انصب عليها اهتمام الجاحظ فيما يبدو.

والتطبيق بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له غاية لا وسيلة، فهو بهذا لا ينطبق على ما عرف في علم البديع بالجمع بين الضدين.

٢- ثعلب^(٣) (٢٠٠ - ٢١١ هـ)

فإذا انتقلنا إلى عصر التأليف البلاغي في البديع، وجدنا الرائد في هذا المجال هو (ثعلب) صاحب كتاب قواعد الشعر (الذي يعتبر أول محاولة مستقلة لدراسة بيان

(١) الأعلام : ٥ / ٧٤

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر) : ١ / ٨٧ تحقيق الأستاذ: عبد السلام هارون، ط ٤، الخانجي، مصر - ١٩٧٥

(٣) (ثعلب) هو: أحمد بن يحيى الشيباني أبو العباس - ٢٠٠ - ٢١١ هـ. ومن مؤلفاته المجالس، ومعاني القرآن، وقواعد الشعر، انظر الأعلام : ١ / ٢٦٧

الشعر وصلت إلينا بعد أن ظل الناس يعتقدون أن كتاب " البديع " لابن المعتز يحوز هذا الفضل وحده^(١) فعلى الرغم مما ذكره ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) في (البديع) من قوله: (ما جمع فنون البديع غيري، ولا سبقني إليها أحد^(٢)) فإنه يبدو أن " ثعلبا " سابق له بتأليفه كتاب (قواعد الشعر) هذا الكتاب الذي تناول فيه قواعد الشعر وأغراضه، وبعض الألوان البلاغية الأخرى كالإفراط في الإغراق، ولطافة المعنى، والاستعارة، وحسن الخروج وجزالة اللفظ، واتساق اللفظ.

وعندما تحدث عن (المطابق^(٣)) عرفه بأنه تكرير اللفظ بمعنيين مختلفين، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾^(٤).
وقول حسان :

إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قَتَلْتُ قَتَلْتُ فَهَاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ

ونحن نرى أن هذا التعريف وتلك الشواهد لا تنطبق على (الطباق) بمعنى (المساواة أو التضاد) بل تنطبق على ما عرف عند البلاغيين بالجناس.

لكن (ثعلبا) وهو يتحدث عن (مجاورة الأضداد^(٥)) في الشعر عرفها ومثل لها بما يتفق وما عرف عند البلاغيين بالطباق، فهي عنده (ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده) كقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾^(٦) وكقول الشاعر : حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ يصف ذئبا :

ينام بإحدى مقتلتيه ويتقى الـ — عدو بأخرى فهو يقظان هاجع

فإن الطباق ظاهر بين الموت والحياة في الآية وبين يقظان وهاجع في البيت.

(١) أثير القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام : ٢٠،

ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦١

(٢) انظر: البديع لابن المعتز: ٢١٠ ملحق بكتاب: (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان)

تأليف: محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٤٥

(٣) قواعد الشعر، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب: ٦٤، تحقيق الدكتور: رمضان عبد التواب،

ط ١، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦

(٤) الحج : ٢

(٥) قواعد الشعر : ٦٢

(٦) طه : ٧٤

وبذلك تكون المطابقة هي مجاورة الأضداد عند ثعلب، ويكون الطباق عنده هو الجنس عند البلاغيين.

وهذا يوحى بتداخل المصطلحات وعدم تحديدها عنده، وهو شيء طبيعي في بداية التأليف. ولم يتحدث ثعلب عن المقابلة بقليل أو كثير.

٣- ابن المعتز^(١) (ت ٤٩٦هـ)

لكن ابن المعتز - وإن سبق بثعلب - لم يتناول هذا الفن من الوجهة النظرية البحتة التي تتسم غالبا بالجباف، وإنما استخدمه كثيرا في شعره، ولا غرو فهو الأمير الشاعر. وبالإضافة إلى ذلك، وجدناه ينظر للبديع في كتابه المسمى (البديع) وقد ألفه كما يقول: (ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم. وإنما غرضه من هذا الكتاب: تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع^(٢)).

وقد عد ابن معتز (المطابقة) ضمن فنون البديع الخمسة، وهي الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي^(٣).

وقد تحدث عن المطابقة حديث السابقين، فأورد ما قاله الخليل والأصمعي، ولكن الجديد عنده هو كثرة الشواهد التي اختارها بعناية.

وقبل أن نورد تلك الشواهد، يهمننا أولا أن نورد طائفة من شعره هو: لنرى كيف أجاد استخدام المقابلة ولم تكن عنده مجرد حلية لفظية، بل (كانت فنا ساحرا وجمالا، لا ينقصه شيء من الروح والحياة، وقل أن تجد في شعره طباقا نافرا غير مقبول^(٤)).

تأمل معي روعة تلك المطابقات التي توشى شعره بالسحر والجمال، وتملؤه حيوية وحركة، وتعبر عن صدق شعوره، ومقدار ما يعانيه من وجد وصباة تجاه من يحب : إنه يطابق بين النوم واليقظة والسهر والرقاد والقيام والقعود، والظلام والنور، والحزن

(١) انظر ترجمة عنه في الأعلام : ١١٨ / ٤

(٢) البديع لابن المعتز (المقدمة) وقد نشر هذا الكتاب للمرة الأولى المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشوفسكي سنة ١٩٣٥م، ثم شرحه وعلق عليه ونشره : محمد عبد المنعم خفاجي وألحقه بالدراسة القيمة عن ابن المعتز، في كتاب يحمل اسم (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان) ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م

(٣) المرجع السابق: ٥٧٤ - ٥٧٥

(٤) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان: ٢٧٢

والسرور، والحسنات والذنوب، والحبس والإطلاق، كل ذلك في سلاسة وعذوبة، ودون أدنى تكلف، والأبيات من قصائد مختلفة^(١) :
يقول :

أَبْصَرْتُهُ فِي الْمَنَامِ مُعْتَذِرًا إِلَيَّ مِمَّا جَنَاهُ يَقْظَانَا

ويقول :

سَهَرْتُ لَيْلًا أَرْقَاهُ حَظُّ الْحُسُودِ كَمَدُّهُ
يَا مِنْ عَنَانِي جَسَدُهُ يُقِيمُهُ وَيُقْعِدُهُ

ويقول :

وَشَعْرُهُ مِنْ ظَلَامٍ وَوَجْهُهُ مِنْ نُورٍ

ويقول :

سَاءَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَسَرَّتْ مَرَّةً فَأَرَاكَ مِنْ حَسَنَاتِهَا وَذُنُوبِهَا

ويقول :

حَبَسْتُ بِهَا لَحْظِي وَأَطْلَقْتُ عُبْرِي وَمَا كَانَ لِي فِي الصَّبْرِ لَوْ كَانَ لِي عُذْرُ
وكما حفل شعره بالطباق الجميل، حفل أيضا بالمقابلة (وهي مع صعوبتها الفنية تجئ في شعر ابن المعتز جميلة رائعة، ساحرة وبلغية، تحوز من القارئ والسامع الإعجاب والثناء^(٢)).

فنراه يعبر عن تشاؤمه من المستقبل، وأسفه على لذائذ الماضي يقوله مقابلا بين الماضي السعيد والمستقبل المر :

فَأَمَامِي الْمُرُّ مِنْ عُمْرِي وَوَرَائِي مِنْهُ مَا طَابَا

ويصف طبائع الناس في عصره: يبالغون في التملق والزلفى للشخص إذا أترى وامتلاً كيسه، وينصرفون عنه حين يقل ماله:

إِذَا مَا قَلَّ مَا لِي قَلَّ مَدْحِي وَإِنْ أَثَرَيْتُ غَالُوا فِي امْتِدَاحِي

ويفتخر بقوته وشجاعته وإنكاره لذاته، في مقابلة لطيفة، فيقول:

أَنَا جَيْشٌ إِذَا غَدَوْتُ وَحِيدًا وَوَحِيدٌ فِي الْجَحْفَلِ الْجَرَّارِ

كما يظهر تأثره بالقرآن الكريم في قوله:

(١) انظر ديوان ابن المعتز : لعبد الله بن المعتز الخليفة العباسي صفحات ٤٢٧، ١٥٨، ٢٢٨، ٦١،

٤٠، ١٣٩، ١٩٧، ٤٧١

(٢) ابن المعتز وتراثه : ٢٧٣

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جَرَّ أَمْرًا تَرْتَجِيهِ
خَفِيَ الْحُبُّ مِنْهُ وَبَدَأَ الْمَكْرُوهُ فِيهِ

ولعله في هذا متأثر بقول الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١).
وبقوله جل شأنه: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(٢).

أما الشواهد التي أوردتها، فإنه ينتقيها بعناية فائقة من عيون الشعر العربي، ودرر المأثورات العربية، وهو يختارها اختيار الفنان القدير والناقد البصير ولكنه نادرا ما يعلق عليها، ربما لشدة وضوحها وعدم خفاء موطن الشاهد فيها.

ولكن الذي نلاحظه على معظم هذه الشواهد، أنها تصلح للمقابلة بمعناها العام. مع أنه يوردها تحت اسم المطابقة، ونستنتج من ذلك أن ابن المعتز لا يرى فرقا جوهريا بين الطباق والمقابلة، فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: (إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع) يستشهد به ابن المعتز للمطابقة^(٣)، مع أنه مقابلة بين حالتين للأنصار: فهم ينفرون جميعا في كثرة كاثرة إذا دعا داعي الجهاد، فلا يكاد يتخلف منهم أحد، ولكنهم وقت توزيع الغنائم، وحيث تظهر الأطماع، لا تكاد تراهم في هذا الوقت تعففا وكرما^(٤).

ومثل ذلك ينطبق على ما استشهد به من قول عيسى بن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتلى في رحله: (إن ذهب أهوئك علينا فقد بقي أعزك علينا) فهو مقابلة بين الذهاب والبقاء وبين الهين والعزيز).

وقبل أن نترك ابن المعتز، نورد هنا طائفة من شواهد التي انفرد بها^(٥).
- من كلام الحجاج في خطبته: (إن الله كفانا مئونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا).

(١) البقرة : ٢١٦

(٢) النساء : ١٩

(٣) البديع لابن المعتز : ٦٦١

(٤) انظر شرحا وافيا لهذا الحديث في (الكامل في اللغة والأدب) لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالميرد: ٣ / ١ ط مكتبة المعارف، بيروت

(٥) انظر المزيد من هذه الشواهد البليغة في فصل (المطابقة) من كتاب (البديع) لابن المعتز.

- وقول ابن السماك وهو من النساك الزاهدين: (لأن أكون في السوق وقلبي في المسجد، أحب إلي من أن أكون في المسجد وقلبي في السوق). وهي شواهد تصلح للمقابلة على اعتبار الجمع بين ضدين فأكثر ولا يفوت ابن المعتز - وهو كما قلت الناقد البصير - أن يورد طائفة من معيب المطابقة في الكلام والشعر، ولكنه لا يعلق عليها، كما لم يعلق - من قبل - على الجيد منها، بل يكتفي بقوله: (وهذا من غث الكلام وبارده^(١)) من غير أن يبين لنا سبباً لتلك الغثاة أو لهذا البرود، وذلك مثل تعليقه على المقابلة في قول الأخيطل:

قُلْتُ المَقَامُ وَنَاعِبٌ قَالَ النَّوْيُ فَعَصَيْتَ أَمْرِي وَالْمَطَاعُ غُرَابٌ^(٢)

٤- قدامة بن جعفر (٢٦٥ - ٣٣٧)

وفي القرن الرابع الهجري يطل علينا قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر). بمفهوم للمطابقة، ينحو فيه منحى ثعلب، ويخالف به ابن المعتز وغيره.

فهو يضم المطابق إلى الجناس، ويدخلهما في باب (ائتلاف اللفظ والمعنى) ويتحدث عن الطباق تحت اسم (التكافؤ) وقد ألمحت إلى ذلك عند الحديث عن الأسباب التي تدعونا إلى الجمع بين الطباق والمقابلة في مبحث واحد.

وإذا كان قدامة قد خالف من قبله في مفهوم المطابقة، فإنه - فيما - يختص بالمقابلة - قد سبق غيره من العلماء، ووضع لمن أتى بعده الأساس الذي بنى عليه أغلبهم نظرهم إلى المقابلة.

إن قدامة لا يعتبر المقابلة مجرد حلية أو زينة، وإنما ينظر إليها كفن جميل داخل في صميم المعنى وجوهر الفكرة، فقد تحدث عنها في سياق حديثه عن أنواع المعاني وأجناسها تحت عنوان (صحة المقابلات)، وعرفها بقوله:

(هي أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطاً، ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي بما يوافقه يمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالف بأضداد ذلك^(٣)).

(١) السابق : ٦٧٥

(٢) الناعب : الغراب، النوى : الفراق

(٣) نقد الشعر : ١٣٣

ورغم الإطناب الملحوظ في هذا التعريف، إلا أنه يعني ببساطة مقابلة أو مناظرة بعض المعاني ببعض سواء على جهة الموافقة أو المخالفة.
وقد استشهد قدامة لذلك بعدة أبيات من الشعر، وتولى بيان وجه المقابلة فيها.
ومن ذلك قول بعضهم:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرُ

فقد أتى بإزاء كل ما وصفه من نفسه بما يضاده على الحقيقة ممن عاتبه، حيث قال بإزاء (ناصح): (مطوي على الغل)، وبإزاء: (وفي): (غادر).

ومثله: مقابلة الطول والمرارة بالقصر والحلاوة في قول الشاعر:

وَإِذَا حَدِيثٌ سَاعِنِي لَمْ أَكْتَسِبْ وَإِذَا حَدِيثٌ سَرَّنِي لَمْ أَشْرِ

وكتلك المقابلة التي استجادها قدامة في قول الشاعر:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا ذَاتَ بَعْلٍ تَصَدَّقَتْ عَلَى عَزَبٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَهْلُ
فَإِنَّا سَنَجْزِيهَا كَمَا فَعَلْتَ بِنَا إِذَا مَا تَزَوَّجْنَا وَلَيْسَ لَهَا بَعْلُ

إذ يرى قدامة أن الشاعر أجاد حيث وضع مقابل أن تكون المرأة ذات بعل وهو لا زوج له، أن يكون ذا زوج في وقت عزب المرأة، وقابل حاجته وهو عزب بم حاجتها وهي عزبة، من غير أن يغادر شرطاً ولا أن يزيد شيئاً^(١).

ونحن مع قدامة في أن الشاعر قد أجاد رص الكلام بإزاء بعضه، ولم يغادر شرطاً ولم يزد شيئاً.

ولكننا نعجب كيف لم يلتفت قدامة - وهو صاحب الباع الطويل في نقد الشعر - إلى مدى التكلف الواضح في البيتين.

وكيف لم تأخذه الدهشة والعجب من هذا الشاعر الذي يدعو على هذه المرأة من حيث أراد الدعاء لها، ويعدها برد الجميل الذي قدمته له حين يتوفى عنها زوجها أو يطلقها وتصبح عزباً لا بعل لها، فإن كان صادقاً في عزمه ووعدده، فلا شك أنه يتعجل هذا الوقت الذي تترمل فيه هذه المرأة أو تطلق من زوجها، فأى مشاعر قبيحة وراء هذا الشعر إن كان صادقاً! وأى تعمل ظاهر وتكلف بغيبض في هذا القول إن كان غير ذلك!

(١) السابق : ١٣٥

ويجئنا الحديث إلى قضية أخرى أثارها بعض الأخيار من علمائنا الأفاضل، وهي مدى تأثير قدماء بأرسطو، وهل الطباق يوناني أو عربي؟

فعند حديث أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عن أثر قدماء في تطور البلاغة، يفترض أن قدماء متأثر بأرسطو في اهتمامه ببعض وجوه معاني الشعر وصحتها، وخاصة (صحة التقسيم) و (صحة المقابلات).^(١)

ولقد بدأ الدكتور شوقي ضيف حديثه بالظن، وانتهى به إلى اليقين الذي لا شك فيه، بناء على مقارنة بين نص لقدماء عن صحة التقسيم وصحة المقابلات، ونص لأرسطو في نفس المجال.

فقدماء يعرف صحة التقسيم بقوله: (أن يستوفي الشاعر جميع الأقسام لما ابتدأ به كقول نصيب:

فقال فريقُ القوم: لا وفريقُهم نعم وفريقُ قال: وَيَحْكُ مَا نَذْرِي

ويعلق عليه بأنه ليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام. أما نص أرسطو الذي أورده أستاذنا فهو: (الكلام الموصول، ربما كان اتصاله أقساماً، ويسمى: المقسم، كقولهم: إني تعجبت من فلان الذي قال كذا وكذا - أو من فلان الذي عمل كذا وكذا، فهؤلاء أقسام المتعجب منهم، وربما كانت الأقسام إلى التقابل، كقولهم: منهم من اشتاق إلى الثروة، ومنهم من اشتاق إلى اللهو، وكقولهم: أما العقلاء فاحفقوا، وأما الحمقى فأفجحوا، والمتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقا لظهور بعضها ببعض^(٢)).

وحين عقب الدكتور شوقي ضيف على نص قدماء بدأ بالظن فقال: (وان كنا نظن ظنا أن قدماء إنما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو في (الخطابة) عن صورة تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقة عرضها فيه) ثم انتقل من الظن ظنا إلى اليقين الذي لا شك فيه، عند تعقيقه على صحة المقابلات عند قدماء، فقال: (ومما لا شك فيه أن قدماء استمد هذا المصطلح - كما استمد سابقه - من أرسطو في الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة).

(١) انظر هذه القضية في كتاب (البلاغة تطور وتاريخ) للدكتور شوقي ضيف: (٨٧ - ٨٨) ،

ط ٢، دار المعارف، مصر.

(٢) تلخيص الخطابة، لابن سينا: ٢٢٨ طبعة وزارة التربية والتعليم وقد أورده الدكتور شوقي

ضيف في كتابه: البلاغة تطور وتاريخ، ص ٨٧

ولا يكتفي أستاذنا بهذا اليقين، بل يفاضل بين الرجلين، ويضع أرسطو في الكفة الراجحة، ويبالغ في تفوقه على قدامة لأن كلام أرسطو - على حد تعبيره (أدق من كلام قدامة؛ لأن أرسطو لاحظ أنها تحمل في طواياها التقسيم، ولأنه ذكر الغرض والفائدة من المقابلة، فهي تجعل الشيء كالمحسوس المشاهد).

ومع عميق احترامنا للأستاذ العلامة، وتقديرنا المطلق لجهوده التي لا تنكر في خدمة أدبنا وتراثنا، ومع إيماننا بأن تيار الثقافات يسرى بين الأوطان والشعوب مسرى النسيم في الجوى، وأن للفلسفة الإغريقية والمنطق الأرسطي أثراً ملموساً في الفكر العربي إلا أننا نرى أن قدامة وغيره، ليسوا بحاجة إلى التأثر بأرسطو أو غيره في هذا الموضوع بالذات، فإن صحة التقسيم والمقابلات والطباق، وجدت في الشعر الجاهلي بكثرة وفيرة كما وجدت في وصايا الحكماء العرب في الجاهلية، ولم نسمع عن جاهلي قرأ لأرسطو أو غيره.

كما أن القرآن الكريم، وهو كتاب الله الذي نزل بلغة العرب - حافل بهذه الألوان البلاغية وغيرها، وحاشا لله أن تكون تلك الروائع في الذكر الحكيم أثراً يونانياً!

إن التضاد والمقابلة فكرة إنسانية تخطر لكل عقل إنساني، فإننا في حياتنا العادية نرى الظلام فتتذكر النور، ونصادف الشر فنتمنى الخير، والحياة بأسرها قائمة على أساس هذه الثنائية الضدية، سواء في ذلك الجمادات أو النباتات أو الحيوانات، أو المعنويات، فهذه الأرض وفوقها السماء وهناك الذكر والأنثى، والعلم والجهل، والصدق والكذب، وحتى الذرة - مؤلفة من (الكترين) سالب و (بروتون) موجب، كما تشير البحوث الطبيعية الآن^(١).

وصدق الله عز وجل ذا يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، و ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٣) و ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٤) وقد ناقش الدكتور إبراهيم سلامة هذه الفكرة مناقشة موضوعية في كتابه القيم: (بلاغة أرسطو

(١) الذرة في خدمة الزراعة: دكتور محمود يوسف الشواربي: (٣، ٤) المكتبة الثقافية، العدد ٣٦، وزارة الثقافة، مصر.

(٢) الذاريات : ٤٩

(٣) النبأ : ٨

(٤) النجم : ٤٥

بين العرب واليونان) فهو لا ينكر تأثر قدامة بأرسطو وبالفكر اليوناني، بدليل أننا نراه يردد في مواضع كثيرة من كتابه (نقد الشعر) قوله - وهو يعقب على بعض الأمور (وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم كما لا ينكر استحسان أرسطو للطباق في حديثه عنه في الفقرة الثامنة من الفصل التاسع من الكتاب الثالث للخطابة، إذ يقول: (هذا النوع من الأسلوب مقبول، لأن المتضادات تعرف بسهولة، ولأن الأفكار الموضوعة وضعا متقابلا سهلة الإدراك. أضف إلى ذلك أن هذا الأسلوب يشبه قياسا منطقيًا).

ولكن الدكتور سلامة يرى أن تناول أرسطو للطباق يختلف عن تناول رجل كابن المعتز مثلا لنفس الفن، لأن نظرة ابن المعتز شاعرية جمالية لغوية، لما فيها من التعادل والتساوي حين يعرف الطباق بأنه : (من طابقت بين الشئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد)، أما نظرة أرسطو فهي منطقية تقريرية، والفرق بين النظرتين هو الفرق بين العالم والأديب، وإذن يكون الطباق بمعناه الشعري اللغوي من استعمال العرب، ومما يعرفونه من قبل أرسطو لأنه مسير للذوق العربي.^(١)

وفي النهاية يرى الدكتور إبراهيم سلامة أنه إذا كان الطباق يونانيا، لأنه مبني على التضاد، والتضاد منطقي وإذا كانت المقابلة يونانية لأنها مبنية على التشابه، والدلالة بالتشابه وبالمثل دلالة منطقية يعرفها أرسطو، وإذا كان الجنس يونانيا، لأنه مخاتلة وتلاعب بالألفاظ، فإن كل هذه المعاني - زيادة على أنها إنسانية وحيوية في كل لغة حية - تنجح إليها الأذهان إذا وجد في طبيعة اللغة وفي حيويتها ما يساعد على ذلك. وإذا كانت العواطف والانفعالات إنسانية أيضا، كان التعبير عن هذه العواطف وهذه الانفعالات مما تدعو إليه طبيعة اللغة، وطبيعة الأمة الحساسة التي تطاوعها هذه اللغة.

ثم يضرب الدكتور سلامة - في ختام كتابه - مثلا سافرا يحاول أن يحسم به المعركة لصالح الأصالة العربية فيقول :

من العبث مثلا أن تقارن بين (هومير) إذا وصف المعركة بعد حصولها ووصف حظوظ الأسرى القتلى بعد انجلائها فقال (كان نصيب بعضهم شقاء الموت، وكان نصيب الآخرين حجل الحياة).

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : دراسة تحليلية نقدية تقارنية للدكتور : إبراهيم سلامة : ١٢٦، ط ٢، الأنجلو المصرية.

وبين " الطَّرِمَاح " مثلاً، الذي وقف هذا الموقف فقال :

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا
فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنِ يَدٍ ثَوَابَا

فمن العبث أن نقرر هنا - لمجرد التشابه بين عاطفتين إنسانيتين وفي شخصين تفرق بينهما هذه المسافات الزمنية السحيقة، بأن هناك نقلاً أو أخذاً أو تقليداً، وليس أقل من ذلك في باب العبث - أننا إذا رأينا أن أرسطو يمدح بشرف المنبت وبرقته، ورأينا العرب يجرّون في هذا الطريق - أن نقول : هذا هو ذاك، أو هذا من ذاك فكلها مكارم، وآثار خلقية تعترّ بها الأمم الراقية.^(١)

ويضيف الدكتور سلامة إلى هذا القول بُعْداً آخر في مقدمة ترجمته لكتاب الخطابة لأرسطو، وهو أنه حتى وإن كان العرب قد قرأوا وتأثروا بكتب أرسطو، فإنه يبقى للعرب في ذلك فضلان هما :

١- أن الدقة العلمية في التقسيم والتحديد عندهم أكثر مما عند أرسطو.

٢- إيراد العرب شواهد مستمدة استمدادا مباشرا من أدبهم ومن كتابهم (القرآن) وآثارهم، وتلك علامة يعتمد عليها الباحثون في إثبات الأصالة.^(٢)

ونحن نحمد له هذا التأصيل للبلاغة العربية، والفكر العربي، ونضيف إليه أن لغتنا العربية لغة شاعرة بطبيعتها، عبّرت وما تزال تعبر عن جميع المعاني والعواطف الإنسانية الممكنة، ومن ينظر في هذا الكم الهائل مما بقى لدينا من التراث العربي، تروعه - لا شك - قدرة هذه اللغة على استيعاب كل هذه الأفكار الإنسانية المتنوعة ويأخذها سحر وجمال التعبير عنها، فلماذا نستكثر عليها ذلك، ونتلمس وجوها للتأثير في غير ما حاجة لذلك ؟

ولقد حسم ابن الأثير (ضياء الدين) هذه القضية، حين كان يرد على من يزعم تأثر شعرائنا بكتب اليونان بقوله: (هذا باطل بي أنا، فإني لم أعلم شيئا مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته، ومع هذا فانظر إلى كلامي، فقد أوردت لك نبذا منه في هذا الكتاب، وإذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وعرفت أنني لم أتعرض لشيء مما ذكره

(١) السابق : ٤٠٣.

(٢) كتاب الخطابة، لأرسطوطاليس: ٦٥ ترجمة وتقديم وتحقق الدكتور إبراهيم سلامة، ط ٢، الأنجلو المصرية، ١٩٥٣.

حكماء اليونان في حصر المعاني، علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله، وإنه لا يحتاج إليه أبداً، وفي كتابي هذا ما يغنيك وهو كاف^(١). ونخلص من ذلك إلى أن الطباق أو المقابلة أو صحة التقسيم إنما هي فنون عربية خالصة لم يقتبسها العرب من غيرهم، وأن قضية التأثر بالفكر اليوناني لا تنطبق - على الأقل - على هذه الألوان البلاغية.

٥ - ابن وهب الكاتب (ت ٢٨٥هـ)^(٢)

ونعود إلى تسلسل المقابلة تاريخياً عند النقاد والبلاغيين بعدما جردنا الحديث عن قدامة إلى قضية التأثير، فيصادفنا على هذا الدرب الطويل. وفي القرن الرابع الهجري أيضاً، كتاب ثار الجدل كثيراً حول عنوانه وصاحبه، وهو كتاب : (البرهان في وجوه البيان)، فقد أتى عليه حين من الدهر سمي فيه باسم (نقد النثر) ونسب إلى قدامة بن جعفر، على غرار نقد الشعر له، إلى أن حسمت هذه القضية في النهاية لصالح ابن وهب.^(٣)

وكما تحدث قدامة في نقد الشعر عن صحة المعاني، وبين أنها تكون بصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، تحدث ابن وهب (الكاتب) عن عدة الشاعر، وصحة الشعر، وعد من ذلك صحة المقابلة وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وقلة التكلف، والمشاكلة في المطابقة.

ويهمنا هنا حديثه عن صحة المقابلة :

فرغم أنه لم يعطنا مفهوماً اصطلاحياً لها يمكن الرجوع إليه، إلا أننا - من خلال تعليقه على ما ساقه من شواهد للمقابلة القبيحة - ندرك أنه يعني بـ (صحة المقابلة): ما عناه قدامة من قبل وهي أنها (وضع الشاعر لمعانٍ يريد التوفيق بين بعضها وبعض... الخ).

انظر إلى تعليقه على هذا الشاهد حين يقول :

وأساء الآخر المقابلة حيث يقول :

(١) المثل السائر : ١ / ٣١١.

(٢) الأعلام : ١ / ١٣٢.

(٣) انظر مقدمة كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب : ٢٣ - ٢٤، تحقيق د. حفي محمد شرف، ط مكتبة الشباب، القاهرة.

أَمُوتُ إِذَا صَدَّ عَنِّي بِوَجْهِهِ وَيَفْرَحُ قَلْبِي حِينَ يَرْجِعُ لِلْوَصْلِ
فجعل حذاء الموت : فرح القلب، وحذاء الصد بالوجه : الوصل
وهذه مقابلة قبيحة، ولو قال :

أَمُوتُ إِذَا صَدَّ عَنِّي بِوَجْهِهِ وَأَحْيَا إِذَا مَلَ الصَّدُّودَ وَأَقْبَلَا
فجعل حذاء الموت : الحياة، وحذاء الصد بالوجه : الإقبال، لكان مصيبا. (١)
ونلاحظ - أيضا - من خلال تعليقه على بعض الشواهد على صحة المقابلة، أنه
يدمجها مع صحة التقسيم، ومع مراعاة النظر.

فحين عرض لقول الشاعر :
أَمِيلُ مَعَ الذَّمَامِ عَلَى ابْنِ أُمِّي وَأَحْمِلُ لِلصَّدِيقِ عَلَى الشَّقِيقِ
وَأَفْرِقُ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَمَنِّي وَأَجْمَعُ بَيْنَ مَالِي وَالْحَقُوقِ
نراه يعلق قائلا: (فأحسن القسمة في المقابلة، ومال مع ما ينبغي أن يمال معه، وحمل
على ما يحسن الحمل عليه، وفرق بين ما لا ينبغي أن يجمعه. (٢)
وحين تحدث ابن وهب عن المطابقة ضمها مع المشاكلة ولم يعط لها تعريفا محددًا،
كما لم يعط للمقابلة.

لكن ما استشهد به للمطابقة يفهم منه المقابلة والطباق والجناس فقد استشهد في
هذا المجال بقول الشاعر :

نُعَرِّضُ لِلطَّعَانِ إِذَا اتَّقَيْنَا وَجُوهًا لَا تُعَرِّضُ لِلْسَّبَابِ (٣)
ففي هذا البيت طباق بالسلب بين (نعرض) و (لا نعرض) وفيه جناس أيضا بين
الكلمتين.

أما المقابلة فيمكن أن تكون بين حالتي الحرب والسلم لقومه، فهم في الحرب
شجعان يلاقون العدو بوجوههم مقبلين وفي السلم كرام الوجوه أصحاب شرف وعزة
لا يعرضون أنفسهم للسباب أو سفاسف الأمور.

(١) البرهان في جوه البيان، لابن وهب : ١٤٠ تحقيق الدكتور حفني شرف، ط : مكتبة الشهاب،
القاهرة.

(٢) السابق : ١٣٩.

(٣) السابق : ١٤٤.

أما المشاكلة في البيت وهي (ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقدير^(١)). فلأن الوجوه في الحقيقة لا تعرض للشتم والسباب، وإنما الذي يعرض لذلك الأشخاص، ولكنه عرضها للسباب مشاكلة لتعريضها للطعان.

وهكذا نرى أن ابن وهب يوسع من حيث يدري أو لا يدري مفهوم المقابلة لتشمل (صحة المقابلة، وصحة التقسيم، ومراعاة النظر) كما رأينا في تعليقه على قول الشاعر: (أميل مع الذمام...) وتشمل (الطباق والجناس والمشاكلة) كما رأينا في (نعرض للطعان ..)

وذلك يدعم حقنا في مزج هذه الألوان - قدر الأمكان - في لون واحد هو المقابلة، علّه يتسع - كما قلنا من قبل - لاستيعاب ظاهرة التقابل أو المقابلة في القرآن الكريم.

٦ - القاضي الجرجاني^(٢) (ت ٣٩٢هـ) صاحب الوساطة :

وما دمنا نبحث عن معنى المقابلة في القرن الرابع الهجري، فلا غنى لنا عن الإشارة إلى علم من أعلام البلاغة والنقد في هذا القرن وهو (أبو الحسن علي بن عبد العزيز، الشهير بالقاضي الجرجاني) والذي ترجع شهرته إلى كتابه القيم : (الوساطة بين المتنبئ وخصومه).

وكتاب الوساطة - كما يتضح من عنوانه - عبارة عن تطبيق عملي للمقابلة والموزنة بين المتنبئ وخصومه.

والذي يقرأ مقدمة المؤلف يستبين بسرعة المنهج العلمي الذي سار عليه القاضي الجرجاني في هذا الكتاب :

إنه رأي - منذ لحق بجملة الأدباء - أن الناس في أبي الطيب فئتان : من مطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، ملتزم بنصرتة على طول الخط، وعائب يروم إزالته عن رتبته، فلم يسلم له فضله، ويحاول حطه عن منزلة بوأه إياها أدبه.

وفي رأيه أن كلا الفريقين (إما ظالم له، أو للأدب فيه، فكما أن للانتصار جانباً من العدل لا يسده الاعتذار، كذلك للاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرق بينهما، وقفت به الملامة بين تقريظ المقصر، وإسراف المفرط^(٣)).

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني : ١٩٨.

(٢) الأعلام : ٤ / ٣٠٠.

وبهذا المنهج الذي سار عليه يمكن القول بأن الكتاب مقابلة عملية بين طرفين متناقضين أو متناظرين، وقد أخذ الرجل يستعرض كلا الجانبين ويقابل بينهما، ويحكم لهذا الجانب أو لذاك.

انظر إليه يوازن بين قصيدة أبي الطيب في الحمى :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي

وقصيدة عبد الصمد بن المعدل في وصف الحمى :

وَبُنْتُ الْمَنِيَّةُ تَتَنَابَنِي هَدَوًّا وَتَطْرِقُنِي سَحْرَةً
إِذَا وَرَدْتُ لَمْ يَدْعُ وَرُدُّهَا عَنِ الْقَلْبِ حَجَبًا وَلَا سُتْرَةً

فيقول (فأنت إذا قست أبيات أبي الطيب - على قصرها - وقابلت اللفظ باللفظ، والمعنى بالمعنى، وكنت من أهل البصر، وكان لك حظ في النقد، تبينت الفاضل من المفضول، أما أنا فأكره أن أبت حكما أو أفصل قضاء، أو أدخل بين هذين الفاضلين وكلاهما محسن مصيب^(١)).

هكذا عرض الرجل القصيدتين، ودعانا لمقابلتهما لفظا بلفظ ومعنى بمعنى، وترك لنا الحكم، ثم رأي هو - بلباقة - ألا يحكم لإحدهما، لأن كليهما - في رأيه - محسن مصيب.

ونحن نرى أن أبيات المتنبي أجمل تصويرا وأحفل بالحركة.

فإذا أراد الحديث عن المفهوم الاصطلاحي للمقابلة أو المطابقة، نراه لا يقصد إلى ذلك قصدا، ولكنه يعرض لها عرضا سريعا مبينا أن للمطابقة شعبا خفية، لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف.

ويعر سريعا - أيضا - على أقسام المطابقة المعهودة، ما بين مطابقة بالإيجاب وأخرى بالنفي أو السلب، ممثلا لكل قسم منهما بأمثلة السابقين، محذرا من أن (بعض من يقصر علمه ويسوء تمييزه قد يخلط بالمطابق ما ليس منه).

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني أبي الحسن علي بن عبد العزيز : ١٣، تصحيح وشرح أحمد عارف الزين، ط : صبيح، القاهرة.

(٢) السابق : ١٠٥.

ومعنى ذلك أن أبا الحسن لم يأت بجديد في هذا المجال من الناحية الاصطلاحية التقنية، ولكن الجديد - كل الجديد - عنده هو الجانب العملي التطبيقي لأسلوب المقابلة عن طريق تلك الموازنات بين المتنبي وخصومه.

٧ - أبو هلال العسكري^(١) (ت ٣٩٥هـ)

ونختم القرن الرابع الهجري - ذلك القرن الحافل بالعلماء - بعلم من أعلام البلاغة والنقد وهو (أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري) صاحب كتاب (الصناعتين: الكتابة والشعر).

وقد تحدث في هذا الكتاب عن الطباق والمقابلة والعكس والتبديل والسلب والإيجاب وكلها ألوان تدور في فلك بحثنا عن المقابلة.

وفي حديثه عن الطباق أو المطابقة لم يأت بتعريف جديد، وإنما أورد إجماع الناس على أن المطابقة في الكلام (هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة، أو بيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين السواد والبياض، والليل والنهار، والحر والبرد^(٢)).

كما أبرز أبو هلال مخالفة قدامة بن جعفر لهذا الإجماع، وعاب عليه تعريف المطابقة بما لا يخرج عما سماه أهل الصنعة، التعطف أو التجانس^(٣).

كما اهتم العسكري بذكر المعنى اللغوي للطباق وهو (الجمع بين الشئيين، يقولون طابق فلان بين ثوبين) وبين كيف تطور المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي، (فقبل طابق البعير في سيره، إذا وضع رجله موضع يده).

وأورد بيت الجعدي السابق :

وَخَيْلٍ يُطَابِقْنَ بِالذَّارِعِينَ طِبَاقَ الْكِلَابِ يَطَّأْنَ الْهَرَّاسَا

ولكنه يؤكد هذا المعنى اللغوي بالقرآن الكريم، فيورد قوله تعالى :

(١) الأعلام : ٢ / ١٩٦.

(٢) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري : ٣١٦، تحقيق : علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، الحلبي، مصر.

(٣) سمي الأخفش ما ذكره قدامة : (التجنيس) وذلك في محاورة بينه وبين أبي الفرج الأصفهاني، انظر : سر الفصاحة لابن سنان : ١٩١.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(١) أي بعضها فوق بعض، كأنه شبه بالطبق يجعل فوق الإناء وكل فقرة من فقر الظهر والعنق طبق، وذلك أن بعضها منضود على بعض.^(٢)

وبذلك يكون أبو هلال قد كشف - كما يقول الدكتور حفني شرف شيئا ما عن الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، بما فيهما من الجمع بين الشئين.^٣ لكن ما يذكر لأبي هلال بالحمد والثناء، هو كثرة الشواهد من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والأقوال المأثورة ونلاحظ على هذه الشواهد أن بعضها لا يختص بالطباق فقط، وإنما يصلح شاهدا للمقابلة على اعتبار الجمع بين أكثر من ضدین وهذا يقوى ما نزعناه من تداخل هذه الألوان في القرآن الكريم ليصبح الجميع مقابلة قرآنية.

ألسنت ترى معي أن ما نستشهد به للطباق في قوله تعالى ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٤) يصلح شاهدا للمقابلة الصريحة بين أكثر من ضدین ؟ أي بين الباطن والظاهر، وبين الرحمة والعذاب ؟

وكذلك في قوله تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾^(٥) مقابلة بين الأسى على ما فات، والفرح بما هو آت. كما أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار : (إنكم لتكثرلون عند الفزع وتقلون عند الطمع). وكذلك قول الحسن رضي الله عنه : (إن من خَوْفِكَ حتى تبلغ الأمن خيرٌ من أَمْنِكَ حتى تلقى الخوف) كلاهما مقابلة اثنين باثنين.

ولا بد من التنوية والإشادة بما أورده العسكري من مقارنة بين القرآن والشعر في هذا المجال، وإبرازه لجوانب السمو والرفعة في القرآن الكريم، وهي جوانب يعز على الشعر أن يسمو إليها أو يجاريها.

(١) الملك : ٤ .

(٢) كتاب الصاعتين : ٣١٦ .

(٣) الصور البديعية : ٧٧ / ٢ .

(٤) الحديد : ١٣ .

(٥) الحديد : ٢٣ .

فعند استشهاده بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (١) وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٢) أورد تنازع الشعراء هذا المعنى، كقول ابن مطير:

كل يوم بأفحوانٍ جديد تضحك الأرضُ من بكاء السماء
وقول الآخر:

فله ابتِسَامٌ في لَوَامِعِ بَرْقِه وله بَكَاٌ من وَدْقَةِ الْمُتَسَرِّبِ
وقول الآخر:

لا تَعْجَبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

ثم علق على هذا مقارنا بين تناول القرآن لهذا المعنى، وتنازع الشعراء له قائلا: (فلم يقرب أحد من لفظ القرآن في اختصاره وصفاته، ورونقه وبهائه، وطلاوته ومائه، وكذلك جميع ما في القرآن من طباق (٣)).

ورغم أن تعليقه يضيف على القرآن الكريم صفات القداسة والبهاء والجمال، إلا أنه كان عليه أن يظهر بعض الصفات التي تميز الأسلوب القرآني، ولا توجد في غيره - من ذلك مثلا: الاختصار الشديد مع الوفاء الكامل بالمعنى، وإطلاق لفظ (أضحك) ولفظ (أبكى) مع حذف المفعول به ليشمل كل حي في كل زمان ومكان.

وكتلك الفاصلة المنتهية بالمد والتي توحى بامتداد الفعل عبر الزمان والمكان، بالإضافة إلى حسن التقسيم والازدواج في الآيتين.

وقد ألمح الدكتور محمد زغلول سلام إلى شيء من ذلك حين ذكر أن أبا هلال لم يشير إلى ما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤) وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٥) من حركة ذهنية نتيجة الانقلاب في الصور والمعاني، وفي هذا ما فيه من قوة الدلالة في النفس، ويكتفي بالحكم على اللفظ وما فيه من صفاء ورونق، وطلاوة وماء، وهذه كلمات عامة، لا تفيد معنى محددًا ذا قيمة كبيرة في الآية (٦).

وجريا على عادة العلماء السابقين في تثبيت الحكم بذكر ضده وجدنا أبا هلال يذكر بعض الأمثلة (للتطبيق المغيب).

(١) النجم: ٤٣ - ٤٤.

(٢) كتاب الصناعتين: ٣١٧.

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام: ٣٢٤.

ولكن يؤخذ عليه - كما أخذنا على أستاذه ابن المعتز من قبل - عدم تعليل العيب أو الفساد تعليلاً نقدياً مقبولاً، فهو يكفي - كسلفه - بإطلاق الأحكام وتعميمها فقط، كتعليقة على بيت الأخطل السابق :

قُلْتُ الْمَقَامَ وَنَاعِبٌ قَالَ النَّوَى فَعَصَيْتَ أَمْرِي وَالْمُطَاعُ غُرَابٌ

بأن هذا (من غث الكلام وبارده) دون أن يبين وجه الغثاثة وسبب البرود.

وقريب من هذا التعليق - أيضاً - تعليقه على قول أبي تمام :

يَوْمَ أَفَاضَ جَوَى أَغَاضَ تَعَزَّى خَاضَ الْهَوَى بِحَرِي حِجَاهُ الْمَزِيدِ

إذ يذكر أبو هلال أنه لا يعرف عاقلاً يقول : إن العقل يزبد.

ويسد الباب في وجه من يلتمس العذر لأبي تمام بأن يعرب المزبد صفة للبحرين، إذ لو أراد أبو تمام نعتاً للبحرين لقال : (المزبدان) - كما أن خوض الهوى بحر التعزى استعارة بعيدة.

ونحن نعتبر نقد أبي هلال في غير موضعه لسببين :

أولهما: أنه وقد أورد مثالا للتطبيق المعيب - كان يجب عليه أن يبين سبب العيب في التطبيق، لا غير، لكنه ترك التعليق على الطباق بين (أفاض) و (أغاض) وبين (الجوى) و (التعزى)، وأمسك بعجز البيت يتلمس فيه خطأ ما أيا كان هذا الخطأ.

ثانيهما: أنه حين عمم الحكم قائلاً : لا أعرف عاقلاً يقول أن العقل يزبد، قد جاوز الصواب، إذ لا مانع من وصف العقل بالزبد على سبيل الاستعارة لشدة الذكاء، وتصوير ثورة الأفكار في عقله.

وفوق ذلك، فإن أبا تمام معنى بالغريب، ومشهور بالجرأة في ابتداع التراكيب. وبعدما عرضنا لما قاله العسكري في الطباق، ورأينا مدى اختلاطه - من الناحية التطبيقية - بالمقابلة، ينبغي علينا أن نعرض لما قاله في المقابلة - لنرى الجديد في هذا القول إن وجد.

عرف أبو هلال المقابلة بأنها (إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة^(١)).

(١) السابق : ٣٤٦.

وهو تعريف موافق . في جملته - لتعريف قدامة السابق، لكن شواهد العسكري جديدة كل الجدة، وتعقيباته عليها تنم عن نظر عميق، وأفق واسع - وإحاطة وشمول لكل أقسام المقابلة الممكنة بين المعاني والألفاظ موافقة ومخالفة.

أ- فقد مثل للمقابلة في المعنى على جهة الموافقة بقوله تعالى :

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾^(١) لأن خواء بيوتهم وخراها بالعذاب مقابل لظلمهم.

وبقوله تعالى ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا﴾^(٢) فالمكر من الله تعالى (العذاب) جعله الله عز وجل مقابلا لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته.

ومنه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣) و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٤).

غير أننا نلاحظ على هذه الأمثلة أنها تشتمل - إلى جانب المقابلة على بعض الألوان البديعية الأخرى كالمشاكلة والمزاوجة والجناس.^(٥)

وهذا يؤكد مرة أخرى ما قلناه سابقا من تداخل وتقارب بين هذه الألوان.

ب- ومثل العسكري أيضا للمقابلة في المعاني على جهة المخالفة بالمثل الذي استشهد به قدامة بن جعفر، وسار عليه معظم من أتى بعده، وهو قول الطرماح بن حكيم :

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ الثَّرَابَا
فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنٍ يَدِ ثَوَابَا

فجعل بازاء الحرب أن لم يصبروا، وبازاء النعمة أن لم يثيخوا، فقابل على وجه المخالفة. ولو كان على جهة الموافقة لصبروا عند الحرب، ولأثابوا وقت الإنعام عليهم، لأن هذا هو الفعل المناسب والموافق.

(١) النمل : ٥٢ .

(٢) النمل : ٥٠ .

(٣) التوبة : ٦٧ .

(٤) الرعد : ١١ .

(٥) المزاوجة : أن يجمع بين الشرط والجزاء في ترتيب لازم من اللوازم عليهما معا. (البديع في ضوء أساليب القرآن)، د. عبد الفتاح لاشين : ١١٤ - ط ١، دار المعارف، ١٩٧٩ .

ومعنى هذا أن أبا هلال يعني بالموافقة هنا : الموازنة، وهو ما عناه قدامة من قبل.

ج- ومثل للمقابلة في الألفاظ على جهة الموافقة بقول عدى بن الرقاع :

فَلَقَدْ تَبَيَّتْ يَدُ الْفَتَاةِ وَسَادَةً لِي جَاعِلًا يُسْرِى يَدَيَّ وَسَادَهَا
وفيه مقابلة بين كون يدها وسادة له، ويده وسادة لها.

ومثله قول عمرو بن كلثوم :

وَرَثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَثُورُثْنَاهَا إِذَا مِتْنَا بَنِينَا

د- أما المقابلة في الألفاظ على جهة المخالفة، فكقول الجعيري :

فَتَى كَانَ فِيهِ مَا يَسِرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
وقول الآخر :

وَإِذَا حَدِيثٌ سَاعَتِي لَمْ أَكْتُبْ وَإِذَا حَدِيثٌ سَرَّنِي لَمْ أَشِرْ

ونسلمح إعجاب العسكري بهذين الشاهدين من قوله : (وهذا في غاية التقابل)،

ذلك أن الشاعر الأول قابل بين (ما يسر) و (ما يسوء)، وبين (الصديق) و (الأعادي).

والثاني قابل بين (ساعتي) و (سرني) وبين (لم اكتب) و (لم اشر).

و (لم اشر) أي لم أتبطر وأفرح.

وكلا الشاهدين تقابل في الألفاظ على جهة المخالفة أو التضاد.

وأبو هلال العسكري بهذا التعريف الدقيق للمقابلة، وبذلك التقسيم الشامل لها،

وبتلك الأمثلة الرائعة لكل قسم، يوسع مفهوم المقابلة لتشمل أي تضاد أو مخالفة سواء

بالألفاظ أو المعاني وسواء أكان هذا التضاد أو تلك المخالفة على جهة الموافقة أو على

جهة المخالفة.

وهذا الذي فعله العسكري له أهمية كبيرة في بحثنا عن المقابلة في القرآن الكريم

وخاصة المقابلة المعنوية، أو مقابلة المعاني. تلك المقابلة التي لم يفتن إليها غير أصحاب

الطبع السوى كما يقول الزمخشري: (فترى المطابع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة

إلا في المعاني^(٢)).

(١) كتاب الصناعتين : ٣٤٧.

(٢) الكشف عن حقائق التزويل وعميون الأقاويل : للزمخشري (جار الله محمود ابن عمر بن أحمد الخوارزمي) : ٤ / ١٤٥، ط - مطبعة الاستقامة، مصر.

وكما تحدث قدامة في (نقد الشعر) وابن وهب في (البرهان) عن فساد المقابلات، نرى أبا هلال - أيضا - يشير إلى فساد المقابلات.

وكأنني هؤلاء العلماء، يذكرون المقابلة الفاسدة، ليقابلوا بينها وبين المقابلة الصحيحة، فيكون ذلك درسا عمليا تطبيقيا لمعنى المقابلة، لكي نقابل نحن بين الصحيح منها والفساد، ونذكر الفرق بينهما.

وأبو هلال يرى أن المقابلة الفاسدة هي (أن يذكر معنى يقتضي الحال ذكر ما يوافقه أو يخالفه، فيؤتي بما لا يوافق ولا يخالف مثل أن يقال: فلان شديد البأس، نقي الثغر، أو جواد الكف أبيض الثوب، أو تقول: ما صاحببت خيرا ولا فاسقا، وما جاءني أحمر ولا أسمر، ووجه الكلام أن تقول: ما جاءني أحمر ولا أسود، وما صاحببت خيرا ولا شريرا، وفلان شديد البأس، عظيم النكاية، وجواد الكف كثير العرف، وما يجري مع ذلك، لأن السمرة لا تخالف السواد غاية المخالفة، ونقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه، فاعلم ذلك وقس عليه^(١).

والعسكري بذلك يضع مقياسا نقديا للحكم على صحة المقابلة أو فسادها، وهو بذلك يفعل ما غفل عنه عند حديثه عن التطبيق المعيب.

وقبل أن نغادر أبا هلال وغيره من علماء القرن الرابع إلى غيره من العلماء نجد أنفسنا في حاجة إلى إلقاء نظرة خاطفة على ما أورده الرجل من مقاييس بلاغية للونين آخرين من ألوان البديع نرى أنهما وثيقا الصلة بالمقابلة، وهما : العكس والتبديل، والسلب والإيجاب.

فالعكس عنده (أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبعضهم يسميه التبديل^(٢)).

وقد ساق أبو هلال لذلك أمثلة كثيرة ومتنوعة، ما بين المنظوم والمنثور، من القرآن والحديث والشعر والحكم، أستطيع - بلا مبالغة - أن أقرر أن أغلبها شواهد للمقابلة أو الطباق، ويكفي أن أسوق بعضها هنا لنرى صحة هذا الزعم.

(١) كتاب الصناعتين : ٣٤٨.

(٢) السابق : ٣٨٥.

يستشهد بقوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١) وهي مقابلة صريحة تبين قدرة الله سبحانه على إخراج الميت من الحي، في مقابلة قدرته على إخراج الحي من الميت.

ويستشهد بقول القائل :

(اشكركم لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَى مَنْ شَكَرَكُمْ) وهو مقابلة الإنعام على من يشكر بالشكر على من ينعم.

ومما يؤكد هذا الزعم أنه استشهد بيت عدى بن الرقاع :

فَلَقَدْ تَبَيَّتْ يَدُ الْفَتَاةِ وَسَادَةً لِي جَاعِلًا يُسْرِى يَدَيَّ وَسَادَهَا

مع أنه قد استشهد به عينه منذ قليل للمقابلة في الألفاظ على جهة الموافقة.

أفلا يعني ذلك أن العكس والتبديل لون من ألوان المقابلة زاد عليها : تكرار اللفظ في الجزء الأخير من الكلام، ولكن بطريقة معكوسة ؟

ومثل ما قلناه نقوله فيما أورده من تعريف وشواهد لما يسمى (السلب والإيجاب) وهو (أن نبني الكلام على نفي الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة والنهي عنه في جهة أخرى، وما يجري مجرى ذلك).^(٢)

ومثاله من القرآن قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٣).

فقد نفى عن القول ثم أمر به، كل على وجهه.

ومثله : ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَالنَّاسُ أَخْشَاؤُنْ﴾^(٤)

ومن الشعر قول السموءل :

وَتُنْكِرُ إِن شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ

فقد أثبت الإنكار ثم نفاه.

وهذا الذي ذكره أبو هلال داخل فيما سمي بطباق السلب وهو (الجمع بين فعلى

مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي)^(٥).

(١) الروم : ١٩

(٢) كتاب الصناعتين : ٤٢١.

(٣) الإسراء : ٢٣.

(٤) المائدة : ٤٤.

(٥) الإيضاح للقزويني : ١٩٣.

وهو كثير جدا في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١)، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾^(٢) . وبذلك يكون العسكري - بتعريفاته وشواهد - قد قارب ما بين الطباق والمقابلة والمشاكلة والمزاوجة والعكس والتبديل والسلب والإيجاب . وعلى ذلك، فلعلنا لا نعدو الصواب إذا أدخلنا هذه الألوان ضمن أسلوب المقابلة في القرآن الكريم.

٨ - ابن سنان الجفاجي (ت ٤٦٦ هـ).

وفي القرن الخامس الهجري نلتقي بعلمين من أعلام النقد والبلاغة أحدهما مشرقى هو ابن سنان والآخر مغربي وهو ابن رشيقي . أما الأول فهو الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الجفاجي الحلبي^(٣)، ومن أشهر كتبه (سر الفصاحة)، وقد استعان فيه بمؤلفات من سبقه كنقد الشعر لقدمه والموازنة للآمدي والوساطة للجرجاني والبيان والتبيين للجاحظ، ومع ذلك فإنه كما يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى صاحب (الصبغ البديعي): (يمتاز بحرية الرأي والاعتداد بالنفس، والجنوح عن التقليد حتى في أيسر المسائل وأهونها شأنًا، إذ كثيرا ما ينقد كلام غيره، ويختار غير اختياره معتمدا في ذلك على فكره وعقله)^(٤). حين تحدث ابن سنان عن الطباق أو المطابق، جاء ذلك في سياق حديثه عن تناسب الألفاظ من طريق المعنى، وقد بين أنها تتناسب على وجهين:

أحدهما : أن يكون معنى اللفظ متقاربا .

والثاني : أن يكون أحد المعنيين مضادا للآخر، أو قريبا من المضاد، فإذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة.

والذي يعيننا هنا هو الوجه الثاني من هذه الوجوه، وفيه يذكر ابن سنان إجماع أصحاب الصنعة على تسميته بالمطابق وخروج قدامة على هذا الإجماع بتسميته

(١) الزمر : ٩ .

(٢) النحل : ٢٠ .

(٣) الأعلام : ٤ / ١٢٢ .

(٤) الصبغ البديعي : ٢٠٣ .

المتكافئ، ويذكر استنكار الآمدي والأخفش لإطلاق قدامة اسم التكافؤ على الطباق والطباق على التحنيس.

ثم يعرض ابن سنان لاختلاف السابقين حول مفهوم الطباق والمقابلة والتضاد والسلب والإيجاب، والتكافؤ والتحنيس، ويخرج علينا برأي جديد وعملي في آن واحد وهو (تسمية الجميع بالمطابق^(١)).

وهو رأي ينسجم مع ما ذكره عن تناسب الألفاظ من جهة المعنى إذا كان أحد المعنيين مضادا للآخر، أو قريبا من المضاد.

فجميع هذه الأبواب التي ذكرها ينتظمها التضاد الصريح أو الضمني.

ويعلل ابن سنان هذا الرأي الجريء بأن الطبق للشيء إنما قيل له طبق لمساواته إياه في المقدار إذا جعل عليه أو غطى به، وإن اختلف الجنس، وفي المثل (وافق شئ طبقه) ومنه (طباقي الخليل)، ويورد تفسيراً لقوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾^(٢) يتسق مع هذا الفهم، فالمراد منه (حال بعد حال) ولم يرد تساويهما في نفس المعنى، وإنما أراد تساويهما في المرور عليكم والتغير لكم.

فإذا كان هذا حقيقة الطباق، وهو مقابلة الشيء بمثله الذي هو على قدره، سمي المتضادان إذا تقابلا متطابقين.^(٣)

ثم يسوق ابن سنان أمثلة رائعة لما يستحسن من الطباق، يؤكد بعضها شمولية نظريته في تسمية كل ما فيه تضاد (مطابقة).

ومن ذلك استشهاده ببيت شهير لأبي الطيب يستشهد به معظم البلاغيين على المقابلة، ويعدونه جامعا لاقصى عدد من المقابلات^(٤) وهو مقابلة خمسة بخمسة وهذا البيت هو :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثي وبياض الصبح يغري بي
فهو يعلق عليه قائلا : (... فهذا البيت مع بعده من التكلف، كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمترلة الضد : فأزورهم وأنثي، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبي.

(١) سر الفصاحة : ١٩٢.

(٢) الانشاق : ١٩.

(٣) سر الفصاحة : ١٩٣.

(٤) من هؤلاء العلماء : النويري في نهاية الأرب ٧ : ١٠١، والقزويني في الإيضاح ١٩٥.

ثم يقسم الطباق إلى محض وغير محض، وهو يقصد بالخص ما تضاد فيه اللفظان تضادا تاما وصريحا، مثل (سواد وبياض)، وبغير المحض : ما كان قريبا من التضاد ويفهم بالمعنى مثل : (الليل والصبح)، فإن الصبح ليس ضد الليل على الحقيقة، ولكن ضده النهار.

ونؤكد مرة أخرى على شمولية نظريته حين يدخل في المطابق (العكس والتبديل) وهو ينص صراحة على ذلك بقوله: (ومما يجري مجرى المطابق أن يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاما، ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدما في الأول مؤخرا في الثاني وما كان مؤخرا مقدما مثل قول بعضهم (اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكر^(١)). وقد سبق أن بينت أن في هذا المثال مقابلة عند الحديث عن أبي هلال.

كما يدخل ابن سنان الجفاجي أيضا في المطابق (طباق الإيجاب والسلب^(٢)) ويستشهد بقول السموّل السابق :

وَتُنْكِرُ إِن شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ^(٣)
ولا ينسى الجفاجي أن يورد - كما أورد السابقون - بعض الأمثلة للطباق المعيب والقبیح، ولكنه - مثلهم أيضا - لا يبين سببا كافيا لهذا العيب أو القبح. وذلك مثل تعليقه على الطباق في قول حبيب بن أوس :
لَعَمْرِي لَقَدْ حَرَّرْتَ يَوْمَ لَقِيْتَهُ لَوْ أَنَّ الْقَضَا وَحْدَهُ لَمْ يُرِدْ
وقوله :

وَإِنْ خَفَرْتَ أَمْوَالَ قَوْمٍ أَكْفُهُمْ مِنَ النَّيْلِ وَالْجَدَى فَكَفَّاهُ مَقْطَعُ
إذ يقول معميا الحكم: (فإن الطباق بين (حررت) و (يرد) وبين (خفرت) و (مقطع) من الطباق القبیح الذي لم يرد لحسن معناه، وسلامة لفظه، بل لتكون في الشعر مطابقة فقط.^(٤)

(١) سر الفصاحة : ١٩٦.

(٢) يفرق الدكتور : عبد الفتاح لاشين في كتابه (البديع في ضوء أساليب القرآن) بين نوعين من الطباق هما : طباق الإيجاب وطباق السلب، فالأول : ما اتفق فيه المتقابلان سواء بالإيجاب مثل (وأنه هو أضحك وأبكى) أو السلب مثل (ثم لا يموت فيها ولا يحيي). والثاني ما كان أحد الطرفين فيه مثبتا والآخر منفيًا مثل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : ص ٢٦.

(٣) سر الفصاحة : ١٧٩.

(٤) السابق : ١٩٥.

أما حديثه عن المقابلة، فقد جاء في سياق حديثه عن صحة المعاني، بعد أن ذكر ما سبق في سياق حديثه عن صحة الألفاظ وتناسبها.

فقد ذكر أن من الصحة : صحة المقابلة في المعاني.

وحين ينص ابن سنان على أن المقابلة إنما تكون بالمعاني فإنما يؤكد بذلك رؤية أوسع من حدود التقابل اللفظي ويدعم رؤية الزمخشري^(١) في أن الأصل هو تقابل المعاني لا تقابل الألفاظ.

وتعريف ابن سنان للمقابلة، لا يخرج عن تعريف قدامة لها وتعليقه على ما استشهد به للطرماح بن حكيم :

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ الثَّرَابَا

بأن (هذه مقابلة صحيحة^(٢)) يؤكد سيره في ركاب قدامة ومن تبعه.

وإذ يورد ابن سنان أمثلة رائعة للمقابلة الصحيحة، لا ينسى - أيضا - أن يورد أمثلة أخرى لفساد المقابلة كما فعل معظم السابقين.

٩ - ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٦٣ هـ)

في القرن الخامس الهجري ظهر في الساحة الأدبية والنقدية علم أضواء المغرب العربي، وامتد سناه إلى المشرق، ذلك هو (أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الأزدي) الذي اشتهر بكتابه الهام: (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده).

ومن المفيد في مجال بحثنا أن نتعرف على رأي ابن رشيق في المطابقة والمقابلة وبعض الألوان القرية منها لتبين وجهة النظر المغربية في القرن الخامس الهجري. حتى تكتمل الصورة وتتضح.

تحدث الرجل في (العمدة) عن المطابقة في الكلام فأشار إلى أنها عند جميع الناس: (جمعك بين الضدين في الكلام) ويُن - كغيره من العلماء - خروج قدامة على هذا الإجماع بتسمية هذا الجمع بين الضدين تكافؤا : (إذ لم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس في جميع من علمته^(٣)).

(١) الكشف : ٣ / ٣٠٣.

(٢) السابق : ٢٥٨.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني : ٢ / ٥ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤.

ثم عرض ابن رشيقي بالتفصيل لرأي الخليل والأصمعي في المطابقة، وكشف عن ميله لرأي الرماني في كونها (مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان) فوصف هذا الرأي بأنه (أحسن قول سمعه في المطابقة من غيره، وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقدامة جميعاً^(١)).

ولشدة اقتناعه برأي الرماني، نراه يفسر أمثلة الخليل بن أحمد - في هذا - تفسيراً يوافق هذا الرأي، ويعتبر ما قاله الخليل عن المطابقة من أنها (أن تجمع بين الشئين على حذو واحد وتلصقهما) مساواة للمقدار من غير زيادة ولا نقصان كما يذهب الرماني. وبالمثل، نراه يحلل قول الأصمعي تحليلاً يتفق مع المساواة، فإن قوله: (أصلها من وضع الرجل موضع اليد في مشى ذوات الأربع) هو مساواة المقدار أيضاً.

ثم نراه ينتحل الأعذار لقدامة بن جعفر، حين يُحمّل كلامه في المطابق معنى (المساواة) ويفسر قوله في المطابق: (هو ما اشترك في لفظة واحدة بعينها^(٢)) بأنه - أيضاً - مساواة لفظ للفظ^(٣).

وهكذا نفهم من حديث القيرواني عن المطابقة أنها تعني (المساواة) حتى وإن اختلف الجنسان.

وهو هنا يتفق مع ابن سنان في تفسيره للطباق (بأن الطبق للشئ إنما قيل له طبق لمساواته في المقدار إذا جعل عليه أو غُطّي به وإن اختلف الجنسان^(٤)).

ثم يسوق ابن رشيقي - في تمكن ظاهر وذوق جميل - أمثلة شيقة للطباق تدل على مقدار فهمه، ودقة اختياره، من مثل قول كثير بن عبد الرحمن (كثير عزة):
فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ بِصَرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ
وقول أعرابي لصاحبه :

(إن يسار النفس أفضل من يسار المال، فإن لم ترزق غنى، فلا تحرم تقوى، فرب شبعان من النعم غرثان من الكرم. واعلم أن المؤمن على خير، ترحب به الأرض، وتستبشر به السماء، ولن يساء إليه في باطنها، وقد أحسن على ظهرها). وقول سيد

(١) السابق : ٢ / ٧.

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر : ١٦٢.

(٣) العملة : ٢ / ٨.

(٤) سر الفصاحة : ١٩٣.

البشر في بعض خطبه (فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار).

وإن معنى المساواة في المقدار، - وهو ما يهدف إليه ابن رشيقي - واضح فيما اختاره من أمثلة، وخاصة إذا علمنا أنه يعني المساواة، حتى وإن اختلف الجنس، فكثير عزة قد طابق وساوي بين مقدار قربه وبعدها، وبين مقدار إكثاره من المودة وإقلالها منها. والأعرابي في قوله لصاحبه، يضع كل أمرين - وإن اختلفا - حذو بعضهما بالتساوي والتطابق بين (ترزق وتحرم) و (شبعان وغرثان) و (الأرض والسماء) و (يساء إليه في باطنها وقد أحسن على ظهرها).

وهو واضح أيضا في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلامه كما يقول ابن رشيقي هو (الذي لا تكلف فيه، ولا مطمع في الإتيان بمثله (١)).

ألا ترى التطابق بين (الدنيا والآخرة) و (الشبيبة والكبر) و (الحياة والموت) و (الجنة والنار)؟ ومثله من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ۚ ۞ ﴾ (١)

ويورد شعرا رفيقا لبعض الشعراء، يصف ما تضمنه من طباق بأنه من أخف الطباق روحا، وأقله كلفة، وأرسخه في السمع وأعلقه في القلب، وهو :

- | | |
|---|--|
| (١) ألا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَىٰ لِي نَعِيمُهَا | تَكَرَّرَ عَلَيْنَا بِالْوَصَالِ فَنَنْعَمُ |
| (٢) وَصَفَرَاءَ تُحَكِّي الشَّمْسُ مِنْ عَهْدِ قَيْصَرٍ | يَتَوَقَّعُ إِلَيْهَا كُلُّ مَنْ يَتَكَرَّمُ |
| (٣) إِذَا مُزِجَتْ فِي الْكَأْسِ خَلَّتْ لَأَلْنَا | تَنْشُرُ فِي حَافَاتِهَا وَتَنْظُمُ |
| (٤) جَمَعْنَا بِهَا الْأَشْتَاتَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ | عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يُعْشَ فِي ذَاكَ مُحَرَّمُ |

(١) العمدة : ٢ / ٨.

(٢) فاطر : ١٩ - ٢٢.

فطابق بين (تنشر وتنظم) وبين (جمعنا والأشتات) أسهل طباق وألطفه من غير تعمل ولا استكراه، وأتى في البيت الأول من قوله (مضى وتكر) بأخفى مطابقة وأظرف صنعة على مذهب من انتحله^(١) ويتحلى ابن رشيق في (العمدة) بروح الناقد المنصف، والحكم البصير العادل.

فهو إذا وجد خطأ بينه وأوضح سببه، وسخر من خطئ صاحبه ولكنه - في نفس الوقت إذا وجد صواباً، أشاد به واحتفل بصاحبه الذي سخر منه منذ قليل.

تراه يسخر من القاضي الجرجاني إذ يستلطف قول الطائي :

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطَّ إِلَّا أَنْ تَلَّكَ ذَوَابِلُ

لمطابقته بين (هاتا) و (تلك) وإحداهما - كما زعم أبو الحسن - للحاضر، والأخرى للغائب، فكانتا في المعنى تقيضتين، وممثلة الضدين.

ويعقب ابن رشيق على قول الجرجاني بقول لاذع تظهر منه القسوة والشدة على الرجل. فيقول: (وليس عندي بمحقق، إنما إحداهما للقريب، والأخرى للبعيد المشار إليه، ولكن الرجل أراد التخلص فزل في العبارة^(٢)).

لكنه سرعان ما يتبني وجهة نظر الجرجاني - الذي سخر منه للتو - حين يحذر من الخلط بين الأمور، وإدخال ما ليس من المطابق في المطابق، ويستعين في تحذيره بقول الجرجاني في الوساطة: (وقد يخلط من يقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه) كقول كعب بن سعد الغنوي :

لَقَدْ كَانَ أَمَّا حِلْمُهُ فَمَرُوحٌ عَلَيَّ وَأَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبٌ^(٣)

لما رأي الحلم والجهل، ووجد مروحا وعزيباً، جعلها في هذه الجملة، أي (في جملة الطباق)، ولو ألحقنا ذلك بما لوحب أن يلحق أكثر أصناف التقسيم، ولاتسع الخرق فيه، حتى يستغرق أكثر الكلام^(٤).

ورغم أن القيرواني، يسخر من الجرجاني، ثم ينقل عنه ويحفل به، إلا أنه لا يوافقه على طول الخط، بل يدلي برأيه فيما استنكره الجرجاني في هذا البيت، ويرى أن المقابلة أو المطابقة في هذا البيت صحيحة، لمقابلة الشاعر فيه (كلمتين بكلمتين تقربان من

(١) العمدة : ٢ / ١١.

(٢) السابق : ٢ / ٩.

(٣) مروح علينا : مريح لنا كما يروح بالمروحة لتحلب نسيم الهواء، عزيب : بعيد، (المعجم

الوسيط)، ط ٢، دار المعارف، ١٩٨٠.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤٦.

مضادهما، وليستا بضدين على الحقيقة، لأن (الحلم) ليس ضده في الحقيقة (الجهل)، وإنما ضده (السفه والطيش) وضد (الجهل) (العلم والمعرفة)، وما شاكلهما، وكذلك (المروح) ليس ضده (العزيب)، وإنما ضده (المغدوُّ به أو المبكر) وما أشبههما^(١).

ولكن ابن رشيق يرى صحة ذلك على سبيل التسامح، وهذا - في رأبي - ما عناه ابن سنان (بالطباق غير المحض^(٢)) وهو الذي يكفي فيه بمجرد المخالفة لا المضادة.

وأضيف إلى ذلك أن في البيت مقابلة بين قرب حلمه وبعد جهله، وذلك إذا اعتبرنا ما في الحلم من معنى الترويح عن النفوس كالمروحة تجلب الهواء البارد الذي يلامس الوجوه ويخفف من هجير الجو، فكذلك حلمه قرب إليهم الأمن والاطمئنان ولكن جهله بعيد لا يصيبهم بأي أذى.

ويضع ابن رشيق قاعدة لذلك إذ يقول: (لأن الناس متفقون على أن جميع المخلوقات: مخالف وموافق ومضاد، فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة، فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة^(٣)).

وعلى ذلك فإن ابن رشيق يجوز الطباق بين الحلم والجهل في بيت كعب بن سعد الغنوي السابق، وفي بيت أبي تمام :

وَلَقَدْ سَلَوْتُ لَوْ أَنَّ دَارًا لَمْ تُلْحَ وَحَلُمْتُ لَوْ أَنَّ الْهَوَى لَمْ يَجْهَلَ

ويرى ابن رشيق أن التفرقة بين المضاد والمختلف والمؤتلف تتطلب من الأديب ومن القارئ خبرة ومعرفة بمعاني الألفاظ وأضدادها، حتى يمكن التمييز بين الطباق المحض وغير المحض، فإن بين الجمال والقبح، والنعيم والضر، طباقا غير محض، يغلط فيهما كثير من الناس، ويظنون أنهما من الطباق المحض، ومن ذلك قول بعض المحدثين :

وَجْهُهُ غَايَةُ الْجَمَالِ وَلَكِنْ فَعَلَهُ غَايَةُ لِكُلِّ قَبِيحٍ

لأن ضد الجمال : الدمامة، وضد القبح : الحسن.

وقول أبي بكر الصولي يصف قلمه :

نَاحِلُ الْجِسْمِ لَيْسَ يَعْرِفُ مُذْكََا نَ نَعِيمًا وَلَيْسَ يَعْرِفُ ضَرًّا

لأن ضد النعيم : البؤس، لا الضر.

(١) العمدة : ٢ / ١٠.

(٢) سر الفصاحة : ١٩٤.

(٣) العمدة : ٢ / ١٠.

ويعيب على البعض أنه يدخل - خطأ - الطباق المحض في غير المحض، كما فعلوا في قول أبي الطيب :

فالسُّلْمُ تَكْسِرُ مِنْ جَنَاحِي مَالِهِ بِنَوَالِهِ مَا تُجْبِرُ الْهَيْجَاءُ

إذا اعتبر البعض أن الطباق بين (السلم والهيحاء) طباقاً غير محض، بينما هو في الواقع طباق محض، لأن المراد بالهيحاء : الحرب، وهي اسم من أسمائها، فكأنه قال: (ما تجبر الحرب) فأتي بضد السلم حقيقة.^(١)

كما يعقد القيرواني باباً لـ (ما يختلط فيه التجنيس بالمطابقة)، ويبين سبب اختلاطهما، ويرد السبب الأول في هذا الخلط إلى قلة التمييز وعدم الإحسان، ويسوق لذلك أمثلة عديدة توقفنا على مدى خبرته بمرامي الكلام وأسرار الألفاظ.

ولقد دلنا الرجل على أن بعض الكلام باطنه مطابقة وإن كان ظاهره التجنيس، (كأن يقع في الكلام شيء مما يستعمل للضدين كقولهم: (جلل). بمعنى: (صغير) و (جلل). بمعنى (عظيم)، وكذلك: الجون: الأبيض، والجون: الأسود، وما أشبه ذلك.

ومثله ما يدخله النفي كقول البحري :

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ الْهَوَى وَيَسِرُّ إِلَى الشَّوْقِ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

فهذا مجانس في ظاهره، وهو في باطنه مطابق، لأن قوله: (لا أعلم) كقوله: (أجهل). ومثله في القرآن الكريم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

ومما ظاهرة تجنيس وباطنه طباق أيضاً : الوعد والوعيد، كما قال الشاعر :

وَإِنِّي إِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخِلْفُ إِعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

ومن هذا الباب قولك : فاعل ومفعول نحو خالق ومخلوق وطالب ومطلوب، وهما ضدان في المعنى تجانسا في اللفظ وكذلك ما كان اسم الفاعل منه (مُفْعَل) والمفعول (مُفْعَل) نحو مُكْرَم مُكْرَم، وَمُعْطٍ وَمُعْطَى، وما جرى هذا المجري أو زاد عليه في البناء. ومما جاء ظاهره طباقاً وباطنه تجنيساً، ما قاله العتابي يعاتب المأمون وقد حُجِبَ عنه، وكان به حفيظاً :

تَضْرِبُ النَّاسَ بِالْمَهْنَةِ الْبِيْءُ ضَرِبَ عَلَى غَدْرِهِمْ وَتَنَسَّى الْوَفَاءَ.

(١) العمدة : ٢ / ١٢.

(٢) الزمر : ٩.

ونستنتج مما سبق : أن القيرواني يرى أن هذه الألوان قد تختلط ببعضها بحيث يصبح المحانس مطابقا وبالعكس، وأنه لا حرج في هذا ما دام الأساس موجودا وهو التضاد الصريح أو الضمني بين الأطراف.

وحين خص القيرواني المقابلة بالحديث، عرفها بما اتضح عنده مما لم يسبق إليه، فقال: (هي مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم) وهي عنده ممتزجة بالتقسيم^(١) والطباق، وتتصرف في أنواع كثيرة.

ولقد مر بنا أن ابن وهب الكاتب صاحب (البرهان في وجوه البيان) يدمج المقابلة مع صحة التقسيم ومراعاة النظر، فلعل القيرواني متأثر بهذا الاتجاه حين يمزج المقابلة بالتقسيم والطباق في أنواع كثيرة.

والقيرواني ينص على أن الأصل في المقابلة هو ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه.^(٢)

وهذا التعريف مسبوق إليه من قدامة ومن تبعه.

ويربط ابن رشيق بين الطباق والمقابلة حين ينص على أن أكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين، كان مقابلة، ويستشهد لذلك بما أنشده قدامة وهو:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرُ

ويؤكد مزج المقابلة بالتقسيم حين يشيد بقول أبي تمام :

فَكُنْتُ لِنَاشِئِهِمْ أَبَا وَلَكَهْلِهِمْ أَخَا وَلِذَوِي النَّفُوسِ وَالْكِبَرَةِ ابْنَمَا

فيصف هذا القول بأنه (من أحكم المقابلة، وأعدل القسمة، وأن المقابلة كلما توفر حظها من التقسيم والطباق كانت أفضل^(٣)).

(١) التقسيم : هو استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به، كقول بشار يصف هزيمة :

بَضْرَبَ يَذوقُ الْمَوْتَ مَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَتَدْرِكُ مَنْ نَجَّى الْفَرَارُ مَثَالَهُ
فَرَا حَوْأً فَرِيقًا فِي الْإِسَارِ وَمِثْلُهُ قَتِيلٌ وَمِثْلٌ لَأَذَى بِالْبَحْرِ هَارِبُهُ

فالبيت الأول قسمان : إما موت وإما حياة تورث العار، والبيت الثاني ثلاثة أقسام : أ. هرب وقتيل وهارب، فاستقصى جميع الأقسام، ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر. (العمدة : ٢ /

٢١).

(٢) السابق : ١٥ / ٢ .

(٣) السابق : ٢٠ / ٢ .

لكنه وإن أخذ عن قدامة جزءاً من التعريف وهو (أن يأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالف)، إلا أنه ينتقده في عدم مبالاته بالترتيب ومراعاة التقديم والتأخير. ففي رأيه أن ما أورده قدامة للطرح:

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا
فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنٍ يَدِ ثَوَابَا

لا ينطبق على حد المقابلة، فإنه قدم ذكر الإنعام على المأسورين وآخر ذكر القتل في البيت الأول، وأتى في البيت الثاني بعكس الترتيب، وذلك أنه قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب، وآخر ذكر الثواب على حسن اليد. اللهم إلا أن يريد بقوله (فما صبروا لباس عند حرب): القوم المأسورين، إذ لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد، فإن المقابلة حينئذ تصح، وتترتب على ما شرطنا^(١).

وعاد القيرواني ليؤكد ما بدأه من تعريف المقابلة بأنها: (مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم). فذكر أن هذه تسمى عندهم: مقابلة الاستحقاق، ويقرب ذلك إلى الأذهان حين يستشهد على هذه المقابلة بقول أبي الطيب المتنبي:

رِجْلَاهُ فِي الرِّكَضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ وَفَعَلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ

لأن الكف من اليد بمنزلة القدم من الرجل، فبينهما مناسبة، وليست مضادة، ولو طُلبت المضادة، لكان الرأس أو الناصية أولى، كما قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾^(٢).

وهو بهذا يفتح باب المقابلة على مصراعيه أمام المضاد والقريب من المضاد، والتناسب بين الألفاظ والمعاني، بحيث يواجه كل لفظ بما يستحقه في الحكم.

والدليل على ذلك - بالإضافة إلى ما سبق - رؤية الرجل نفسه لوجه الجمال والحسن في المقابلة في قوله تعالى ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

(١) العمدة: ٢ / ١٥ - ١٦.

(٢) الرحمن: ٤١.

(٣) القصص: ٧٣.

في حين لم يلتفت إلى التضاد بين الليل والنهار، وبين السكون والحركة الناجمة عن ابتغاء الفضل.

ومعنى ذلك : أن ابن رشيق يوسع مفهوم المقابلة لتشمل الطباق والتقسيم والتناسب ويدخل فيها أيضا نوعا - يختص باسم الموازنة^(١)، وهو ما ليس مخالفا ولا موافقا - كما شرطوا - إلا في الوزن والازدواج^٢ فقط.

ومما يوضح لنا هذا، استشهاده بقول أبي الطيب :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

حيث وازن قوله: (في حياتك) بقوله (في منامك) وليس بضده ولا موافقه. وكذلك صنع في الموازنة بين (حبيب) و (خيال) فهما متحدان في الوزن وفي التقطيع العروضي وإن اختلف حرف اللين فيهما. فكلاهما (فعلولن).

ومما يؤكد حرصه على مزج الموازنة بالمقابلة، تعقيبه على قول النابغة الجعدي :

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

بأن (هذا جيد، ولو كان كل مقابل على وزن مقابلة في هذا البيت لكان أجود)^(٣).

وكما فعل معظم السابقين - حين تناولوا هذا الفن - أورد ابن رشيق طائفة من عيون الشعر، وروائع النثر، ودررا من القرآن الكريم، كأمثلة للمقابلة الصحيحة.

كما عني - أيضا - بذكر أمثلة أخرى للمقابلة المعيبة، محللا بعضها، وتاركا البعض الآخر لفطنة القارئ وذكائه.

فمن أمثلة المقابلة الجيدة من القرآن الكريم، قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْأَيُّكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤)

ومن الشعر قول عمرو بن معدى كرب الزبيدي :

(١) الموازنة : هي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية كقوله تعالى ﴿وَتَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾. الإيضاح للقزويني : ٢٢٤.

(٢) الازدواج هو : تجانس اللفظين المجاورين نحو (من جَدَّ وَجَدَّ، ومن لَجَّ وَلَجَّ). انظر في ذلك جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي ط ١٢، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م، ص ٤٠٤، وانظر أيضا ٩٥/٤ - ٩٦ من كتاب : بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، ط ٢، مكتبة الأدب ومطبعتها، مصر.

(٣) العمدة : ١٦ / ٢

(٤) سبأ : ٢٤.

وَيَقْبَى بَعْدَ حِلْمِ الْقَوْمِ حِلْمِي وَيَفْنَى قَبْلَ زَادِ الْقَوْمِ زَادِي
فَقَالَ (يَبْقَى بَعْدَ) ثُمَّ قَالَ (يَفْنَى قَبْلَ) .
وقول الفرزدق :

وَإِنَّا لَتَمْضَى بِالْأَكْفِ رِمَاحُنَا إِذَا أُرْعِشْتَ أَيْدِيكُمْ بِالْمَعَالِقِ^(١)
ومن النثر قول بعض الكتاب (فإن أهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش، وليس من يجمعُ إلى الكفاية الأمانة، كَمَنْ أَضَافَ إِلَى الْعِجْزِ الْخِيَانَةَ^(٢)).
ومما أورده من معيب المقابلة، وما سقط فيه الشاعر عبد الكريم من جهة المقابلة -
وإن كان تمثيلاً وتشبيهاً - حين مدح نزار بن معد صاحب مصر :

إِلَى مَلِكٍ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ الْكَوَاكِبِ وَالتُّرْبِ
لأنه لما أتى بالملوك أولاً، وبضمير الممدوح (وهو هاء بينه) بعد ذلك، ثم لما أتى بـ
(الكواكب) وهي جماعة تقابل (الملوك) وبـ (الترب) وهو واحد يقابل الضمير
باتحاده، أوجب له بهذا الترتيب أن يكون هو الترب - وتكون الملوك هم الكواكب،
ولم يرد عبد الكريم إلا أن يجعله موضع الكواكب، ويجعلهم موضع الترب، ولكن حكم
عليه بما حكم على ابن المعتز^(٣) الذي انتهى إليه التشبيه وسر صناعة الشعر.^(٤)
ولا ننسى قبل أن نترك ابن رشيق إلى غيره أن ننوه بجهوده، وبالجديد الذي أتى به
في باب المقابلة، وأن نشيد بسعة أفقه ونفاذ بصيرته حين وسَّع مفهوم المقابلة هذا
التوسيع الذي يحفظ للبديع بعضاً من وحدته التي تمزقت، ويجمع النظر إلى نظيره كلما
أمكن ذلك.

(١) العمدة : ٢ / ١٦ .

(٢) العمدة : ٢ / ١٨ .

(٣) عاب الجرجاني على ابن المعتز قوله :

يَبَاضُ فِي جَوَانِبِهِ إِحْمَرَارٌ كَمَا إِحْمَرَّتْ مِنَ الْحَجَلِ الْخُدُودُ

لأن الخدود متوسطة، وليست جوانب، وهذا من سوء المقابلة وإن عده الجرجاني غلطاً في التشبيه)

العمدة : ٢ / ١٨ .

(٤) العمدة : ٢ / ١٩ .

١٠ - السكاكي^(١) (٥٥٥ - ٦٢٦ هـ)

في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع نلتقى بالسكاكي: (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي). فنجد علوم البلاغة، وخاصة البديع (تنحدر رويدا رويدا إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ويفقد البديع صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب، ويتعثر في قيود ضيقة قدَّها له المنطق والفلسفة حتى صار همُّ العلماء تعديد ألوانه، والاكتفاء بتحديداتها، كما تحدد الكلمات اللغوية، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها كابرا عن كابر، حتى صارت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي - زعيم هذه الحلبة - كأنها كتاب واحد، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه^(٢)).

وفي كتابه (مفتاح العلوم) يتحدث عن المطابقة والمقابلة ضمن (الوجوه المخصوصة التي كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام^(٣)).

ومعنى ذلك أنه يعتبر البديع عموما: علم الزينة اللفظية، وزخرفة الكلام، وأن هذا هو المقصد الأول منه، مع أن البديع وخصوصا المقابلة في القرآن الكريم تأتي لتؤدي دورا جوهريا في المعنى، وليست لمجرد الحلية والزينة كما سيتضح فيما بعد. وهذه الوجوه المخصوصة التي تقصد لتحسين الكلام عند السكاكي تنقسم إلى قسمين:

قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، ولحسن الحظ، أنه يعتبر المطابقة والمقابلة مما يرجعان إلى المعنى.

وكما كان عصر السكاكي، عصر الشروح المطولة، كان أيضا عصر الاختصار والمتون.

لذلك فإننا نجد السكاكي يتحدث في عدة سطور عن المطابقة، عرفها بأنها (الجمع بين متضادين) واستشهد لها بيت واحد من الشعر، وبثلاث آيات من القرآن الكريم، دون أن يكلف نفسه عناء الإشارة إلى سر جمالها أو توضيح موطن الطباق فيها.

(١) الأعلام : ٨ / ٢٢٢.

(٢) الصبغ البديعي : ٢٤٣.

(٣) مفتاح العلوم، للسكاكي (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر): ٢٠٠، ط : الحلبي - القاهرة.

وبالمثل حين تحدث عن المقابلة، لم يتجاوز تعريفها والاستشهاد لها بمثال واحد، وتكرم ببيان وجه الاستشهاد به.

عرف المقابلة بأنها (الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما)، وهو تعريف متواتر عن سبقه.

لكن ما زاده السكاكي على تعريف المقابلة هو قوله (ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده).

واستشهد لها بقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٦﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٧﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٩﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿١٠﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١١﴾﴾^(١)

لما جعل (التيسير) مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده وهو (التعسير) مشتركا بين أضداد تلك وهي المنع والاستغناء والتكذيب.

وبهذا الاختصار (فتح السكاكي الباب لمن بعده، حتى وصلت البلاغة إلى الحد الذي يثير الضحك ويعث على التندر)^(٢).

وهكذا اختصر السكاكي الحديث عن الطباق والمقابلة اختصاراً أذهب برونقهما وبهائهما اللذين لمسناهما عند من سبقه.

١١- ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٢٧هـ)

إن أي عصر مهما اشتد ظلامه، لا بد أن تبرق في سمائه ومضة تحيي الأمل، وشعاع يبعث في النفوس الحياة، والتشوف لفجر جديد.

ففي وسط موجه الإسفاف، والانحطاط، وجمود البلاغة والبعد بها عن الصبغة الأدبية، نجد عالماً فاضلاً يحاول أن يخرج بالبلاغة من الوهدة التي تردت فيها، فيحدد شبابها ويضعها في مسارها الصحيح.

ذلك هو ابن الأثير: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير^(٣).

(١) الليل : ٥ - ١٠.

(٢) الصيغ البديعي في اللغة العربية، الدكتور أحمد إبراهيم موسى : ٢٥٤، ط - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: أصغر ثلاثة أخوة الذين عرفوا ببني الأثير، أكبرهم مجد الدين (المحدث) : ٦٠٦، وأوسطهم: عز الدين (المورخ)، وأصغرهم ضياء الدين (- ٦٣٧) الأعلام : ٨ / ٣١

وقد سبق أن أشرت إلى جهده المشكور في تأصيل الفكر العربي والثقافة العربية، وعدم تأثرها بالفكر اليوناني^(١).

وأول ما يلفت نظرنا في حديثه عن المطابقة والمقابلة، أنه تحدث عنهما ضمن الحديث عن تناسب المعاني، فقد بين أن وجوه هذا التناسب تندرج في ثلاثة أنواع:
الأول: المطابقة،

الثاني: صحة التقسيم،

الثالث: ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد.

وفي حديثه عن المطابقة، عرض لحقيقتها، واستعرض ما قاله السابقون عنها وخروج قدامسة على الإجماع، حين عرف المطابقة تعريفاً ينطبق على الجنس فقال بأنها (إيراد لفظين متساويين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى).

لكنه رأى أن الاشتقاق اللغوي يؤيد رأى قدامسة، على اعتبار أن المطابقة مأخوذة من: طابق البعير في سيره: إذا وضع رجله موضع يده، فاليد غير الرجل لا ضدها، والموضع الذي يقعان فيه واحد، فكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحد. فقدامسة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا، حيث كان الاسم مشتقا مما سمى به، وذلك مناسب وواقع في موقعه^(٢).

وكما سمى ابن سنان الجميع (مطابقا)^(٣). كذلك ذهب ابن الأثير إلى أن الأليق من حيث المعنى إطلاق اسم المقابلة على المطابقة^(٤) ثم شرع في تعليل مذهبه، وحينئذ غلبت عليه لغة العصر في التعليل والتقسيم العقلي والمنطقي.

إن الأمر عنده - على حد قول المناطقة - لا يخلو من وجهين: فإما أن يقابل الشيء بضده، أو أن يقابل بما ليس بضده، وليس هناك وجه ثالث.

فأما ما يقابل بضده، فينقسم إلى نوعين:

الأول: مقابلة في اللفظ والمعنى مثل قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه: (إن الحق ثقيلٌ مرِيءٌ والباطل خفيفٌ وبِيءٌ، وأنت رجلٌ إن صدقتُ سخطتُ، وإن كذبتُ رضيتُ).

(١) ارجع إليه ص (٣٨) من هذا البحث، وفي المثل السائر : ١ / ٣١١

(٢) المثل السائر : ٢ / ٢٧٩

(٣) سر الفصاحة : ١٩٢

(٤) المثل السائر : ٢ / ٢٨٠

فقابل الحق والباطل، والثقل المريء بالخفيف الوبيء، والصدق بالكذب، والسخط بالرضا، في خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار^(١).

والثاني: مقابلة في المعنى دون اللفظ، مثل قول المقنع الكندي من شعراء الحماسة:

لَهُمْ جُلٌّ مَا لِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَا لِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدًا

لأنه قوله: (تتابع لي غنى) بمعنى قوله (أكثر ما لي) .

وأما ما يقابل بما ليس ضده، فقد قسمه إلى ضربين:

أحدهما: ألا يكون مثلاً، والآخر أن يكون مثلاً.

وقسم الضرب الأول إلى فرعين: ما كان بين المتقابلين نوع مناسبة وتقارب، وما كان بينهما بعد، وأدخل في الأخير: المؤاخاة بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني ولعلها هي التناسب أو مراعاة النظير الذي تحدث عنه ابن رشيق^(٢) من قبل، كما قسم الضرب الثاني إلى فرعين أيضاً: مقابلة المفرد بالمفرد، ومقابلة الجملة بالجملة.

وركز اهتمامه على الأخير باعتباره تقابلاً من جهة المعنى ومثل له بقوله تعالى: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) فهذا تقابل من جهة المعنى، ولو كان من جهة اللفظ، لقال: (وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي إِلَيْهَا)^(٣).

ثم نوه - بعد هذه التقسيمات والتفريعات - إلى أن في تقابل المعاني بابا عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر^(٤)، وهو ما نوه به الزمخشري في الكشف^(٥) والزرکشي في البرهان^(٦).

ورغم الجفاف الذي يبدو من هذه التقسيمات المنطقية التي غلبت على ابن الأثير، إلا أنه حين عرض الشواهد وعلق عليها ظهرت فيه روح الأديب الفنان، ورؤية الذوافة البصير فجاءت بأسلوب أدبي رائع مبلى بقطر الندى، مما لطف من جو الجفاف المنطقي، هذا بالإضافة إلى ما طعم به حديثه عن المقابلة من شواهد من تأليفه هو كأن

(١) السابق : ٢ / ٢٨٠

(٢) العمدة : ٢ / ١٦

(٣) المثل السائر : ٢ / ٣٠٠

(٤) السابق : ٢ / ٣٠١

(٥) الكشف : ٤ / ١٤٥

(٦) البرهان في علوم القرآن، للزرکشي (الإمام بدر الدين محمد عبد الله بن هادر) : ٣ / ٤٦٣،

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبي، مصر ١٩٥٧

يقول: (ومن كلامي في هذا الباب ما كتبه في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان: صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر وصير ملهم وجزع عاذر، وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر^(١)).

وهذا يدل على أن الرجل وإن غلبت عليه لغة العصر، إلا أنه كان يحاول تجديد شباب البلاغة بتعليقاته وشواهد.

١٢- حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)

ونعود مرة أخرى إلى المغرب العربي، فنلتقي في القرن السابع الهجري بقطب بارز من أقطاب البلاغة والأدب، وهو (أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجني المستوفى بتونس ٦٨٤هـ^(٢)). وهو صاحب كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) ذلك الكتاب الذي عدت عليه عاديّات الزمن (ولم يبق منه سوى قسمين أحدهما يتعلق بالمعاني والثاني يتعلق بالمباني^(٣)).

ولا بد لمن يريد الانتفاع بهذا الكتاب أن يتسلح بالصبر، وأن يفهم - قبل الدخول فيه - الاصطلاحات والرموز التي استخدمها حازم وتختلف عن المعهود في كتب المشاركة.

فهو يستعمل اصطلاحات خاصة مثل كلمة (مأم) وتعني: مقصد أو فصل من باب، وكلمة (إضاءة) وتعني: رأس فقرة ومثلها في المعنى (تنوير)، كما أن الحرف (ق) يرمز إلى (قسم).

والقارئ لهذا الكتاب يهوله ذلك الثراء الفكري، وهذا العمق الكبير والبصر. مرامي الكلام، كما يروعه اهتمام حازم البالغ بالمعاني وأحوالها، وخاصة من حيث كونها ملائمة للنفوس أو منافرة لها فتحت هذا العنوان الضخم (المعاني) وهو القسم الأول من كتابه تحدث الرجل عن تفرّعات شتى، لا غنى عنها في صناعة الأدب، كلها تدور حول المعاني، مما يوحي بأن المعنى هو دينه وديدنه وشغله الشاغل.

(١) المثل السائر : ٢ / ٢٨١

(٢) الأعلام : ٢ / ١٥٩

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (من المقدمة)، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب بن الخوجة، ط ١، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦

تحدث عن الإبانة عن ماهيات المعاني، وانحاء وجودها ومواقعها، والتعريف بضروب هياتها، وجهات التصرف فيها وما تتغير به أحوالها في جميع ذلك، من حيث كونها ملائمة للنفوس أو منافرة لها، وكأنه بذلك يرسى مبدءا نقديا هاما، يجب أن تراعيه الأعمال الأدبية إذا أرادت أن يُكْتَبَ لها النجاح والخلود .

كما تحدث عن طرق اجتلاب المعاني وكيفية التثامها وبناء بعضها على بعض، وطرق العلم بكيفيات مواقع المعاني في النفوس وطرق استثارة المعاني من مكانها، والعلم بالمناسبة بين بعض المعاني والمقارنة بين المتناظر منها.

وفي سياق حديثه عن تلك الأبواب، وخاصة طرق اجتلاب المعاني وكيفيات التثامها، وبناء بعضها على بعض، تحدث عن المطابقة والمقابلة.

ومعنى ذلك أنه يعتبرهما جزءا جوهريا في باب المعاني، وليستا مجرد لونين من ألوان الزينة اللفظية، والحلى البديعية.

وهكذا، وفي الوقت الذي توشك فيه شعلة العلم أن تخبو في المشرق، وفي الوقت الذي يسود فيه الإسفاف، ويغلب فيه الجمود الفكري، تبرز شمس المعرفة والعلم في المغرب، ويحمل الشعلة المقدسة رواد جدد، لأن الله تعالى يريد للغة القرآن أن تظل نابضة بالحياة، دفاقة بالفكر، فياضة بالنور، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١)

حين تناول القرطاجني المطابقة والمقابلة بالحديث، اعتبرهما ضمن طرق اجتلاب المعاني، وبناء بعضها على بعض، فهما إذن ركن ركين وأساس متين في المعنى والصورة على حد سواء.

فالمطابقة عنده تعني (وضع أحد المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعاً متلائماً^(٢)).

وهو إذ يضيف إلى تعريف السابقين كلمتي (وضعاً متلائماً) فإن ذلك ليكشف عن اهتمامه بطرق اجتلاب المعاني، وكيفيات التثامها، وملاءمتها للنفوس.

وفي أثناء ذلك، يورد - كما أورد غيره - خروج قدامة على هذا المعنى، وتسميته تضاد المعنيين (تكافؤا)، كما يعرض للأصل اللغوي للفظ المطابقة، بما لا يخرج عما

(١) الحجر : ٩

(٢) منهاج البلغاء، لحازم : ٤٨ وما بعدها.

رأيناه عند الخليل بن أحمد، كما يقسم المطابقة إلى محضة وغير محضة ويعطي تعريفا لكل منهما، ويوضح ذلك بالأمثلة مع بعض التعليقات البسيطة.

كما يعرض للمطابقة بالإيجاب والسلب مستشهدا بقول السموءل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وقول البحتري:

تَقِيضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ التَّوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

ويدخل في المطابقة ما وقع بغير اللفظ كقول بعضهم:

فَإِنْ تَقْتُلُونِي فِي الْحَدِيدِ فَإِنِّي قَتَلْتُ أَنْحَاكُم مَّطْلَقًا لَمْ يُكَبَّلْ

فإن (مطلقا) تقابل في المعنى (في الحديد)

ويلفت النظر إلى أنه قد يوجد في الكلام ما صورته صورة الطباق، وليس بمطابقة

من جهة المعنى، كقول قيس بن الخطيم:

وَإِنِّي لِأَغْنِي النَّاسَ عَنْ مَتَكَلَّفٍ يَرَى النَّاسَ ضَلَالًا وَلَيْسَ بِمُهْتَدِي

فإن (ليس بمهتدي) لا تضاد ولا تخالف (ضلالا) بل هي في معناها.

ويسبدو أن حازما - في هذا - متأثر بالقاضي الجرجاني وابن رشيق في التحذير من

خلط ما ليس من المطابق بالمطابق^(١).

كما يدخل حازم التبديل ضمن المطابقة، وهو عنده: (تخالف وضع الألفاظ

لتخالف في وضع المعاني، ولنسبة بعضها من بعض فيقع بذلك بين جزئين من أجزاء

الكلام نسبتان مختلفتان مثل:

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَصْلَحْتُهُ فَإِذَا أَنْفَقْتُهُ فَاِلْمَالُ لَكَ

وقد روى ابن رشيق صدر هذا البيت بغير الوجه الذي هو عليه في هذا النص، فحاء

(إذا أمسكته)^(٢) بدل (إذا أصلحته) ولكن ابن رشيق كان يستشهد به للطباق بين

(أمسكته) و (أنفقته)، أما حازم فيستشهد به للتبديل بين (أنت للمال) و (فالمال لك).

وتناول حازم للطباق - بهذه الصورة - يعيد إلى الأذهان ما فعله القاضي الجرجاني

وابن سنان، في تقسيهما الطباق إلى محض وغير محض، وفي حديثهما عن العكس

والتبديل. والإيجاب والسلب.

(١) الوساطة : ٤٦

(٢) العمدة : ٨ / ٢

أما حين تحدث القرطاجني عن المقابلة، فقد بسط القول في تعريفها، ليوضح الهدف من المقابلة، وهذا هو الجديد عنده، لأن معظم من سبقه بالحديث عن المقابلة لم يذكر الهدف منها، أما صاحبنا مشغول بالمعنى، ومعنى به - فقد اعتبر أن الهدف من المقابلة هو كونها: (مأمٌ من مذاهب البلاغة المستشرقة بمعلم طرق العلم بالمناسبة بين بعض المعاني وبعض، والمقارنة بين ما تناظر منها^(١)) أي أن الهدف هو كونها مقصدا من مقاصد البلاغة، تطلب وتقصد مناسبة بين بعض المعاني وبعضها الآخر، وللمقارنة بين المتناظر من هذه المعاني.

.. ولذا، وجدناه يطيل في تعريفها إطالة يقصد من ورائها إفهام القارئ والأديب، المغزى الذي يتحقق من المقابلة وبيان مدى ما أسهمت به في خدمة المعنى.

انظر إليه يقول:

(تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعض، والجمع بين المعنيين اللذين يكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر، من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب، على صفة في الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر، كما لا أم كلا المعنيين في ذلك صاحبه).

ويفهم من هذه العبارة أن المقابلة تشمل: الطباق ومراعاة النظير والتناسب.

وهي - على طولها - لا تبعد كثيرا عما عناه قدامة في قوله: (أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق ما يوافق وفي المخالف بما يخالف، أو يشرط شروطا ويعدد أحوالا في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي بما يوافقه. يمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالفه بأضداد ذلك^(٢)).

كما يتفق هذان القولان تقريبا مع قول ابن رشيق: (مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم).

وربما كان الخلاف بين هؤلاء العلماء في طريقة العرض فقط.

ولا يتوسع حازم في الشرح والتفصيل والتمثيل للمقابلة، بل يكتفي بالقول: (بأنها أنواع تتشعب، وقل من نجد يفتن لمواقع كثيرة منها في الكلام^(٣)) ويورد القليل من الأمثلة للمقابلة الصحيحة كقول هند بنت النعمان:

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٥٢، ومعنى (مأم) : مقصد وطلب ومثلها معنى (معلم)

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر : ١٣٣

(٣) منهاج البلغاء لحازم : ٥٢

(شَكَرْتُكَ يَدُّ نَالَتْهَا خَصَاصَةً بَعْدَ نِعْمَةٍ، وَلَا مَلَكَتْكَ يَدُّ نَالَتْ ثَرَوَةً بَعْدَ فَاقَةٍ).
ويكشف - كغيره - عن الخلط بين المقابلة وما ليس منها، ثم يذكر أنها تكون
أفضل بالتضاد (أو التخالف)، وكأنه يعني بذلك ما عناه غيره بالمقابلة المحضة، وغير
المحضة).

والجديد عنده أنه لا يشترط الترتيب بين أطراف المقابلة: (إذ ليس شرطاً تحاذي
عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفي الكلام في الرتبة^(١)) وقد استشهد لذلك بما أورده قدامة
من قبل: ولم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين، وهو قول الشاعر:

أسرناهم وأنعمنا عليهم وأسقينا دماءهم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب ولا أدوا لحُسْنٍ يدٍ ثوابا

حيث قابل ما في صدر البيت الأول بما في عجز الثاني وما في عجز الأول بما في
صدر الثاني.

وتجوز حازم لمثل هذا النوع من المقابلة - على ندرته - يوحى بسعة أفقه ورحابة
صدره، على نقيض ما رأينا من ابن رشيق وهو ينتقد - بمرارة - قدامة على عدم
مبالاته بالترتيب^(٢)، فقد وجدت أثناء بحثي عن المقابلة في القرآن هذا النوع النادر الذي
لم يلتزم فيه القرآن الترتيب بين الأطراف المتقابلة، وذلك كالتقابل بين الآية السابعة
والستين، والحادية والسبعين من سورة التوبة على ما سيأتي بيانه بالتفصيل في موضعه
من هذا البحث إن شاء الله^(٣).

فإذا ما تركنا القرن السابع إلى القرن الثامن، ألفينا نعمة العلماء تتحد، وأقوالهم
تشابه، وتقسيماتهم تتساوى ذلك لأن المنهل الذي قهلوا منه جميعاً واحد وهو تراث
السابقين، ولأن المورد الذي امتاحوا منه لم يضمن عليهم بشيء.
وسنعرض لآراء ثلاثة من أعلام المائة الثامنة، عاشوا في عصر واحد، وقهلوا - كما
قلت - من منهل واحد.

(١) السابق : ٥٣

(٢) العمدة : ١٥ / ٢ - ١٦

(٣) انظر (٣٦٧) من هذا البحث. في فصل (مقابلات متميزة في القرآن الكريم)

ولذلك لن نجد فارقا بينهم، لا في الاتجاه العام، ولا في الجوهر الأصلي للموضوع الذي نعالجه، وأولئك الثلاثة هم: النويري، والقزويني، الجرجاني (محمد بن علي بن محمد) .

١٣- النويري (٦٧٧-٧٣٣)

والنويري هو (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم التيمي البكري القرشي، المعروف بالنويري صاحب الكتاب الشهير " نهاية الأرب في فنون الأدب " ^(١) .

وقد عرض في الجزء السابع من كتابه للحديث عن الطباق والمقابلة والعكس والتبديل ^(٢) .

وهو يعرف الطباق، تعريف السابقين بأنه (الجمع بين ضدين مختلفين) ويورد تأكيد الأخفش على الفرق بينه وبين التجنيس حين قال - وقد سئل عنه - أجد قوما يختلفون فيه، فطائفه - وهم الأكثر - يزعمون أنه الشيء وضده، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين في لفظ واحد كقول زياد الأعجم:

ونبتُّهُم يستنصرون بكاهِلٍ وللوم فيهم كاهِلٌ وسنامٌ

ثم قال (الأخفش) : وهذا هو التجنيس بعينه، ومن ادعى بأنه طباق، فقد خالف الأصمعي والخليل، ف قيل له : أو كانا يعرفان ذلك؟ فقال : سبحان الله! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طيبه ^(٣) ؟

وكأني بالأخفش هنا يعرض بقدمه حين خرج على هذا الإجماع.

ويذكر النويري أن الطباق يسمى المطابقة والتضاد والتكافؤ.

وينبه على ضرورة مراعاة التقابل، حتى لا نحییء باسم مع فعل ولا بفعل مع اسم.

كما يعرض للشواهد المشهورة في هذا الباب، ونذكر منها ما لم نورده لغيره من قبل، من مثل قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ ^(٤)

(١) الاعلام : ١ / ١٦٥

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري : ٧ / ٩٩ - ١٠٣ ، ط ١ ، مطبعة دار

الكتب - مصر ١٩٢٩م

(٣) السابق : ٩٩

(٤) الرعد : ١٠

وقول البحرى :

وَأُمَّةٌ كَانَ قُبْحُ الْجَوْرِ يُسْخِطُهَا دَهْرًا فَأَصْبَحَ حُسْنُ الْعَدْلِ يُرْضِيهَا
ولم يبين موطن الشاهد لوضوحه.

كما عرض لرأى ابن أبى الأصبع فى الطباق، وكونه على ضربين :
ضرب يأتى بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتى بألفاظ المجاز،
فالأول هو الطباق، والثانى هو التكافؤ.

لكنه لم يوافق على ما استشهد به ابن أبى الأصبع للجمع بين الطباق والتكافؤ فى
بيت دعبل الخراعى :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

على اعتبار أن (ضحك المشيب) مجاز، و (بكاء الشاعر) حقيقة، وحجة النويرى فى
رفض هذا الشاهد، أنه إذا كان الطباق عند ابن أبى الأصبع هو التضاد من حقيقتين،
والتكافؤ هو التضاد من مجازين، فليس فى البيت ما شرطه.

والنويرى مصيب فى اعتراضه على تخريج ابن أبى الأصبع، لأن المجاز فى البيت لا
يقابله مجاز مثله، والحقيقة فيه لا تقابل بمثله.

كما عرض النويرى فى كتابه لطباق النفى والإثبات، ولطباق السلب والإيجاب،
وزاد عليهما طباق التردد، وهو أن يرد آخر الكلام المطابق إلى أوله، ولم يمثل له، لكن
مثاله من القرآن الكريم هو ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا
وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

ومن كل ما سبق من حديث للنويرى عن الطباق، يتضح لنا أنه لم يضيف شيئاً
جديداً إلى ما قرره السابقون من العلماء حول هذا الفن، واكتفى بعرض آرائهم
والتعليق عليها تعليقا غير ذي بال.

وحين تحدث عن المقابلة: كان - أيضا - مجرد ناقل عن سبقه: تعريفا وشواهد من
غير تعليق.

عرض تفصيل أئمة البلاغة لمقابلة اثنين باثنين: كقوله تعالى ﴿فليضحكوا قليلا
وليبكوا كثيرا﴾.

ولمقابلة ثلاثة بثلاثة : كقول ابى نواس :

أنا استدعيتُ عَفْوَكُ مِنْ قَرِيبٍ كما استعفيتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدٍ

ولمقابلة أربعة بأربعة، بآية " الليل " المشهورة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرِهِ لِلْيسْرِ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

وَاسْتَغْنَى . وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرِهِ لِلْعُسْرِ ﴾ .

وهنا رأينا النويري يحاول أن يخرج معنى (استغنى) على أنها (زهد فيما عند الله،

واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى ^(١) .

وقد لجأ إلى هذا التخريج الذي يتضمن عدم التقوى، لكي يقابل (استغنى) ب

(اتقى) وهى محاولة طيبة منه، إذا اعتبرنا ذلك داخلا في المقابلة المعنوية أو غير المحضة.

واستشهد لمقابلة خمسة بخمسة، بقول المتنبي المشهور :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأثنى وبياض الصبح يغرى بي

ثم عرض - بعد ذلك - للعكس والتبديل، ولم يبد رأيا فيه، ولم يحدد ما إذا كان

داخلا في المقابلة أم لا.

وقد سبق أن رأينا ابن سنان في (سر الفصاحة) يدخل العكس والتبديل في المقابلة ^(٢)

وملنا إلى هذا الرأي في موضعه ^(٣) .

لكن ما يحمد للنويري في هذا الباب، هو تقسيمه العكس والتبديل إلى ثلاثة أقسام :

١ - أن يقع بين طرفي الجملة، كقول بعضهم :

عادات السادات سادات العادات

٢ - أن يقع بين متعلقى فعلين في جملتين، كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ^(٤) .

وقد قلنا - سابقا - إن في الآية مقابلة صريحة تبين قدرة الله على إخراج الميت من

الحى، في مقابلة قدرته على إخراج الحى من الميت.

٣ - أن يقع بين كلمتين في طرفي جملتين، كقوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ

لَهُنَّ ﴾ ^(٥) .

(١) نهاية الارب : ١٠٣ / ٧

(٢) سر الفصاحة لابن سنان : ١٩٣

(٣) انظر (٥٠) من هذا البحث .

(٤) الروم : ١٩

(٥) البقرة : ١٨٧

وفيها - أيضا - مقابلة خفية لطيفة بين كون الرجال لباسا للنساء في مقابل كونهن لباسا للرجال.

ومن حديث النويري عن المقابلة، ومقارنة هذا بحديث من سبقه، نستطيع أن نحكم على الرجل بالتقليد والنقل، ولعل عذره في ذلك أن هذه كانت سمة العصر الذي عاش فيه، حيث كان التراث العربي مهددا بخطر الضياع والنسيان، فاتجه العلماء إلى نقله بغية الحفاظ عليه.

١٤ - الخطيب القزويني (٦٦٦ - ٥٧٣٩)

أما القزويني فهو (قاضي قضاة الإقليمين جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر ابن احمد الذي ينتهي نسبه إلى أبي دلف العجلي القزويني ثم الدمشقي الشافعي، الذي اشتهر بالخطيب القزويني، ألف في البلاغة كتباً أشهرها : الايضاح في علوم البلاغة، وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان ^(١).

ولم يَنْسَبُ الرجل عن مقاييس عصره في التلخيص والتقسيم والتبويب ولن نجد بينه وبين غيره من العلماء اختلافا كبيرا، اللهم إلا في التحديد الدقيق للمصطلحات، وكذلك في دقة التقسيم.

فالطباق والمقابلة - عنده - يقعان ضمن القسم المعنوي من أقسام البديع ^(٢).

وعنده أن الطباق يشتمل على المقابلة، ولعله في هذا متأثر بابن الأثير وابن سنان، وقد سبق أن رأينا ابن الأثير يرى أن الأليق إطلاق اسم المقابلة على المطابقة ^(٣). وابن سنان يسمى الجميع مطابقا ^(٤).

كما يطلق القزويني اسم (التضاد) على الطباق، ويقسمه إلى نوعين: طباق الإيجاب، وطباق السلب، وألحق به إيهام التضاد، وأدخل فيه المقابلة.

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحى بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٩٨٠ هـ : ٦/

١٢٣، ط دار الآفاق الجديدة بيروت، الأعلام : ١٩٢/٦

(٢) الإيضاح : ١٩٢ - ١٩٦

(٣) المثل السائر : ٢٨٠/٢

(٤) الفصاحة : ١٩٢

كما برع في تقسيم الطباق إلى :

- ١ - طباق بلفظين من نوع واحد : اسمين أو فعلين أو حرفين.
- ٢ - طباق بلفظين من نوعين مختلفين: كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾^(١) أي ضالا فهديناه.

وقسمه أيضا إلى طباق ظاهر وطباق خفي.

فالظاهر: ما لا يحتاج إلى تأويل، وما يظهر فيه التضاد صريحا.

والخفي: ما يحتاج إلى تدبر وروية لاستخراجه واستخلاصه ويغلب أن يكون اللفظ الثاني مستلزما لما يضاد الأول، كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾^(٢). لأن إدخال النار يستلزم الإحراق المضاد للإغراق، أو لأن الغرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَسْدَأْءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٣)، فإن الرحمة مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة، (... ولا شك أن الطباق الظاهر والخفي عنده - بهذا المفهوم - هو ما عناه ابن سنان^(٤)، وابن رشيق^(٥) بالطباق المحض وغير المحض. ويفهم من عرض الخطيب للطباق أنه يجذب اشتمال الصورة على أكثر من لون بديعي، فذلك - في رأيه - يزيد من حسناتها وتأثيرها، إنه حين يستشهد بقول الفرزدق:

قَبَحَ إِلَهُ بَنِي كَلْبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يَفُونَ لِحَارِ
يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نُهَاقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ

يحاول أن يظهر فيه الوانا أخرى غير الطباق الظاهر في :

(يستيقظون - تنام) ويذكر أن فيه - إلى جانب الطباق - تكميل حسن في البيت الأول، إذ لو اقتصر على قوله: (لا يغدرون) لا تحمل الكلام ضربا من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة فقال: (ولا يفون)، ليفيد أنه للعجز، كما أن ترك الوفاء للؤم.

(١) الأنعام : ١٢٢

(٢) نوح : ٢٥

(٣) الفتح : ٢٩

(٤) سر الفصاحة : ١٩٤

(٥) العمدة : ١٠/٢

وفيه مع ذلك إيغال^(١) حسن، لأنه لو اقتصر على قوله: (لا يغدرون ويفون) تم المعنى الذي قصده، ولكنه لما احتاج إلى القافية، أفاد بها معنى زائدا، حيث قال (لجار)، لأن ترك الوفاء للجار أشد قبحا من ترك الوفاء لغيره.

ومع ذلك فاننا في النهاية لا نزيد على القول بأن عمله في الطباق ليس إلا تجميعا وتنظيما لأقوال السابقين، دون إضافة تذكر له في هذا المجال.

أما المقابلة عنده فهي داخلية - كما قلنا - في الطباق، وهو في تعريفه لها لا يشذ عن السابقين في انهما: (الإتيان بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب^(٢)).

وقسمها إلى مقابلة اثنين باثنين وثلاثة بثلاثة، وأربعة بأربعة وخمسة بخمسة، ومثل لكل قسم منها.

ولم ينس أن يظهر روح النقد عنده حين وازن بين المقابلة في بيت أبي دلالة : -
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الفكر والافلاس بالرجل
وبيت أبي الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانشى وبياض الصبح يغري بي
فقد رجع بيت أبي الطيب بكثرة المقابلة، مع سهولة النظم، وبأن قافيته متمكنة، وقافية ذاك مستدعاة، فإن ما ذكره مختص بالرجال.

وامتاز بيت أبي دلالة بجودة المقابلة، فإن ضد الليل المحض هو النهار، لا الصبح، كما ذكر المتنبي،

وكما أدخل القزويني المقابلة في الطباق، أدخل العكس والتبديل فيه، وسار في التعريف به والتمثيل له سيرة النويري.

(١) الإيغال هو: ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، ومنه في القرآن (اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون) فإن كلمة (وهم مهتدون) إيغال، لأن المعنى يتم بدونه اذ الرسول مهتد لا محالة (انظر: معترك الاقران في إعجاز القرآن، للسيوطي: ٣٦٧/١ تحقيق على محمد بجاوي، ط ١، دار الفكر العربي ، بيروت).

(٢) الايضاح : ١٩٥

أما وقد طوفنا كل هذا التطواف عبر هذه القرون، والتقىنا بمختلف العلماء من لغويين ونقاد وبلاغيين، فلنختتم الحديث بعالم له باع طويل في البلاغة، وقدم راسخة في النقد، وهو الجرجاني (محمد بن علي بن محمد) صاحب كتاب (الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة) وقد نهج في هذا الكتاب منهجا متميزا عن سبقه، فهو يتخذ لنفسه منهجا نقديا يعتمد على مناقشة ما عرضه السابقون في علم البلاغة وبيان الصواب والخطأ في حديثهم، ويدل ذلك على عمق ثقافته وسعة اطلاعه (فلم يترك شاردة أو واردة من مسائل البلاغة إلا عرضها عرضا مفصلا دقيقا، سواء التي كانت في عصره أو قبل عصره ممن عرض لها من علماء البلاغة الأفذاذ، ولم يكتف بذلك بل ذيل كل مسألة من مسائل البلاغة التي وجد فيها عوجا أو خللا، فابرز الوهم الذي وقع فيه غيره. وناقشه مناقشة العارف البصير، ثم ينبه على الصواب. والطريقة التي اتبعها لذلك؛ أن يعرض المسألة البلاغية أولا تحت عنوان (إشارة) ثم يناقشها ويبين خطأها، ويردها إلى الصواب تحت عنوان (وهم وتنبيه) وهكذا من أول الكتاب إلى آخره، فعل ذلك مع ابن سنان وعبد القاهر والزمخشري والسكاكي والخطيب القزويني، دون أن يكل، فهدفه الدقة والتمحيص، وتغيير ما ينبغي أن يطرأ عليه من التغيير والتجديد^٢.

وقد عرض في هذا الكتاب للمطابقة والمقابلة والعكس والتبديل تحت عنوان (إشارة) بين فيها أقوال السابقين في هذا المجال، بنفس التعريفات والتفريعات التي رأيناها عند القزويني.

ولم نره يضع شيئا منها تحت عنوان (وهم وتنبيه) ومعنى ذلك أنه لا يعترض على شيء مما أورده للسابقين في هذا الموضوع.

ولكن ذلك لا يغض من قيمة الكتاب وما ورد فيه من آراء جديدة بالاحترام والتقدير فلقد أوشك في بعض المواضع من كتابه أن يصل إلى وحدة علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) بعد ما أصابها من التمزق، إذ يقول (فبلاغة الكلام تجرى مجرى الجنس لعلم البديع، والمحسنات المذكورة تجرى مجرى الفصل، وحيث: الكلام

(١) الإعلام: ٢٨٨/٦

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق عبد القادر حسين : مقدمة المحقق ص.ل، ط، نهضة مصر ١٩٨١.

الذي فيه صناعة البديع أقصى مراتب الكمال في الكلام. فإذا عرفنا الكلام الكامل غاية الكمال قلنا : إنه كلام بليغ محسن ببعض التحسينات المذكورة^(١). وهو رأى له قيمته، لولا ما شاب كلامه من مصلحات الجنس والفصل والاغراق في حدود المنطق، وتقسيمات علماء الكلام.

(١) السابق : ٢٠٨

الفصل الثاني

المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن

تمهيد :

كان القرآن الكريم محورا لدراسات كثيرة من علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم، وتباين نزعاتهم، يلتبس منه كل فريق بغيته، ويجد فيه طلبته. اهتم القراء بضبط لغاته، وتوجيه قراءاته، وعد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه.

واهتم المفسرون ببيان معاني الألفاظ والآيات، ومعرفة أسباب النزول، واستجلاء مواطن العبر، ودلائل القدرة وعنى النحاة واللغويون بإعرايه وفهم أسرار التراكيب الواردة فيه. وتوضيح العلاقات بين ألفاظه ومعانيه، واهتموا بأسمائه وأفعاله وحروفه ودلالة كل منها، باعتبار القرآن مثلاً أعلى في ضبط اللغة وفقه أسرارها.

وأقبل البلغاء والنقاد على القرآن الكريم يتدارسون جزالة ألفاظه وبديع نظمه وحسن بليانه، وما ورد فيه من مواضع الوصل والفصل والقصر والإيجاز والإطناب والمساواة وصور المجاز.

وكان مرجعا ضروريا لعلوم البلاغة كما صورها البلاغيون من المتأخرين وقسموها إلى معان وبيان وبديع.

ولقد كان القرآن الكريم السبب الرئيسي في نشأة علوم اللغة والأدب، وما صاحبها من علوم أخرى ومعارف متنوعة ولذلك. فإنه من العسير أن نفصل بين هذه العلوم والدراسات فصلا جازما، لأن المعين الذي استقوا منه واحد وهو القرآن الكريم.

وقد تحدثت في الفصل الأول من هذا الباب عن معنى المقابلة عند النقاد والبلاغيين. وفي هذا الفصل نعرض لمعناها في الدراسات التي اهتمت ببلاغة القرآن الكريم، ونبين موقف هؤلاء الدارسين منها، ومن البديع عموما، وهل يعتبرون ذلك دليلا على إعجاز القرآن أم لا ؟

وبالطبع لن يمكن في هذا البحث - استعراض كل الدراسات القرآنية لمعرفة ما كتب فيها عن المقابلة، فذلك ما لا يتسع له هذا البحث وما يفوق الطاقة والجهد وحسبنا أن نعرض لبعضها، باعتبارها نموذجا لتناول هذه الدراسات لموضوع المقابلة.

وقد رتبت هذه الدراسات ترتيباً تاريخياً - بقدر الإمكان - ، كما فعلت في الفصل الأول، حتى يمكن الوقوف على تطور مدلول المقابلة في هذا الحقل. ومن ثم يمكننا في نهاية هذا الباب الخروج بمفهوم للمقابلة من الوجهة النظرية نسترشد به في الجزء التطبيقي من هذا البحث.

(١) مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى^(١) (١١٠ - ٢٠٩ هـ)

من أوائل العلماء الذين عنوا في بحوثهم بدراسة القرآن، وتوضيح ما فيه من دلالات ومعان (أبو عبيدة معمر بن المثنى). وقد ألف في هذا الجانب كتاب (مجاز القرآن). (ويعتبر الكتاب مرحلة أولية من مراحل تطور النقد والدراسة البيانية لأسلوب القرآن وتطور الأدب العربي عامة^(٢)).

وقد يظن القارئ للعنوان أن أبا عبيدة يعني بالمجاز هنا ما يقابل الحقيقة عند البلاغيين، لكن هذا الظن سرعان ما يتبدد عندما نقرأ فيه بعض الصفحات، فإذا بنا نكتشف أنه يعني بمجاز القرآن معنى الآية، أو الطريق إلى معناها.

وفي سبيل الوصول إلى هذا المعنى، نراه (يعني بالنظرة التفسيرية اللغوية)^(٣) فيبين أصل الكلمة ومعناها، ويؤيد ما وصل إليه بالفصح من أشعار العرب. تراه يقول في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾^(٤) : مصدر شاققته، وهو المشاقة أيضاً، وشاقّة : بآينه كقول النابغة الجعدي :

وكانَ إِلَيْهَا كَالَّذِي اصْطَادَ بَكْرَهَا شَقَاقًا وَبُغْضًا أَوْ أَطَمَّ وَأَهْجَرَ^(٥)

ويقول في قوله تعالى ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾^(٦) : المعلّمة بالسيما، ويجوز أن تكون (مسوّمة) : مُراعاة، من أَسَمْتُهَا، تكون هي سائمة والسائمة : الراعية؛ وربُّها يُسِمُّهَا^(٧). وفي قوله تعالى ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾^(٨)

(١) الأعلام : ٧ / ٢٧٢.

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، للدكتور : فتحي أحمد عامر : ١٦ ط منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٣) المرجع السابق : ١٤

(٤) البقرة : ١٣٧

(٥) مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى : ٥٨ تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٤٥.

(٦) آل عمران : ١٤

(٧) السابق : ٨٩

(٨) التوبة : ٦٧.

أي يُمَسِّكون أيديهم عن الصدقة والخير، ويقال : قبض فلان عنا يده : أي منعنا^(١).
فلفظة المجاز في عنوان الكتاب (ليست قسيم الحقيقة، كما ذهب إلى ذلك البيانون
من بعد، ولكنها تساوي طريق الجواز إلى فهم اللفظة القرآنية، وهي أقرب إلى تفسير
غريب القرآن منه إلى الكشف عن وجوه البيان فيه بالمعنى الذي يريده عبد القاهر
والزمخشري والسكاكي^(٢)).

ولم يتعرض أبو عبيدة في مجاز القرآن لبحث أبواب بلاغية محددة.
وبالتالي، فإننا لا نكاد نظفر في كتابه على تعريف للمقابلة، لكن اهتمامه بتحديد
المعنى اللغوي للفظ القرآنية، يفيد فائدة جلية في فهم معناها، ومن ثم في تحديد ما
يقابلها في الآية الكريمة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر : تتضح المقابلة بين موقف المنافقين والمنافقات،
والمؤمنين والمؤمنات، عندما يفسر أبو عبيدة معنى (ويقبضون أيديهم) من قوله تعالى في
وصف المنافقين: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾^(٣) بأنه (يَمَسُّون أيديهم عن
الصدقة). وذلك في مقابل ما يتصف به المؤمنون والمؤمنات بأنهم (يؤتون الزكاة) في
قوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٤).

وقد استفدت من هذا الكتاب أثناء البحث عن المقابلات في القرآن الكريم استفادة
غير مباشرة في فهمي للنصوص القرآنية، ولعاني بعض الألفاظ.

(١) مجاز القرآن : ٢٦٣.

(٢) بلاغة القرآن : د. فتحي عامر : ١٥.

(٣) التوبة : ٦٧.

(٤) التوبة : ٧١.

٢ - معاني القرآن : للفراء^(١) (ت ٢٠٧ هـ).

إذا كان أبو عبيدة قد عني بالمعنى اللغوي، ويتفسير الغريب، فإن الفراء (أبا زكريا يحيى بن زياد) قد عني في كتابه (معاني القرآن) بالإعراب وصحة التراكيب من الوجهة النحوية، وشيء طبيعي - كما يقول الدكتور فتحي عامر - أن يتجه أكبر عالم من علماء النحو في الكوفة هذا الاتجاه، ويتزع ذلك المترع^(٢).

وهو إذا يعرض لبعض التأملات البلاغية، فإنما هي شذرات يغلب عليها الطابع الجزئي، ولا تتجاوز الصورة الجزئية إلى مجال التصوير الكلي.

وفيما يختص بالمقابلة، فقد كان يمسها مسا خفيفا، دون أن يسميها، كما نلمح من تفسيره لمعنى قوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾^(٣) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ^(٤) حيث يقول : (بدأكم في الخلق شقيا وسعيدا، فكذاك تعودون على الشقاء والسعادة^(٥)).

وقد كان يمكن - لولا نزعته النحوية - أن يستمر في الحديث لإظهار المغزى البلاغي للتقابل بين البدء والإعادة، والهدى والضلال، ولكنه سرعان ما ينتقل - وقد غلبت عليه حرفته - ليقول: (ونصبُ الفريقين - (تعودون) وهي في قراءة أبي: تعودون فريقين. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة، ولو كانا رفعا كان صوابا كما قال تبارك وتعالى : قد كان لكم في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وفئة - بجواز الرفع والنصب... الخ^(٥)).

وبالطبع فإن اهتمامه بالجانب النحوي، لا يغض من قيمة الكتاب، أو يقلل من شأن صاحبه، فالنحو هو الأساس لفهم المعنى الأول للنص، والبلاغة هي السبيل إلى المعنى الثاني، وكلاهما مكمل للأخر.

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان :

٦ / ١٧٦ / ١٧٧، تحقيق د. إحسان عباس، ط : دار الثقافة بيروت، ١٩٧٧.

(٢) بلاغة القرآن : د. عامر : ١٧.

(٣) الأعراف : ٢٩ - ٣٠.

(٤) معاني القرآن للفراء (أبي زكريا يحيى بن زياد) : ١ / ٣٧٦، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد

على النجار، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

(٥) السابق : ١ / ٣٧٦.

٣ - تأويل مشكل القرآن : لأبي قتيبة^(١) (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)

انصرف اهتمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) إلى الرد على الطاعنين في إعجاز القرآن البلاغي، وخصوصا المعتزلة والملحدون، الذين يتناولون التشابه من القرآن ويطعنون فيه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ومن ثم فإن المعاني البلاغية عنده (شذرات تنثر في تضاعيف كتابه^(٢)) ومن ذلك حديثه عن بعض فنون البلاغية كالاستعارة والكناية، والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه^(٣).

(وتجلى في هذا الكتاب ثقافة المؤلف الواسعة. فهو حين يعرض للمسألة الدينية، كخلق الكون، يتناولها في الكتب السماوية - إلى جانب القرآن فيأتي بما جاء في التوراة والإنجيل، وحين يتكلم في مسألة جدلية كثرت حولها آراء الفلاسفة، يدلي بموجز لآرائهم تلك مع تعقيب عليهم بما يراه هو. ولكن الجانب الغالب عليه هو تلك الثقافة اللغوية والأدبية الواسعة مع الإمام الدقيق بخفايا الأسلوب العربي وأسراره، بحيث يمكنه أن يوجه معاني الآيات توجيهها سديدا يتفق وتصوره، ولا يتعارض مع الذوق^(٤)).

وإذا كنت لم أعثر له على حديث في المقابلة أو الطباق، إلا أنه وهو يتحدث عن مخالفة ظاهر اللفظ معناه، أورد آيات من القرآن الكريم اعتبرها من أتى بعده من علماء البلاغة - كأبي هلال العسكري - مقابلة في المعنى على جهة الموافقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾^(٦) و ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٧)، ويرأها بعض المتأخرين كالخطيب القزويني (مشاكلة): أي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته^(٨).

(١) الأعلام : ٤ / ١٣٧.

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٨٢.

(٣) انظر هذه الموضوعات في كتاب (تأويل مشكل القرآن لأبي قتيبة)، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٢، دار التراث بالقاهرة، ص (١٣٥ ، ٢١٠ ، ٢٥٦ ، ٢٣٢).

(٤) ابن قتيبة : د. محمد زغلول سلام : ٣٤، دار المعارف، مصر.

(٥) التوبة : ٧٩.

(٦) آل عمران : ٥٤.

(٧) التوبة : ٦٧.

(٨) الإيضاح للقزويني : ١٩٨.

وبذلك يكون ابن قتيبة ممثلاً للإرهاصات الأولى للمقابلة القرآنية التي تضم في أعطافها العديد من الألوان البديعية كالطباق والعكس والتبديل والمشاكلة.

٤ - النكت في إعجاز القرآن للرماني^(١) (٢٩٦ - ٣٨٤ هـ).

الرماني هو (أبو الحسن علي بن عيسى الرماني) أحد أعلام المعتزلة في عصره، جمع بين النحو وعلم الكلام.

حين نتصفح أشهر رسائله (النكت في إعجاز القرآن) لا نكاد نعثر له على كلام صريح في المقابلة أو الطباق.

ولكننا نجد ابن رشيقي في (العمدة) يورد تعريف المطابقة نقلاً عن الرماني، ولعله نقله من كتاب آخر له غير (النكت)، يقول ابن رشيقي (وقال الرماني: المطابقة مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان^(٢)).

وقد سبق في الفصل الأول - عند الحديث عن ابن رشيقي - أن بينت مدى تأثيره برأي الرماني حين يعلق عليه بقوله: (هذا أحسن قول سمعته في المطابقة من غيره وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين) وحين يحاول تفسير قول الخليل: (إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما) تفسيراً ينسجم مع رأي الرماني السابق، إذ يقول تعقيباً على ذلك: (فهو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان كما قال الرماني)، يشهد لذلك قول لبيد:

تَعَاوَرَنَ الْحَدِيثَ وَطَبَّقْنُهُ كَمَا طَبَّقْتَ بِالنَّعْلِ الْمَثَالَا

كما نلمح هذا التأثير - أيضاً - حين يحلل قول الأصمعي عن المطابقة بأن (أصلها من وضع الرجل موضع اليد في مشى ذوات الأربع) تحليلاً يوافق هواه ويظهر اقتناعه برأي الرماني في المطابقة، فينص على أن هذا: (هو مساواة المقدار أيضاً^(٣)).

غير أننا من خلال القراءة المتأنية لرسالة الرماني (النكت في إعجاز القرآن) نراه يتحدث عن البلاغة باعتبارها إحدى النكت في إعجاز القرآن^(٤)، ويذكر أن البلاغة

(١) الأعلام : ٤ / ٣١٧، و (وفيات الأعيان) : ٣ / ٢٩٩.

(٢) العمدة لابن رشيقي : ٢ / ٦.

(٣) العمدة : ٢ / ٧.

(٤) رد الرماني إعجاز القرآن إلى سبع جهات هي :

١ - ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ٢ - التحدي للكافة ٣ - الصرفة

٤ - البلاغة ٥ - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ٦ - نقض العادة ٧ - قياس

القرآن بكل معجزة (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني :

ص ٦٩ تحقيق وتعليق محمد خلف الله، و د. محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، ١٩٦٨.

على ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا هي بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة.

وعندما قسم البلاغة إلى عشرة أقسام^(١) لم يذكر من أقسامها المقابلة أو الطباق، ولكنه ذكر (التجانس) وأنه على وجهين: مزاجية ومناسبة.

ويهمنا هنا حديثه عن المزاجية^(٢)، لأنه استشهد لها بآيات قرآنية نلمح في بعضها (طباقا) بالمعنى الذي ذكره له ابن رشيق وهو: (مساواة المقدار).

فالمزاجية عنده كنوع من التجانس، تقع في الجزء كقوله تعالى ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَ عَلَيْكُمْ﴾^(٣).

إذ نراه يفسرها بقوله (أي جازوه بما يستحق طريق العدل إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء، لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاجية الكلام لحسن البيان^(٤)) ويستشهد لها أيضا بقوله تعالى ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٥) مفسرا إياها بقوله: (أي جازوهم على مكرهم، فاستعير للجزء على المكر اسم المكر، لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم) - غير أننا رأينا منذ قليل عند حديثنا عن ابن قتيبة أن هذه الآيات قد استشهد بها أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) للمقابلة في المعنى على جهة الموافقة^(٦)، كما أنها قريبة من المشاكلة، التي هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، والعسكري معاصر للرماني (ت ٣٨٤ هـ).

على هذا يمكن حمل ما سماه الرماني (مزاجية) على معنى المقابلة والطباق، والأهم من ذلك هو اعتباره الطباق أو المقابلة أو المزاجية - أيا كانت التسمية - عنصرا هاما

(١) الأقسام العشرة هي :

١- الإيجاز ٢- التشبيه ٣- الاستعارة ٤- التلاؤم ٥- الفواصل
٦- التجانس ٧- التصريف ٨- التضمين ٩- المبالغة ١٠- حسن البيان
(السابق : ص ٧٠).

(٢) المزاجية : أن يجمع بين الشرط والجزء في ترتيب لازم من اللوازم عليهما معا انظر (البديع في ضوء أساليب القرآن : ١١٤).

(٣) البقرة : ١٩٤ .

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٩٩ .

(٥) آل عمران : ٥٤ .

(٦) كتاب الصناعتين : ٣٤٦ .

من عناصر التجانس في البلاغة القرآنية، فإذا تحقق هذا التجانس كانت البلاغة وجهها هاما من وجوه إعجاز القرآن الكريم^(١).

٥ - إعجاز القرآن : للباقلاني^(٢) (٣٢٨ - ٤٠٣ هـ).

يعد الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) أحد العلماء البارزين الذين حملوا على عاتقهم مهمة إثبات الإعجاز القرآني، كما أنه من أبرز أعلام المتكلمين الأشاعرة. وفي كتابه (إعجاز القرآن) نجده مشغولا بالرد على فكرة (الصرفة) التي قال بها بعض المعتزلة كالرمانى والنظام واعتبروها وجهها من وجوه الإعجاز. وقد رأى الباقلاني أنها لا تنهض دليلا على إعجاز القرآن، لأن القول بها يعني أنه كان بإمكان العرب معارضة القرآن أو محاكاته، لولا أن صرفهم الله عن ذلك. وبذلك لا يكون القرآن معجرا بذاته وبلاغته.

وبدلا من ذلك، يرجع الباقلاني الإعجاز إلى :

- ١ - ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيبات.
 - ٢ - ما حواه من سير السابقين التي لم يطلع عليها محمد.
 - ٣ - بلاغة القرآن التي وصلت إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.
- ويهمنا هنا حديثه عن البديع بصفة عامة، وعن المقابلة بصفة خاصة. فعلى الرغم من أن الباقلاني يعد البلاغة أحد الأعمدة الثلاثة لإعجاز القرآن، إلا أنه وقف من البديع موقفا خاصا.

لقد بدأ حديثه عن البديع بقوله : (إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟^(٣))

(١) يرى الدكتور زغلول سلام أن المزاجية والمناسبة نوع من التعبير اللفظي يهدف إلى ناحيتين : الأولى : صوتية وهي توفير نوع خاص من الانسجام في النغم والتقارب في الأصوات، والثانية : معنوية وهي سرعة الاستدعاء اللفظي للمعنى المراد التعبير عنه، وهذا ما أراده الرمانى في كلا القسمين المزاجية والمناسبة إذ المعروف أن ليس المراد بالاعتداء هذا المعنى نفسه إنما المراد جزاء الاعتداء وهو القصاص، ولكن النظم القرآني راعي سرعة الاستدعاء ليحقق سرعة القصاص مع العدالة، فجانس بين اللفظين ليحقق المعنيين: سرعة الاستدعاء، وتوكيد العدالة والمساواة، أما المساواة فيتحقق فيها الجانب الموسيقى أكثر من الجانب المعنوي وإن كان الغرض أيضا هو سرعة التداعي - (أثر القرآن : ٢٤٤).

(٢) الأعلام : ٦ / ١٧٦ و (وفيات الأعيان) : ٤ / ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني : ٦٦ تحقيق السيد أحمد صقر، ط ٤، دار المعارف.

وقبل أن يجب الباقلائي عن هذا السؤال أثر أن يترث وأن يؤجل حكمه إلى أن يعرض لبعض الألوان البديعية، (ليكون الكلام واردا على أمر مبين وباب مقرر^(١)). ونحن نحمد للباقلاني هذه الموضوعية في الحديث، وهذا المنهج العلمي الدقيق في البحث، فالرجل في هذا يعتبر من الرواد السابقين الذين أرسو الدعائم لمناهج البحث، سابقا بذلك علماء مناهج البحث الحديثة، حين يلاحظ الظاهرة أولا ثم يجمع عنها المعلومات ويحللها وفي النهاية يحكم لها أو عليها.

إنه لا يريد أن يحكم بإعجاز القرآن عن طريق ما ورد فيه من البديع إلا بعد أن يستعرض ما قيل عن البديع عند المختصين بعلوم البلاغة ثم بعد ذلك يعلق ويقارن ويستنتج، وحيث يكون كلامه - بالفعل - وارادا على أمر مبين، وباب مقرر مصور. عرض الباقلائي لما قاله البلاغيون في المطابقة والمقابلة والإشارة والمبالغة والغلو والإيغال وكثير من ألوان البديع.

وهو في حديثه عن المطابقة لم يأت بشيء جديد من عنده، وإنما عرض لرأي الخليل والأصمعي وابن المعتز، وبين مخالفة قدامة لابن المعتز حين أطلق المطابقة على صور الجنس، وروي من شواهد المطابقة الكثير من القرآن والحديث والشعر ومأثور الكلام^(٢).

واختصر الباقلائي الحديث عن المقابلة اختصارا حين عرفها (بأن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده^(٣)). واستشهد لها من الشعر بقول النابغة الجعدي :

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

ومن القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾﴾^(٤).

ولم يعط الباقلائي تعريفا لأي من رد العجز على الصدر أو صحة التقسيم أو التكافؤ أو السلب والإيجاب أو العكس والتبديل، واكتفى بقوله (ومن البديع.. كذا) موردا الأمثلة المعهودة في ذلك والتي سبق أن قررنا أن معظمها داخل في إطار التضاد أو التماثل ورأينا إدراجها في المقابلة.

(١) السابق : ٦٦.

(٢) انظر حديثه عن المطابقة في إعجاز القرآن : ٨٠ - ٨٢.

(٣) إعجاز القرآن : ٨٧ - ٨٨.

(٤) النحل : ٥٣ - ٥٤.

والآن وبعد أن استعرض الباقلائي أقوال الشهود من البلغاء في هذه القضية - يأتي دور النطق بالحكم ويثون أوان الإجابة عن السؤال السابق وهو : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟

لقد حكم الرجل بأن الإعجاز لا يكون عن طريق ما تضمنه القرآن من البديع وأن ألوان البديع لا تؤخذ كدليل على إعجاز القرآن، (لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود، والتصنع لها، وذلك كالشعر إذا عرف الإنسان طريقه صبح منه التعامل له وأمكنه نظمه^(١)).

ومن ثم يرى أن القرآن معجز بوجوه ليس في مقدور البشر التصنع لها والتوصل إليها، ويستدل على أن البديع مقدور عليه من البشر بأن المحدثين وخاصة أبا تمام، قد استطاع أن يحشو لاميته بمعظم أبواب البديع، ومن ذلك قوله فيها :

مَتَى أَنْتَ عَنْ ذَهْلِيَّةِ الْحَيِّ ذَاهِلٌ وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةُ الدَّهْرِ أَهْلٌ
تُطَلُّ الطُّلُولُ الدَّمَاعَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَتَمَثِّلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ الْمَوَائِلُ

حتى أن من الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها مما قد تكلف فيها من البديع، وتعمل من الصنعة فقال :

(قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق، وسائر ما جمع فيه^(٢)).

ثم يواصل حملته على أبي تمام، ويورد من مبالغته، واستعاراته ما يصفه بـ (الاستعارات القبيحة والبديع المقيت^(٣)).

وهو في غمرة ذلك لا ينسى أن يفضل البحري على أبي تمام لأنه (لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقل التصنع له^(٤)).

ثم يصل في النهاية إلى نتيجة مؤاذاها: أن فن البديع ما دام مقدورا عليه هكذا بالتعلم والتدرب فإنه (لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه وذلك لأن شأن القرآن ليس له مثال يحتذى، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح مثله اتفاقا^(٥)).

(١) إعجاز القرآن : ١٠٧.

(٢) السابق : ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) السابق : ١٠٨ - ١٠٩.

(٤) السابق : ١١٠.

(٥) السابق : ١١١ - ١١٢.

ونظرا لأن الباقلاني لا يعترف بالبديع وجهها للإعجاز القرآني، فإنه عند تناوله للبديع لا يقدم لنا تعليلا نقديا أو استشهادا بلاغيا - يوحى بأسرار الإعجاز فيما يقدم من شواهد قرآنية، بل يطلق أحكاما عامة (وألفاظا رنانة وعبارات فخمة في الفصاحة والبراعة والفخامة والسلاسة والنضارة والغضارة والرونق والماء، والحسن والبهاء، والبهجة والسناء، والنور والضياء، والدر والياقوت، وفريدة العقد، وعين القلادة ودرة الشدر، والبحر الزاخر، والنجوم الزاهرة والكبريت الأحمر^(١)).

وأحيانا نجده يخفف من تحمله على البديع حين يقرر أنه باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة، وأنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم ولا وجه من وجوه فصاحتهم، فإذا ورد هذا المورد، ووضع هذا الموضع كان جديرا به. وهو وإن لم يجعل الإعجاز متعلقا بالبديع أو وقفًا على مثله؛ إلا أنه لا يغض من قيمته وتأثيره في أخذ الجملة بحظ من الحسن والبهجة (إذا وقع الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع^(٢)).

ونحن لا نوافق الباقلاني على كل ما ذهب إليه من اعتبار البديع ليس وجهها من وجوه الإعجاز القرآني بحجة أنه مقدور عليه من البشر، وأنه ممكن بالتدريب والتعود والتصنع، لأنه لو صحت هذه المقولة، لوجب أن يصح قول القائل: إن التشبيه مقدور عليه وكذلك الاستعارة والكناية، وأن ما ورد من هذه الصور البيانية ليس وجهها من وجوه الإعجاز، ما دام الشعراء والخطباء قد ضمنوا شعرهم وخطبهم من بليغ التشبيهات ورائع الاستعارات والكنائيات الكثير والكثير.

ومما يدعم حجتنا هذه: أن القرآن - وإن نزل بلغة العرب، واشتمل على ما اشتملت عليه لغتهم من فنون البلاغة - إلا أن له طريقته الخاصة في الأداء المتميز تلك الطريقة التي لا يشركه فيها فن قولي آخر، فهو معجز جملة وتفصيلا، ومهما أجاد الشعراء ألوان البديع، وتفننوا في تدييع شعرهم بها، فلن يبلغوا شأوا البديع في القرآن الكريم، لأن ما ورد منه في القرآن قد جاءت الألفاظ فيه على قدر ما يتطلبه المعنى، بحيث لا يغني غيرها غناءها ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣).

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق - للدكتورة بنت الشاطي: ١٠٦، ط دار المعارف، ١٩٧٣.

(٢) إعجاز القرآن: ١١٢.

(٣) النساء: ٨٢.

فكيف لا يكون بديع القرآن معجزاً، وهو داخل في نظمه الخاص، لم يأت للزينة أو الزخرفة التي تحتل دوراً ثانوياً بعد استيفاء المعنى؟

(إن ما ورد في القرآن من الطباق والمقابلة، لم يجرى اعتسافاً، وإنما جاء المعنى مصوراً في ألفاظهما التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه: فالطباق في قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ﴾^(١) في غاية الإعجاز، لأن الآيات في معرض الموازنة بين هذه الأضداد، وأسلوب الطباق وحده - هو الذي يبرز عدم استوائها في ميزان العدالة والثواب والعقاب^(٢)).

أمّا القول بأن ألوان البديع غير معجزة بحجة أن البشر في مقدورهم التوصل إليها بالتدريب والتعود، فهو قول مردود بأن الشعراء أنفسهم عندما يحاولون تقليد القرآن، فإن الفرق يبدو واضحاً بين الأصل والتقليد، وأصغ إلى حسان بن ثابت وهو يقول :

وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَالٌ قَوْمٌ تَسْفَهُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ
أخذه من قوله سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(٣).

فأنت ترى أن حسانا يوازن بين ضلال وهداه، وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفرق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور. إذ الفرق بينهما في الآية واضح ملموس يشعر به الناس جميعاً، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق، وآمنت بأن هناك بوثاً شاسعاً بينهما، انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدي من فرق بعيد^(٤).

وقد أحسن الدكتور أحمد بدوي صنعا، حين ركز على الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الشعر، في معرض الموازنة والمقارنة. وإذا كنا نؤمن أن أسلوب القرآن لا يجارى ولا يبارى، وأن نظمه يجلب عن النظر ويسمو على المقارنة، فإننا نسلك سبيل الموازنة لنجلى هذه الحقيقة. حقيقة السمو الفائق في التعبير القرآني.

(١) فاطر : ١٩ - ٢٢

(٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي : ١٨٥، دار فضة مصر للطبع والنشر، ١٩٥٠م.

(٣) الرعد : ١٦.

(٤) من بلاغة القرآن : ٣٩٤.

ولنتأمل - مع الدكتور أحمد بدوي (الفرق في الأسلوب عندما حور النابغة الجعدي أسلوب القرآن قليلا فقال :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَتَنَفْسُهُ ظَلَمًا
الْمَوْلَجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ نَهَارًا يُفَرِّجُ الظُّلُمَا

فقد صور قوله سبحانه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾^(١) لكن حذف (المولج) وتقدم (في الليل) وتنكير (نهارا) والجمع بجملة (يفرج الظلما) كل ذلك أضعف أسلوب الشاعر، وباعد بينه وبين الأسلوب القوي للقرآن^(٢).

إن المقابلة في قول حسان والجعدي لم تعرض بنفس الدقة واللفظ والإحاطة والشمول، كما عرضت في القرآن، ولم تنقل المعنى المقصود بمثل الإيحاء والتأثير، كما نقل القرآن، ذلك لأن كلا الشاعرين قد قصدا المقابلة قصدا، ولم تأت منهما بصورة طبيعية، والقصد - كما يقول الدكتور فتحي عامر - يفسد الصورة ويحرمها مغناطيسية العاطفة، وذبذبات الانفعال التي تكسو المعنى برداء شفاف من الجلال والمتعة^(٣).

والعجب كل العجب - من الباقلائي الذي ينكر أن يكون القرآن معجزا عن طريق ما فيه من البديع، بحجة قدرة الشعراء على الإتيان به في شعرهم مع أنه هو نفسه - يستبعد تماما أن يبلغ الشعر شأوا القرآن وما فيه حين يقول (فمن توهم أن الشعر يلحظ شأوه بان ضلاله، ووضع جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، واثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه^(٤)).

إن القرآن الكريم معجز بكل ما فيه، بمعانيه، وبيانه، وبديعه، يبحث الإنسان عن إعجازه في جانب منه. فيروعه الإعجاز في الجانب الآخر. هكذا.. في سلسلة متصلة الحلقات متينة العرى، قوية الروابط : (إنه نمط من أنماط التعبير لم تصل إليها مدارك البشر، ولن تصل، مهما طال الزمان، وهذا النمط يندرج تحته البيان، كما تندرج تحته المعاني، وكذلك البديع، لأنها طرق من القول تفنن فيها القرآن، ليفحم ويعجز ويتفرد، إنه معجزة قولية في محيط الكلام البشري الزاخر بما يصيب وما لا يصيب^(٥)).

(١) فاطر : ١٣.

(٢) من بلاغة القرآن أحمد بدوي : ٣٩٦.

(٣) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٣٣٧.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني : ٣٠٢.

(٥) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : فتحي عامر : ٢٠٦.

ومما يقوى ما نذهب إليه من أن القرآن معجز بكل ما فيه، ما ذهب إليه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي من أن (أعجب ما في إعجاز القرآن وإحكام نظمته، إنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك، وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه، ثم تحسب العكس، وتتعرفه مثبتا فيه، فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كليهما حتى ترده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة^(١)).

كما يمكن اعتبار ما قام به ابن أبي الإصبع من تأليف كتاب خاص عن بديع القرآن، محاولة عملية للرد على الباقلائي وغيره ممن لا يعتبرون البديع وجها من وجوه الإعجاز القرآني، وتبعه السيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن، فجعل (وقوع البدائع البليغة في القرآن^(٢)) وجها من وجوه الإعجاز القرآني أفاض فيه القول عن كل لون من ألوان البديع الواردة في القرآن الكريم.

والباقلائي نفسه يصرح بأنه ليس في مقدور البشر معارضة القرآن الكريم ولو كان في استطاعتهم، لبادروا إلى معارضته ومنافسته، فدواعيهم لتلك المعارضة لا انتهاء لها، ولا حد لكثرتها (لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى تكذيبه، ثم إلى قطع المحامى دونه، أو تنفيرهم عليه وإدخال الشبهات على قلوبهم - وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ونصب الأرواح، والإحطار بالأموال والذراري في وجه عداوته، ويستغنون بكلام - هو طبعهم وعادتهم - عن محاربته وطول مناقشته ومجادبته^(٣)).

وقد أفاض الباقلائي القول في سمو القرآن ورفعته، وعلو شأنه، عندما عرض للموازنة والمقارنة بين القرآن وغيره من كلام البشر، ومنهجه في الموازنة لا يعتمد على تعليل نقدي أو منطقي لإعجاز القرآن، بل أنه يترك الأمر لذوق القارئ وقدرته على فهم الفرق بين نظم القرآن وغيره.

ويتهم من لم يستطع الفهم، ولم يقع على الفضل بالتقليد والجهل والخروج عن أهل اللسان.^(٤)

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي : ٤٧، ط ٦، القاهرة، ١٩٥٦ م.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي : ١ / ٣٧٣، تحقيق على محمد بجاوي، دار الفكر

العربي، بيروت.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلائي : ٢٤٩.

(٤) السابق : ١٢٨.

إنه يورد بعض خطب الرسول وكتبه، ويترك لفظنة القارئ وذكائه إدراك الفرق بين براعة القرآن وما ذكره من كلام الرسول، وهو يقدر (أنك ترى بين الكلامين يونا بعيدا، وأمدا مديدا، وميدانا واسعا، ومكانا شاسعا^(١)).

وقد فعل الشيء نفسه مع خطب الصحابة والبلغاء، ومع معلقة امرئ القيس حيث أخذ يسبين ما فيها من وجوه العيب، وما بين أبياتها من الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد، والاسترسال والتوحش، معلقا في النهاية بأنه: (لا سواء كلام ينحت من الصخر تارة، ويذوب تارة، ويتلون تلون الحرباء ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه وبين قول - هو القرآن الكريم - يجري في سبكه على نظام، وفي رونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن^(٢)).

فكيف بالله بعد أن جعل بلاغة القرآن تصل إلى حد الإعجاز الذي يعلم عجز الخلق عنه، وبعد أن بين أن المعارضة ليست في مقدور البشر، كيف يُخرج بديع القرآن من قضية الإعجاز بحجة أنه مقدور عليه؟

فهل بديع القرآن كبديع البشر؟ وقد علمنا منه أن (شأن القرآن ليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى؟^(٣))

وهل كانت ألوان البديع فيه إلا خيوطا في نسيج الأسلوب القرآني كله لا يمكن فصلها عنه، ولا ينفرد بحكم دورها؟

(إن البديع في القرآن لون تعبيري يشتمل على كثير من الخصائص المعجزة في نظمه وتركيبه لأن القرآن لا يقتصر على طريقة واحدة أو نمط واحد من أنماط الأسلوب وإنما هو بيدع ويتفنن في كل طريق من طرق القول التي سلكها العرب البلغاء ومارسوها بطبائعهم وفطرهم، ومن ثم أفحم وأعجز، ووقف الجميع دونه في حيرة وذهول^(٤)).

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٣٦.

(٢) السابق : ١٨٢.

(٣) السابق : ١١٢ ط ٤، تحقيق : سيد صقر.

(٤) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، د. فتحي عامر : ٢٦٧.

ورغم أننا لم نوافق الباقلائي على استبعاد البديع من وجوه إعجاز القرآن إلا أننا لا نملك إلا أن نحسي فيه روح البحث وجدية التفكير، واتباع المنهج العلمي في بحثه، وإخلاصه في الذود عن القرآن، ومحاولته دحض الشبهات المثارة حول إعجازه.

٦- أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز: للرجحاني^(١) (ت ٤٧١ هـ)

ولنترك الباقلائي، لنبحث عن المقابلة عند عبد القاهر الجرجاني، شيخ البلغاء إمام عصره، ونايغة زمانه.

وحين نفتش في أشهر كتابين له متصلين بالبلاغة القرآنية، وهما أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فإننا لا نكاد نعثر له على حديث خاص بهذا العنوان (المقابلة) اللهم إلا ذكره لهذا اللفظ حين كان يتحدث عن نظريته في توخي ترتيب الكلمات حسب ترتيب المعاني، مستشهدا لهذا بقوله تعالى ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾.

حيث ذكر من بلاغة النظم في هذه الآية : مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة^(٢)، مما يوحى بأن المقابلة عنده تعني نوعا من الجناس ولكنه يتحدث عن البديع بمعنى عام لا يريد به ما عرف عند البلاغيين من أنه (علم يراد لتحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال).

إن حديثه عن البديع لا ينفصل عن نظرية النظم، تلك القضية التي تفرغ لها، وجاهد من أجلها طوال حياته.

فلقد جاء عبد القاهر على قدر، جاء في القرن الخامس الهجري (وقد دب السقم إلى الأساليب العربية، وهد الهزال من كيائها، فطغت دولة الألفاظ، واستفحل أمرها، وتعاضم خطرهما، واستبدت بأقلام الكتاب حتى صرفتهم عن المعاني، فراحوا لا يحفلون إلا بجناس ولا يقصدون إلا إلى سجع، فانبري عبد القاهر لحرب هذه الطائفة يحمل أمضى سلاح، وأحد سنان، ومضى يجالذ حتى أقام للمعاني الدولة، ومكن لها، وقضي على الألفاظ عند من أغرموا بها، وهو فيما بين ذلك لا ينسى حظ الألفاظ، ولا ينكر دورها في خدمة المعاني^(٣)).

(١) الأعلام : ٤ / ٣٨ - ٣٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٣٧ تصحيح الشيخ محمد عبده، ط ٦، صبيح، القاهرة، ١٩٦٠.

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية، د. أحمد إبراهيم موسى، ص ٢٢١، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩.

وترجع حملته العنيفة على الألفاظ في كتبه، إلى إحساسه بطغيان الشكل على الجوهر عند أدباء عصره، ومن ثم، فإنه حين كتب أسرار البلاغة انتصر للمعنى، واعتبر الألفاظ خادمة للمعاني.

(إن البلاغة عنده ترجع إلى المعنى، وإن الألفاظ تبع للمعاني، وهي تترتب في النطق على حسب ترتيب المعاني في النفس، ومن ثم فخير طريقة للتأليف الأدبي عنده هي أن تستطلق المعاني انطلاقاً لا تكلف فيه ولا غموض ولا التواء، حيث تقع على ما يليق بها من الألفاظ فتلبسها متمكنة منها مهما اختلفت الأساليب، وتعددت ألوان التعبير، وما عرضه من البديع يبعد عنه الصفة اللفظية المحضة ويطرد مع منهجه المعنوي الذي يستقيم وفكرة النظم^(١)) والنصوص الواردة في كتابه (أسرار البلاغة) تؤكد هذا المعنى وتحض عليه.

(فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر، فعددت كلماته عداً، كيف جاء واتفق، وأبطلت نظمه، ونظامه الذي بني عليه، وفيه أفرغ المعنى وأجرى وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في :

قَفَائِبُكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمِثْلٍ مِثْلٍ قَفَا ذِكْرِي مِنْ نَبِكِ حَبِيبٍ

فحينئذ يصبح البيت ضرباً من الهذيان، ولا يفيد معنى، بل لا يمكن نسبته إلى صاحبه، إذ محال أن يكون لهذا النوع من الخبل إنسان عاقل وإذا ثبت بالدليل أن النظم إذا انتقض صار انكاثاً من بعد قوة علمنا أن المعنى الأصلي لبيت الشعر أو فصل الخطاب لا يتضح إلا بترتيب الكلام على طريقة معلومة وحصوله على صورة من التأليف مخصوصة^(٢) ولن نجد شخصاً يستحسن الشعر أو يستجيد النثر ويثنى عليهما من جهة اللفظ، وإنما ذاك بسبب ما أفاده اللفظ من معنى وبهذا المقياس نظر عبد القاهر إلى ألوان البديع التي عرض لها في أسرار البلاغة كالتجنيس والسجع والتطبيق.

(١) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، الدكتور فتحي عامر : ١٢٤، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة في علم البيان للخرجاني : ١٤ تعليق وإيضاح وتنقيح الأستاذ / محمد عبد العزيز النجار، ط : صبيح، ١٩٧٧ م.

لقد اشتملت نظرية النظم عنده على كل هذه الألوان، وإذا كان لأي منها من فضيلة فإنما يرجع ذلك لنصرة المعنى (إذا لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن^(١)).

ومن ثم، فإن الكاتب أو الشاعر إذا أولع بالبديع في كتابته أو شعره، وأكثر منه، واهتم بالألفاظ على حساب المعنى (فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وإن يوقع السامع في طلبه في خبط عشواء وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى فأفسده، كمن ثقل العروس بأصناف الحلوى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها^(٢)).

ونظرا لأن عبد القاهر رجل نظم بالدرجة الأولى، فإننا نجد أنه قد أدرج التطبيق مع الاستعارة.

وعلى الرغم من أنه لم يفض القول في التطبيق، إلا أننا نفهم من كلماته المحدودة عنه أنه يعتبر التطبيق أو المقابلة ألوانا بديعية، لا تجلب لمجرد الزينة اللفظية، وإنما يؤتي بها في الكلام لتؤدي دورا هاما في خدمة المعنى.

وقد أكد هذا الأمر حين كرره في صفحة واحدة بقوله أولا (وأما التطبيق فأمره أبين، وكونه معنويا أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده). وثانيا حين قرنه وسائر أقسام البديع بالاستعارة وأكد على أن مرجع الجمال فيها إنما هو للمعنى يقول: (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحُسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين تصعيد وتصويب^(٣)).

وهو ممن أجل ذلك، يصرف استحسان النقاد للشعر من جهة الألفاظ إلى شيء آخر، ويرجع هذا الاستحسان المزعوم في الألفاظ إلى حسن الترتيب وجمال النظم الذي يوصل المعنى بسهولة إلى القلب، أو إلى سلامته من الحشو أو التقصير. وبالجملية فإنه يرجع هذا الحسن إلى النظم الذي هو (تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض^(٤)).

(١) المرجع السابق : ١٧.

(٢) المرجع السابق : ١٨.

(٣) أسرار البلاغة : ٢٨.

(٤) دلائل الإعجاز : ١٢.

وهذا التعليق في رأيه يعطي الجملة معناها ويشمرها ثمرتها. فالألفاظ لا تستحسن إلا إذا تلاءمت وأخواتها في المعنى واتسقت في نضد واحد مؤتلف ومتجانس.

ويستدل على ذلك بأن اللفظة تروك وتؤنسك في موضع وتنقل عليك وتوحشك في موضع آخر، فلو كان الحسن راجعا لذاتها وليس إلى نضدها مع أخواتها في نظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا^(١).

وإذا كان عبد القاهر لم يتحدث عن المقابلة أو الطباق بطريقة مباشرة إلا أننا نفهم منه أنهما وسائر أنواع البديع لا يعرض لهما الحسن أو القبح إلا من جهة المعاني، ومعنى ذلك أنه يعتبرهما من العناصر الجوهرية في المعنى، وليس عرضا شكليا يجلب للزينة والبهرج، فهو بذلك يعتبر من القائلين بذاتية البديع لا عرضيته.

٧ - الكشف للزمخشري^(٢) (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)

في نهاية القرن الخامس وأوائل القرن السادس ظهر في أفق العالم الإسلامي عالم جليل ملأ طباق الأرض علما، وترك بصمات واضحة ومعالم مشرقة في الدراسات القرآنية، وبخاصة في الجانب التطبيقي للبلاغة القرآنية. ذلكم هو جار الله محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمي الزمخشري المفسر اللغوي والنحوي والأديب أحد أئمة المعتزلة وصاحب الكشف وأساس البلاغة.

ولقد جاء الزمخشري في وقت كانت الدراسات القرآنية والبلاغية فيه أحوج ما تكون إلى مثله ذكاء ونفاذ بصيرة وعمق رؤية وقدرة على تطبيق ما نادى به من قبله عبد القاهر الجرجاني. (فقد كانت الدراسات القرآنية قبل الزمخشري تفتقد الجانب التطبيقي، إلى أن كان الزمخشري صاحب الباع الطويلة في النظر إلى فنون البلاغة ومقتضياتها وطرائقها المختلفة فغطى هذا الجانب المفتقد بدراسته التفسيرية البلاغية التي جاءت فريدة في لوئها بين الدراسات السابقة واللاحقة، وذلك في كتابه (الكشف) الذي أحدث دويا ورنينا في العالم الإسلامي، لا يزال صدها يرن في أذاننا حتى اليوم - نظراً لما للكتاب من سمة متميزة بين سمات الكتب، وتنحو دراساته نحو ما يخالف ما نراه لدى محمد بن جرير الطبري وغيره من المفسرين الذين سبقوه، ولقد كان بارعا في

(١) السابق : ٤٦.

(٢) انظر الأعلام : ٧ / ١٧٨، ط ٥، بيروت ١٩٨٠.

الشعر والنثر، فطنا رقيق الحس رهيف الشعور حاد الذكاء، ومن ثم، جاءت نظراته التطبيقية دليلا على أصالته وتمكينه وشدة المراس فيه^(١).

والذي يقرأ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني ثم يقرأ الكشاف للزمخشري، يدرك بسهولة أن الأخير تلميذ نجيب لأستاذ قدير. فقد طبق الزمخشري عمليا في تفسيره نظرية المعاني وارتباطها بالنظم تلك النظرية التي شغلت تفكير عبد القاهر واستحوذت على اهتمامه ردحا طويلا من الزمن.

وبما أن هذه النظرية تتجلى بصورة واضحة في المعاني والبيان، ولا يدخل الجرجاني فيها من البديع إلا ما جاء لخدمة المعنى، ودون تأتٍ له وتكلف، ونظرا لأن الزمخشري قد مضى على هدى أستاذه شارحا ومفصلا، ومدعما للإعجاز القرآني عن طريق النظم والأسلوب، نظرا لهذا ذهب بعض الباحثين إلى أن الزمخشري قد أهمل البديع واعتبره قشرا بجانب اللب أو ذيلا لعلمي المعاني والبيان.

وقد عرض الدكتور محمد محمد أبو موسى في كتابه (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري^(٢)) لهذه القضية، مقاما لها بما قاله الأستاذ الصاوي الجويني صاحب كتاب (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) والذي يذهب إلى أن الزمخشري قد جعل البديع ذيلا تابعا لعلمي المعاني والبيان (وأنه في هذا يتأثر عبد القاهر الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه، وأما اللفظ فهو خادم المعنى، ولهذا فلن تظفر في تفسيره بأكثر من ثلاثة ضروب من البديع على كثرتها، وليس الزمخشري بهذا منكرا للصنعة البديعية، فيها يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللب، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحىها نظم الكلام^(٣)).

ثم يعرض الدكتور أبو موسى - أيضا - لرأي كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور أحمد الحوفي، حيث يرى الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري كان مطبقا لما أورده الجرجاني في أسرار البلاغة من مباحث التشبيه والاستعارة والمجاز بنوعية اللغوي والعقلي أو الإسناد الحكمي وأن الزمخشري لم يعد البديع علما مستقلا بل كان يراه

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : د. فتحى عامر : ١٨٠.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد محمد أبو موسى : ٤٨٠ : ٤٨٥، ط ١، الناشر / مكتبة وهبة.

(٣) انظر : منهج الزمخشري في تفسير القرآن للصاوي الجويني : ٢٥٦ ط دار المعارف بمصر.

ذيلًا لعلمي المعاني والبيان^(١) ويقرر في موضع آخر أن الزمخشري مضى على هدى الجرجاني الذي كان يرى - كما رأى المتكلمون من قبله - أن البديع لا يدخل في قضية الإعجاز القرآني، لأن كثيرا من ألوانه مستحدث، وما جاء في القرآن إنما جاء دون تأت له وتكلف - فمضى الزمخشري على هذا الهدى لا يعني بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضا^(٢).

وإلى هذا أيضا ذهب الدكتور الحوفي في كتابه (الزمخشري) حيث ينص على أن (علم البديع في رأي الزمخشري تابع للمعاني والبيان وليس قائما بذاته^(٣)).

وبعد ذلك يبدأ الدكتور أبو موسى في تنفيذ هذه الأقوال والرد على تلك الآراء بطريقة علمية يلتبس فيها العذر لهؤلاء الأساتذة بأنه ربما دفعهم إلى رأيهم هذا أنهم وقفوا عند كلام الزمخشري في التجانس من مثل قوله في تفسير (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ) إن الجناس هنا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا أو يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ثم يقول في موقعه من القرآن: ولقد جاء هنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنيا) (بخير) لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح، لما في البناء من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

ويلعل الدكتور أبو موسى هذا الموقف من الزمخشري بأننا لا نسمع هذه النغمة منه إلا في فن الجناس، وأن ذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره إلى هذا الفن حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة ويضيف الدكتور أبو موسى ردا آخر على من ذهب إلى أن الزمخشري قد أهمل البديع هو أنه ربما دفعهم إلى هذا الرأي ظنهم أن عبد القاهر - أستاذ الزمخشري - إنما أهمل ألوان البديع، ولم يبسط القول فيها كما فعل في ألوان البيان وصور النظم؛ لأنها لا تدخل في الإعجاز البلاغي للقرآن، ثم يدفع هذا الظن بقوله إن هذا وهم، لأن عبد القاهر أشار إلى أن الاستعارة داخلية في الإعجاز، وهي من

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف: ٢٢١ / ط ٢ دار المعارف

(٢) المرجع السابق: ٢٦٥

(٣) انظر كتاب الزمخشري للدكتور أحمد الحوفي: (٢٠٣) ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

البديع كما يقول، وأشار إلى أن المزاوجة من صور النظم، وأنه يبلغ الغاية في دقته وتماسكه في صورها، ومثلها الجمع والتقسيم.

وأما ما ذكره الدكتور الصاوي الجويني من أننا لا نظفر في الكشف بأكثر من ثلاثة ضروب من البديع على كثرتها، فليس صحيحا في نظر الدكتور أبي موسى لأنه أحصى في الكشف أكثر من ضعف هذا العدد.

وموقفنا من هذه القضية هو أننا لا نرجح كفة أي من الفريقين، ولا ننحاز كلية لأي من الطرفين، فلا نشط في القول ونتهم الزمخشري بإهمال البديع والتفريط في جنبه واعتباره قشرا بجانب اللب. كما ذهب الأستاذ الجويني، أو النظر إليه على أنه تابع وذيل للمعاني كما ذكر الأستاذان شوقي ضيف وأحمد الحوفي.

كما أننا لا نركيه أو نبرئه تماما، وتلمس له من القول ما لا يقصد، أو من العذر ما يشك في قبوله كما أراد الدكتور أبو موسى بل نلاحظ أن الرجل في مجال البديع القرآني - كانت له أحيانا لمحات فنية رائعة تدل دلالة أكيدة على دقة تفكيره، وعمق فهمه، وحساسيته لأثر اللون البديعي في السياق، كما تدل على بصر بأسرار اللفظة القرآنية وإيجاءاتها وإعجاز التراكيب ودقتها.

ونحس حينئذ أن الزمخشري لا يهمل البديع، بل يوليه من العناية والاهتمام بمقدار ما أعطى البديع الموقف القرآني من الإيجاء والدلالات.

وأحيانا أخرى يجيء البديع عنده على هامش البحث، ويمر عليه مروراً عابراً، غير محتفل بما يمكن أن يؤديه اللون البديعي من خدمة جليلة في إبراز المعنى.

وليس في هذا غرابة أو عجب، فالزمخشري كأديب مفسر، وبلاغي شاعر، تنفتح له طاقة الإبداع والإلهام، وتنفجر أمامه كوة النور فيرى في الآية أو الموقف القرآني من الأسرار والنفحات، ومن البلاغة والتأثير ما لا يراه في آية أخرى، أو موقف مغاير، ويعرف ذلك جيدا كل من مارس الكتابة حول القرآن الكريم، إذ ربما يقرأ الباحث في القرآن الآية أو السورة مرارا وتكرارا، فلا يرى فيها إلا ظاهر المعنى، ومعجم الألفاظ وفجأة وفي لحظة من لحظات الإشراق والصفاء الروحي - ينكشف عنه الغطاء، ويتجلى له المستور، ويعطيه القرآن من النور ما يهديه لاجتلاء ما كان غامضا، وإظهار ما كان للتو أمام ناظريه خافيا.

وهكذا شأن القرآن، وها هنا موضع العجب فيه، فقد ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) و ﴿ ذَٰلِكَ هُدًى لِّلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾^(٢) و ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٣).

ونسوق هنا أربعة نماذج من الكشف، لنُدلل بها على صحة ما رأيناه: نموذجين لبيان مدى اهتمامه بالبديع واحتفاله بمغزاه، ونموذجين آخرين من البديع القرآني، لا يعبرهما الزمخشري اهتماما كبيرا، ويمر عليهما مرور الكرام، ويهتم بما فيهما فقط من المعاني أو البيان.

وقد آثرت أن تكون النماذج مشتملة على المقابلة ما أمكن فهي موضوع بحثنا. النموذج الأول: تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(٤). حيث يقول (ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز. إذ كل واحد منهما غاية في بابه، لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يمتلئ قلبه غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أدم وجهه^(٥)) فاستبشار وقلل الكافرين بذكر آلهتهم مقابل انقباض وجوههم وقترها، وضيق صدورهم وخرجها بذكر الله، ملمح دقيق وضحه الزمخشري بذكر التحليل اللغوي لكل من الفعلين (اشمأزت) و(يستبشرون).

النموذج الثاني: يمزج فيه الزمخشري بين اللفظة النحوية والنكته البلاغية وبين المقابلة كلسون بديعي، والمجاز كصورة بيانية، ويصهر الجميع في بوتقة النظم القرآني وأسلوبه الرفيع المعجز، حتى لا ندري أي تلك الوجوه كان سبب الإعجاز.. وذلك النموذج هو تفسيره لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾^(٦)

(١) الفرقان : ٦

(٢) الأنعام : ٨٨

(٣) الحج : ٥٤

(٤) الرمز : ٤٥

(٥) الكشف للزمخشري: ٤ / ١٠٢ ط - مطبعة الاستقامة، مصر

(٦) غافر : ٦١ وتمام الآية هي (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون).

يقول فيه (فإن قلتَ لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالخال، وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما، فيراعي حق المقابل؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدي يؤدي الآخر ولو قلت: ليصروا فيه: فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكننا والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز^(١))؟

ويهمنا هنا التأكيد على ما ذكره الزمخشري من التقابل المعنوي، فهذا يؤكد أنه يعتبر البديع داخلا ضمن النظم الذي يتكون من مجموع الألفاظ والمعاني وليس البديع عنده مجرد زينة شكلية أو عرض ظاهر، ويظهر ذلك بصورة أوضح عند حديثه عن الصورة السابقة في سورة أخرى في قوله تعالى ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾^(٢) حيث يقول: (جعل الإبصار للنهار وهو لأهله، فإن قلت: ما للتقابل لم يراع في قوله: (ليسكنوا .. مبصرا) حيث كان كان أحدهما علة والآخر حالا؟ قلت: هو مراعي من حيث المعنى - وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف، لأن معنى مبصرا: ليصروا فيه طرق القلب في المكاسب^(٣)).

النموذج الثالث: يقع البديع فيه تحت ناظرية في صورة تشتمل على البديع والمعاني فلا يعبر البديع من اهتمامه إلا القليل بينما يبرع ويجيد، ويبدئ ويعيد في متطلبات علم المعاني التي وردت في نفس الصورة، انظر إليه يعلق على آية سبأ: ﴿فَاعْرَضُوا فَأَرسلنا عليهم سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بقوله: "تسمية البدل لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم.. " ولا يزيد على ذلك.

فإذا تخطى نطاق البديع أتى بمعان أغرب وأعمق وأدل على ذكاء وعمق وبصيرة يقول: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر: هو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: (جزيناكم بما كفرنا) (كفروا)

(١) الكشف : ٤ / ١٣٧

(٢) النحل : ٨٦

(٣) الكشف : ٣ / ٢٠٣

(٤) سبأ : ١٦ - ١٧

بمعنى عاقبتناهم بكفرهم، قيل (وهل يجازى إلا الكفور)؟ على اختصاص للكفور بالجزاء، والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم، وليس بموضعه، إلا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يعد كلاماً^(١).

(وهذا كلام له وزنه وخطره فيما وراء الجزاء من دلالات بلاغية يخصصها موقف الآية، مما يدل على أن الرجل يمر بالبديع مروراً عابراً فإذا عرض لصورة العموم والخصوص، وهي من متطلبات المعاني برع وأجاد^(٢)).

والنموذج الرابع والأخير: يجيء فيه حديثه عن التقابل كلون بديعي - على هامش البحث، أما المعاني ففيها العمق والاستقصاء، وإحكام الربط، والكشف عن مناط الإعجاز، ونقتطف هنا بعضاً مما أورده في هذا الجانب: يقول في قوله تعالى: ﴿الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿١﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٢﴾ .. فإن قلت: كيف اتصلت الجملتان بالرحمن؟ قلت استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه - والسجود له لا لغيره، كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له، فإن قلت: كيف أنحل بالعاطف في الجمل الأولى، ثم جيء به بعد؟ قلت: بكتبت تلك الجمل الواردة على سبيل التعديد، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقرير الذين أنكروا الرحمن وآلاءه، كما يُكْتَبُ منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدمته، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قلت: أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟ قلت: إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القيلين تناسب من حيث التقابل، وإن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين، وإن جَرَى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسب لسجود النجم والشجر^(٤).

(١) الكشف : ٢ / ٥٥٩

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور عامر: ٢٠٨

(٣) الرحمن : ٥ - ٧

(٤) الكشف : ٤ / ٤

(فهو لم يذكر من المعاني الثانية وراء البديع إلا التناسب في تقابل الشمس والقمر والنجم والشجر، أما فنون المعاني من الفصل والوصل، والتناسب بين الجمل، والمعاني الثانية التي تشع من خلال التركيبات في ذلك كله فشيء يفوق الحصر^(١)).

رؤية الزمخشري للمقابلة:

وسواء أهمل الزمخشري البديع أو احتفل به، فلا مندوحة لنا من الحديث عن رؤيته للمقابلة في القرآن الكريم من واقع تفسيره (الكشاف) فهل عرفها كما عرفها غيره من علماء البلاغة؟ أم عرض لها في سياق التفسير تاركاً لنا مهمة وصفها وبيان ما يعني بها؟ الحق أنني من خلال قراءتي للكشاف لم أعر للزمخشري على تعريف للمقابلة كمصطلح بلاغي، على غرار ما ذكره علماء البلاغة، لكنه كان إذا وجد مقابلة في آية ما؟ نص على أن ها هنا تقابلاً بين كذا وكذا مما يدل على أنه لا يحفل كثيراً بالتسمية قدر احتفاله بالمسمى، أو بتعبير أدق، لا يهتم بالنظرية قدر اهتمامه بالتطبيق، ومع ذلك فيمكن لنا استخلاص رؤيته للمقابلة في النقاط الآتية:

(١) أحياناً كثيرة نجد يصف التطابق والغرض البلاغي منه ولا يسميه: وينص على أن الذكر الحكيم يهتم بإيراد الشيء مع نقيضه أو نظيره لما في ذلك من إثارة وتأثير ففي قوله تعالى في سورة البقرة^(٢) ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقبيلها ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يقول: (من عاداته عز وجل في كتابة أن يذكر الترغيب مع التهيب، ويشفع البشارة بالإنذار، إرادة التنشيط لا اكتساب ما يزلف، والتنشيط عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، قفاهُ ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة، من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحموها من الاحباط بالكفر والكبائر بالثواب^(٣)).

(٢) يركز على المقابلة المعنوية وكذلك الطباق المعنوي، إذ يرى أن المقابلة اللفظية من السهل الإتيان بها، أما المقابلة المعنوية، فلا يؤدي فهمها إلا ذو طبع سليم، وقدرة على الغوص وراء المعاني لاستخراج التقابل بينها.

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور عامر : ٢١٢

(٢) البقرة : ٢٤ - ٢٥

(٣) الكشاف : ١ / ٢٥٣ (ط دار الفكر، بيروت)

ولذلك كثيرا ما ترد هذه العبارات عند حديثه عن المقابلة المعنوية: (ترى المطاييع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني)^(١)، (هو - التقابل - مراعي من حيث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف)^(٢)، (هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر)^(٣).

(٣) وأحيانا يطلق لفظ المقابلة على المشاكلة، وذلك مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٤) فليس في الآية ما يوحى بالتقابل، ومع ذلك يقول: (يجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت؟ " مجاز على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال. "

وواقع الأمر أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ مشاكلة وليس مقابلة أو مطابقة لأن المشاكلة هي (ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته)^(٥). وهنا أطلق لفظ (لا يستحي) على الله سبحانه وتعالى مشاكلة لما قاله الكفرة: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت.

ورغم أن الزمخشري سمي ذلك مقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، إلا أنه بعد ذلك اعترف بأن مثل ذلك يسمى مشاكلة، حين استشهد بقول أبي تمام:

مَنْ مَبْلَغُ أَفْنَاءَ يَغْرَبُ كُلُّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَثَلِ

فالذي يسوغ بناء الجار هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار، ثم يضيف أن ذلك من عجائب القرآن الذي أحاط بفنون البلاغة جميعها، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه.^(٦)

ونستنتج من ذلك أن الزمخشري لا يهتم كثيرا بالاصطلاحات الحرفية، وأنه يرى أن صور البديع - على كثرتها - متقاربة، بل ومتداخلة.

(١) الكشف : ٤ / ١٤٥ مطبعة الاستقامة

(٢) الكشف : ٣ / ٣٣

(٣) الكشف : ٤ / ١٣٧

(٤) البقرة : ٢٦

(٥) الإيضاح للقرطبي : ١٦٨

(٦) الكشف : ١ / ٨٥

وإطلاق المقابلة على المشاكلة من جانب الزمخشري في هذا الموقف واضح لا لبس فيه ولا غموض، كما ينص هو نفسه على ذلك في التعليق على بيت أبي تمام.

ولكن القطب الرازي (محمد أو محمود بن محمد الرازي أبو عبد الله قطب الدين) (٦٩٤ - ٧٦٦ هـ) صاحب الحاشية على الكشف^(١) في حاشيته على الكشف يرى أن الزمخشري - في حديثه عن المقابلة واطباق الجواب على السؤال - إنما يريد المعنى اللغوي للمقابلة، ولهذا عطف عليه - على سبيل التفسير - (واطباق الجواب على السؤال) والا فالمقابلة - كما يقول القطب - في اصطلاح ارباب البديع أن يجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر أو بين ضديهما^(٢).

وسواء أراد الزمخشري المعنى اللغوي أو المعنى الاصطلاحي، فإن التداخل بين صور البديع واضح عنده، بدليل أنه يمزج أيضا بين اللف والنشر والطباق وذلك إذا كانت الصفات الراجعة إلى المذكور متقابلة، نرى ذلك عنده في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾^(٣) حيث يقول: (وشبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق^(٤)) ونحن نعرف أن اللف هو: ذكر المتعدد على جهة الاجمال، ثم ذكر ما لكل على جهة التفصيل، ثقة بأن السامع سيرده إلى موضعه^(٥).

ويمكن أن نضيف إلى رؤية الزمخشري للمقابلة ما توصل إليه الدكتور أبو موسى في بحثه في هذا المجال^(٦) وهو:

(٤) إن المقابلة عنده قد تكون بين لفظين متقابلين كالاستبشار والاشتمزاز في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٧).

(١) الاعلام : ٧ / ٣٨

(٢) انظر: حاشية قطب الدين التحتاني على الكشف: ٢٥٤ (ويسمى أيضا قطب الدين الرازي ولكنه ليس الرازي المفسر المشهور)، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية. جامعة الأزهر، القاهرة)، من اعداد إبراهيم طه الجعلى، ١٩٨١

(٣) هود : ٢٤

(٤) الكشف : ٢ / ٢٠٣ ط : الاستقامة

(٥) الإشارات والتنبيهات للجرجاني (محمد بن علي) : والبديع في ضوء أساليب القرآن (٨٨)

(٦) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٤٩٤ : ٤٩٧

(٧) الزمر : ٤٥

٥) وقد تكون المقابلة بمعنى الموافقة في نظم الجمل، وذلك كالتقابل من حيث المعنى في قوله تعالى (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وقد مر الحديث عن تخريج هذا التقابل المعنوي منذ قليل.

٦) أما الطباق عند الزمخشري فلا يبتعد كثيرا عن المقابلة عنده، كما أنه - أيضا - يخرج عن معناه الاصطلاحي إلى معان أخرى منها:

أ- قد يراد به مقابلة الكلمات من حيث التضاد وهذا أقرب إلى المعنى البلاغي الذي هو الجمع بين المتضادين مثل قول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾^(١): شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق: وقد سبق الحديث عن ذلك عند التنبيه على أن الزمخشري يمزج بين الألوان البديعية ونحن نرى أنه لا فرق في هذا بين الطباق والمقابلة بين اللفظين في آية الزمر السابقة.

ب- وقد يذكر الطباق ويراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها، فالكلام المطابق هو الذي تتنزل فيه الأحوال على وفق المعاني، يقول في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ وقال: (ليسكن) فذكر بعدما أنث (واحدة، منها، زوجها)، ذهابا إلى معنى النفس، ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طبقا للمعنى^(٢).

ج- وقد يذكر الطباق بمعنى لا يبعد كثيرا عن معنى اللف الذي سبق ذكره. يقول في قوله تعالى:

﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٣):

فإن قلت ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل - وكتاب: خير مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له - وقوله: "من لدن

(١) هود : ٢٤

(٢) الأعراف : ١٨٩

(٣) الكشف : ٢ / ١٤٥ ط الاستقامة

~(٤) هود : ١

حكيم خبير " صفة ثانية، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي من عنده إحكامها وتفصيلها - وفيه طباق حسن، لأن المعنى أحكمها حكيم، وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور^(١).

د- وقد يذكر الطبايق بمعنى مراعاة تلاؤم الألفاظ ووقوعها في مواقعها. وقد يبدو من ظاهر التعبير ما يخالف هذا الأصل. أي تبدو الكلمات وكأنها متباعدة، وحينئذ يحاول الزمخشري أن يكشف تطابقها المعنوي، مشيرا إلى أن المطابيع هم الذين يراعون طباق المعاني، يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِتْحٌ أَكِنَّةٌ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِتْحٌ ءَاذَانِنَا وَقُرْ﴾^(٢): (فإن قلت: هلا قيل على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على غلط واحد؟ قلت: هو على غلط واحد، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: (قلوبنا في أكنة)، وقلوبنا على أكنة^(٣)، ولو قيل: وجعلنا في قلوبهم أكنة، لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطبايق والملاحظة إلا في المعاني^(٤)).

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلَغِيهِ﴾^(٥):

فإن قلت: كيف طابق قوله: لم تكونوا بالغيه قوله: وتحمل أثقالكم، وهلا قيل: لم تكونوا حاملينها؟ قلت: طبايقه من حيث أن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلا أن تحملوا على ظهورهم أثقالكم ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق النفس^(٦).

ونخلص من ذلك إلى أن الزمخشري يعتبر المقابلة كفن من فنون البديع داخله في النظم والإعجاز، وإلى أنه يركز على التقابل في المعنى - وأن ذوي الطبع السليم وحدهم هم القادرون على إدراك ذلك، ونحن مع د. فتحي عامر في أن الزمخشري بالرغم من أنه استفاد استفادة واضحة بالتجارب التي سبقته كان صورة واضحة على استقلال العالم في البحث وأن كشفه جاء نموذجاً تطبيقياً على إعجاز القرآن البلاغي^(٧).

(١) الكشف: ٢ / ١٤٥

(٢) فصلت: ٥

(٣) الأنعام: ٢٥

(٤) الكشف: ٤ / ١٤٥

(٥) النحل: ٧

(٦) الكشف: ٢ / ٤٦٣

(٧) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: ٢١٣

٨- بديع القرآن - لابن أبي الأصبع.

في الوقت الذي كانت شمس الحضارة الإسلامية والعربية تؤذن بالأفول في كل من المشرق العباسي والمغرب الأندلسي كانت مصر قد بدأت تزدهر فيها الحضارة العربية وتحمل لواء العلم والمعرفة بفضل العلماء الوافدين إليها من الشرق والغرب تحت ضغط التتار والفرنجية. وفي وسط هذا الجو العلمي وجد (الإمام العلامة عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن زكي الذين أبو محمد البغدادي ثم المصري المعروف بأن أبي الأصبع (٥٨٥ - ٦٥٤ هـ)^(١) وكان شاعرا وبلاغيا وناقدا.

وقد انصرف جل اهتمامه للبلاغة، وخاصة ما يتصل منها ببديع القرآن الكريم وهو يتخذ من ذلك منطلقا لإثبات إعجاز القرآن، مبينا كيف أبرزت الألوان البديعية معاني القرآن وجمال أسلوبه وقوة تأثيره، ومن أهم كتبه في هذا المجال كتابان هما (تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) و (بديع القرآن).

وفي تحرير التعبير: (جمع ألوان البديع، وجعل منها أصولا وفروعا، فالأصول هي تلك التي أتى بها ابن المعتز من قبله، والفروع ما اكتشفه العلماء بعد ذلك)^(٢)

وقد أولع ابن أبي الأصبع بصور البديع أيما إيلاع، وتتبعها في بطون الكتب حتى جمع منها اثنين وتسعين محسنا، ثم أضاف إلى ذلك ثلاثين محسنا جديدا سلم له منها عشرون، أما الباقي فممسوق إليه أو متداخل عليه^(٣). وكتاب (بديع القرآن): قد اختصره من (تحرير التعبير) لبيان ما في القرآن الكريم من الألوان البديعية، وقد أتى فيه بالعجب العجيب، ليدلل على أن الانواع البلاغية غير مقصورة على شعر الشعراء ونثر الكتاب، بل هي موجودة أيضا في القرآن، وقد أوصل الرجل عدد المحسنات البديعية في القرآن الكريم إلى مائة محسن وثمانية^(٤).

(١) ارجع في ترجمته إلى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي : ٧ / ٣٧ ط مصورة عن طبعة دار الكتب، وشذرات الذهب : ٥ / ٢٦٥ ط دار الآفاق، بيروت والاعلام : ٤ / ٣٠ ط بيروت .

(٢) مقدمة (تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع تحقيق المرحوم د. حنفي شرف، ط المجلس الاعلى للشتون الإسلامية - ١٩٨٣ م

(٣) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف : ٣٥٩، دار المعارف، مصر

(٤) انظر مقدمة (بديع القرآن) لابن أبي الأصبع، تحقيق د / حنفي شرف ط ٢، دار النهضة -

ولكننا نلاحظ كما لاحظ من قبلنا الدكتور شوقي ضيف أن بعض أبواب المعاني متداخلة عنده مع بعض صور البديع^(١).

وكتاب بديع القرآن يعتبر ميدانا تطبيقيا وعمليا لكل صور البديع جهد فيه مؤلفه لإثبات الإعجاز القرآني عن طريق ما فيه من البديع (إذ يبدو أن فكرة هذا الكتاب كانت رد فعل لفكرة الباقلاني التي بسطها في إعجاز القرآن والتي ذهب فيها إلى أن الإعجاز القرآني لا يلتبس من ناحية ما اشتمل عليه من البديع، ولذلك حاول ابن أبي الأصبع في كتابه أن يستخرج من القرآن غرر هذا البديع التي تفوق ما وقف عليه من بديع الكتاب والشعراء في العصور المختلفة^(٢)).

فماذا قال عن المقابلة بعد أن رأينا أنه يعتبر البديع القرآني أكد وجوه الإعجاز فيه؟ عرفنا أنه أوصل عدد المحسنات البديعية في القرآن إلى مائة محسن وثمانية ورغم هذه الكثرة الكثيرة من ألوان البديع عنده إلا أنه لا يفتأ يدخل هذا في ذاك، وذاك في هذا، فتراه يحمل الآية الواحدة بأكثر من محسن بديعي، وكأنه يجتهد لإثبات أن القرآن الكريم بديع كله، وتكرر منه هذه النغمة عقيب الحديث عن الصورة البديعية التي يعرضها. اسمعه يقول معقبا على الطباقي في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾، وأنه هو إمامت واحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴿﴾: (فانظر إلى فضل هذا الطباقي كيف جمع إلى الطباقي البليغ التسجيع الفصيح لمحجى المناسبة التامة في فواصل الآية^(٣)).

ويقول في موضع آخر معقبا على صحة التقسيم في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ وهو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ﴿﴾: (وحصل في نظم هذه الكلمات التي هي بعض آية مع صحة التقسيم التي اقترنت بصحة التفسير: حسن التهذيب والترتيب^(٤)).

ولقد سبق في الفصل الأول من هذا البحث أن بينت مدى ولوعه باستنباط وجوه البديع والوانه، حين باهى بأنه وقع له في بيت واحد من تأليفه ستة عشر ضربا من البديع وهو قوله في مدح الملك الأشرف موسى الأيوبي:

فَضَحَّتْ الْحَيَا وَالْبَحْرُ جُودًا فَقَدْ بَكَى الْـ حَيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالتَّطَمَّ الْبَحْرُ

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٣٧٩

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٢٦٧

(٣) بديع القرآن : ٣٣

(٤) السابق : ٦٦

وحين تحدث عن الطباق في كتابه بديع القرآن، لم يورد تعريفا محددًا له، بل بدأ في تقسيمه إلى ضربين : حقيقى ومجازى، وبين أن كلا من الضربين على قسمين : لفظى ومعنوى واعتبر أن ما جاء بألفاظ الحقيقة فقط يسمى الطباق، أما ما كان كله أو بعضه بألفاظ المجاز، فإنه يسمى تكافؤاً^(١) (وبذلك يكون قد جمع بين رأيي قدامة وجمهور البلاغيين^(٢)) واستشهد للتكافؤ بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾^(٣)، فإن اشتراء الضلالة وبيع الهدى مجاز، وبقوله تعالى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(٤) أي ضالا فهديناه، فإن الموت والحياة ههنا مجاز، ومعنى ذلك في رأيه (أن التكافؤ لا بد أن يتضمن استعارة فإن لم يكن استعارة فلا تكافؤ^(٥)) ثم قسم الطباق الذي يأتي بألفاظ الحقيقة إلى ثلاثة أقسام :-

طباق سلب، وطباق إيجاب، وطباق ترديد.

ومثل للأول: بطائفة من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦)، وقوله تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٧).

وهو وإن لم يعط تعريفا لطباق السلب، إلا أن الآيات التي استشهد بها يفهم منها أنه يعنى به ما كان أحد الطرفين مثبتا والآخر منفيا ومن الجدير بالذكر أنه قد عقد بابا شبيها بهذا سماه (باب السلب والإيجاب) وهو بناء الكلام على نفى الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى أو أمر بشيء من جهة، ونهى عنه من غير تلك الجهة^(٨)، ومثل لذلك بقوله تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٩) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ^(٩) فإنه سبحانه نهى الولد عن أن يقول

(١) عرف قدامة التكافؤ بأنه (الجمع بين معنيين متكافئين أي متفاوتين إما من جهة المضادة

والسلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل) نقد الشعر : (١٤٣)

(٢) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق للدكتور حنفى شرف : ٧٨/٢

(٣) البقرة : ١٦

(٤) الأنعام : ١٢٢

(٥) بديع القرآن : ٣٢

(٦) البقرة : ٦

(٧) المائدة : ١١٦

(٨) بديع القرآن : ١١٦

(٩) الاسراء : ٢٣ & ٢٤

للولادين أدنى قول مؤلم أو ما فيه غضاضة، وأمره بالقول الكريم وخفض الجانب لهما ذلا وتواضعا فأمره سبحانه بأمرين ونهاه عن أمرين، ومثله ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾^(١).

ونحن نرى في هذه الشواهد مقابلة بين طرفين، فإن القول الكريم وخفض الجانب مقابل للقول المؤلم والفاحش المفهوم من التأفف والزجر.

ومثل للثاني: وهو طباق الإيجاب بقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾^(٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا^(٣) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى^(٤)، وقوله : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾^(٥) أي ما تنقص وما تزيد، ومع انه لم يعرف طباق الإيجاب أيضا إلا أنه يعنى به كما هو واضح من الأمثلة أنه ما كان التضاد فيه بدون أداة نفى.

أما الثالث : وهو طباق الترديد، فقد عرفه بأنه (رد آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن مطابقا فهو رد الأعجاز على الصدور).

وقد قسم طباق الترديد إلى ضربين سلب وإيجاب، فمن الموجب قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦) ولم يمثل لطباق الترديد بالسلب.

ونحن نرى أن تقسيم ابن أبي الأصبع للطباق إلى حقيقى ومجازى لا يخرج عن تقسيم ابن سنان وابن رشيق والقرطاجنى حيث قسموا^(٧) الطباق إلى محض وغير محض، والمحض ما كان التضاد فيه حقيقيا والثاني ما احتاج إلى تأويل.

وقد تحدث ابن ابى الأصبع عن كل من الطباق والمقابلة تحت عنوانين مستقلين، وذكر ان الفرق بينهما يأتى من وجهين :

أحدهما ان الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدین فذین (مفردین) فقط، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد على الضدين، من الأربعة إلى العشرة.

(١) المائدة : ٤٤

(٢) النجم : ٤٣ - ٤٥

(٣) الرعد : ٨

(٤) البقرة : ٢١٦

(٥) انظر سر الفصاحة : ١٩٣ والعمدة : ١٢/٢ ومنهاج البلغاء : ٤٨

والوجه الثاني : ان المقابلة تكون بالاضداد وبغير الاضداد^(١).

ومع انه تحدث عنهما منفصلين وأبان الفرق بينهما، إلا انه حين يستشهد بآية للطباق يجمع معه المقابلة، بدليل تعليقه على آية ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ التي استشهد بها لطباق الترديد الموجب، حيث يقول: (فجمعت هذه الآية بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي، فالمقابلة جاءت من صدرها حيث قابل الكراهية بالحب، والخير بالشر، والطباق المعنوي في قوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، لان تقدير المعنى فيه: والله يعلم وأنتم تجهلون.

وقد سبق في صدر هذا البحث أن رأينا كيف قرب لنا ابن أبي الأصبع المعنى اللغوي للطباق وهو (الموافقة) إلى المعنى البلاغي وهو التضاد في قول نابغة بن جعدة (وخيل يطابقن بالدارعين ... طَبَاقَ الْكَلَابِ يَطَّانَ الْمَرَّاسَا).

ويظهر في هذا التقريب روح النقد اللاذع لابن الأثير الذي يعيب على علماء البلاغة تعريفهم المطابقة بأنها (مأخوذة من طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده) ووجه اعتراض ابن الأثير على هذا التعريف أن (أصل الاشتقاق يقتضى الموافقة لا المضادة^(٢)) لكن ابن أبي الأصبع يتصدى لابن الأثير فيخطئه في ذلك بقوله (وهو أولى بالخطأ منهم لأن القوم رأوا ان البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطن واحد، والرجل واليد ضدان، أو في معنى الضدين. فرأوا أن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمى مطابقا، لأن المتكلم به قد طابق فيه بين الضدين)^(٣).

وقد اختار ابن أبي الأصبع أن يتحدث عن المقابلة تحت عنوان: (صحة المقابلات)^(٤) وهي نفس التسمية التي أطلقها قدامه على المقابلة في نقد الشعر^(٥).

وعرفها بأنها عبارة عن (توخى المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي فإذا أتى في صدره بأشياء قابلها في عجزه بأضدادها، أو بأغيارها من المخالف والموافق على

(١) بديع القرآن : ٣٢

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٢٧٩/٢

(٣) تحرير التعبير : ١١١

(٤) انظر بديع القرآن : ٧٣ - ٧٤

(٥) انظر نقد الشعر لقدامه : ١٣٣ ط ٣ الخانجي، بمصر سنة ١٩٧٨ م.

الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني، لا يخرم من ذلك شيئا في المخالف والموافق، ومتى أدخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة).

وهو حين يؤكد على وجوب الترتيب كى تكون المقابلة صحيحة، إنما يؤكد ما قاله ابن رشيق في العمدة حين ينص على (أن الاصل في المقابلة هو ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخر، ويأتى في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه^(١))، ولأن صاحبنا مشغول بإثبات الإعجاز القرآني عن طريق ما حواه من البديع، فإننا نجد يتألق في تحليل ما يستشهد به من القرآن الكريم ومن معجز هذا الباب عنده قوله تعالى ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

فهو يحاول استخراج أكبر عدد ممكن فيها، مبينا دلالة كل لون منها على قوة المعنى، وما اضافه هذا اللون أو ذاك من إيجاعات وظلال مما يعنى أن الرجل ينظر إلى البديع على أنه جوهرى لا عرضى وأنه في القرآن الكريم - معجز أيما إعجاز، ولا يقل عن نظيره البيان والمعاني يقول: (فانظروا إلى مجيئ الليل والنهار في صدر الكلام، وهما ضدان ومجيئ السكون والحركة في عجز الكلام، وهما ضدان، ومقابلة كل طرف بالطرف الآخر على الترتيب، وكيف عبر سبحانه عن الحركة بلفظ الإرداف، فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا عن المقابلة، والذي أوجب العدول عن لفظ (الحركة) إلى لفظ (ابتغاء الفضل) كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة، وهى اشتراك الاعانة بالقوة وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل، وسلامة الحس ويستلزم اضاءة الطريق الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدى المتحرك إلى بلوغ المشارب ووجوه المصالح، وينفى أسباب المعاطب، والآية سبقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه، ليتم حسن البيان، فتضمنت هذه الكلمات التي هى بعض آية عدة من المنافع والمصالح التي لو عددت بألفاظها الموضوعية لها، لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة، فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان فيه، حيث قال (لتسكنوا) و (لتبتغوا) بلام التعليل

(١) العمدة : ١٥/٢

(٢) القصص : ٧٣

فجمعت هذه الكلمات : المقابلة، والتعليل والإشارة، والإرداف والائتلاف، وحسن البيان، لمجئ الكلام فيها متلاحماً، آخذة أعناق بعضه بأعناق بعض، ثم أخبر بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم بلفظه الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التي هي من لفظي الإشارة والإرداف بعض رحمة، حيث قال بحرف التبويض: (ومن رحمته) وكل هذا في بعض آية عدتها إحدى عشرة لفظة^(١).

ونحن وإن عينا على ابن أبي الأصبع في صدر هذا البحث أن كان واحداً ممن ساهموا في إصابة البديع بالتشتت والتمزق، وأنه بالغ في هذا إلى أن أوصل عدد المحسنات إلى مائة واثنين وعشرين محسناً، وأنه يباهي بأنه استطاع أن يجمع في بيت واحد من تأليفه ستة عشر ضرباً من البديع، أقول إن ذلك لا ينفي كونه صاحب نظريات شفافه عن مخبوء الأسرار القرآنية، وذلك بما أوتيته من حصافة وذكاء، وإخلاص للعلم وانكباب على الدرس وعدم مشاركة في الحياة العامة، كما أنه - وقد اهتم بالمحسنات، لم يكن ذلك على حساب المعنى، بل كان يرى أن اللفظ الرقيق لا يقصد لذاته بل لأنه يشف عن المعنى ويظهره واضحاً كالنهار، وهو يدعو الشعراء إلى ذلك في شعر رقيق له ومنه:

انتخب للقريض لفظاً رقيقاً كنسيم الرياض في الأسحار
فإذا اللفظ رق شفاً عن المعنى سنى فأبداه مثل ضوء النهار
مثلما شفت الزجاجة جسماً فاختنفى لوئها بلون العقار^(٢)

ويسبقني أن نقول إن أهم ما أضافه ابن أبي الأصبع في كتابه بديع القرآن هو إثبات الإعجاز القرآني عن طريق البديع وتأكيده بذلك على ذاتية البديع لا عرضيته. كما أنه كان يدعو إلى عدم المبالغة والإغراق، وله في ذلك رأي غاية في التوسط والاعتدال، وقد بسط هذا الرأي في تحرير التحبير. يقول (وقد اختلف قوم في المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه، وخير الكلام ما بولغ فيه... وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام، ولكن المذهب المرضي أن المبالغة ضرب من المحاسن إذا أبعدت عن الإغراق والغلو.. وخير الأمور أوسطها^(٣)).

وهو بهذا يخفف من غلوائه ومبالغته في تلمس وجوه للبديع القرآني قد تصل إلى درجة التكلف أحياناً.

(١) بديع القرآن : ٧٣ / ٧٤.

(٢) من مختارات شعره في كتاب : ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة حفني شرف : ٢١.

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن : ١٤٧.

٩ - البرهان في علوم القرآن للزركشي :

ثم يأتي دور الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي^(١) (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ) وما قاله عن هذا الموضوع في كتابه الهام (البرهان في علوم القرآن).
والزركشي عَلم من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين تفقه بمذهب الشافعي وحفظ كتاب المنهاج للإمام النووي حتى صار يعرف بالمنهاجي نسبة إلى هذا الكتاب.

ونحن نلاحظ في حديثه عن الطباق أنه يمزج - منذ اللحظة الأولى - بينه وبين المقابلة، رغم أنه أفاض في الحديث عن المقابلة، وخصها بجزء من كتابه. فالطاق عند (أن يُجمَعَ بين متضادين مع مراعاة التقابل^(٢)) وفي نصه على مراعاة التقابل دليل على هذا المزج، ثم يضيف (فإذا شرط فيهما شرط وجب أن يشترط في ضديهما ضد ذلك) وهي نفس الإضافة التي زادها السكاكي على تعريف المقابلة، حيث عرفها بأنها (الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما، ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده^(٣)).

وقد مثل الزركشي للطباق بأمثلة عديدة ذكر منها آيات سورة الليل التي اشتهر الاستشهاد بها على مقابلة أربعة بأربعة وهي ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿فَسَتَيْسَرُّ لِلْيُسْرَى﴾ وَأَمَّا مَنْ ابْجَلَّ وَاسْتَغْنَى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ فَسَتَيْسَرُّ لِلْعُسْرَى ﴿﴾.

ثم قسم الطباق إلى: لفظي ومعنوي، وأضاف قسماً ثالثاً هو الطباق الخفي، ونحن لا نرى فيما سماه المعنوي والخفي إلا ما سماه غيره بالطباق (غير المحض) ولأنه يتحدث عن القرآن وعلومه، لذا جاءت كل أمثله من القرآن الكريم، وجاءت تخريجاته للآيات القرآنية دليل بصر وذوق، وآية إبداع واقتدار، وخصوصاً حديثه عن الطباق المعنوي والطباق الخفي، وكلاهما مما يحتاج إلى تأويل.

(١) انظر في ترجمته : الأعلام : ٦ / ٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣ / ٤٥٥ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ ، ١٩٥٧ ، الباي الحلبي.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي : ٢٠٠.

فمن الطباق المعنوي قوله تعالى ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿١﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ فمعناه: ربنا يعلم إنا لصادقون، وقوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ﴿٢﴾ فلما كان البناء رفعا للمبنى، قوبل بالفرش الذي هو على خلاف البناء، ومن ثم وقع البناء على ما فيه ارتفاع في نصيبه ﴿٣﴾.

ومن الطباق الخفي قوله ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ ﴿٤﴾، لأن الفرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار، وينقل الزركشي عن أسامة بن منقذ قوله عن هذه المطابقة: إنها أخفى مطابقة في القرآن.

ثم عرض الزركشي لطائفة من المطابقات الخفية في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ﴿٥﴾، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر، وقوله تعالى ﴿ظِلٌّ وَجِهُهُ مُسْوَدًّا﴾ ﴿٦﴾ لأن ظل لا تستعمل إلا نهارا، فإذا ملح مع ذكر السواد، فكأنه طباق بذكر البياض مع السواد.

وهو يوافق ابن سنان الجفاجي على اعتبار التحنيس إذا دخله نفي طباقا، كقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾ لأن الذين لا يعلمون، هم الجاهلون.

أما حديثه عن المقابلة، فقد أتى فيه بالجديد والعجيب، وأطلعنا على أسرار خفية في علاقات الألفاظ القرآنية بعضها ببعض، وجلّى لنا نماذج من المقابلات لم يسبق إليها فيما نظن.

تناول الزركشي المقابلة في عدة مباحث: عن حقيقتها وأنواعها وأقسامها:

(١) يس: ١٥ - ١٦.

(٢) البقرة: ٢٢.

(٣) البرهان للزركشي: ٣ / ٤٥٦.

(٤) نوح: ٢٥.

(٥) يس: ٨٠.

(٦) النحل: ٥٨.

(٧) الزمر: ٩.

المبحث الأول في حقيقتها :

وهو هنا لم يختلف عما أورده السابقون، منذ قدامة حتى السكاكي، إلا في الصياغة فقط، فقد عرفها بأنها (ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها)، ولا يختلف هذا عن قول أبي هلال عنها : إنها (إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة^(١)) أو قول ابن رشيق أنها (مواجهة اللفظ بما يستحقه^(٢)).

والسذي يحدد له هنا اعترافه بأنها قريبة من الطباق إذ عرف الطباق بأنه (الجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل وهو في هذا قريب من ابن الأثير الذي رأي إطلاق اسم المقابلة على المطابقة^(٣))، ويضاف هذا إلى ما رأيناه منذ قليل وهو يتحدث عن الطباق مستشهدا له بآية الليل المشهورة في باب المقابلة، وإن هذا ليجعلنا نرجح أن الرجل قد نظر إلى أسلوب المقابلة في القرآن نظرة شاملة تتعدى حدود المصطلحات الفنية والألفاظ الضيقة.

وحين أراد أن يفرق بين الطباق والمقابلة، رأيناه يقتفى أثر ابن أبي الأصبع وإن كان لم يصرح باسمه في التفرقة بينهما من وجهين : أحدهما أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين غالبا، والمقابلة تكون بالجمع بين أكثر من ضدين. والثاني : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها^(٤).

المبحث الثاني : في أنواعها : وهذا المبحث من أهم المباحث التي برع فيها الزركشي وأجاد وأتى لنا فيه بالجديد والطريف في أسلوب المقابلة في القرآن الكريم. وأنواع المقابلة عنده - وإن تشابهت في أسمائها مع غيره - إلا أنه قد زاد عليها وأفاض. وأنواعها عنده ثلاثة : نظيري ، ونقيضي ، وخلافي.

ولم يورد الزركشي تعريفا لأي نوع، وأغلب الظن أنه يعني بالنظيري من عناه قدامة بـ (التوفيق بين بعض المعاني وبعض، فيأتي في الموافق بما يوافقه) ويعني به أيضا مراعاة النظر والتناسب، وهو ما عناه حازم القرطاجني بـ (التوفيق بين المعاني التي

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري : ٣٤٦.

(٢) العمدة لابن رشيق : ١٥ / ٢.

(٣) المثل السائر : ٢ / ٢٨٠.

(٤) انظر بديع القرآن : ٣١، والبرهان للزركشي (٣ : ٤٥٨).

يطابق بعضها بعضاً، والجمع بين المعنيين الذين يكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر^(١) ومن قبل استشهد ابن رشيق لهذا النوع بقول أبي الطيب^(٢):

رِجْلَاهُ فِي الرَّكْضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ وَفَعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ

لأن بين الكف والقدم مناسبة وليست مضادة، ولو طلبت المضادة لكان الرأس أو الناصية أولى، كما قال تعالى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾^(٣).

وأمثلة الزركشي لهذا النوع تدل على ذلك - فهو يمثل لمقابلة النظيرين بمقابلة السنة والنوم في قوله تعالى ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٤) لأثهما جميعاً من باب الرقاد المقابل باليقظة، فهما متقابلان في باب النظيرين، ومجموعهما يقابلان النقيض الذي هو اليقظة.

كما أننا نرجح - أيضاً - أنه يعني بـ (النقيضي) ما عناه غيره بالمقابلة المحضة وهي التي يكون اللفظ فيها مقابلاً للآخر على جهة الحقيقة لا على جهة التأويل، وقد مثل لها الزركشي بقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾^(٥) فصد اليقظة الرقود.

ولا يفوتنا هنا - ونحن نتحدث عن المقابلة عند الزركشي - أن نؤكد ما أكدناه عند حديثه عن الطباق، من أنه يمزج بين الاثنين حين يستشهد لأي منهما بأمثلة الآخر، فقد سبق أن استشهد للطباق بآية الليل المشهورة عند البلغاء كمثال لمقابلة أكثر من ضدين، وهو هنا يستشهد للمقابلة بآية ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وهي مشهورة عند البلغاء كمثال للطباق الذي (يجمع بين ضدين فدين^(٦)) وهما اليقظة والرقود. وهذا ما يجعلنا نرجح أن الرجل يمزج بين الاثنين مزجاً ينطبق عليه المفهوم الواسع للمقابلة القرآنية الجامعة.

وأما النوع الثالث وهو الخلافي، فرمما يعني به ما عناه حازم القرطاجني في المنهاج بأنه (مقارنة الشيء بما يقرب من مضاده^(٧)).

(١) منهاج البلغاء لحازم القرطاجني : ٥٢.

(٢) العمدة لابن رشيق : ١٦ / ٢.

(٣) الرحمن : ٤١.

(٤) البقرة : ٢٥٥.

(٥) الكهف : ١٨.

(٦) بديع القرآن : ٣٢.

(٧) منهاج البلغاء : ٤٩.

وهو ما كان اللفظ فيه غير متمحض في الضدية، بل يحتاج إلى تأويل وتجوز، وقد سبق للزرکشي أن جعل من الطباق نوعا يحتاج إلى تأويل هو الطباق المعنوي والخفي، وهو لا يبعد كثيرا عن النوع الثالث من المقابلة وهو (الخلافي).

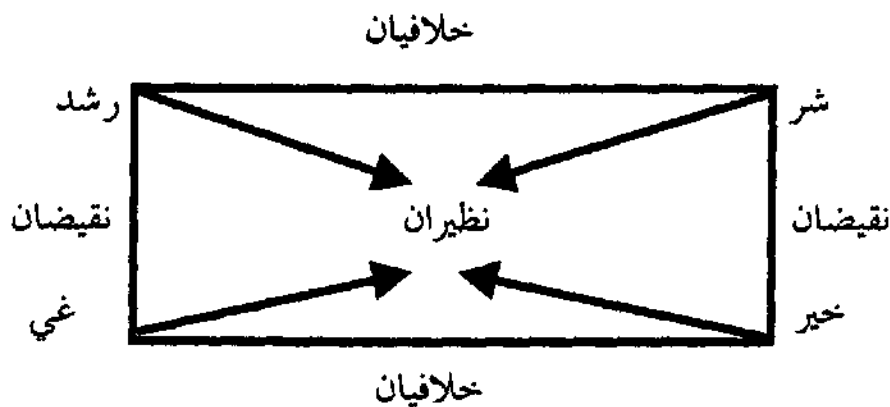
وهذا النوع الأخير عنده (أتمها في التشكيك وألزمها بالتأويل^(١)) لأنه يحتاج إلى فقه بأسرار اللغة، وفهم لإيجاء الألفاظ ولسياق الجملة.

وقد مثل للخلافي بمقابلة الشر بالرشد في قوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِنَا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾^(٢).

وهنا نقف مبهورين وقد تملكنا العجب مما أورده الزركشي في هذا الباب، وهو جديد كل الجدة، وطريف كل الطرافة إنه يُخرِّجُ من هذه الآية وغيرهما أشكالا عجيبة من المقابلات البديعة يندمج فيها النظري بالخلافي بالنقيضي لتشكّل مربعا أو مثلثا أو مسدسا. على نحو غاية في الدقة والاعجاز.

ففي آية الجن السابقة : قابل سبحانه الشر بالرشد، وهما خلافيان، لأن المضاد الحقيقي للرشد هو الغي، والمضاد للشر هو الخير، فبين الشر والخير مقابلة بالنقيضي ومثلها بين الرشد والغي ثم إن الخير الذي يخرج لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعاً فيكون بينهما مقابلة بالنظري، ومثلها ما بين الغي والشر.

فقد حصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ : نطقان وضمنان^(٣)، فكان بهما هذا الشكل الذي يمكن توضيحه بهذا الرسم الذي اجتهدت - قدر الإمكان - في صنعه ليكون مفسرا لما ذكره الزركشي في هذه الآية :



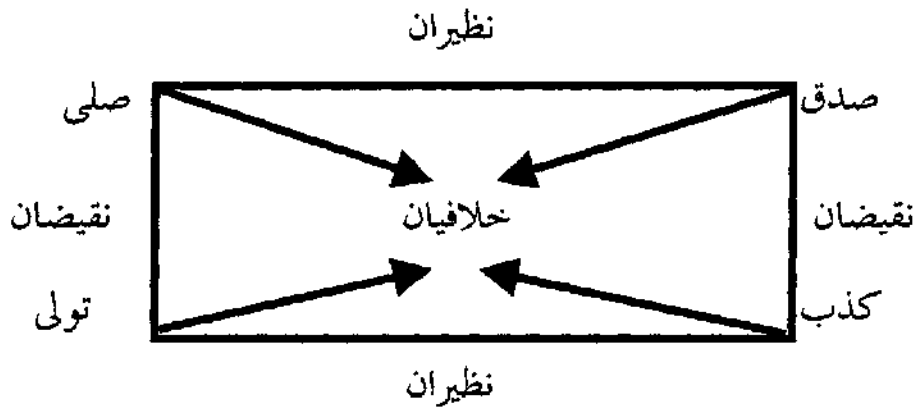
(١) البرهان في علوم القرآن للزرکشي : ٤٥٨ / ٣.

(٢) الجن : ١٠.

(٣) البرهان للزرکشي : ٤٥٩ / ٣.

يمكن استخلاص ثلاث مقابلات من هذا الشكل :

- ١- مقابلة الخلافيين بين الشر والرشد نطقا ومثلها ما بين الخير والغي.
 - ٢- مقابلة النقيضين بين الشر والخير ضمنا ومثلها ما بين الرشد والغي.
 - ٣- مقابلة النظيرين بين الشر والغي نطقا ومثلها ما بين الخير والرشد.
- ويرى الزركشي أن هذا الشكل يقع في تفسيره على وجوه، فقد يرد وبعضه مفسر كآية السابقة، وقد يرد وكله مفسر كقوله تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ ^(١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ^(٢).
- فهذه الآية يمكن أن نستخرج منها - أيضا ثلاث مقابلات تتضح من هذا الشكل المرسوم :



وفي هذا الشكل ثلاث مقابلات كل ألفاظها مذكورة نطقا ولم تحتج لألفاظ ضمنية ففهيها :

- ١- مقابلة بين النظيرين: صدق وصلى وكذلك كذب وتولى.
 - ٢- مقابلة بين النقيضين: صدق وكذب وكذلك صلى (بمعنى أقبل) وتولى
 - ٣- مقابلة بين الخلافيين: صدق وتولى وكذلك كذب وصلى.
- والأعجب من هذا تفسيره للمقابلة في قوله تعالى ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ^(١).
- حيث قابل الإفساد بالتسبيح والحمد، وسفك الدماء بالتقديس. فالتسبيح بالحمد إذن ينفي الفساد، والتقديس ينفي سفك الدماء والتسبيح شريعة للإصلاح، والتقديس شريعة حقن الدماء وشريعة التقديس أشرف من شريعة التسبيح، فإن التسبيح بالحمد

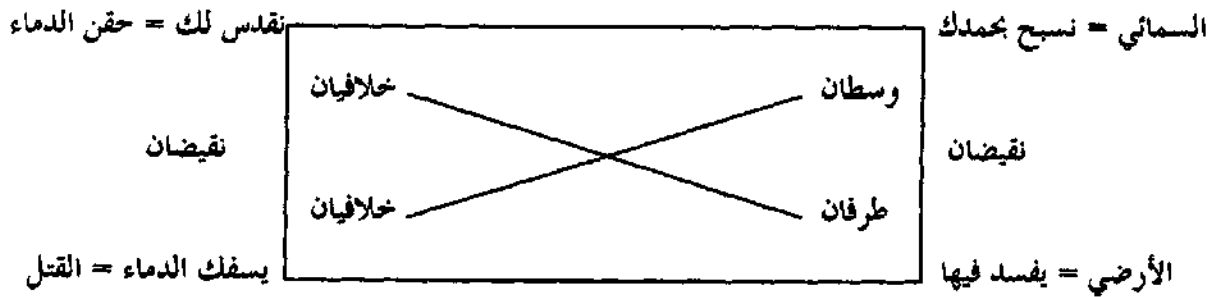
(١) القيامة : ٣١ - ٣٢.

(٢) البقرة : ٣٠.

للإصلاح لا للفساد، وسفك الدماء للإفساد لا للتقديس، وهذا شكل مربع من أرضي وهو الإفساد وسفك الدماء، وسمائي وهو التسبيح والتقديس والأرضي ذو فصلين، والسمائي ذو فصلين، ووقع النفس من الطرفين المتوسطين.

فالطرفين : الافساد في الطرف الأول، والتقديس في الطرف الآخر.
والوسطان : آخر الأرض وأول السماء، فالأول متشرف على الآتي، والآخر ملفت إلى الماضي :

وكم في كتاب الله من كل موجز يدور على المعنى وعنه بماصع^(١)
لقد جمع الاسم المحامد كلها تقاسيمها بمجموعة والمشايخ^(٢)
ولقد حاولت أن أرسم هذا المربع الذي تحدث عنه الزركشي لكي تتضح أسرار
تلك المقابلات التي أشار إليها وآمل أن يكون في هذا الشكل الغناء وتوضيح المقصود :
نظيران



نظير

يتضح من هذا المربع المقابلات الآتية :

- ١- مقابلة النقيضين بين الإصلاح المفهوم ضمنا من التسبيح بالحمد وبين الإفساد.
- ٢- مقابلة النقيضين بين حقن الدماء المفهوم ضمنا من التقديس وبين سفك الدماء.
- ٣- مقابلة النقيضين بين الأرضي وهو الإفساد وسفك الدماء والسمائي وهو التسبيح بالحمد والتقديس، وهي مقابلة ضمنية.
- ٤- مقابلة النظيرين بين التسبيح والتقديس، وكذلك بين الإفساد وسفك الدماء.
- ٥- مقابلة الخلافين بين الطرفين الإفساد والتقديس.
- ٦- مقابلة الخلافين بين الوسطين : التسبيح وسفك الدماء.

(١) بماصع : يدافع

(٢) البرهان للزركشي : ٣ / ٣٦٠.

ويذكر الزركشي نقلا عن الشيخ أبي الفضل يوسف بن محمد النحوي القلعي أن القرآن الكريم كله وارد على أسلوب المقابلة، وأن هذه المقابلة تمتد لتشمل الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الالهيات، حيث اتحدت من حيث تعددت واتصلت من حيث انفصلت، وأنها قد ترد على شكل المربع تارة، وشكل المسدس أخرى، وعلى شكل المثلث إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة، والترتيبات البديعة^(١)

المبحث الثالث : تقسيمات أخرى للمقابلة :

لم يكتف الزركشي بما ذكره في المقابلة عن حقيقتها وأنواعها، بل أفاض في الحديث عنها حتى تكتمل صورة المقابلة من جميع النواحي. وفي هذا المبحث عرض وجهة نظره في أمور ثلاثة تتصل بالمقابلة هي ترتيب أطرافها، وعدد هذه الأطراف ثم مقابلة المعاني والمواقف.

أولا : ترتيب الأطراف

في حديثنا عن تناول ابن رشيق للمقابلة ذكرنا أنه يرى (أن الأصل في المقابلة هو ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخر^(٢)) ورأينا أنه ينتقد قدامة حين يستشهد للمقابلة بأبيات للطرماح بن حكيم لم يراع فيها الترتيب وهي :

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ الثُّرَايَا
فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَذَوْا لِحُسْنٍ يَدِ ثَوَابَا

فإنه قدم ذكر الإنعام على المأسورين، وآخر ذكر القتل في البيت الأول، وأتى في البيت الثاني بعكس الترتيب، حين قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب، وآخر ذكر الثواب على حسن اليد.

وهنا نجد الزركشي يتحدث عن ترتيب أطراف المقابلة: الأول بالأول والثاني بالثاني. فيقسمها من هذا الجانب إلى أربعة أقسام: وهو في ذلك لا يبالي بأن يدخل في هذه التقسيمات ألونا أخرى من البديع كاللف والنشر، ورد العجز على الصدر مما يؤكد مرة أخرى تسامحه في هذا الباب، والاقسام الأربعة هي :

(١) البرهان للزركشي : ٤٥٨ / ٣ .

(٢) العمدة لابن رشيق : ١٥ / ٢ .

أ - أن يأتي بكل واحد من المقدمات مع قرينه من الثواني، كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (١).

ب - أن يأتي بجميع الثواني مرتبة من أولها، كقوله تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢).

ج - أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها ويسمى " رد العجز على الصدر " كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤).

د - أن يأتي بجميع المقدمات، ثم بجميع الثواني مختلطة غير مرتبة ويسمى اللف كقوله تعالى ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٥) فنسبة قوله (متى نصر الله) إلى قوله (والذين آمنوا) كنسبة قوله (يقول الرسول) إلى قوله (ألا إن نصر الله قريب)، لأن القولين المتباينين يصدران عن متباينين (٥).

ولو سار الكلام بدون اللف لكان " يقول الذين آمنوا متى نصر الله. فيقول لهم الرسول ألا إن نصر الله قريب ".

ثانيا : عدد الأطراف

والزر كشي في هذا الجانب يورد أولا ما تواضع عليه السابقون من مقابلة اثنين باثنين وثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة، ولقد وقف السابقون في بحثهم في المقابلة القرآنية عند مقابلة أربعة بأربعة مستشهدين لهذا النوع بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴾ (٦) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴾ (٦).

(١) النبأ : ١٠-١١

(٢) القصص : ٧٣.

(٣) آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) البقرة : ٢١٤.

(٥) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٦١.

(٦) الليل : ٥ - ١٠.

وعندما أرادوا الاستشهاد لمقابلة خمسة ألفاظ بخمسة ذهبوا إلى الشعر يلتمسون منه بغيثهم فوجدوها في بيت أبي الطيب المشهور :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثي وبياض الصبح يغري بي
لكن الزركشي - وقد جعل القرآن الكريم ميدان بحثه ومصدر إلهامه - يضع أيدينا على الجديد والطريف دائما.

لقد وجد الرجل بحصافة عقله وعمق فهمه ونفاذ بصيرته أن القرآن الكريم يلي حاجة البلاغة والبلغاء.

فوضع أيدينا على مقابلة خمسة بخمسة وستة ب ستة في القرآن الكريم، ولعمري إن هذا لفتح مبين فتح الله به على صاحب البرهان.

فمثال مقابلة خمسة ألفاظ بمثلها من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ففي هاتين الآيتين مقابلات بين :

١- الحقير والكبير في (بعوضه - فما فوقها).

٢- فأما الذين آمنوا - وأما الذين كفروا.

٣- يضل به كثيرا - ويهدي به كثيرا.

٤- ينقضون عهد الله ، من بعد ميثاقه.

٥- يقطعون - يوصل.

والمقابلة في هذه الآية واضحة وظاهرة، لأن التضاد بين ألفاظها حقيقي في أربعة منها ومعنوي فقط في (بعوضه فما فوقها).

أما المثال الذي استشهد به لمقابلة ستة ألفاظ بستة أخرى فهو قوله تعالى ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الْمَثَابِ ﴿١٠﴾ قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١١﴾

ولم يبين لنا أي الألفاظ يقابل الآخر في هذا المثال، بل أجمل الحديث إجمالاً بقوله (قابل الجنات والأهوار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بازاء الفساء في الدنيا، وختم بالحِث وهما طرفان متشابهان وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوي، وأخر ذكر الأزواج كما يجب في الترتيب الأخرى، وختم بالرضوان^(١)).

ومع ذلك فإننا يمكن أن نعتبر ذلك داخلاً في المقابلة المعنوية أو ما سماها الزركشي بالخلافي، وحسبنا هنا أن نعد ستة ألفاظ في مقابلة ستة أخرى هي :

(١) الجنات (٢) الأهوار (٣) والخلد (٤) والأزواج

(٥) والتطهير (٦) والرضوان

في مقابل :

(١) النساء (٢) البنين (٣) والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة

(٤) والخليل المسومة (٥) والأنعام (٦) والحِث.

كما يمكن اعتبارها مقابلة بين عدد معين من نعيم الدنيا ومثله من نعيم الآخرة ليظهر للمؤمن الفرق الكبير بين النعيمين، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الفرق بقوله (قل أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ).

وإذا كان الزركشي قد أتى بالجديد والطريف في هذا الباب، فسوف نرى إن شاء الله في صلب هذا البحث أن القرآن الكريم حافل بأنواع من المقابلات الطريفة التي لم يشر أحد إليها من قبل في اعتقادنا. وعلى سبيل المثال لا الحصر تلك المقابلة بين صفات المؤمنين والكافرين وجزاء كل فريق منهما، وهي صفات تتصل بقواعد السلوك والآداب الاجتماعية، والجديد فيها هو مقابلة أربعة أشياء بثمانية. يقول الله تعالى ﴿

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ

(١) آل عمران : ١٤ - ١٥

(٢) البرهان للزركشي : ٣ / ٤٦٥.

أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ ﴿٢٠﴾ جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢١﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٣﴾ ﴿١﴾

فها هنا مقابلة أربعة أمور تتصل بالكافرين بثمانية أمور تتصل بالمؤمنين.

وأمر الكافرين الأربعة هي :

(١) نقص العهد (٢) قطع ما أمر الله به أن يوصل

(٣) الإفساد في الأرض (٤) اللعنة وسوء الدار.

في مقابل أمور ثمانية تتصل بالمؤمنين وهي :

(١) الوفاء بعهد الله (٢) صلة ما أمر الله به أن يوصل

(٣) خشية الله (٤) الصبر ابتغاء وجهه

(٥) إقامة الصلاة (٦) الإنفاق سرا وجهرا

(٧) درء السيئة بالحسنة (٨) عقي الدار

ولعل السر في هذا هو أن (الإفساد في الأرض) قد شمل في مضمونه نقيض كل

الصفات الجميلة الموجودة في (الخشية والصبر والصلاة والإنفاق ودرء السيئة بالحسنة).

ثالثا : مقابلة المعاني والمواقف

رأينا عند الحديث عن الزمخشري أنه يناصر قضية المقابلة المعنوية وينبه إلى أن المطابيع وحدهم يراعون طباقات المعاني، وهنا نجد الزركشي يفتح الباب واسعا أمام مقابلة المعاني، بل يكاد يقترب من مقابلة المواقف الممتدة في بضع آيات من السورة.

إنه يُنبّه إلى أنه (في تقابل المعاني باب عظيم يحتاج إلى فضل تأمل^(٢)) ولكنه يقصر ذلك على الفواصل القرآنية، من مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾

(١) الرعد : ٢٠ - ٢٥ .

(٢) البرهان : ٣ / ٤٦٣ .

(٣) البقرة : ١١ - ١٣ .

فيشير الزركشي هنا إلى أن بين الفاصلتين (يشعرون) و (يعلمون) مقابلة، لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين يجتمعون وهو مطيعون، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكسب الناظر المعرفة والعلم، وإنما النفاق وما فيه من الفتنة والفساد أمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس، فلذلك قال فيه : يعلمون.

وأيضاً، فإنه لما ذكر السفه في (كما آمن السفهاء) وهو جهل، كان ذكر العلم طباقاً، وعلى هذا تجيء فواصل القرآن^(١).

والزركشي لم يوضح لنا بطريقة كافية وجه التقابل بين (يشعرون) و (يعلمون) بل هو يدخل بنا في تعليقات منطقية، مع أن التقابل بينهما يسير الإدراك، إذا نظرنا إلى ما بينهما من تقابل بـ (النظيري) كما سماه الزركشي منذ قليل، فإن الشعور والعلم متناظران على اعتبار أن الشعور أحد مراتب الإدراك الموصل إلى العلم.

وقد كان يمكن للزركشي - ما دام يتحدث عن مقابلة المعاني - أن يلفت نظرنا إلى المقابلة في مواقف المناققين، وأن يُنبّه إلى التناقض البين في سلوكهم حين يدعون الإصلاح - وهم أس الفساد، وحين يرمون المؤمنين بالسفه والجهل، بينما هم أحق بهذا السفه وذلك الجهل، ولكن الزركشي لم يفعل، ولو فعل لارتقى ببحثه درجات في سلم البلاغة القرآنية.

ومن المقابلات المعنوية التي أشار إليها الزركشي واعتبرها من خفي المقابلة ولطيفها: ما جاء فيه نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر، فإذا تؤمل كان من أكمل المقابلة.

وقد استشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ﴾^(٢).

فقابل الجوع بالعرى، والظمأ بالضحي^(٣).

وهو يعتبرها خفية، لأن الواقف مع ظاهر النص، ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ، والعرى بالضحي، ولكن المدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة، لأن الجوع ألم الباطن، والضحي موجب لحرارة الظاهر، فاقترض الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً، وقابل الخلو بالخلو، والاحتراق بالاحتراق.^(٤)

(١) البرهان : ٣ / ٤٦٣.

(٢) طه : ١١٨ - ١١٩

(٣) في لسان العرب عن الليث: ضَحَى الرجل يَضْحَى: إذا أصابه حر الشمس

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٤٦٦

وقد زاد ابن قيم الجوزية هذه المقابلة توضيحاً حين قال: (فالجوع خلو الباطن، والعُرى خلو الظاهر، والظماً احتراق الباطن، والضحي احتراق الظاهر، فقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق^(١)).

ونحن لا نرى بأساً من الوقوف مع ظاهر النص، فإنه يقدم لنا مقابلة تجمع بين الشيء وما يوافقه، أو ما سماه الزركشي نفسه: مقابلة بين النظيرين، ذلك أن الجوع يوافق الظماً وينظره، والعرى يناسب الضحي وينظره أيضاً. ولكن الزركشي مغرم بالحفي واللطيف من المقابلات، ولذلك رأيناه يسوق مثلاً آخر مشابهاً لخفاء المقابلة في الآية الكريمة، ليدلل به على أن وراء ظاهر النص دلالات أعمق ومعان ألطف مما يبدو من ظاهره.

وذلك المثال هو تلك الحكاية المشهورة بين المتنبّي وسيف الدولة، حين أنشده المتنبّي:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِمَتْ وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَعْرُكَ بِاسْمٍ

فأنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزى البيتين على صدريهما، وقال له: ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثاني، وعجز الثاني على الأول، ثم قال له: وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلُخَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأْ الزُّقَّ الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ لِخَيْلِي كُرَّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ

ويريد سيف الدولة أن يصحح كلام المتنبّي ليصبح البيتان هكذا:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَعْرُكَ بِاسْمٍ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِمَتْ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

كما يريد أن يصحح كلام امرئ القيس ليصبح بيتاه هكذا:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ لِخَيْلِي كُرَّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأْ الزُّقَّ الرَّوِّيَّ لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلُخَالٍ

ليستقيم الكلام، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، وسبب الخمر مع

تبطن الكاعب.

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ١٤٨، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، مكتبة المتنبّي، القاهرة.

فقال له أبو الطيب، مبنيا ما وراء الظاهر من دلالات:

أدام الله عز مولانا. إن صح أن الذي استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك، لأن البزاز يعرف جملة وتفصيله، لأنه أخرجته من الغزلية إلى الثوبية.

وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشحاعة في منازل الأعداء.

وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية، قلت: (وجهك وضاح) لأجمع بين الاضداد في المعنى، فأعجب سيف الدولة ووصلة بخمسمائة دينار^(١).

ولا يسعنا في ختام حديثنا عن الزركشي وكتابه (البرهان في علوم القرآن) إلا أن نحى هذا العالم، لما قدم لنا من غزير العلم ووافر المعرفة.

ولقد قدم الرجل بهذا في (البرهان) برهانا آخر على صفاء ذهنه، وتوقد قريحته، وعمق تحليلاته، وشمول ثقافته.

فلنجعل مسك الختام عنه، هذا النص الفريد الذي يشير فيه إلى أن القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه بين النقيضين، وكأنه بهذا يريد القول بأن المقابلة تنتظم القرآن جميعه، يقول: (جمع القرآن بين صفتي الجزالة والعدوبة، وهما كالمضادين، ولا يجتمعان غالبا في كلام البشر، لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما بشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعدوبة منها ما يضادها^(٢) من السلاسة والسهولة، فمن هنا نحو الصورة الأولى، فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الاعراب، وفحول الشعراء منهم، ومن هنا نحو الثانية قصد كون الكلام في الأسماع أعذب وأشهى وألذ،

(١) البرهان : ٣ / ٤٦٦، ويرى إسماعيل بن الأثير (عماد الدين - ٦٩١ هـ) صاحب (الكتز) أن دفاع أبي الطيب ليس بجيد، وذلك لأن الردى هو الموت، فما في ذلك مقابلة، وإنما الصواب أن يقال: لما ذكرت الوقوف في صدر البيت الأول قابلته بالنام، ولما ذكرت وجه الجريح المنهزم وهو عبوس حزين، قابلته بوجهك الوضاح وثرعك الباسم لتتم المقابلة.

انظر (جوهر الكتز): تلخيص كتز البراعة في أدوات ذوي البراعة : ٨٧، تأليف : نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي (٧٣٧هـ)، تحقيق الدكتور : محمد زغلول سلام ط منشأة المعارف، الاسكندرية.

(٢) الضمير هنا يعود على (الجزالة).

مثل اشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين، ونرى ألفاظ القرآن الكريم قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز^(١). ومعنى ذلك أن الزركشي يعد من وجوه الإعجاز القرآني - اجتماع صفتين متقابلتين في أسلوبه وهما الجزالة وما يتبعها من القوة والوعورة، والعدوبة بما فيها من السلاسة والسهولة.

وهو بذلك ينظر إلى القرآن نظرة كلية تؤدي المقابلة فيه دورا بارزا ويؤكد ما قاله الشيخ أبو الفضل القلعي منذ قليل من أن القرآن الكريم كله وارد على أسلوب المقابلة وتلك لعمرى نظره عميقة ورؤية شاملة تدل على بصر وفهم لا يؤتاها إلا القليل.

١١- سيد قطب والتصوير الفني؛

يتحدث المرحوم سيد قطب عن المقابلة القرآنية في سياق حديثه عن التناسق الفني في القرآن الكريم، وهذا التناسق عنده ألوان ودرجات، فمنه التنسيق في تأليف العبارات. ومنه التنسيق في الإيقاع الموسيقي. ومنه التنسيق في التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات. ومنه التناسق النفسي. ومنه المقابلات القرآنية.

ولا يحدد المرحوم سيد قطب مفهوما اصطلاحيا للمقابلة، ولكنه يعتمد مباشرة إلى استعراض بعض النماذج التطبيقية للمقابلة في القرآن الكريم، موضحا كيف أدت دورها الحيوي في إبراز التناسق الفني بين حالتين أو موقفين. وهو يعتبر أن (التقابل طريقة من طرق التصوير^(٢)) الذي هو القاعدة الأساسية في تعبير القرآن ومن ثم يعتمد - في نماذجه - إلى التركيز على عنصر التصوير في المقابلة التي يكثر التعبير القرآني منها ويستخدمها في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق.

وهذا هو الجديد والطريف فيما أتى به سيد قطب في باب المقابلة، إذ لم يسر سيرة الأقدمين في تقسيم المقابلة إلى محضة وغير محضة أو إلى مقابلة اثنين باثنين أو ثلاثة بثلاثة

(١) البرهان : ٢ / ١٠٧.

(٢) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب، ٧٥ ط بيرزت

... الخ، بل تخطى ذلك كله إلى مقابلة الصور والمواقف منبها إلى أثر المقابلة في التناسق الفني للصورة المرسومة، أو المشهد المعروض وما يترتب على ذلك من تأثير في نفوس السامعين.

وقد استطاع الرجل بما أوتيته من روح شفافه، ومعايشة للقرآن الكريم أن يقدم لنا نماذج من المقابلة التصويرية في القرآن نعرضها على هذا النحو:-

(١) التقابل بين صورة وصورة:

وقد مثل لذلك بالتقابل بين صورتَي البث والجمع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ ذَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^١ فصورة بث الدواب، وصورة جمعها يلتقيان في سطر واحد، بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورهما واحدة بعد الأخرى.

(٢) التقابل بين صورتين وصورتين:

كالتقابل بين الصورتين اللتين يعرضهما القرآن لإماتة الأحياء وإحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^٢ أولَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ^٣ ففي ومضة عين نقلهم من القرى المهلكة الدائرة بعد الحياة وال عمران إلى الأرض الحية الممرعة بعد الموت والاحد اب، فالتقابل هنا بين حالتين وحالتين في الواقع لا بين حالة وحالة. وبنه سيد قطب إلى أن المقابلة المصورة أكثر ما تكون في صور النعيم والعذاب في الآخرة، وقد ذكر من ذلك نوعين هما: المقابلة النفسية بين المؤمنين والكافرين والمقابلة بين العذاب الحسي والنعيم المادي، ولا بأس من ادراجهما ضمن المقابلات القرآنية عنده.

(٣) التقابل النفسي:

يلجأ المرحوم الأستاذ سيد قطب هنا إلى أثر بيان المقابلة في تصوير الجو النفسي المحيط بكل من المؤمنين والكافرين في الآخرة، وكيف جاءت الألفاظ رخيّة ندية مطمئنة في جانب المؤمنين، شديدة الوقع قوية الأسر في جانب الكافرين.

(١) الشورى : ٢٩

(٢) السجدة : ٢٦ - ٢٧

في وسط هذا الروع الذي يبثه العرض العسكري - الذي تشترك فيه جهنم بموسيقاها العسكرية المنتظمة الدقات، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر وبين العذاب الفذ والوثاق النموذجي .. يقال لمن آمن:

(٤) **تقابل العذاب الحسي والنعيم المادي:**

هَذَا هُوَ الْعَذَابُ الْحَسِّي يُقَابِلُهُ جَوْ النِّعِيمِ فِي كُلِّ جَزْئِيَّةٍ مِنَ الْجَزْئِيَّاتِ ﴿١﴾ وَجُودُهُ
يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٢﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٤﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿٥﴾ فِيهَا
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿٦﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٧﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿٨﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿٩﴾
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾

والتقابل هنا لا بين صورتين حاضرتين، بل بين صورتين: إحداهما حاضرة الآن والأخرى ماضية في الزمان، حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة. ومن ذلك:

(٥) الغاشية : ٧ - ١٥

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾^(١)، فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان (الخصيم المبين) والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان. ولهذا جعل الصورتين متقابلتين وأغفل المراحل بينهما، لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص، بالتقابل التخيلي بين حال وحال^(٢).

ومثلها أيضا: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سَمُومٍ وَخَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ۖ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾^(٣)
فالسوم والحميم، والظل الذي ليس له من الظل الا اسمه، لأنه من (يحموم) (لا بارد ولا كريم) صورة هذا الشظف تقابل صورة الترف: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾.

ويدلنا المرحوم سيد قطب على موضع الروعة ومثار التأمل في هذه المقابلة وما يمثّلها فهؤلاء المتحدث عنهم يعيشون في الدنيا الحاضرة، وصورة الترف هي الصورة القريبة أما ما ينتظرهم من السوم والشظف فهو الصورة البعيدة. ولكن التصوير هنا لفرط حيويته يخيل للقارئ أن الدنيا قد طويت وأهم الآن هناك، وأن صورة الترف قد طويست كذلك، وصورة الشظف قد عرضت، وأهم الآن يُذكرون في وسط السوم والحميم، بأنهم (كانوا قبل ذلك مترفين) وذلك من عجائب التخيل.

ويستتبع سيد قطب فيشير إلى أن هذا التصوير التخيلي وهذه المقابلة المصورة هي النسق المتبع غالبا في القرآن، وهو الذي يليى طلبّة الفن والدين في آن: يليى طلبّة الفن في قوة الإحياء، حتى لينسى المشاهد أن هذا مثل يضرب، ويحس أنه حاضر يشهد، يليى طلبّة الدين، لأن الاحساس بالمغيّب مما يلمس الوجدان، ويهيئ لدعوة الإيمان^(٤).

ويمكن أن نقول - بعد ما سبق - إن المرحوم الأستاذ سيد قطب قد أضاف إلى ما قاله السابقون عن المقابلة هذا النوع الجديد في المقابلة.. وهو المقابلة التصويرية والمقابلة النفسية، وهو إن لم يهتم كثيرا بالاصطلاحات، الا أنه أكثر من التطبيق العملي لهذه المقابلات في تفسيره المعروف (في ظلال القرآن) وفي كتابه (مشاهد القيامة في القرآن الكريم).

(١) النحل : ٤

(٢) التصوير الفني : ٧٧

(٣) الواقعة : ٤١ - ٤٥

(٤) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب، ٧٨

نتائج الباب الأول

استعرضنا في هذا الباب معنى المقابلة وأطوارها عند علماء البلاغة والنقد، وكذلك عند المهتمين ببلاغة القرآن، عبر قرون ثمانية، وهي فترة كافية - فيما نظن - لاطلاعنا على مفهوم المقابلة، وما يدور في فلكها من الألوان البديعية الأخرى.

ومن خلال ذلك يمكننا استخلاص النتائج التالية:

أولاً : إن القاسم المشترك بين هؤلاء العلماء في نظرهم إلى المقابلة - هو التضاد بين طرفين أو أكثر.

ثانياً: وإن معنى ذلك دخول ما سمي بالطباق بأنواعه، وكذلك العكس والتبديل في المقابلة، اعتباراً للتضاد الموجود فيها.

ثالثاً: إن المماثلة، ومراعاة النظر أو التناسب - وإن لم يتوفر فيها عنصر التضاد، إلا أن غالبية العلماء وخاصة قدامة، وابن رشيقي وحازم القرطاجني يعتبرونها من صميم المقابلة.

رابعاً: إن جميع علماء البلاغة الذين تعرضنا لهم، جعلوا القرآن مصدراً أساسياً في الاستشهاد للمقابلة بالآيات القرآنية، وهم في هذا يلتقون مع المهتمين بالدراسات القرآنية، في الاعتماد على القرآن - بالدرجة الأولى - فيما يتناولونه من قضايا بلاغية، وهذا يؤكد أن القرآن كان، وسيظل أمد الدهر المعين الذي لا ينضب، والكثير الذي لا يفنى لعلوم العربية ولكل من رام الجمال والجلال، وطلب الحكمة وفصل الخطاب.

خامساً: إن التداخل بين المصطلحات سمة بارزة بين هؤلاء العلماء والدارسين لبلاغة القرآن، فبالرغم من حرصهم على التحديد العلمي والتنظير لمصطلح المقابلة أو الطباق، إلا أننا عند التطبيق والاستشهاد، وجدنا عندهم خلطاً وتداخلاً، ووجدناهم يستشهدون بآيات الطباق للمقابلة وبالعكس.

سادساً: كما أن من هؤلاء العلماء من توسع في مفهوم المقابلة فأدخل فيها إطباق الجواب على السؤال والمشاكلة واللف والنشر، كما فعل الزمخشري، كما تنبه البعض إلى أهمية التقابل بين المعاني واعتبر أن في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل، وأن المطبوعين وحدهم يراعون ذلك.

سابعاً : ان بعض المهتمين ببلاغة القرآن - كالباقلائي - اعتبروا ان البديع في القرآن الكريم لا يؤخذ دليلاً على إعجازه بحجة انه مقدور عليه والبعض الآخر كابن ابي الأصبع قد تصدى لهذا الرأي وأثبت عكس ذلك.

ثامناً : اهتمت الدراسات الحديثة بعنصر التصوير في المقابلة باعتباره القاعدة التي بنى عليها القرآن الكريم، كما رأينا عند المرحوم سيد قطب، وقد فتح بذلك باباً واسعاً امام تقابل المعاني والمواقف المصورة واعتبر ان ذلك يؤدي - في القرآن طلبه الفن والدين كليهما.

لكننا نلاحظ ان هؤلاء العلماء عندما عرضوا للمقابلة لم يوضحوا بطريقة كافية الدور الحيوي الذي تؤديه في خدمة المعنى، والنواحي الجمالية التي أضفها التعبير بأسلوب المقابلة على المشهد، وذلك راجع فيما نظن إلى نظرهم إلى البديع عموماً على أنه ذيل وتابع للمعاني والبيان، أو هو على حد تعبير القزويني (يأتي لتحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة^(١)). وكما أكد دوره التابع للبلاغة عندما ختم الحديث عن بلاغة الكلام بقوله : (وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسناً^(٢)) وهو يعني بهذه الوجوه علم البديع.

وقد ترتب على هذه النظرة أن تكون البلاغة عندهم محصورة فيما دعوه بعلم المعاني والبيان، وانسحبت هذه النظرة على الشروح التي تناولت علوم البلاغة.

فقد رأينا العصام الإسفراييني^(٣) (٨٧٣ - ٩٤٥) هـ في كتابه (الأطول في شرح تلخيص المفتاح) يؤكد تبعية البديع وعرضيته حين شرح عبارة القزويني (وتتبعها وجوه أخرى)، وذلك لأنه ينبه هنا إلى أربع تنبيهات : -

- ١- أن الوجوه البديعية لا تحسن لذاقها بدون البلاغة.
- ٢- أن علم البديع لا بد أن يتأخر عن علم البلاغة.
- ٣- أن التحسين البديعي عرضي لا يدخل في حد البلاغة.
- ٤- وأن الوجوه التي تورث الكلام حسناً، إنما تكون من البديع إذا لم يقتضها الحال، إذ لو اقتضاها الحال لم تكن تابعة للبلاغة^(٤).

(١) الإيضاح في علوم البلاغة : ١

(٢) تلخيص المفتاح للقزويني : ٥ ط صبيح، القاهرة

(٣) عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الاسفراييني (الأعلام : ٦٦/١)

(٤) الأطوال في شرح تلخيص المفتاح : عصام الدين الاسفراييني : ٣٦، المطبعة العامرة القاهرة -

١٢٤٨ هـ

ونحن نرى من جانبنا أن في ذلك تمزيقا للبلاغة، وتشويها لجمالها إذ إن في ذلك فصلا بين عناصر الأسلوب يترع عنه تأثيره، ويسلبه قوته وجماله، وتفرقة بين اللفظ والمعنى في حين أنهما وجهان لعملة واحدة فالأسلوب لا يؤثر في المتلقى إلا إذا تعانق فيه الوجدان مع الفكر في اطار من الصورة واللفظ في تآلف وانسجام.

(ولا شك أن الناقد الحديث ينظر إلى الألفاظ، لا على أنها الفاظ مفردة، ولكن على أنها جزئيات صغيرة في بناء قائم، فيتأكد هل هي في موضعها في النص أم هي غريبة عليه؟ وهل هي متحدة مع المعنى والسياق أم نافرة منها؟^(١)).

وليس النقد الحديث وحده هو الذي يرى هذه الرؤية فقد فطن إلى ذلك كبار النقاد والبلغاء :

هذا عبد القاهر الجرجاني يرجع بلاغة القرآن - بالدرجة الأولى - لبلاغة نظمه، اسمعه يقول - بعد أن عرض لبلاغة النظم في قوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) :

(... فقد اتضح اذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وان الألفاظ تثبت لها الفضيلة في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك في موضع آخر)^(٣).

وها هو ابن رشيق يدعو إلى التكامل بين اللفظ والمعنى، ويبين مدى ارتباط الاثنين في وحدة عضوية قوية - كارتباط الروح بالجسد - فلا غنى لاحدهما عن الآخر (اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته)^(٤).

(١) مقالات في النقد الأدبي : الدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٢١ ، ط ١ - دار القلم مصر : ١٩٦٥ م

(٢) هود : ٤٤

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر : ٤٨ تصحيح الشيخ محمد عبده، والاستاذ : محمد محمود التركزى الشنقيطى، وعلق عليه ونشره : السيد محمد رشيد رضا، ط ٦ ، صبيح، القاهرة : ١٩٦٠ م

(٤) العمدة : ابن رشيق : ٩٩/١

إن البلاغة كسل متكامل، يتآزر فيه اللفظ والمعنى، فتخرج العبارة في صورة أنيقة معبرة عن نفس قائلها أصدق تعبير، موحية بما يختلج في صدره من عواطف وانفعالات، والمستلقى في النهاية لا يستفعل بعنصر معين من عاصر التجربة، ولا يشارك الأديب وجدانيا حين يجيد الفكرة ويرع فيها ويخفق في اللفظ أو الصورة، إنه يستجيب له، ويعيش تجربته إذا استطاع أن ينقل له فكره وعاطفته في عبارة مصورة وألفاظ موحية.

وقد عبر الأستاذ على الجارم عن ذلك بقوله : (البلاغة تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للغرض الذي يقال فيه ... وعناصر البلاغة لفظ ومعنى - وتأليف للألفاظ ومنحها قوة وتأثيرا وحسنا، مع مراعاة حال السامعين والترعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم)^(١).

وفي اللغة العربية بعض الألفاظ التي تبدو - وحدها - صعبة المنطق، ثقيلة على السمع - غريبة على الذهن، ولكنها في موقعها في الجملة، وفي تألفها مع معناها تكون هي - لا غيرها - التي تؤدي المعنى المراد، لا تغني غناءها لفظة أخرى.

ويستشهد الأديب مصطفى صادق الرافعي على ذلك بقوله :

(وفي القرآن الكريم لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) في قوله تعالى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ^(٢) . ومع ذلك فإن حسناتها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدركت اللغة كلها عليها ما صلح لهذا الموضوع غيرها.

ثم يبين الرافعي وجوه البلاغة والحسن في اختيار هذه اللفظة فيعدد من ذلك توافق فاصلتها مع فواصل سررة النجم، ثم توافق غرابتها مع غرابة القسمة التي ينكرها رب العزة من الكفار حين جعلوا الملائكة بنات الله، وكذلك ائتلاف نظم كلمة (ضيزى) على ما قبلها إذ هي مقطعان أحدهما مد ثقيل والآخر مد خفيف، وقد جاءت عقب غنيتين في (إذن) و (قسمة) واحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا بمحاذاة صوتية لتقطيع موسيقى)^(٣).

(١) البلاغة الواضحة : الأستاذ على الجارم وآخر : ١٢ ط ٤ ١٩٣٩ م

(٢) النجم : ٢١ - ٢٢

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي : ٢٦١ - ٢٦٢، ط ٦ . مطبعة دار

الاستقامة - القاهرة - ١٩٥٦

إن المحسنات البديعية - كصورة بلاغية - انما تهدف - فيما تهدف - إلى اظهار تأثير ائتلاف اللفظ مع المعنى في النفوس، وصدق التعبير عن الحالة المراد نقلها إلى السامع.

ولكى ندرك هذا بوضوح أكبر، فلنتأمل مع المرحوم الأستاذ سيد قطب جمال قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١). ففيها :

١- مقابلة بين المجهول في (مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو): حيث آماذ وآفاق وأغوار في المجهول المطلق في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .. وبين المنظور في (ويعلم ما في البر والبحر) حيث آماذ وآفاق وأغوار في المنظور على استواء وسعة وشمول تناسب في عالم الشهود تلك الآفاق والآماذ والأغوار في عالم الغيب المحجوب.

٢- وفيها مقابلة بين حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من أعلى إلى أسفل ومن حياة إلى اندثار في (وما تسقط من ورقة إلا يعملها). وبين حركة البروغ والنماء المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق في (ولا حبة في ظلمات الأرض).

٣- ثم مقابلة شاملة بين الموت والحياة، والازدهار والذبول في كل حى على الإطلاق في (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

وقد أجاد المرحوم الأستاذ سيد قطب تصوير هذه المقابلات وبين أثرها في تناسق وجمال التعبير عن قدرة الله وعظمته، وقد أعانه على ذلك ما في الأسلوب القرآنى من تألف عجيب بين الألفاظ والمعاني.

فهل يجوز بعد هذا الذي وضحه ان نسير في ركاب القائلين بفصل علم البديع عن البلاغة، وندعى بأنه لا يحسن لذاته أو أنه عرضى لا جوهرى ؟
هل نغمض أعيننا، فلا نرى فيه إلا البهرج والزينة، ونتغافل عن دوره الاكيد في خدمة المعنى وتوضيحه خدمة لا تتأتى بدونه ولا تتجلى إلا به.

هذا وسوف نرى في الجانب التطبيقي من هذا البحث أن المقابلة في القرآن الكريم تؤدي دورا حيويا وهاما في عرض الفكرة عرضا مؤثرا وجميلا، وأنها في موقعها الصحيح الذي لا غناء له بدونها.

الباب الثاني

أسلوب المقابلة في القرآن الكريم

ويشتمل على تمهيد وأربعة فصول :

- الفصل الأول : أسلوب المقابلة في القرآن المكي.
- الفصل الثاني : أسلوب المقابلة في القرآن المدني.
- الفصل الثالث : المقابلة في القصص القرآني والأمثال القرآنية.
- الفصل الرابع : مقابلات متميزة في القرآن الكريم.

تمهيد :

ظل القرآن الكريم يتنزل على محمد صلى الله عليه وسلم في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، هي مدة إقامته في مكة منذ بعثته إلى هجرته، فسمى هذا القسم من القرآن بالقرآن المكي، كما سمي ما نزل عليه في المدينة بالقرآن المدني.

وطوال هذه المدة، كان الوحي الكريم يركز على قضية واحدة هي بناء العقيدة الصحيحة، وما تقوم عليه من دعائم الإيمان بوحداية الله والاعتراف له بالربوبية المطلقة، وما يستتبع ذلك من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وباليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحشر، وحساب، وجزاء، بالجنة أو النار بما فيهما من صور النعيم وصور العذاب. ذلك، لأن العقيدة التي يؤمن بها الإنسان هي التي يسير عليها نظام حياته بعد ذلك، فإذا كان بناؤها على أساس صحيح لا عوج فيه ولا انحراف، صار الإنسان - ومن ثم المجتمع - قوة فعالة ومؤثرة في اتجاه الخير والسلام، وكم رأينا من عقائد قامت على أساس الشر أو العصبية، أنتجت الدمار والخراب لأصحابها وللإنسانية من حولهم.

ولم يكن العرب ينكرون تماما وجود إله لهذا الكون، لأن الإنسان منذ نشأ على الأرض، أدرك أن هذا الكون بحركته المنتظمة، وأسراره العجيبة لا بد أن تكون وراءه قوة خفية تدبر أمره وتصرف شئونه: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

ولكن أفكارهم حول الإله الواحد، انحرفت إلى الشرك والوساطة، فاتخذوا الأصنام آلهة من دون الله، زعما منهم بأنها تقرهم إليه: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾^(٢)، وألحقوا بالله الواحد الأحد صفات بشرية تعالى الله أن يتصف بها، كاتخاذ البنات والصاحبة والولد: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الزخرف ٩

(٢) الزمر : ٣

(٣) الزخرف : ١٥ - ١٦

وأغلب الظن أن زعماء الشرك وجدوا في الأصنام سبيلا إلى الثروة التي تأتيهم من وفود الحجاج إلى هذه الأصنام في مكة، فقاوموا - بشدة - دعوة التوحيد، لأنهم رأوا فيها خطرا على أموالهم ومكانتهم.

وليسست الجاهلية التي اطلقت عليهم صفة تدل على التخلف أو القصور العقلي والعلمي بل هي صفة للسفه والطيش والتعصب الأعمى للقبيلة والتراث. إنها صفة تتصل بعدم الحلم ويدل على ذلك أن الكلمة قد استخدمت مناقضة للحلم في أبيات كثيرة من الشعر الجاهلي يقول الشاعر الجاهلي عمرو بن أحرر الباهلي :

وَدُهُمْ تُصَادِيهَا الْوَلَائِدُ جَلَّةٌ إِذَا جَهَلْتُ أَجَوَافَهَا لَمْ تَحْلَمْ
يصف الطعام في آنيته بأنه إذا غلى لم يهدأ، تعبيرا عن كرمه وغناه.

ويقول قيس بن زهير العبسي
أَظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَى قَوْمِي وَقَدْ يَسْتَجْهِلُ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ

أى قد يضطر إلى الجهل

ويقول المرار بن سعيد

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةٌ فَبِالْحِلْمِ سُدُّ لَا بِالتَّسْرِعِ وَالشَّتْمِ
وَلِلْحِلْمِ خَيْرٌ فَاعْلَمْ مَغْبَةً مِنْ الْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تُشْمَسَ مِنْ ظُلْمِ

ينصحه بالصبر وحسن معاملة الناس^(١).

وهكذا يتضح معنى المقابلة بين الجهل والحلم في كثير من النصوص الجاهلية. وفي القرآن من جهة أخرى مقابلة بين الطغيان والحلم، أى بين الجهل والحلم في مثل قوله تعالى:

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الطور: ٣٢]

ومن هنا كان على القرآن المكى أن يتجه وجهتين رئيسيتين، فهو يواجه الشرك وانحراف العقيدة من جهة، ويواجه الجاهلية المتمثلة في السفه والتعصب للموروث من جهة أخرى. وتصحيح العقيدة وبناءها على أسس سليمة كفيل بأن يحو من نفوسهم هذا الطيش والسفه، فلا عجب إذن أن تدور موضوعات السور المكية حول عقيدة التوحيد بكل عناصرها، وهى في علاجها لتلك العقيدة، تأخذ بيد الإنسان في ذلك

(١) انظر : في فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشرقاوي : ٩١، ط ٣. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١.

الزمان، وفي كل زمان بعده، وتقوده في رفق وتؤدة، لتنقله من دروب الشرك وسرايب الوثنية وجهالة الرأي إلى ساحة التوحيد ونور الألوهية الحققة، وتفسر له حقيقة وجوده في هذا الكون، وتضع حدا لتساؤله الأزلى حول خالق هذا الكون وحول الهدف النهائي من مجئ الإنسان إلى هذا العالم، ومصيره بعد ذلك.

وقد سلك القرآن في سبيل الوصول إلى تصحيح العقيدة سبلا شتى وأساليب متنوعة، فهو يلفت نظر الإنسان إلى التفكير في نفسه هو ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (١) ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٣) ﴿فَتَى أَىْ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٥) ﴿وَفَتَى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٦) { (٧) ثم يوجه نظره إلى السموات وما فيها من نجوم وكواكب وما يترتب عليهما من ليل ونهار وسحب ورياح وأمطار، وإلى الأرض وما عليها من الناس والشجر والدواب والأنعام والبحار والأنهار والطيور، ويعرفه بعصيره بعد ذلك في الحياة الآخرة وما فيها من البعث والنشور والحساب.

وهو إذ يصحح عقيدته، فإنه يعده الإعداد السليم لتحمل الأمانة وتكاليفها، والخلافة الله في الأرض وما يترتب عليها.

إن التوحيد الخالص هو المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمه وشرائعه، فعندما يتحرر الإنسان من رجس الشرك وظلام الإلحاد، ويؤمن بإله واحد قادر مدبر لهذا الكون، فإنما يتحرر - في نفس الوقت من سلطان الخوف والعجز والجهالة، وينطلق لعمارة هذا الكون، وارساء دعائم الإصلاح والسلام فيه وهو يعتقد أنه مؤيد ومنصور من قبل الله الذي أنابه عنه وكلفه بهذه المهمة.

ولا عجب أيضا - أن يستمر بناء العقيدة الصحيحة طيلة هذه الفترة حتى إذا استقرت العقيدة في القلوب، واستقر معها المسلمون في مجتمعهم الجديد بالمدينة، واستقرت - تبعا لذلك - النفوس القلقة وهدأت القلوب الحائرة، جاء القرآن المدني

(١) الطارق : ٥

(٢) الإنفطار : ٦ - ٨

(٣) التين : ٤

(٤) الذاريات : ٢١

يعرض تشريعات الإسلام وقوانينه ونظمه لنفوس استسلمت ابتداء لهذا الدين وأصبحت على استعداد تام لتلقى هذه الشرائع وتنفيذها دون معارضة، ومن هنا - كما يقول المرحوم سيد قطب (أبطلت الخمر وأبطل الربا وأبطل الميسر وأبطلت العادات الجاهلية كلها بآيات من القرآن أو كلمات من رسول الله، بينما تجهد القوانين والتشريعات الوضعية نفسها بجندها وسلطانها ودعايتها وإعلامها، فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر فقط من هذه المخالفات، بينما المجتمع يعج بالمنكرات)^(١).

واتجه القرآن المدني إلى التطبيق العملي للعقيدة الجديدة، ولما ينشأ عنها من تصورات لكيفية العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وبنى جنسه، فجاءت العبادات بما تشتمل عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج لتغطي الجانب الأول، وجاءت المعاملات كالبيع والشراء، والزواج والطلاق، والعلاقات بين الأفراد والأمم والشعوب لتغطي الجانب الثاني.

وتبعاً لذلك اختلف أسلوب القرآن المكي عن أسلوب القرآن المدني، فجاءت آيات المكي قصارا متلاحقة كالطرق المتتابعة التي تنبه النائم وتوقظ الغافل، ليس فيها تشريعات ولا قوانين بل كانت على شكل أمور كلية ومقاصد إجمالية.

بينما جاءت آيات المدني طوالاً تشرح وتفصل، بالنغمة الهادئة والمؤثرة في آن واحد، فسورة كالأنفال مثلاً وهي سورة مدينة تضاهي في الحجم سورة الشعراء المكية، ولكن عدد آيات الأولى خمس وسبعون آية، بينما عدد آيات الثانية مائتان وسبع وعشرون آية.

والقرآن في كلتا الحالتين يناسب الظروف النفسية والفكرية التي كان عليها المخاطبون.. (فالقوم في مكة كانوا غير مستقرين، بل كانوا مطاردين، قلقه نفوسهم، غير مستعدة لتشريع أو تفصيل، والمشركون كانوا أيضاً منصرفين عن سماع القرآن، متأثرة نفوسهم بأدبهم المسجوع، قريباً عهدهم بخطبهم المثيرة للوجدان. والتشريع يحتاج إلى هدوء ورزانة في العقل، وتروء في المنطق، وتقبل للإرشاد وكل هذه الحالات النفسية غير متوفرة في الحياة المكية)^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٠١٠/٢، ط ٧، دار الشروق - ١٩٧٨.

(٢) القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة : ٢٩، سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٧. مصر سنة ١٩٦٢.

والذي يدقق في التركيب اللغوي والنحوي للجملة القرآنية يجد أن هناك فرقا بين
المكية منها والمدنيّة

(فعلى حين تشكل الفاصلة المكية عنصرا أساسيا من النسيج النحوي للجملة
المكية، نجد الفاصلة المدنية تبدو تذييلا تقريريا خالصا مستقلا ببنائه النحوي^(١)).

فالشعور بالقلق والترقب في مكة من جانب المؤمنين وبالإعراض والنفور والتعالى من
جانب المشركين يناسبه الجمل القصيرة والفواصل المتلاحقة، بينما الشعور بالأمن
والاطمئنان في المدينة يناسبه بسط الحديث وتذييله والتطويل فيه.

(ولعل من أسرار الإعجاز القرآني في الجملة المكية أنها تعتمد على مراعاة التوازن،
وهذا التوازن يتخذ أوصافا كثيرة، فطورا تقوم الجمل فيه على القصر والتلاحق، وطورا
يكتفى فيه بمعنى الازدواج الفكري، ولكن يحتفظ فيه بالتوازن الصوتي والازدواج
الفكري الذي يقوم على المقابلة بين الأفكار، وقد يضم إلى ذلك المقابلة بين الأصوات،
وإذا كان كل جانب من جوانب اللغة يجب أن يتلون بلون مجاله، فقد اقتضى الإعجاز
العظيم أن يكون الإعجاز في الجملة المكية قرين بساطة الرسالة في طورها الأول، وقرين
الإعتماد على حاجة النفس للنص مما كان مطلوبا في هذا الطور من تاريخ الدعوة،
كذلك يحتاج إلى الاختصار في معرض الإشارة السريعة إلى مجملات فصلت مع
الزمن في الجملة المدنية ذات المتعلقات والاضافات^(٢)).

وأسلوب المقابلة في القرآن المكي يختلف تبعا لما ذكرنا عن أسلوبها في القرآن المدني،
لأن المقابلة القرآنية لا تنفصل عن الموقف الذي قيلت فيه، ولا عن السياق الأسلوبي
المعبر عن هذا الموقف، إنها لبنة في البناء التعبيري للقرآن الكريم، لذلك جاءت عنيفة
مدمدمة، قصيرة ومؤثرة في القرآن المكي. هادئة رخية، عقلية ومنطقية في القرآن
المدني.

ولقد كثر ورود المقابلة في القرآن المكي في المواقف التي اقتضتها نشأة العقيدة،
واستلزمها بناؤها على أسس التوحيد الخالص وما يستتبعه من الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومن ثم كثرت الآيات التي تدعو إلى التوحيد وتدور في

(١) انظر : الفكر الديني في مواجهة العصر، للدكتور : عفت الشرقاوي : فصل (الترعة الانطباعية

في التفسير) دار الحقوق للطبع والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٤

(٢) المرجع السابق. .

فلكه، متخذة من مشاهد الكون ومجالي النفس ومشاهد يوم القيامة ركائز تنطلق منها كالسهم لتصيب الأفعلة مباشرة فتوقظها من سباتها وغفلتها. بينما وردت المقابلة في القرآن المدني في مواقف التشريع وبيان المعاملات، و مواقف الجهاد، وتوجهت بالخطاب إلى النبي وإلى المؤمنين وإلى المنافقين واليهود، تعلم وتؤدب وتربي، وتفضح مكاييد المنافقين وغدر اليهود. أما المقابلة في القصص القرآني، فقد جاءت مناسبة لأغراض القصة في القرآن الكريم، تبرز عنصر الصراع بين الخير والشر والحق والباطل والإيمان والكفر، وتلي في النهاية طلبة الفن من حيث البناء الفني، وطلبة الدين من حيث التأثير والتغيير. وسوف نرى تفصيل ذلك كله في الفصول التالية إن شاء الله.

الفصل الأول

أسلوب المقابلة في القرآن المكي

ويشتمل على المواقف الآتية :

- ١ - المقابلة في الدعوة إلى التوحيد.. من خلال التركيز على المقابلة في :
 - أ- صفات الله تعالى
 - ب- مشاهد الكون والنفسمقارنة بين المكي والمدني في مشاهد الكون والنفس
- ٢ - المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين.
- ٣ - المقابلة في مشاهد القيامة.
- ٤ - المقابلة في مشاهد القيامة بين المكي والمدني.

المقابلة في الدعوة إلى التوحيد :

لا يقدم القرآن الكريم الدعوة إلى التوحيد في صورة نظرية عقلية مجردة، أو على شكل طلاسمة معممة تستعصى على الأفهام، بل يمزجها بالواقع الحي الملموس، ويضع يد الإنسان على الدليل المادي لوجود الله الواحد القادر، ويدله على عظمته في كل ما يحيط به، ويستثير فيه وجدان الإنسان، ويدفعه دفعا إلى البحث المؤدي في النهاية إلى التصديق.

لذلك يتنوع الخطاب إلى المشركين والمعادنين. صعودا بهم إلى السموات وما فيها ثم هبوطا بهم إلى الأرض وما عليها، أو دخولا بهم إلى أعماق النفس البشرية، وما تنطوي عليه من غرائب وسرائر.

وفي كل ذلك تؤدي المقابلة القرآنية دورا هاما وحيويا في التعبير والتأثير. دورا يوقظ النفس الغافلة فتتفعل بما ترى وتسمع، ويحرك الإرادة فيندفع الشخص لتغيير ما هو عليه من زيغ الشرك وضلال الهوى إلى الوجدانية الحقة ونورها الفياض. والمقابلة في مواقف الدعوة إلى التوحيد تأخذ طريقها إلى القلوب من التركيز على صفات الله سبحانه وتعالى، وعلى المشاهد الحية لقدرته جل وعلا في الكون وفي النفس.

أولا- المقابلات في صفات الله تعالى :

١- الله خالق السموات والأرض:

لا تكاد سورة مكية تخلو من ذكر السموات والأرض، والتنبيه على أنهما آيتان من آيات الله، تتجلى فيهما قدرته وعظمته.

والسموات والأرض معروضتان أمام ناظري البشر يراها في كل حين ويلمس أثرهما في حياته اليومية، فيتساءل عن كنههما، ويبحث عن من رفع السماء بلا عمد وبسط الأرض ومهدا لمعيشته.

ويتولى القرآن الكريم الإجابة عن تساؤلات البشر في هذا المجال فلا يترك شيئا مما يتعلق بالسموات والأرض إلا ويُجَلِّيه ويظهره.

ورغم أن المقابلة بين السماء والأرض أو بين السموات والأرض - تتكرر في كل السور المكية تقريبا، إلا أنها تختلف في إيحائها وفيما ترمى إليه من آية لأخرى، فتبدو لنا في كل مرة جديدة كل الجدة، ذلك أن السياق القرآني يكسبها طعما خاصا، والموقف الذي وردت فيه يلونها بلونه، وينفث فيها من إيحائه.

فترى المقابلة بين السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] تختلف عن المقابلة بينهما في الآية التالية مباشرة وهي ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى : ١٢]، إنها في الأولى توحى بأن السموات والأرض من خلق الله وحده على غير مثال سابق وفي هذا إجماع بالتفرد والإبداع، وقد جاءت مصحوبة بالإن على عباده بخلق الأنفس والأنعام أزواجا للإكثار والزيادة وتعمير الأرض، فليس لله مثل في ذلك.

وفي الثانية جاءت المقابلة بين السموات والأرض في ظل إجماع بأن مقاليد أمورهما ومفاتيح الرزق فيهما لله وحده، يوسع ويضيقه لمن يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، فهو العليم بما يصلح في الحالين، وحينئذ لا يكون هناك داع للتمرد على سلطان الله وقدره وميزانه.

وهي في هاتين الآيتين مختلفة عنها في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان : ٧] : لأنها هنا ترد الملكية بأجمعها لله وحده، يتصرف في ملكه كيف يشاء.

والمقابلة بين السموات والأرض، مقابلة صريحة، لا تحتاج إلى تأويل لأن الأرض تقابل السماء.

وقد تأتي المقابلة بينهما في مجال تذكير الكافرين بكيفية نشأة السموات والأرض وبيان قدرة الله وفضله على البشر إذ أرسى في الأرض الجبال الثابت حتى لا تضطرب بهم ومهد فيها الطرق الواسعة يسلكونها في أسفارهم، وجعل السماء من فوقهم سقفا مصونا من الوقوع أو التغير ومع ذلك فهم لا يؤمنون، وعن آيات الله معرضون ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^(١) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢] : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا

(١) مقاليد : جمع مقلد على وزن (مفعَل) بكسر الميم وهو المفتاح (المعجم الوسيط : مادة قلد).

(٢) رب كل شيء مالكة (مختار الصحاح).

(٣) كانتا ملتصقتين بلا فصل ففصلنا بينهما بالهواء (كلمات القرآن) مخلوف : ١٩٨.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنبياء: ٢٦-٣٢]

وأحيانا تجيء المقابلة بين السموات والأرض مقرونة بالقسم، مثل قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧].

وذلك حين يكون الموقف موقف إنكار وعناد من جانب المشركين واعتزاز بما لديهم... وقد ذكر السيوطي في أسباب النزول، نقلا عن ابن أبي حاتم عن أبي العالية، أن هذه الآية وما قبلها نزلت حين جاءت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا الدجال فقالوا : يكون منا في آخر الزمان، فعظموا أمره، وقالوا يصنع كذا، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦ - ٥٧].

ونحن نرى أن الأمر أعم من هذا السبب الخاص، ونشك في رواية السيوطي بعد ذلك عن كعب الأحبار من أنها نزلت فيما ينتظره اليهود من أمر الدجال، فالسورة مكية ولم يحدث مثل هذا الجدل الديني بين اليهود والرسول في مكة، بل كان ذلك في المدينة، والعبرة دائما في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فحين يقاس خلق الناس بخلق السموات والأرض يبدو الفرق هائلا، وعندئذ يخفف المجادل من غلوائه ويطامن المتكبر من كبريائه، ويبدأ في التفكير الهادئ في خلق السموات والأرض فيدفعه ذلك إلى تغيير عقيدة الشرك والإلحاد إلى عقيدة التوحيد الخالص، والمقابلة هنا بما ينشأ عنها من تقليب النظر والفكر بين السموات والأرض، وبين خلق الناس وخلقهما - تؤدي دور التأثير في النفس البشرية وتدفعها إلى الحركة في الاتجاه الصحيح.

وتقترب المقابلة في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ ^(١) من المقابلة السابقة من حيث اقترانها بالقسم، وإن اختلف

(١) الذريات : ٢٣.

المقسم عليه في المقابلتين، ففي الأولى هو كبر وعظم خلق السموات والأرض عن خلق الناس وفي الثانية يعود الضمير في {إنه لخلق} على يوم الدين السابق في قوله تعالى في نفس السورة ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾^(١)؛ ولذا يختلف مذاق المقابلة بين السموات والأرض و يختلف إحاؤها حسبما يقتضيه الموقف والسياق وإن تكررت هذه المقابلة في كل السورة.

وتارة تكون المقابلة بين السموات والأرض في مجال الاستنكار والتفريع والتوبييخ، لبعض هؤلاء المجادلين في وحدانية الله وقدرته وعظيم كرمه دونما علم يستندون إليه ولا هدى ولا كتاب منير، فالله سبحانه قد سخر لهم ما في السموات والأرض، بكل ما تحمله كلمتي (ما في) من شمول وإحاطة للأشياء المسخرة للإنسان في السموات والأرض وهي كثيرة لا تحصى ذكر منها ابن كثير في تفسيره (ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما خلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا، وسخر لهم ما في الأرض من قرار وأثمار وأشجار وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة)^(٢).

وحينئذ تقع المقابلة بين السموات والأرض على هؤلاء المتمسكين بكبريائهم وعنادهم موقع البرهان الساطع والدليل القاطع على أحقية الله بالوحدانية وانفراده بالالوهية ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]

وفي الآية بجانب المقابلة بين السموات والأرض مقابلة أخرى بين النعم الظاهرة والنعم الباطنة التي أسبغها الله على الإنسان، تأتي بالتفصيل بعد الإجمال وتتناق مع ما يوحى به تسخير ما في السموات وما في الأرض من كرم الله تعالى وعظيم فيضه.

وقد ترد المقابلة بين السموات والأرض لتؤكد جدية أمر الوجود والغاية العظيمة من خلق الكون والإنسان فيه، فليس عبثا أو لهما خلقت السموات والأرض وما بينهما، إن الأمر أخطر من ذلك وأجل، إنه الصراع بين الحق والباطل، ولقد وعد الله بغلبة الحق

(١) الذريات: ١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٥٠/٣ ط مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر - مصر.

ودمغ الباطل وزهوقه، وإذا بدا ذلك بعيدا للعيان في بعض الأوقات، فإنما هو الابتلاء والتمحيص ثم لا يلبث أن يعود الحق إلى نصابه، ويعتدل الميزان الذي أراده الله قسطاسا مبينا.

(إن القرآن الكريم يقدم مفهوما أساسيا للإنسان تتحقق به غاية الوجود البشري، بعد أن ظلت عقول الجاهليين زمنا طويلا تضطرب في التساؤل عن غاية الحياة، ومعنى المصير إلى الفناء، بل قد تقول بعثية الوجود في أحيان كثيرة، فلا ترى له غاية ولا هدفا^(١)).

يأتي القرآن ليؤكد هذه الغاية، وتلك الجدية في مقابلات رائعة في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لْعِبِينَ ﴿٦٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَلْعِيلِينَ ﴿٦٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُوتُلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٦٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٦-٢٠]

واللعب واللهو في هذه الآيات مقابل للعب الكفار ولهوهم في أول السورة في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَيُونَ ﴿٦٥﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢-٣]

فاجتمع لنا في هذه الآيات طائفة من المقابلات بين السماء والأرض و بين اللهو واللعب (مقابلة بالنظير) عرفها حازم القرطاجني بإهما (الجمع بين المعينين اللذين يكون بينهما نسبة تقتضى لأحدهما أن يذكر مع الآخر)^(٢) وفيها أيضا مقابلة صريحة بين الحق والباطل وبين الليل والنهار.

وهذه المقابلات من أسرار إعجاز النظم في القرآن، فلم نعد نقرأ ألفاظا جامدة، بل أصبحنا نرى شخوصا تتحرك وحقا ينقض كالشهاب الصاعق على الباطل فيدمغه {بمحقه ويدحضه^(٤)}. .

(١) في فلسفة الحضارة الإسلامية، الدكتور عفت الشرقاوى : ٢٦٨.

(٢) لا يستحسرون : لا يَكْلُون ولا يَعْيُونَ (كلمات القرآن)، مخلوف : ١٩٨

(٣) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني : ٥٢.

(٤) كلمات القرآن. مخلوف : ١٩٨

فيضمحل ويذهب زاهقا، وملائكة وخلقا منقطعين لعبادة الله غير غافلين في مقابل هؤلاء الالهية قلوبهم.

وقد أدت هذه المقابلات دورا مباشرا في التعبير فزادته جمالا على جماله، وكان لها دورها الأكبر في التأثير وفي الضرب على أوتار القلوب الالهية لتوقظها من غفلتها، وتستنقذها من وهدهدتها فتستمسك بالجادة ولا تحيد عن الصواب.

ويطول بنا الحديث لو استعرضنا كل آيات المقابلة بين السموات والأرض فهي موجودة في كل سورة تقريبا.

لكنها - كما تأتي في معرض الدعوة إلى التوحيد، قد تأتي في معرض الدعوة إلى التصديق بأن وحي الله لمحمد هو الحق، وهنا لا يكتفى القرآن بالمقابلة بينهما فقط، بل تمتد المقابلة وتتسع لتشمل قدرة الله في بعض المظاهر الكونية المتصلة بكل ما في السموات والأرض، نلمح ذلك واضحا في أول سورة الرعد، ومع أنها وردت في المصحف الأميري على أنها مدنية، إلا أنني أميل إلى ما ذكره المرحوم سيد قطب من أنها مكية، ومكيتها تظهر بوضوح في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو جوها العام، وقد ذكر الزمخشري أنها مختلف عليها، وذكر ابن كثير أنها مكية، تقول الآيات موضع حديثنا قال تعالى :

﴿الْمَرْتِلَكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَتْ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [الرعد: ١-٤]

فنحن أمام لوحة فنية من المقابلات القرآنية تنفرج خطوطها وتتسع ثم تتلاقى وتتعانق في صورة مجسدة ومتحركة في آن واحد (فالارتفاع في الفضاء المنظور في قوله تعالى: {رفع السموات بغير عمد} يقابله ارتفاع في الغيب المجهول وهو الاستواء والاستعلاء على العرش) هذا المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك

والأبصار، ثم هذا الاستعلاء المطلق يقابله التسخير، ثم إن الشمس والقمر يتقابلان في الجنس : نجم وكوكب، ويتقابلان في الألوان بالليل والنهار، وفي مشهد الأرض تتقابل الرواسي الثابتة والأنهار الجارية ويتقابل الزوج والزوج في كل الثمرات، ويتقابل الليل والنهار، والنخيل صنوان^(١) وغير صنوان، ثم يتقابل مشهد الأرض كله ومشهد السماء، وهما متكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعاً^(٢).

فأسلوب المقابلة في هذا المقطع يعطى نموذجاً متميزاً للمقابلة القرآنية الممتدة في أكثر من آية واحدة، ويمزج بين الفن حيث هذا التناسق العجيب بين تلك المقابلات، وبين التأثير الديني حيث كان التعقيب على كل آية بالدعوة إلى اليقين والتفكير والتعقل (توقنون، يتفكرون، يعقلون).

٢- خالق الحياة والموت :

الحياة والموت ظاهرتان يلمسهما كل إنسان في أي وقت شاء، وفي أي مكان أراد، وفي جميع المخلوقات على السواء.

وعلى عادة القرآن في اتخاذ الكون وما فيه مادة للإقناع، ووسيلة قرينة لتصحيح عقيدة الشرك وزيف الضلال، نجد القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان لظاهرة الحياة والموت لأن فيهما دلالة واضحة على قدرة الله، وبرهانا أكيدا على تفرد حده بذلك. ولأن من طبع الإنسان النسيان، وعدم الاهتمام بالشيء المألوف المتكرر، فإن القرآن يكثر من آيات الموت والحياة، ليستدل بذلك على أن الله وحده هو واهب الحياة والموت، وهو يعرض ذلك في صور تستثير الوجدان وتقر القلب من الأعماق، ليستعد الإنسان لمرحلة ما بعد الموت ويسير في حياته على هدى الإيمان.

والمقابلة القرآنية بين الحياة والموت تأتي أحيانا مرتبطة بالسبب الذي من أجله خلق الله الموت والحياة، وهو الابتلاء والاختبار، والوقوف على أي الخلق أحسن عملاً من غيره، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] فيكون الغرض البلاغي هنا هو الحث على العمل الصالح، واستنهاض العزائم للسير في طريق الخير.

(١) نخيل صنوان : نخلات يجمعها أصل واحد. (كلمات القرآن : ١٤٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٢٠٤٦/٤ - ط ٧ ، دار الشروق.

وهي في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]. تأتي بلفظ الفعل المضارع للدلالة على استمرار هذه العملية الدائمة، ففي اللحظة الواحدة يموت ملايين من الأحياء: من الإنسان والحيوان والنبات والأسماك والطيور والحشرات والخلايا والذرات وتبدأ رحلة الحياة ملايين أخرى في ملك الله الواسع اللانهائي.

وكل هذه الحيات بيد الله يعطيها الحياة لأجل محدد ويميتها في لحظة معينة لحكمة يعلمها وتصريف عجيب يضمن لهذا الكون الاستمرار والحياة، والمقابلة هنا تستحيش في الإنسان قلبه وفكره وتخرجه من ركود الفكر وعادة الإلف فينتفض ليبحث ويفكر ويهتدي بأمر الله خالق الموت والحياة.

ومثل هذا المغزى البلاغي وزيادة نلمحه في المقابلة بلفظ المضارع أيضا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦-٨٠]

ففيها إلى جانب الدلالة على الاستمرار، اختلاف الليل والنهار فين الليل والنهار مقابلة، وبينهما وبين الحياة والموت مقابلة بالتناظر والمثالة لأن الليل يشبه الموت في سكونه وهدوئه، والنهار يشبه الحياة في حركتها وضجيجها، وقد عبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

وقد جاءت المقابلتان في سورة (المؤمنون) بأسلوب خبري تقرير في البداية ثم عقب عليهما بأسلوب الاستفهام الإنكاري، والتوبيخ للكفار لعدم استخدام العقول والتفكير فيما قدمته الآية الكريمة من القدرة الباهرة على الإحياء والإماتة وعلى اختلاف الليل والنهار باعتباره سنة كونية مطردة أطراد الحياة والموت.

وغالبا ما ترد المقابلة بين الحياة والموت في القرآن الكريم في نطاق الإقناع بقضية البعث بعد الموت، وما يترتب عليها من حساب جزاء، تلك القضية التي أنكرها المشركون بشدة، وجاهدوا في الصد عنها وتغيير الناس منها، والتشكيك فيها، فتراهم يقولون :

﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ هِيَ هَاتِ هِيَ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون : ٣٥ - ٣٧]

والغرض البلاغي من المقابلة هنا إظهار مدى إنكارهم للبعث، ومدى انغماسهم في الملذات وعدم التفكير فيما وراء ذلك.

ثم إنهم لشدة إنكارهم للبعث تراهم يستعجلون محمدا ما وعدهم ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٤٨] ويستنبئون عنه ويستحلفونه على صدقه، فيقسم لهم أنه حق وواقع لا محالة، ولكن هيهات.

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِمْ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ [يونس : ٥٣-٥٥]

وهنا وبعد التأكيد على صدق البعث والحساب تأتي المقابلة بين الحياة والموت في صورة تقريرية كحكم القضاء لا رد فيه، في صورة تتناسب وما سبق فيبدو الأسلوب سهلا سلسا محكما كما كانت قضية البعث سلسلة محكمة. فما دام الأمر كله بيد الله فلا غرابة في ذلك، تأتي المقابلة في الآية التالية مباشرة للقضية السابقة في بضع كلمات حاسمة :

قال تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٦]. ثم يلجأ القرآن إلى المقابلة المعنوية بين الحياة والموت ولكن بطريقة التمثيل التصويري، والهدف من ذلك هو الإقناع عن طريق المشاهدة العملية لظاهرة الحياة والموت في بضع آيات تلمس هذه الظاهرة.

هذه مقابلة بين مظاهر الهلاك والعفاء، ومظاهر الحياة والنماء في قوله الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ، فإن

من يتأمل في مقابلة الأرض الحية الممرعة الممتلئة بالزرع والنبات تأكل منه الأنعام والأنفس - بالأرض قبل ذلك وقد كانت جزاً (يابسة جرداء قطع نباتها) ^(١) يهتدي - بلا شك - إلى أن الله الذي وهب الحياة لهذه الأرض بعد موتها قادر على بعث هذه القرون الغابرة التي يمشون في مساكنها ولذلك كان التعقيب في الآيتين بالاستفهام التحضيضي {أفلا يسمعون، أفلا يبصرون} على أن بين السمع والبصر مقابلة خفية غاية في اللطافة لأن السمع حاسة الليل الذي يتناسب سكونه مع سكون هذه القرون الغاربة الهالكة والبصر حاسة النهار الذي يناسب الحياة والنماء ونرى به المزروع تخرج من الأرض بعد أن يرويه الماء، والأنعام والأنفس وقد أقبلت تأكل منه.

والقرآن الكريم يكثر من المقابلة بين الحياة والموت في هذه الصور التقريبية لتكون أدعى إلى التصديق، وأدل على القدرة، والناس حيثما يسرون، وأينما يحلون يرون حالة الأرض الموات ثم يرونها وقد حفلت بالزروع والثمار والحياة، ولذلك يكثر القرآن من استخدام هذه الظاهرة الحية ليؤكد قدرة الله وتفردة ووحدانيته يقول تعالى: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٢) ويقول موضحاً هذه الصورة: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٣)

والمقابلة ظاهرة وواضحة في آية الروم بين إحياء الأرض بعد موتها والقدرة إلى إحياء الموتى. وهي في آية فصلت أشد وضوحاً، لما فيها من زيادة في التصوير والتمثيل فالأرض الخاشعة الهامدة حين يتزل عليها الماء تهتز وتموج بالحركة والحياة بسبب تشقق الأرض بالنبات وتربو وتزيد ويزيد معها الخير، وفي هذا المشهد مقابلة بين خشوع الأرض وهموها في حالة الإقفار والجرد وبين اهتزازها وطربها وزيادتها في حالة الإنبات يمثله ويقابله مشهد آخر في الغيب المجهول يوم القيامة وهو قدرة من هز الأرض وأحيائها بعد هموها على إحياء الموتى.

(١) كلمات القرآن : تفسير وبيان، للشيخ حسين محمد مخلوف : ٢٥٣ - ط، دار المعارف.

(٢) الروم : ٥٠

(٣) فصلت : ٣٩

والقرآن الكريم يتخذ من المقابلة الأولى دليلا على صدق المقابلة الثانية في تناسق بديع وتأزر عجيب.

وقد يستخدم القرآن الكريم المقابلة بين الموت والحياة، على سبيل المجاز بمعنى قدرة الله على هدى الإنسان بعد ضلاله وذلك لأن السياق وسبب التزول يقتضيان ذلك مثل قوله الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

أي ضالا فهديناه فالموت والحياة هاهنا مجاز^(٢) وقد ذكر السيوطي في أسباب التزول أنها نزلت في عمرو أبي جهل^(٣)، ولكن النيسابوري^(٤) المتوفى سنة ٤٤٠ هـ يروى عن ابن عباس أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل، حين رمى أبو جهل رسول الله ﷺ بفرت وحمزة لم يؤمن بعد. فأخبر رسول الله حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه ويمينه قوس. فأقبل غضبان. حتى علا أبا جهل بالقوس، وهو يتضرع إليه ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به، سفه عقولنا، وسب آلهتنا وخالف آباءنا. قال حمزة: ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله - أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٥).

وعلى هذا تكون المقابلة بين (ميثا) و (أحييناه) من جهة وبين من أعطى النور فعرف طريقه واهتدى، ومن بقى يتخبط في الظلمات ليس بخارج منها. تكون المقابلة حافزا على اتباع الحق والهدى والإقرار لله بالربوبية والوحدانية. وأحيانا تجيء المقابلة بين الحياة والموت، لتؤدي دورا فنيا يخدم موضوعا آخر، أو كتمهيد طبيعي ينتقل منه القرآن بسهولة ورفق إلى غرض آخر. كما نرى في التقديم لقصة أصحاب الكهف، تلك القصة التي أنكرها بعض الناس واستبعدوا عملية إحياء الفتية وكلبهم بعد طول الموت وكثرة الرقاد فتأتى المقابلة بين الحياة

(١) الأنعام : ١٢٢.

(٢) بديع القرآن : لابن أبي الأصبع : ٣٢.

(٣) أنظر : لباب النقول في أسباب التزول للسيوطي : ٨٣/٢.

(٤) أنظر الأعلام : ١٠١/٣.

(٥) أنظر : أسباب التزول للإمام أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري : ١٦٨.

والموت على سبيل التمثيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَئِیْهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿١﴾ ۝ إِنَّمَا المقابلة بين حال الأرض زينها الله بالیانع من النبات وبالزينة من الأشجار والأزهار والثمار وبكل ما على الأرض من وجوه الجمال، و بين حال هذه الأرض نفسها قبيل قیام الساعة وقد أصبحت صعيدا جرزا (بیضاء لا نبات فیها بعد أن كانت خضراء معشبة^(٢)) جفت أنهارها وحال لوئها وذوت أزهارها وغاضت نضرتها (وكلمة جرز تصور معنى الجذب بجرسها اللفظي وكلمة صعيد ترسم مشهد الاستواء والصلادة^(٣)) تأتي هذه المقابلة المصورة التي تبين قدرة الله على الإحياء والإماتة، لتمهد للحديث عن قصة أصحاب الكهف، وهي بدورها شاهد حى ودليل عملى على قدرة الله على الإحياء والإماتة (فتقلب حال الدنيا من الزينة إلى الجرز، ليس أعظم من قصة أصحاب الكهف وابقاء حیاتهم مدة طويلة^(٤)) : ﴿ أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ ﴾^(٥)

أي أن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب من آیات الله في الكون وخاصة قدرته على الإحياء بعد الموت الفعلى، لأن أصحاب الكهف لم يكونوا في حالة موت فعلى بل ضرب الله على آذانهم بالنوم العمیق سنين عددا، ثم أيقظهم بعد هذه المدة.

٣ - العليم بكل شيء^(٦) :

علم الله صفة قديمة بها ينكشف لله كل شيء في الوجود، ماديا كان أم معنويا، كل ذرة في الكون، وأي خلية في باطن الأرض أو أعماق البحار والمحيطات، كل

(١) الكهف ٧ - ٨.

(٢) الكشف للزمخشري : ٤٧٣/٢ مطبعة الاستقامة - مصر.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٢٢٦٠/٤، ط، دار الشروق.

(٤) الكشف : ٤٧٣/٢.

(٥) الكهف : ٩.

(٦) علم الله كما يعرفه علماء العقيدة والتوحيد : صفة أزلية قديمة بذاته تعالى، تنكشف بها المعلومات انكشافا لم يسبقه خفاء والدليل العقلی على ذلك : الله فاعل، وفعله متقن ومحكم بالقصد والاختيار، وكل من كان كذلك فهو عالم فالله تعالى عالم. وم دليل نقلي قوله تعالى: (والله بكل شيء عليم) انظر مذكرة التوحيد ص ٣٠ حسن السيد متولي - مكتبة الكليات

الأزهرية: القاهرة ١٩٨٣

حركة نجم أو كوكب في أجواز الفضاء اللامتناهي. كل همسة أو هاجس أو خاطر في طوايا النفس وأعماق الضمير. كل ذلك صفحة مكشوفة أمام علم الله الشامل المحيط

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٢) وبهذا العلم الشامل المحيط لله عز وجل انكشف لنا في قرآنه الكريم من أسرار الكون ومشاهده الظاهرة هذا التناسق والتماسك في محيط الكون الكبير فلا تكاد ترى فيه خللا أو نقصا، وبنفس القدر من التماسك والتناسق جاءت المقابلة في الأسلوب القرآني يشد بعضها أزر بعض في تآلف عجيب يشبه ما يكشفه علم الله من تآلف في هذا الكون.

والمقابلات في الآيات الدالة على علم الله وإحاطته طريق من طرق الوضوح في الأسلوب القرآني الوضوح **Clearness** بقصد الإفهام، وطريق من طرق القوة **Force** بقصد التأثير، ومعلم من معالم الجمال **Beauty** بقصد الإمتاع والسرور (٣). كما أنها تدل في سياقها على أن هذا الكون الكبير الذي يكشفه لنا علم الله إنما يدار بواسطه الواحد العليم الخبير الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

هذه مقابلة بين ما يلج في الأرض من بذور أو حشرات أو زواحف أو مياه أو غازات وما يخرج منها من نبات أو مياه أو معادن أو براكين وبين ما ينزل من السماء من أمطار أو نجوم أو رحمت من الله على عباده. وما يعرج إليها من طير أو أرواح أو أنفاس تدل على أن الله الواحد الأحد مطلع على كل ذلك أو يزيد فعلمه شامل ومحيط ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (٤).

(١) المحادلة: ٧.

(٢) غافر: ١٩.

(٣) أنظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية للأستاذ أحمد الشايب:

١٨٩، ط ٦

(٤) سبأ: ٢

ولو حاول البشر - بكل ما أوتوا من وسائل الإحصاء أن يحصوا ما يدخل باطن الأرض أو ما يخرج منها. أو ما يتزل من السماء أو ما يعرج إليها لعجزوا عن ذلك - وهذا وحده خليق بأن يدفع الإنسان إلى التسليم بتفرد الله ووحدانيته، وهذا ما أفادته المقابلات في تلك الآية القصيرة.

وهذه مقابلة أخرى تلمس جوانب من حياة البشر، تتصل بذواتهم البشرية، وطبيعتهم الجسدية، ومع ذلك فإن هذه الجوانب خافية عن علمهم، بعيدة عن مداركهم لكن علم الله الشامل لا تخفى عليه خافية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۚ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۚ﴾ (٢).

والتقابل واضح هنا بين. ما تغيض الأرحام وما تزداد وبين الغيب والشهادة. وبين إسرار القول أو الجهر به وبين من يستخفي تحت جناح الليل ومن يضرب في النهار في الطرقات وهذه المقابلات - بجانب أنها من مظاهر التناسق الفني في الأسلوب القرآني - هي مثير وجداني يدفع الإنسان إلى التفكير في قدرة الله واستشراق عظمته وشمول علمه، فلا يلبث أن يقف صاغرا مستسلما لجلال الله معترفا بوحدانيته.

وللمرحوم سيد قطب ملمح دقيق أشار إليه حين عرض للمقابلة بين (من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وهذا الملمح يتصل ببيان روعة القرآن الكريم في استخدام لفظ (سارب) في مقابلة (مستخف) يقول: (والتقابل واضح في العبارة، إنما تستوقفنا كلمة (سارب) وهي تكاد بظلمتها تعطي عكس معناها فظلمها ظل خفاء أو قريب من الخفاء، والسارب الذاهب فالحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء،

* سارب : ظاهر، يقال سارب، سالك في سر به أي في طريقة ومذهبه ويقال سرب يسرب (من باب دخل)

(٢) وقوله تعالى (في البحر سربا) أي فاتخذ الحوت سبيله في البحر سربا، أي مسلكا ومذهبا يسرب فيه. أنظر ص ٩١ (من تهذيب السجستاني في غريب القرآن) اعداد محمد مرسى، ط ٢ - دار الكتاب العربي - مصر.

(٣) الرعد : ٨ - ١٠.

وهذه نعومة في جرس اللفظ وظله مقصودة هنا، كي لا تخدش جو العلم الخفى اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي، والمستخفى بالليل - فاختار اللفظ الذي يؤدي معنى التقابل مع المستخفى، ولكن في لين ولطف وشبه خفاء^(١).

وهذا الملمح من المرحوم سيد قطب يتمشى مع الروح التي سار عليها في تفسيره (في ظلال القرآن) فهو معنى بالظلال والإيحاءات التي تشع من وراء الدلالة اللفظية الظاهرة.

رأينا في النموذجين السابقين أن علم الله يكشف ما في الكون. في أغوار الأرض أو في أجواز الفضاء، ويكشف أيضا ما يتصل بحياة الناس من أمور مادية ومع ذلك يجهلون عنها الكثير.

ونعرض الآن لنموذج من المقابلة المتصلة بعلم الله، ولكنه هنا علم كاشف لما في الصدور، للهمس والإسرار الذي يحاول الكفار إخفائه والمقابلة هنا تحمل معنى التهديد لهؤلاء الكافرين ولكل من يحيك المؤامرات في الظلام ضد الإسلام، وهو يظن أنه بمنجي عن الله الذي يعلم السر وأخفى.

لقد كان المشركون ينالون من محمد في جلساتهم، فأخبره جبريل بما قالوا فيه ونالوا منه، فكان بعضهم يقول لبعض : أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد^(٢) فترل قوله الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ١٠٠ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ ١٠١ ﴾^(٣).

والمقابلة هنا صريحة بين {أسروا واجهروا} والغرض البلاغي منها كما قلت هو تهديد الكافرين بعدم الإفلات والخروج من محيط علمه تعالى، فهو قد خلق الصدور التي تحوى بداخلها الأسرار، فكيف يجهل ما خلق وهو اللطيف الخبير؟ وإذا أيقن الشخص أن الله مطلع على دخيلة نفسه وهو اجس قلبه صار شديد الحذر من الوقوع في المعصية، وعند ذلك لا يفعل إلا ما يرضاه الله، ويتحول الشعور بعلم الله لما في قلبه إلى رقيب على تصرفاته وأفعاله أقوى من أي رقيب آخر.

(١) في ظلال القرآن : ٢٠٤٩/٤

(٢) أنظر أسباب النزول للنيسابوري : ٣٢٧.

(٣) الملك : ١٣ : ١٤.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١)

ففيه من المقابلات الدالة على علم الله وإحاطته ثلاث مقابلات تتصل كلها بحياة الناس ومع ذلك لا يشعرون بها لطول الألفة.

في هذه الآية مقابلة بين علم الله لكل ما في البر وعلمه لكل ما في البحر من أسرار وعجائب تخفى على الناظرين، ويعلمها خالق الخلق أجمعين.

ومقابلة بين الحياة والموت متمثلة في أوراق الشجر قد جفت وانصرمت عن أصلها وفي حبة في ظلمات الأرض تحرك في باطنها الجنين فاستعد للانطلاق واستوفد للحياة.

ومقابلة أخرى شاملة لكل رطب في الحياة. رَطْبُهُ ماءُ الحياة ونضارتها. ويابس فيها ذهبت عنه النضارة والحيوية فاستسلم للجفاف والموت.

وإن نظرة سريعة إلى ما حوته هذه الآية من معان. لتطلعنا على سعة علم الله، فكم في البر من إنس وطير وحيوان وحشرات وشجر ونبات وسهول ووديان أحصاها العليم الخبير وسجلها في سجل لا يضل ولا ينسى، وكم مثلها في البحر من أسماك وأصداف ولآلىء وشعب مرجانية وخلايا ومعادن. كم من ورقة ساقطة من أشجار الدنيا منذ وجدت إلى أن يأذن الله بيوم الدين. وكم من حبة كامنة في ظلمات الأرض شرقها وغربها لم تنبت. قد رصدتها العليم الخبير، وكم من عود رطب وآخر جاف على وجه الأرض قد أحصاه الله وعده عدا فهل يستطيع أحد من البشر القيام بعملية إحصائية لشيء واحد من هذه الأشياء التي يعلمها الله؟

وفي مجال الإخبار عن علم الله تعالى المكنون بما في الكون، وما في أطواء النفس، تأتي المقابلة في قوله تعالى: أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ (٢) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٣) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٤) (٣).

(١) الأنعام : ٥٩.

(٢) الخبء : ما خبأت في نفسك أي ما أسررت: (أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ص ٩٤ وقد توفي سنة ٢١٠هـ. تعليق د. محمد فواد سركين الخانجي، مصر والزمخشري يذكر أنه المخبوء وقد سمي بالمصدر، وهو النبات والمطر مما خباه عز وعلا من غيوبه : الكشف ١٤٥/٣.

(٣) النمل : ٢٥ - ٢٦.

إنها مقابلة بين المخبوء في السموات من أمطار وسحب ورياح ونجوم، والمخبوء في الأرض من نبات ومعادن.

ثم مقابلة أخرى بين ما يخفى البشر من أسرار ونوايا وما يعلنون. والأروع منهما تلك المقابلة الكلية بين المخبوء في السموات والأرض والمخبوء في النفس البشرية، ومعنى ذلك أن علم الله وسع كل شيء كما دلت عليه الآية الكريمة.

وهذه المقابلات ترد في معرض تعجب هدهد سيدنا سليمان من ملكة سبأ وقومها الذين يسجدون للشمس من دون الله كيف لا يسجدون لعلام الغيوب، ولذلك يقر بوحداية الله حين يقول المولى على لسانه : {الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم} الذي لا يضاهيه عرش بلقيس ملكة سبأ.

ونحن لا نملك إلا أن نشارك الهدهد عجبه ممن يتخذون لأنفسهم آلهة أخرى غير الإله الواحد رب العرش العظيم.

الدعوة إلى التوحيد من خلال : المقابلة في مشاهد الكون والنفس :

لا تكاد سورة مكية تخلو من ذكر مشاهد الكون، ومظاهر الطبيعة والربط بين هذه المشاهد والمظاهر وبين الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد.

ولا تنفصل مشاهد الكون عن مشاهد النفس البشرية وأحوالها فالإنسان مخلوق من نفس المواد التي خلق منها الكون، كما أنه يعايش الظواهر الكونية وينفعل بها ويلمس أثرها الملحوظ في مسيرة حياته.

وميزة القرآن الكريم - على تعدد ميزاته - أنه يتناول الظواهر الكونية - مهما دقت أو عظمت - فيحولها إلى برهان ودليل على وحدانية الله وقدرته، وبذلك تبقى عقيدة التوحيد حية نابضة في القلوب والمشاعر، طالما بقيت هذه الظواهر وهي باقية إلى يوم الدين.

والقرآن الكريم - في ربطه بين تلك الظواهر وبين عقيدة التوحيد - لا يبعد الإنسان عن واقعه، ولا يدخله في متاهات الفلسفة وطلاسم الفكر التجريدي الذي ابتدعه علماء التوحيد، متأثرين في ذلك بالفلسفة اليونانية القديمة.

إنه يربط بين هذه الظواهر وحياة الإنسان نفسه - ويتخذ من ذلك منطلقاً لمخاطبة فطرته ووجدانه، والتأثير على مشاعره عن طريق استخدامه اللغة العادية المألوفة بعد أن

يمسها بعصاه السحرية، فتفعل بها النفوس، وتستجيب لنداء التوحيد الكامن في روحها.

من منا لا ينتفع بظاهرة الليل يسكن فيه ويهدأ بعد طول التعب والكدح نهاراً ؟ .
من منا لا يستمتع بدفء الشمس أو تستريح نفسه لضوء القمر؟
من منا يستغني عن الماء والنبات والهواء؟

وكم من الظواهر والمشاهد التي سنعرض للقليل منها في هذا الفصل مع أن القرآن حافل بالكثير منها.

والقرآن - وهو يعرض لتلك المشاهد - يستخدم اللغة المألوفة في دنيا الناس، ولكنه ينظمه الفن الخاص ينفذ عنها ركام العادة، ويجلوها من غبار الإلف والتكرار، فيقرؤها الناس، فتشدهم وتروعهم كأنما لم يروها من قبل، ويعيدون قراءتها فتزداد في نفوسهم ألقا وبهاء، وتبدو في كل مرة جديدة كل الجدة.

والقرآن الكريم - في هذا - سابق لثورة النقد الحديث بمئات السنين. ذلك النقد الذي بدأ على يد (وردز ورث) William Words Worth واليوت T.S. Elliot وسامويل تايلور كولردج S.T. Coleridge وامتد أثره إلى العالم العربي ممثلاً في أصحاب مدرسة الديوان شكري والعقاد والمازني.

يقول وليم وردز ورث في مقدمة ديوانه : قصائد قصصية غنائية Preface to

Lyrical Ballads

إن الفكرة الأساسية التي تعرضها وتقوم عليها هذه القصائد تعتمد على اختيار بعض الأحداث أو المواقف من الحياة العادية، ثم يتم وضعها أو ربطها جميعاً بمختارات من اللغة التي يستخدمها الناس بحق في حياتهم العادية، وفي نفس الوقت يضيف الفنان عليها لونا خيالياً، بحيث تبدو الأشياء المألوفة العادية في صورة ومظهر غير عادي، والأهم من ذلك كله أن يحول هذه الأحداث والمواقف إلى شيء مثير ممتع. عن طريق رسم فكرة واقعية - وليست وهمية - عن قوانين الطبيعة الأولى⁽¹⁾.

فهو يدعو الشعراء - من خلال عرضه لشعره هو - أن تكون لغة الشعر مستمدة من الحياة العادية التي يستخدمها الناس، بعد أن يضيفوا عليها من إحساسهم وفنهم ما يجعلها تبدو جديدة متألفة ومعبرة عن مظاهر وقوانين الطبيعة البدائية الفطرية.

(1)

Essays, ed: The Anglo Egyptian Book Shop Cairo, 1974, P. 275.

ولا فرق عند هؤلاء النقاد بين لغة الشعر ولغة النثر كما يؤكد وردز ورث^(١).

ومن جانبنا نستطيع القول بأن القرآن الكريم حين يغرس العقيدة الصحيحة في القلوب، ويرسي في النفوس القيم الجمالية إنما ينسج أسلوبه من دنيا الناس ولغتهم وسير معيشتهم اليومية، فالظواهر الطبيعية ومشاهد الكون ممتزجة بالإنسان لحمة وسداه^(٢)، ومن هنا يتخذها القرآن مادة لأسلوبه فتسرى في الكيان الإنساني مسرى الروح في الجسد. ومن ثم يعيش حياته كلها وفقا لمنهج التوحيد، وطبقا لمبادئ القرآن وشريعته وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب (من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر يتخذ القرآن مادة لبناء أضخم عقيدة دينية، وأوسع تصور كوني، هذه المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان، كالنسل والزرع والماء والنار والموت... أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في حياته، أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار، ولحظة وفاة، فمن هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة، وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية، وأعظم الأسرار الربانية، إنها ببساطتها تخاطب فطرة كل إنسان بينما هي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان)^٣.

أما مظاهر قدرة الله وعظمته في نفس الإنسان، فهي أكثر من أن تحصي وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: **وَعَاتِلْكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**^(٤) وقوله تعالى: **﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾**^(٥)

والمقابلات القرآنية في آيات مشاهد الكون والنفس تؤدي دورا هاما في بيان قدرة الله وأثر نعمته على الإنسان وانتفاعه بهذه المظاهر والمشاهد.

(1) William Words Worth in English Critical Essays.

(٢) السدى (بفتح السين) من الثوب ما يمد طولاً في النسيج واللحمة (بضم اللام) من الثوب خيوط النسيج العرضية يلتحم بها السدى (المعجم الوسيط) والتعبير هنا مستعار للدلالة على قوة امتزاج الظواهر الطبيعية بحياة الإنسان.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣٤٦٦/٦.

(٤) إبراهيم : ٣٤.

(٥) الذريات : ٢١.

ومن هذه المقابلات :

١- ورد في أول سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

ثلاث آيات في مطلع تلك السورة التي تعالج في مجموعها قضية الألوهية بما تعرضه من آيات الكون والحياة، والنفس والضمير، وعالم الغيب والشهادة، وفي هذه الآيات الثلاث نجد أنفسنا أمام مقابلات ست تسهم كل واحدة منها في تكوين صورة حية لمشاهد رائعة من قدرة الله في الكون، وهذه المقابلات رغم تعددها إلا أنها من سمات الأسلوب القرآني الذي تنسجم فيه المعاني مع الألفاظ مع المجالات والمواقف النفسية : الأولى بين (السموات) و (الأرض) الثانية بين (الظلمات) و (النور)

وقد كان الأجدر بالإنسان وقد رأى السموات بعرضها وسعتها وما حوته من نجوم وكواكب، ورأى الأرض وما عليها وما في باطنها، ورأى تعاقب الظلمات والنور فيهما كان الأجدر به أن يتوجه بالحمد والثناء والشكر لله، وأن يعترف له بالتفرد والوحدانية، لكن هذه الآيات قبلت من الكافرين بالنفور والعدول عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، ومن ثم تتوجه الآية الثانية للمعانددين والكفار بمقابلات تمس خلقهم هم بعد أن لمست الأرض والسماء من حولهم، فتأتي المقابلة الثالثة (بين الطين) بما فيه من سكون وخمود وكدره و(الخلق) بما فيه من حياة وحركة وبهجة وصفاء (٢).

والمقابلة بين الطين والخلق على هذا المعنى منسجمة ومتناسقة في الصورة مع المقابلة السابقة بين الظلمات والنور.

أما المقابلة الرابعة فإنها بين الأجلين، قضى أجلا مسمى عنده وقد اختلف المفسرين في المقصود بهذين الأجلين، فالزمنخشري في الكشف يرى أن المقصود بالأجل الأول المقضى : ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت، وبالثاني : ما بين الموت

* (جعل) هنا بمعنى (خلق) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٨٥.

(١) الأنعام : ١ - ٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣/١٠٣٠.

والبعث^(١)، بينما يرى ابن كثير أن الأول هو موعد موت الإنسان، والثاني موعد بعثه في الآخرة^(٢).

على أن ظاهر النص يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير، ومما يقوي هذا المذهب أن المقابلة بين الأجلين على هذا الرأي تكون بين (الموت والبعث) متسقة تماما مع المقابلة بين الطين والخلق.

والمقابلة الخامسة نلمحها عندما نقرأ الآية الأولى والآية الثانية، فنجد أن بينهما تقابلا ملحوظا، إذ تحدثت الأولى عن عظمة الله في خلق الكون : سماواته وأرضه وظلماته ونوره، بينما تحدثت الثانية عن عظمة الله في خلق النفس البشرية من طين ثم حياتها وموتها وبعثها.

وتأتي المقابلة السادسة في الآية الثالثة، فتجمع في بلاغة نادرة وإيجاز بليغ بين المقابلات السابقة جميعها "وهو الله في السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" فلقد قابلت بين خلق الكون وخلق النفس البشرية وما تكسب وفيه تفكر.

وهكذا جمعت ثلاث آيات قرآنية من المقابلات ما وسع الكون والنفس البشرية ولقد كان أجدر بالمشركون. وقد رأوا الإعجاز البلاغي في القرآن إلى جانب الإعجاز الإلهي في الخلق - أن يستيقنوا في الإله الواحد، ولكنهم كما تشير هذه الآيات : برهم يعدلون وفي قضاء الله يمترون، ولذا جاء التعقيب على موقفهم هذا في الآية الرابعة بما يفيد أن هؤلاء القوم قد عطلوا عقولهم، وانقادوا للدواعي العناد والإعراض ابتداء ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٣).

٢- وما دمنا في نطاق سورة الأنعام، وهي سورة تمثل منهج القرآن المكي في معالجة قضية الألوهية والوحدانية، من حيث ربط هذه القضية بمشاهد الكون والنفس، و بنعم الله على الإنسان فلا غني لنا عن الإشارة إلى بعض المقابلات التي وردت فيها، والتي تسير في هذا الاتجاه :

(١) الكشاف : ٤/٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١١٣/٢ .

(٣) الأنعام : ٤ .

يقول الله تعالى معلما نبيه محمدا كيف يواجه الكافرين والمشركين بالدليل على وحدانية الله، ومشيئا عليه باستخدام مشاهد الكون دليلا على ذلك ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ ﴿١٢﴾ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قال تعالى: ﴿مَنْ يُضَرْفُ عَنْهُ يَوْمٌ فَقَدْ رَجِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (١) (الأنعام ١١ - ١٧).

ففي هذه الآيات خمس مقابلات.

١ - مقابلة ضمنية بين الدنيا والآخرة، وقد عبرت السموات والأرض عن الدنيا وعبرت "ليجمعنكم إلى يوم القيامة" عن الآخرة، وأفادت هذه المقابلة أن الجميع في الدنيا والآخرة بإمرته وتحت سيطرته.

٢، ٣ - مقابلة بين الليل والنهار تفيد هيمنة الله سبحانه على كل ساكن ومستقر أو حال في الليل أو النهار، والرائع في هذه المقابلة أنها هي نفسها تقابل المقابلة السابقة، لأن معنى "له ما سكن في الليل والنهار" سيطرة القدرة الإلهية على الزمان.. في مقابلة سيطرته جل وعلا على المكان المفهوم من قوله سبحانه "قل لمن ما في السموات والأرض قل لله".

وبذلك لا تقتصر المقابلة القرآنية على مجرد التقابل بين الألفاظ، بل تتسع وتمتد لتشمل المقابلات الضمنية بين آية وآية، و لتكون الآية الواحدة طرفا متاخلا في مقابلتين.

(١) ما سكن: ما استقر وحل وفاضر السموات والأرض: خالقهما (انظر مجاز القرآن ١/١٨٧)
(٢) الأنعام: ١٢ - ١٧.

٤ - وفي الآية أيضا مقابلة بين "وهو يطعم ولا يطعم" بالإضافة إلى ما بين الكلمتين من جناس^(١) غير تام "محرف"^(٢) وطباق بالسلب^(٣)، وفيها إيجاء وتوجيه لمحمد ولجميع البشر أن الولاية لله وحده، لأنه مصدر الرزق والإطعام للجميع.

٥ - ثم تختم الآيات هذه المقابلات الرائعة بمقابلة مناسبة تشد من أزر الرسول وكل داعية إلى الإصلاح في أي زمان ومكان.

إن محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يحاول إصلاح العقيدة، ويتصدى للشرك والوثنية سيواجه لاشك الكثير من العنت والأذى، وهنا تأتي هذه الآية بما فيها من مقابلة بين "الضر والخير" لترشده إلى أن الله وحده هو كاشف الضر إن مسه به على سبيل الابتلاء والاختبار، وهو وحده صاحب القدرة على جلب الخير، ومن ثم فلا داعي للتردد في مواجهة المشركين بكلمة التوحيد، ولا خوف على نفسه مما سيلقاه من عنت وضر.

والمقابلة بين الضر والخير مقابلة مجازية، لأن الضر يقابلة في الحقيقة "النفع" وقد عدل القرآن عن ذلك باستخدام "الخير" لافادة العموم والشمول.

٣- وهذا مشهد آخر من مشاهد قدرة الله ووحدانيته في لوحة فنية تمثل المقابلات فيها الخطوط البارزة والألوان الواضحة والقسمات المميزة، والمشهد من سورة الأنعام أيضا.

يقول الله تعالى متحدثا عن قدرته وعظمته

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

(١) الجناس التام : ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور : نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، ترتيبها.

الجناس غير التام : ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة.

(٢) والجناس المحرف : نوع من أنواع الجناس غير التام. وهو ما تماثل فيه اللفظان في الحروف وتغاييرا في الحركات : الإيضاح للقرويني : ٢١٦.

(٣) طباق السلب : ما كان فيه أحد طرفي المقابلة مثبتا والآخر منفيًا كوله تعالى "ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا" وقوله "ولا تخشوا الناس واخشون"

وأما طباق الإيجاب : فهو ما كان المتقابلان فيه : متفقين في الإيجاب مثل :- "وإنه هو أضحك وأبكى" أو النفي مثل قوله تعالى : "ثم لا يموت فيها ولا يحيى". الإيضاح ص ١٩٢.

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٥٦ ﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٧ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ٥٨ (١).
هذه الآيات تقدم لنا أكثر من دليل حي على عظمة الله، وتواجه فطرة الإنسان بواقع الحياة من حوله، حتى ليسبدو المشرك بالله في صورة مزرية وهو يغمض عينيه عن حقائق الكون من حوله، ويعطل تفكيره في هذه الدلائل الباهرة التي يواجهها بما هذا النص وغيره بين الحين والحين.

وتؤدي المقابلة هنا دورا هائلا في الضرب على أوتار القلوب وفي إرجاع البصر كرات وكرات للتدبر والتفكير في خلق الرحمن، وفي إرجاعه كرات أخر للتدبر في هذا النسق الفريد للتعبير القرآني.

١ - فالحب والنوى حين ينفلق بقدرة الله وينشق عن نبات نام أو شجر صاعد أو نخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد، هذه العملية إنما تتقابل (٢) تماما مع عملية انفلاق الصبح حين تنشق ظلمة الإصباح عن بياض النهار كما أن انفلاق الحب والنوى لا يستغني البتة عن انفلاق الإصباح، نظرا للعلاقة الوثيقة بين حركة النبات والحياة، وحركة الشمس والقمر بهذا التقدير من لدن العزيز العليم.

٢ - وهنا أيضا- مقابلات بين إخراج النبات والشجر من الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت وقد ذكر أكثر من عالم من علماء البلاغة أن بين "يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي" ما يسمى بالعكس أو التبديل وهو "أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول" (٣) " لكن التقابل بين الجملتين لا يخفى على أحد، فهذه العملية تتم يوميا. بل وفي كل لحظة وأي مكان على سطح

(١) الأنعام : ٩٥ - ٩٨.

(٢) نشير هنا إلى أن المقابلة قد تكون بالتناظر أو التناسب بين المعاني، وأن ليس التضاد بين المعاني هو السمة الوحيدة للمقابلة كما وضعنا في نتائج الباب الأول من هذا البحث ص (١٣٥).

(٣) أنظر الصناعتين لأبي هلال : ٣٨٥، ونهاية الأرب للنوري : ١٠٤/٧، والإيضاح للقزويني : ٢٠٠.

الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار.. وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواه فيفلقها، ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين إنسان أو حيوان أو طائر، والجثثة التي ترمى في الأرض، وتختلط بالتربة، وتشحنها بالغازات هي مادة جديدة للحياة، وغذاء جديد للنبات والحيوان والإنسان.. إنها دورة عجيبة لمن يتأملها بالحس الواعي، والقلب البصير، ويرأها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله^(١).

٣- وهذا بالإضافة إلى المقابلة الواضحة بين "فالق الإصباح" و"جعل الليل سكنا" وهي مقابلة مجازية تعبر عن التقابل بين النور والظلمة أو بين الحركة والسكون.

٤- وكذلك المقابلة بين النجوم والظلمات، وبين البر والبحر، وبين مستقر ومستودع^٢ فسبحان الله الذي فصل الآيات الدالة على وحدته وعظمته، فصلها في واقع الحياة فخلقها وسواها وزينها وفصلها في كتابه الكريم في أسلوب بلغ القمة في الروعة والأداء.

إن في ذلك لآيات لقوم يفقهون.

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦٣.

(٢) مستقر: صلب الأب، ومستودع: رحم الأم : انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٢٠١، وتهذيب السجستاني ف غريب القرآن : ٥٨.

المقابلة في مشاهد الكون والنفس في الأسلوب الخبري:

إن آيات الله ونعمه الدالة عليه يلمسها الإنسان، ويحسها في نفسه وفي الكون من حوله، وهي أكثر من أن تحصى، وهذه الآيات والمشاهد تأتي أحيانا في صورة الأسلوب الخبري، وأحيانا في صورة الأسلوب الإنشائي، لكن المقابلة في الحالين هي التي تبرز قدرة الله وعظمته، وهي تأتي في الأسلوب الخبري غالبا في صورة المن من الله الكبير ذي الفضل الواسع على عباده المحتاجين إليه، ومع ذلك فهم مغالون في عنادهم وكفرهم.

(١) ومن ذلك ما ورد في السورة الروم من قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ^(١) لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَفِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُكُوفِ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَلَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾. (الروم ٢٠-٢٦)

فهذه الآيات تمثل قصة الإنسان على ظهر الأرض منذ نشأ فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، منذ خلق الإنسان من تراب إلى أن يدعوه الله بدعوة الحق للخروج من الأرض للبعث والحساب. والآيات تبين ما بين هذين الآتين من الزواج وتكوين الأسرة، وما يحدث في الحياة من سعي على الرزق، وما يحدث للكون من ظواهر طبيعية كالبرق والمطر والزرع ومن خلال هذه الآيات تبرز المقابلات التي تصور هذه النشأة وتلك الحياة.

أ- هذه مقابلة بين التراب وبين الإنسان {خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر} الأول هامد ساكن حقير والثاني حي متحرك مكرم، والأول أصل للثاني وقد

(١) لتسكنوا إليها : لتميلوا إليها وتألفوها. (كلمات القرآن).

ساعدت المقابلة هنا بين الإنسان وأصله في إظهار الفرق الشاسع بين الحالين والتأمل في ذلك جدير أن ينسب الإنسان إلى قدرة الله ووحدانيته، فيترك عناد المشركين وينضوي تحت راية الموحدين.

ب- ثم هذه المقابلة المفهومة ضمنا بين الرجل والمرأة من قوله {خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها} وهي تصور الأسرة الناشئة تغشاها السكينة ويرفرف عليها جو المودة والرحمة.

ج- ثم مقابلة بين السموات والأرض، ومباينة في صفات البشر : ألوانهم ولغاتهم وقد عبر الزمخشري عن هذه المباينة وعن الحكمة فيها بقوله : (خالف عز وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ولا جهاره ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها. والألوان وتنويعها، واختلاف ذلك وقع التعارف. وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشبهان في الحلية^(١)، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلي. وفي ذلك آية بينه، حيث ولدا من أب واحد وفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون ومتفاوتون)^(٢).

وفي الآيات أيضا مقابلة بين الليل جعله الله سكنا وراحة ومناما، وبين النهار هياه الله لا ابتغاء الفضل والبحث عن الرزق، ولا غني للإنسان عن ليل يخلد فيه للراحة بعد التعب والكلال، وعن نهار يستأنف فيه رحلة البحث عن الأرزاق والأقوات.

هـ- ثم هذه المقابلة التي تشف عن جانب من جوانب النفس البشرية، وحالة من حالات الإنسان حين يري الخطر. وفي نفس الوقت يطمع في خير يأتيه من ورائه. يبرق البرق بقدرة الله، فيراه البشر فيعتريهم الخوف مما قد يصحبه من الصواعق المهلكة المحرقة وفي نفس الوقت يخالجهم الطمع فيما يعقبه من مطر مدرار يحيي به الله الأرض بعد موتها، فالمقابلة هنا بين الخوف والطمع وبين السماء والأرض وبين يحيي وموتها.

(١) حلية الرجل : صفته وجمعه حلي "بكسر وفتح منون" انظر مختار الصحاح مادة حلا.

(٢) الكشف للزمخشري : ٢١٨/٣.

و- ثم يكون الختام هذه المقابلة التي تلخص الموقف كله، فتجمع بين الدنيا والآخرة بطريقة مصورة في {ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون} "فهى مقابلة بين البدء والمعاد، بين الدنيا وهى قائمة بأمر الله وحده وبين الآخرة وقد بعث الناس فيها من قبورهم بدعوة واحدة من الله (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)" (١).

ويستمر القرآن المكي في حشد صور الكون ومشاهده، ومشاعر النفس ومكنوناتها بهدف التأثير على وجدان السامعين، وإخراجهم من حالة العناد وعدم المبالاة بالوحي، إلى مرحلة التفكير في آلاء الله التي ستقودهم حتما - وقد قادهم بالفعل - إلى الاعتراف بوحدانية الله وقدرته.

(٢) وهذه آيات من سورة الرعد تنتظمها المقابلات الغزيرة كما تنتظم السورة بأكملها والآيات التي نستشهد بها الآن تبرز فيها مظاهر الطبيعة مع مشاعر النفس حين ترى هول البرق يخطف الأبصار، والسحب الداكنة القائمة مثقلة بالمطر، وتسمع قصف الرعد وهدير الصواعق وكلها تسبيح وإعلان عن خالق هذا الكون ودعوة إلى الحق ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَيَّكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (٣) ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝﴾ (٤)

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد : ١٢ - ١٦)

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) شديد المحال : المكايدة أو القوة أو العقوبة (كلمات القرآن : ١٤٣).

وقد أجمل المرحوم الأستاذ سيد قطب في تفسيره : المقابلات الواردة في هذه الآيات بقوله "التقابل ملحوظ هنا بين "خوفا وطمعا" وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال - وكلمة الثقال هنا بعد إشارتها إلى الماء تشارك في صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف. وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته. وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع. وبين السموات والأرض، وسجود من فيهن طوعا وكرها. وبين الشخوص والظلال : وبين الغدو والآصال : وبين الأعمى والبصير : وبين الظلمات والنور. وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئا ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا"^(١).

وهذا الأسلوب القرآني المتميز الذي يقرع الأفئدة والمشاعر فيحدث فيها من الهزة والانفعال ما لا ينكره من كان على حظ - ولو قليل - من فهم العربية ، هو سر الإعجاز القرآني الذي بهر قريشا أول ما تلقته. (فقد تحير المشركون من قريش فيما بينهم بم يصفون هذا القرآن. قالوا هو شعر، وقالوا هو سحر، وقالوا هو كهانة، وقد عرفوا الشعر كله رجزه وقصيده ومقبوضه ومبسوطه، وعرفوا السحر ونفته وعقده، وعرفوا الكهانة وسجعها وزمزماتها، وما جهلوا أن القرآن ليس شيئا من ذلك كله، فإذا كانوا قد وصفوه هكذا، فلقد أقروا بأن له من السلطان على عقولهم وأفئدتهم ما لم يعهدوا له شبيها إلا في أخذة السحر ونفوذ الشعراء والكهان.. حدث ذلك حين اجتمعوا في دار الندوة عندما دنا أول موسم بعد المبعث وآن وفود القبائل للحج، وإذ تواطأ طواغيت قريش على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة ويصدوهم عن سماع القرآن، كان عليهم أن يتفقوا فيما بينهم على قول واحد في هذا القرآن يلقون به العرب، حتى لا يختلفوا فيه ويرد بعضهم قول بعض وشهدت دار الندوة حيرتهم في وصفهم إياه بالسحر أو الشعر أو الكهانة وإنهم ليعلمون - كما قال قائلهم - أن العرب لا يفوتها أن تميز القرآن من قول الشعراء والسحرة والكهان، حتى انتهوا آخر الأمر إلى رأي أبي جهل بن هشام : أن يقولوا إن محمدا جاء بكلام هو السحر يفرق بين المرء وأخيه وأبيه، وبين المرء وزوجه وولده وعشرته الأدين^(٢).

(١) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٠٥٣.

(٢) أنظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: ص ٤

(نقلا عن سيرة ابن هشام : ١/ ٢٦٩).

ولقد حرص القرآن الكريم في أكثر من موضع على أن يبين للناس أن ما يوحى إلى محمد ليس شعرا. يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ۚ لِيُذَكِّرَ ۚ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ (سورة يس ٩٧-٧٠) . ويقول على لسان المشركين ويرد عليهم :

قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَنِنَّا لِتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ۚ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ (الصافات : ٣٦-٣٧).

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ۝ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ تنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (الحاقة ٣٨-٤٣).

ورد الجاحظ على من زعم أن في القرآن شعرا استنادا إلى أن لبعض الآيات وزن الشعر مثل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ ﴾ لأنه في تقدير مستغفلين مفاعيلن رد على ذلك بأنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها كثيرا من أوزان الشعر، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا وأورد عبارة قالها غلام لصديقه - وقد سقى بطنه^(١) هي "اذهبوا إلى الطبيب وقولوا قد اكنوى" وهي على وزن فاعلاتن مفاعيلن/فاعلاتن مفاعيلن. مع أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعر أبدا^(٢).

(على أنك تستطيع إدراك الفرق بين القرآن والشعر حين تقرأ ما قاله حسان بن ثابت مقلدا قول الله سبحانه قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ. (الرعد : ١٦).

فقال :

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا * عمى وهداة يهتدون بمهتدى؟
فأنت تراه يوازن بين ضلال وهداة. وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفرق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور. إذ الفرق في الآية واضح ملموس، ويشعر به الناس جميعا، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق وآمنت بأن هناك بونا

(١) سقى بطنه : اجتمع فيه ماء أصفر (مختار الصحاح مادة سقى)

(٢) انظر البيان والتبيين ، ط ٤ ، الخانجي ١٩٧٥ .

واسعاً بينهما. انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدي من فرق بعيد^(١).

ولقد مضى الشعراء بشعرهم واختفى الكهان بكهانتهم، وذهب المعاندون بعنادهم، وتواري الكافرون والمشركون بكفرهم وشركهم، وبقي هذا القرآن ببلاغته الفائقة وأسلوبه المتميز معجزة للإسلام والعربية في كل العصور، فسبحان القائل إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠١﴾^(٢).

(١) انظر كتاب : من بلاغة القرآن لأحمد بدوي : ٣٩٤.

(٢) الحجر : ٩ .

المقابلة في مشاهد الكون والنفس في الأسلوب الإنشائي :

وكما وردت المقابلة في مشاهد الكون ومشاعر النفس في الأسلوب الخبري تظهر به قدرة الله وتمن على عبادة بفيض النعم ؛ كذلك وردت في الأسلوب الإنشائي وخاصة في الاستفهام التقريري والإنكاري أو للنفي وكذلك في الأمر التحضيضي لكي ينتبه المشركون إلى آيات الله، ويروا فيها مظاهر قدرته ورحمته :

١- مثال ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء :

قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾

والمقابلة هنا بين الليل والنهار تأتي في سياق الاستفهام الإنكاري.

فليس يحفظكم ويرعاكم في الليل والنهار إلا الرحمن، ومع ذلك فهم معرضون عن ذكر ربهم، والمقابلة تفيد أيضا شمول العناية الإلهية بالإنسان طول الوقت.

٢- أو مثل قوله تعالى : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٥﴾

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النحل : ١٧-٢١).

وتأتي هذه الآيات تعقيبا على آيات سبقتها تتحدث عن قدرة الله في خلق السموات والأرض والمطر والزرع والثمار وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار ومن ثم تبدأ بهذا الاستفهام بعد أن استعدت النفوس للإجابة عليه : أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ وبالطبع ستكون الإجابة بالنفي إذ هما لا يستويان في أي ميزان.

وها هنا عدة مقابلات تسهم بدورها في الإقرار بعدم التسوية بين الله الخالق المنعم الغفور الرحيم العليم بخلقه، وبين الآلهة المدعاة من دونه التي لا تخلق بل إنها جمادات ميتة لا تدري عن موتها وبعثها شيئا... وهذه المقابلات نلمحها بين من يخلق ومن لا يخلق، وبين تعدوا ولا تحصوا، وبين تسرون وتعلنون، وبين لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، وبين أموات وأحياء.

(١) الأنبياء: ٤٢

٣- ومما وردت فيه المقابلات في سياق الاستفهام التقريري قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾^(١).

وقد تكررت المقابلة بين دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل في أكثر من سورة^(٢)، وذلك لأنها مشهد يتكرر كل يوم، ولا يفقد جدته لمن يتدبر فيه ويفكر، لكن مشاغل الناس، ومشكلات حياتهم اليومية تنسيهم التفكير في الظواهر المكرورة والمألوفة. مع أن تكرارها بهذه الدقة وهذا الانتظام، وعدم تخلفها يوما واحدا عن ذلك جدير أن يجعلهم دائمي التفكير والبحث في الأسرار الإلهية وراء هذا النظام البديع.

ومن ثم تنبهنا الآيات إلى أن هذا النظام يؤكد أن الله هو الحق، وأن دواعي الشرك والوثنية هي الباطل، وأن الله هو العلي الكبير، كل ذلك في مقابلات رائعة تستتبع إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل كالشمس والقمر والحق والباطل.

ومن شأن هذه المقابلات وغيرها كما يقول الأستاذ أحمد الشايب "أن تساعد في وضوح الفكرة لأن المقابلة نوع من التحدى بين المعاني والمنافسة في الظهور، وقوة للمعاني"^(٣).

ولكي ندرك الفرق الشاسع بين أسلوب القرآن الكريم وبين غيره في التعبير عن عملية إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل فإن علينا أن نتأمل هذا المعنى في التعبير القرآني ونتأمله عندما حوره النابغة الجعدي قليلا فقال :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل في النهار وفي الليل نهارا يفرج الظلما

(١) لقمان : ٢٩ - ٣٠

(٢) يري الباقلاني وغيره أن في الآية ما يسمى ب(العكس والتبديل) وهو أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول. لكن المقابلة هنا واضحة أيضا بين الظاهرتين: ظاهرة دخول الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار صيفا ويتم العكس شتاء وهو الظاهرة الثانية.

(٣) الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: ١٩٧ ط٦، النهضة المصرية ١٩٦٦م

فقد اضطر النابغة لحذف "يولج" ولتقديم "في الليل" ولتنكير "نهارا" وللمجئ بجمله "يفرج الظلما" فأضعف ذلك أسلوبه وباعد بينه وبين الأسلوب القوي للقرآن^(١).

٤- وأحيانا تأتي المقابلة في سياق التعجب الناشئ من اهتمام الناس بديناهم وانشغالهم بشئون حياتهم فقط دون التفكير والتعبد لله الذي هداهم لذلك : فقد ألقت قريش الرحلتين التجاريتين : رحلة الشتاء ورحلة الصيف وتركت عبادة رب البيت الحرام الذي مهد لهم الطريق ورزقهم الطعام بعد الجوع والأمن بعد الخوف {إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} فلا تخفى المقابلة هنا بين الشتاء والصيف. وبين الإطعام والجوع وبين الأمن والخوف، وهي واردة هنا لتأكيد التعجب من إيلاف قريش.

٥- وقريب من ذلك قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ^(٢).

حيث وردت المقابلة بين حالتهم يعيشون في أمان في كنف الحرم الآمن وحالة غيرهم من البدو يعيشون في رعب وترقب للاختطاف في أي وقت ومع ذلك يصرون على الشرك والكفر بنعمة الله، والإيمان بالباطل من الآلهة.

إن قدرة الله ووحدانيته تتجلى في هذه المشاهد، ولذلك لا يفتأ القرآن الكريم يوجه القلوب والعقول إليها، ليربطها بهذه المشاهد فيرق القلب وتسمو العاطفة، ويستجيب الإنسان لنداء التوحيد المنبعث من أرجاء الكون وأقطار النفس.

٦- والقرآن يستخدم في ذلك مادة الحياة المحيطة بالإنسان وسيلة للإقناع والتأثير، فهذا الظل الممدود أول النهار وآخره في اتجاهين متقابلين بقدرة الله وفي بطاء شديد تدل عليه الشمس في شروقها وغروبها، إنما هو بتقدير من الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، لو شاء جعله ساكنا وحينئذ يخل نظام الكون، ولكن الله يقبضه قبضا يسيرا لطيفا.

وهذا الليل الساجي، والنهار الحي، والرياح والمطر والأنعام والأناسي كل هذه الأشياء وغيرها هي مادة القرآن في تثبيت العقيدة. والمقابلة البديعة هي العنصر البارز في التعبير القرآني عن هذه المشاهد وتلك الآلاء {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ

(١) أنظر : من بلاغة القرآن لأحمد بدوي : ٣٩٦.

(٢) العنكبوت : ٦٧.

لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لْنُخْضِيَ بِهِ يَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسِيَّ كَثِيرًا^(١) } وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا^(٢).

في هذه الآيات طائفة من مقابلات كلها نابعة من منبع واحد هو الشمس وما ينتج عنها من ظلال وليل ونهار ورياح وأمطار تحيي الموات من البلاد وتروي العطاش من الحيوان والإنسان. ففي الآيات مقابلات بين مد الظل وقبضه أو بين حركته وسكونه، وبين ظلمة الليل وسكونه وضوء النهار وحركته فمن رحمة الله أن "جعل الليل لباسا" يلبس الكائنات جميعها ثوبا من الستر والظلمة تسكن حركة هذه الكائنات وتحلدها للسبات والهدوء "وجعل النهار نشورا" بما فيه من حركة اليقظة والانتعاش التي تدب في الكائنات بعد سباتها وسكونها، ثم مقابلة بين الحياة والموت، وبين الأنعام والأناسي وبين الماء العذب والماء الملح الأجاج^(٣)، وهذه الأخيرة وحدها تقف في كل حين شاهدا على إرادة الله وقدرته ورحمته بالإنسان فجميع أنهار الدنيا تصب في البحار والمحيطات ولا يقع العكس حتى لا تفسد ملوحة البحار ماء الحياة، ومهما اشتد زبد البحر وطغت أمواجه فإنها لا تطغي على مياه الأنهار الأقل منها موجا وطغيانا، ذلك أن الله القدير جعل مجاري الأنهار غالبا أعلى من حواف البحار، وفي هذا عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

٧- وقد تردد هذا المعنى أكثر من مرة في السور المكية ومن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٤)).

(١) الفرقان : ٤٥ - ٤٩.

(٢) الفرقان : ٥٣.

(٣) الأجاج : ملح شديد الملوحة (تهذيب السجستاني في غريب القرآن) : ١٣١.

(٤) فاطر : ١٢.

فالمقابلة بين الماء العذب السائغ شرابه والملح الأجاج، تعطي انطبعا بعدم استوائهما بالإضافة إلى نص القرآن صراحة على ذلك في قوله "وما يستوى البحران" لكن الجانب المالح المر من الماء له فائدة لا تقل عن فائدة الماء العذب السائغ شرابه في حياة البشر، فإن هذه المسطحات الضخمة من مياه المحيطات والبحار المالحة هي التي تمد الحياة بالغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات.

وقد وردت هذه المقابلات كلها حقيقية وليست مجازية وبصريح الألفاظ دون تأويل.

مقارنة بين المكي والمدني في هذا المجال :

رأينا فيما سبق أن القرآن المكي حافل بالمقابلات التي تركز على بيان صفات الله وقدرته وعظمته، وعلى مشاهد الكون ومجالي النفس والقدرة الكامنة وراءهما، وذلك لأنه يتخذ من هذه المشاهد الماثثة في تضاعيف الكون مادته الحية لغرس عقيدة التوحيد في الصدور، عن طريق الأشياء المألوفة والمعهودة للناس حتى يسهل إقناعهم بها، فماذا عن هذا الجانب في القرآن المدني ؟

١- إن ما ورد من هذه المشاهد وما يترتب عليها من الدعوة إلى التوحيد قليل جدا في القرآن المدني، بالقياس إلى ما ورد منها في القرآن المكي، وذلك راجع - كما أسلفت - إلى أن القرآن المدني إنما يخاطب قوما قد آمنوا بالفعل، وامتألت قلوبهم بنور التوحيد.

ومن ثم، لم يعودوا في حاجة إلى التركيز على هذا الجانب، قدر حاجتهم إلى النواحي التنظيمية الأخرى.

٢- فإذا وردت في القرآن المدني آية أو بضع آيات تدعو إلى التوحيد، مستخدمة قدرة الله في مشاهد الكون ورحمته بالإنسان فإن ذلك إنما يأتي لسبب خاص، لا يشكل قاعدة أو ظاهرة. مثل قوله تعالى في سورة البقرة - وهي مدنية : **وَاللَّهُ كُـمُّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٧﴾** (١).

في هذه الآية المدنية مقابلات مستمدة من مشاهد الكون.

ففيها مقابلة بين السموات والأرض، وبين الليل والنهار وبين الحياة والموت وبين الفلك الجارية في البحر والدواب الماثثة في الأرض.

* بث : فرق وبسط كما قال تعالى (وزراني مبثوثة) : أي متفرقة مبسطة (محاز القرآن ١/٦٢).

(١) البقرة ١٦٣ - ١٦٤.

والسبب الخاص الذي أقصده هنا هو أن هذه الآية تريد أن تؤكد للمسلمين أن قضية التوحيد قد أصبحت حقيقة واقعة وأن دليلها واضح أمام أعينهم في مشاهد الكون ففيها آيات لقوم يعقلون، ومن ثم فإنكم لستم في حاجة إلى استفتاء اليهود في أي أمر من أمور دينكم، فإنهم - لحقدهم على الإسلام ورسوله - يكتمون ما ورد في التوراة من حقائق حول الإسلام وقضائاه^(١).

ويؤكد هذا القول أن آية التوحيد وآية المشاهد الكونية بعدها قد وردتا في أعقاب الحديث عن اليهود وما يكتُمونه وجزاؤهم الذي ينتظرهم : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾^(٢) كما ورد بعد ذلك بقليل قوله تعالى عنهم : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾^(٣).

٣- وأحيانا تأتي مشاهد الطبيعة بما فيها من مقابلات - في القرآن المدني - لغرض آخر غير الإقناع بقضية التوحيد، فقد تأتي لغرض اجتماعي هو الحث على التكافل والإنفاق في سبيل الله من مال الله الذي استخلف المسلمين فيه، تستثير الوجدان بمشاهد الكون وعظمة الله فيه، لكي تمهد الطريق إلى إقناع المسلمين بالبذل والإنفاق فهي هنا بمثابة تمهيد الجو وهيئة النفس لتقبل الأحكام الشرعية أو التكالف الدينية.

ونموذج لذلك : آيات في أول سورة الحديد - وهي مدنية -

قال تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطي ٢٠، ٢١/١.

(٢) البقرة : ١٥٩.

(٣) البقرة : ١٧٤.

أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾ [الحديد: ١-٥]

قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ ﴿١٠﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾^(١).

نلاحظ على هذه الآيات امتزاج الصفات الإلهية بمشاهد الكون. لأن هذه
المشاهد أثر من آثار هذه الصفات، وقد عرضتها الآيات بطريقة مصورة مؤثرة
تنفذ إلى الوجدان، وتوقظ القلب على صوت الوجود كله وهو يسبح لله مالك
السموات والأرض والمحبي والمميت والقادر، والأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء فهو
إذن موجود في مطلق الزمان، الظاهر في كل شيء، والباطن في كل شيء، فهو إذن
موجود في مطلق المكان، العليم بكل شيء، المهيمن على العرش، الكائن معنا أينما كنا
والبصير بكل ما نعمل، المدبر لحركة الليل والنهار، والعليم بأسرار الصدور.

وبعد هذه الدفقة من التجليات، يكون القلب قد تفتح واستعد لتلقى الأمر: آمنوا -
وهم مؤمنون فعلا - فيكون المطلوب إذن تحقيق هذا الإيمان مقترنا بالعمل، ولذلك
أتبعه بالأمر المقصود من وراء كل هذه المقدمات وهو (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين
فيه)، لأن من يستكمل إيمانه ويتوجه بالإنفاق المطلق في سبيل الله فله أجر كبير.

لقد اعتمد الجانب التأثيري لهذه المقدمة على إبراز صفات الله وقدرته في مشاهد
الكون عن طريق التقابل الحسي والمعنوي؛ حتى يستشعر القلب المؤمن عظمة الله
وجلاله وشمولية صفاته. وهذا التقابل واضح وظاهر بين تسبيح ما في السموات وما في
الأرض، وبين ملكية الله لما في السموات وما في الأرض، وبين يحيي ويميت، وبين الأول
والآخر، وبين الظاهر والباطن، وبين خلق السموات والأرض، وبين علم الله بما يلج في
الأرض وما يخرج منها، وبين العلم بما يتزل من السماء وما يعرج فيها، وبين إيلاجه
الليل في النهار وإيلاجه النهار في الليل.

٤- لكن الفارق الهام بين مقابلات المكي والمدني في هذا المجال، أنها في المدني تعرض
في أسلوب نوراني رقيق ومطول نسبيا، فيسرى في الروح كالماء في الغدير.

(١) الحديد : ١ - ٧.

فلا تكاد ترى فيه هذا الوهج الساطع، ولا تسمع فيه مطارق الآيات المكية التي تدك الأرض دكا أو تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل.

٥- وقد تأتي المقابلة في مشاهد الكون، وقوانين الطبيعة في القرآن المدني لتؤكد للمسلمين أن نصر الله لهم على عدوهم الباغي سنة لا تتخلف كما أن الظواهر الكونية سنة لا تتخلف أيضا، القانون الإلهي واحد في الحالتين. مثال ذلك تلك المقابلات التي وردت في سياق قوله تعالى

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ

﴿٥﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(١)
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾^(٢)
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾^(٣)
﴿ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٥)

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾^(٦)

(١)

فقد نزلت الآية الأولى (في سرية بعثها النبي صلى الله عليه وسلم، فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة وذكرهم بألا يتعرضوا لقتالهم، فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوا وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون ونصروا عليهم^(١)

فكان نصر الله للمظلوم المعتدى عليه قانون إلهي كتلك القوانين والظواهر الكونية التي لا تتخلف والتي وردت في أسلوب متقابل في الآية السابقة...

(١) الحج ٦٠-٦٦ .

(٢) أسباب النزول للسيوطي ١٢٣/٣ .

٦- وأخيرا. قد تأتي المقابلات في هذا المجال - في القرآن المدني - في صورة

ابتهالات دينية تنبعث كالترانيم^(١) من قلوب الخاشعين

كهذا الدعاء الذي يعلمه الله لنبيه وللمؤمنين، حين سألته أن يجعل ملك الروم وفارس في أمته^(٢)، وهو دعاء حافل بالمقابلات الدالة على عظمة الله ووحدانيته ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٤)

وقد استدلل الدكتور أحمد إبراهيم موسى في كتابه (الصبغ البديعي في اللغة العربية) بهذه الآية الكريمة على أن البديع لا يأتي في القرآن عرضا لمجرد الحلية أو الزخرف اللفظي، بل يأتي لذاته حين لا يغني غيره غناؤه فيقول: (قوبل في هذه الآية بين توقي وتنزع وتعز وتذل، وإذا كان الغرض هو تصوير القدرة في أوسع معانيها، وبيان السلطان في أشمل مظاهره وأكملها، فإن ذلك لا يتم إلا بالجمع بين الضدين، والحكم بأنه يقدر على الأمرين: الإيتاء أو ما في معناه، والترع أو ما في معناه، وكذلك الإعزاز والإذلال، ثم يستطرد لإثبات هذه الذاتية بقوله: لما كان مقياس الذاتية والعرضية عند المتأخرين من علماء البلاغة هو عدم استقامة الأغراض بفقدان الأول، واستقامتها بفقدان الثاني، كان جديرا بنا أن نعرض الطباق على هذا المقياس ونجعله حكما فيه، فإنك إذا طبقت هذا على مثل تلك الآية الكريمة من أساليب، اقتنعت بأن ذكر المقابل لا محيص عنه في صياغه مثل هذا الغرض إذ قد يقدر شخص على الإيتاء، ولكنه لا يقدر على الترع، ويستطيع إنسان أن يعز، ولكنه قد يعجز عن الإذلال، ومع هذا لا تضمن عليه بوصفه بالقدرة، ولكن المضمنون به عليه هو الحكم له بالقدرة التامة)^(٥). ونحن نوافق الدكتور "أحمد إبراهيم موسى على ما ذهب إليه، ونضيف أن بلاغة القول كل متكامل لا ينفصل فيه اللفظ عن المعنى ولا العرض عن الجوهر كما أن البديع

(١) ترنم: إذا رجع صوته للتطريب والترنيم مثله، (مختار الصحاح): رنم.

(٢) انظر أسباب النزول للسيوطي: ٢٧/١ وكذلك النيسابوري ص ٧٠.

(٣) آل عمران: ٢٦ - ٢٧.

(٤) الصبغ البديعي في اللغة العربية، للدكتور أحمد إبراهيم موسى: ٤٧١.

القرآني عموماً والمقابلة على وجه الخصوص تأتي لتبلي غرضاً دينياً وأديباً هو التأثير الوجداني والنسق الجمالي للأسلوب.

ونستطيع في نهاية هذا الحديث أن نلخص الإجابة على السؤال الذي طرحناه في مقدمة الحديث عن المقارنة بين المكي والمدني في مجال المقابلة في مشاهد الكون والنفس - في النقاط التالية :

- ١- أن المقابلات في مشاهد الكون لم ترد في القرآن المدني إلا نادراً.
- ٢- وإنها لا تركز على الدعوة إلى التوحيد.
- ٣- وإنها تأتي غالباً في سياق خاص.
- ٤- وإنها قد تأتي كتمهيد للأمر بتكليف شرعي أو هدف اجتماعي.
- ٥- وإنها قد تأتي لتأكيد نصر الله للمسلمين في صراعهم مع العدو الباغي.
- ٦- أو تأتي لتعليم الرسول والمؤمنين بعض الأدعية والابتهالات.
- ٧- وأن أسلوبها يميل إلى التطويل والرقّة والعذوبة.
- ٨- وأن كل ذلك ينسجم وطبيعة القرآن المدني عموماً.

ثانيا : المقابلة في خطاب الكفار والمعاندين :

لا نريد بالخطاب هنا ما ورد عند النحويين من مخاطبة الحاضر وما يشترط عندئذ من استخدام الضمائر المعروفة للمخاطبين متصلة أو منفصلة، ظاهرة أو مستترة وإنما نريد به هنا الخطاب العام الذي يشمل الجنس البشري الحاضر منه والغائب في كل زمان ومكان، إنه الحديث إليهم والحديث عنهم على السواء، ذلك، لأن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى وقرآنه الكريم، يختلف عنه بالنسبة إلى البشر ولغتهم، فهم محاصرون بحدود الزمان والمكان حين يخاطب بعضهم بعضا، أما حين يتحدث المولى سبحانه إلى الناس في القرآن الكريم، فإن ذلك يعتبر خطابا لهم متى وجدوا وحيثما حلوا.

فإذا رأينا آية فيها حديث إلى الكفار أو عنهم ولم تستعمل فيها الضمائر المعهودة للخطاب، واستعملت فيها ضمائر الغائب، فإنها خطاب للكافرين أيضا، فقله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾^(١) خطاب إلى المشركين فيه التحدى لهم أن يأتوا بشركائهم من الأصنام التي يعبدونها لتتطابق بصدقهم إن كانوا صادقين. ولم يستخدم في هذا الخطاب ضمائر المخاطبين بل استعملت ضمائر الغائبين (لهم - فليأتوا - بشركائهم - كانوا) وهذا الالتفات له مغزي بلاغي هو الاحتقار والاستهزاء.

بل إن الآيات التي وردت بضمير المتكلم - حين يتحدث الله سبحانه عن نفسه تعتبر خطابا إلى الكافرين أيضا، مثل قوله تعالى : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾^(٢) أو قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٣) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥١﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٢﴾^(٣).

والمقابلة في الخطاب الكافرين تأتي في القرآن المكي في مواقف متنوعة (ولأغراض متعددة) كل منها يناسب طورا من أطوار النفس البشرية، وحالة من حالاتها ومن ذلك مجيئها :

(١) القلم : ٤١ .

(٢) القلم : ٣٥ .

(٣) الذريات : ٥٦ - ٥٨ .

(١) للترغيب :

تأتي المقابلة للترغيب في اتباع الذكر الحكيم والانتفاع بهدية الكريم، لكن ذلك غالبا يقترن بالتلويح بالعذاب الأليم لمن يعرض عن ذلك :

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ (١).

والمقابلة هنا تعرض مهمة القرآن وأثره في صورة واضحة، وتقرن الشيء بضده حتى يختار الإنسان أيهما أنفع له وأجدي :

إنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وفي مقابل ذلك ينذر من لا يؤمن بالعذاب الأليم (فهذه هي قاعدة الإسلام الأصيلة في العمل والجزاء، وعلى الإيمان والعمل الصالح يقوم البناء الإسلامي فلا إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان) (٢) ولقد كان السياق يقتضي أن يقول (وينذر الكافرين الذين يعملون السيئات) في مقابل (يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) ولكنه عدل عن ذلك، لأن معنى الإنذار مفهوم من قوله تعالى : (وأعتدنا) ولم يقل (الذين يعملون السيئات) في مقابل (الذين يعملون الصالحات) لأن وصف الكافرين بأنهم (لا يؤمنون بالآخرة) يدل عليها وزيارة، فالذي ينكر اليوم الآخر ولا يؤمن به، يحلو له أن يفعل ما شاء من السيئات لظنه أن لا حساب على ما يعمل.

(٢) للعتاب :

وقد يقترن الخطاب للترغيب بالعتاب المرير للكفار والمشركين، ينجيهم الله من كل ظلمة وكل كرب ومع ذلك يشركون ومن ثم يأتي العتاب كدعوة إلى التفكير الهادئ الذي يؤدي غالبا إلى الاقتناع، وتكون المقابلة بمثابة تحريك للذهن، وتقليب للقضية على وجوهها (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا

الإسراء : 9-10 1

محاضرات في تفسير سورة الإسراء، للشيخ عبد العظيم معاني. ألقاها على طلاب الفرقة الثالثة بدار العلوم سنة 2

1965

وَحُفْيَةً لَّئِنْ أَجْتَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾^(١)

فالمقابلة هنا بين ظلمات البر وظلمات البحر وبين دعائهم تضرعا معلنين الضراعة والتذلل لله، ودعائهم خفية مسرين بالدعاء^(٢)، وليس من الضروري أن يكون هناك ليل حتى تكون ظلمات، فكل كربة هي ظلمة، والمجهول ظلمة، وحينما يقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر فلن يجدوا في أنفسهم إلا الله ملجأ وملاذا.

(٣) للدعوة إلى الإصلاح :

وربما أتى الخطاب للترغيب في صورة دعوة إلى ترك الإفساد في الأرض وأمر بالإصلاح والتقرب إلى الله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) والمقابلة بين الإفساد والإصلاح في سياق الآية الكريمة جدية بأن تنفر النفس السوية من الإفساد وتجذبها للإصلاح.

فإذا اقترن هذا بمقابلة أخرى بين الدعاء لله خوفاً من عذابه ومن مغبة الإفساد في الأرض وطمعاً في جنته وفي إصلاح النفس التي عزمت على إصلاح ما في الأرض، شفت النفس ورقت، وأصبحت مستعدة للإصلاح وترك الإفساد، ومما يقوي هذا المعنى أن الآية وردت ضمن آيات أخرى تؤدي المقابلة فيها - أيضاً - دور التأثير والترغيب، فقد سبقت بقوله تعالى ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^(٤). وأعقبت بقوله تعالى وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ^(٥).

(٤) للإقناع بالحسنى :

وأحياناً يجرى الخطاب في صورة قضية ذهنية، واضحة المقدمات والنتائج فيها محاولة للإقناع بالحسنى، وتكون المقابلة هنا هي الصيغة الملائمة لحرية الاختيار بين الشئين

(١) الأنعام : ٦٣ - ٦٤.

(٢) كلمات القرآن (مخلف : ٧٧).

(٣) الأعراف : ٥٦.

(٤) الأعراف : ٥٥.

(٥) الأعراف : ٥٨.

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١﴾

إن المقابلة هنا بين شرطين وجزأين، بين من أبصر نعم الله ورأي فيها الآيات والبراهين الدالة على قدرته فاهتدى وآمن فكسب نفسه. ومن أغمض عينيه وأوحد قلبه فلم ير في الآيات شيئا فحسر نفسه، وعلى الإنسان أن يختار بين البصر والعمى والهداية والضلال، والتعقيب بقوله تعالى : وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١﴾ يشعر بحرية الاختيار وتحمل تبعة العمى بعد أن وضح الفرق بين الطريقتين.

٥) لا بطل حجتهن :

وقد تأتي المقابلة في خطاب المشركين لتزيل ما قد يعلق بأفكارهم من الشك والتوجس، وتبطل بذلك حجة يتمسكون بها لعدم اتباعهم الرسول ودين الإسلام وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّيَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَغَتْ مُسْكِنُهُمْ لَمَّا نُسَكِّنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٣﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٤﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦﴾

فقد جاء أناس من قريش للرسول يعتذرون له عن عدم إسلامهم قائلين : إن نتبعك تخطفنا الناس^(٢)، وهي حجة نابعة من الخوف على أرزاقهم أو سلطاتهم الذي اكتسبوه نتيجة كونهم في مركز القيادة للقبائل في الجزيرة العربية بحكم وجود الحرم (الكعبة) في مكة، وهنا يطل القرآن هذه الحجة، فالخوف والتخطف من جانبهم يقابله ويدفعه هذا الأمان الذي يظللهم نتيجة هذا الحرم الآمن الذي وهبه الله لهم، وجعله مصدرا للرزق والثمرات تجبي إليهم، "أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم

(١) الأنعام : ١٠٤ .

(٢) القصص : ٥٧ - ٦١ .

(٣) أسباب النزول للسيوطي : ١٣٣/٣ .

أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون" (١) "إن القضية معكوسة عليهم فالأمان هنا والتخطف والخوف هناك.

ومع ذلك يجاريهم القرآن ليبين لهم أن ما يؤتون في الدنيا - التي يحرصون عليها كل هذا الحرص - إن هو إلا متاع زائل وزينة عرضية في مقابلة ما أعد الله لمن آمن به من الأمان والخير الباقي لو كانوا يعقلون.

ثم يسوق الدليل على فساد حجتهم وسوء تفكيرهم بهذا المثل التوضيحي الذي زادته المقابلة وضوحاً : إن من وعده الله وعداً حسناً فهو لاقية نعيماً وملكاً خالداً يوم القيامة، لا يمكن أن يستوى مع من متعه الله بمتاع الدنيا فقط، ثم هو يوم القيامة من المحضرين رغم أنوفهم إلى ساحة الحساب والعذاب وإنهما لصفحتان متقابلتان صفحة من وعده الله وعداً حسناً حين يصير على محنة الدنيا ويحتار اختبار العقيدة بنجاح فيجد أن ما وعده الله به في الآخرة حقاً وصدقاً، وصفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد وكان يحسبها حياة لا حساب بعدها، فإذا به يسحب رغم أنفه للحساب، وللإنسان أن يختار ما يريد.

٦- للسخرية :

وكما رأينا المقابلة في النموذج السابق تبطل حجة المشركين وتدمغها بنجدها في المثل التالي تدفع بالمنطق والعقل قومة قبيحة، وادعاء باطلاً يتهم به المشركون رب العزة، لقد اتهموه - تزه عما يقولون بالصاحبة واتخاذ الملائكة إناثاً، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، وهنا يخاطبهم القرآن باستفهام إنكاري لاذع تؤدي المقابلة فيه دور التصوير والتوضيح والسخرية من هذا الزعم الذي لا يستند إلى أي دليل فضلاً عن بطلان تصويره :

أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢﴾

فالمقابلة بين البنين يصطفاهم الله بهم، والإناث يتخذهم له بناتاً هي جوهر السخرية من خطئ تفكيرهم وفساد رأيهم وقد تكرر ذلك في سورة الزخرف في معرض الاستنكار والتعجب : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١) العنكبوت : ٦٧.

(٢) الإسراء : ٤٠.

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ ١ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٢ أَوْ مَنْ يَنْشِؤُا فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ٣ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ٤ ١. وفي سورة النحل : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥ ٢. والمقابلة هنا بين (البَنَات) ينسبونها إلى الله و (البَنِينَ) يختارونهم لأنفسهم، ولكن القرآن عبر عن البنين بقوله (ولهم ما يشتهون) للدلالة على مدى حبههم للأولاد وكراهتهم للبنات، فبئس المثل مثلهم. إذ كيف يختار الله لنفسه ما يكرهونه هم.

ومن أجل ذلك يعقب الله على هذا التفكير بمقابلة تنسجم وما سبقها، فيقول سبحانه : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ ٣. والمقابلة هنا بين مثل السوء منسوباً إلى الكافرين والجاحدين، والمثل الأعلى منسوباً إلى الله جل وعلا، إن لهم مثل السوء ٤ في كل شيء، في الشرك والاعتقاد والتعامل والتفكير، والله المثل الأعلى الذي لا يقارن ولا يضارع طهارة وسموا ورفعة.

٧) للتهديد والوعيد :

وتأتي المقابلة في خطاب الكافرين للتهديد والوعيد، وذلك لأن الإنسان الذي يغمض عينيه، يحض إرادته عن رؤية الشمس، ويصمم أذنيه عن سماع الحق، ويوصد منافذ الفكر والبصيرة من نفسه، لا تجدي معه المواعظ، ولا ينفعه الإقناع والجدال بالحسنى، إنما يصلح معه أسلوب التهديد بالعقاب (إن الواقع المشهود يدلنا على أن

(١) الزخرف : ١٥-١٩.

(٢) النحل : ٥٧.

(٣) النحل : ٦٠.

(٤) فسر صاحب الأشباه والنظائر كلمة (السوء) حينما وردت في القرآن الكريم بأحد عشر وجهاً: نذكر منها هنا : الشدة مثل قوله تعالى {يسومونكم سوء العذاب} والزنا مثل (ما علمنا عليه من سوء) والعذاب مثل (إن الحزني اليوم والسوء على الكافرين والشرك مثل (ما كنا نعمل من سوء).

(٥) انظر/ الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ت ١٥٠هـ دراسة وتحقيق. د- عبد الله شحاته ص ١٠٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

هناك فريقا من الناس لا تصلح معه المواعظ التي تهرز الوجدان، بل يزدادون انحرافا كلما زيد لهم في الوعظ والإرشاد، وليس من الحكمة أن نتجاهل وجود هؤلاء أو نتصنع الرقة الزائدة معهم، فهم مرضى ومنحرفون وليس علينا أن نجاريهم في انحرافهم، ولنتمس لهم الأعذار، فإن ذلك نفسه يبعث على الانحراف ويزيد عدد المنحرفين^(١).

والقرآن الكريم حافل بالمقابلات المثيرة للرعب والفرع، الحافلة بشتى صنوف التعذيب والألم الجسمي والنفسي، ويتركز معظمها في مشاهد القيامة التي سنفرد لها عنوانا خاصا بعد قليل، ولكننا هنا نكتفي ببعض صور التهديد الدنيوي في مجال خطاب المشركين والمعادنين يقول تعالى :

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ

الظَّالِمُونَ ﴿١٧﴾ هنا تهديد سافر ومرعب بعذاب يحل عليهم. ساعدت المقابلة في تصويره ومثله، إن عذاب الله يأتي مباغتاً مفاجئاً دون توقع وهم غارقون في النوم أو في السهو أو ينصب عليهم جهرة عياناً نهاراً وهم متأهبون له منتظرون. وفي كلتا الحالتين لن يهلك فيه إلا من ظلم نفسه بالشرك، وهم قد ظلموا أنفسهم ومن ثم كان التهديد موجها إليهم لا لغيرهم.

والقرآن الكريم إذ يلجأ لهذا التهديد السافر، فإنه في نفس الوقت يخفف من حدته بمقابلات أخرى تأتي في نفس السياق لبيان مهمة الرسل: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٩﴾ فالمقابلات هنا بين التبشير والإنذار وبين الإيمان والتكذيب، وبين الأمان والفرح يقابله مس العذاب، هذه المقابلات تعطي المشركين الفرصة لكي يتدبروا موقعهم، ويتبعوا الرسول قبل أن يأتيهم العذاب بغتة أو جهرة.

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ١/ ١٩٠ ط ٧ دار الشروق ١٩٨٣.

(٢) الأنعام : ٢٤٧.

(٣) الأنعام : ٤٨ - ٤٩.

وقد تشد نعمة التهديد لهؤلاء الكفار والمعاندين، فتأتي المقابلة في خطاهم

مصرحة بعذاب غامر يفزع مجرد تصويره القلب ويهرب الفؤاد :

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ
أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ
الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٧﴾
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٨﴾ لِّكُلِّ نَبِيٍّ
مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ (١)

(فالعذاب الغامر من فوق أو النابع من تحت أشد وقعا في النفس من تصويره آتيا عن
يمين وشمال، فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال،
أما العذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر
مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات) (٢).

والمقابلة هنا بين العذاب من فوق والعذاب من تحت الأرجل توحى بالإحاطة
والسرعة والحسم، ولهذا العذاب شواهد للناظرين والمتدبرين في أحداث التاريخ
ومصارع الغابرين، فالعذاب من فوق له نظير قد حدث عندما أمطر الله على قوم لوط
وأصحاب الفيل الحجارة وأرسل الطوفان على قوم نوح، والعذاب من تحت الأرجل
حدث من قبل حين غشي قوم فرعون من اليم ما غشيهم، حين خسف الله بقارون
وبداره الأرض.

ومن عجيب هذه المقابلة بين العذاب من أعلى والعذاب من أسفل، والتي توحى
كما قلنا بالسرعة والحسم، أنها تقابل نوعا آخر من العذاب ذكرته الآية، لا يتسم
بهذه السرعة، بل يتسم بالبطء، ولا يظهر أثره إلا بعد مدة طويلة، هو العذاب الذي
يلحق الأمم نتيجة اختلاف كلمتها، وتشعب أهلها إلى فرق وأشباع يكيد كل فريق
للآخر، وتذيق كل شيعة البأس والنكال لغيرها. (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس
بعض) وهذا أقسى ما يصيب أمة من الأمم، وله شواهد شتى من التاريخ قديمه
وحديثه منذ الفتنة الكبرى بين سيدنا عثمان والإمام علي ومرورا بالفرق الإسلامية

(١) الأنعام : ٦٥ - ٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ١١٢٤/٢ .

من معتزلة وسنة ومرجئة وقدرية، إلى ما يحدث في لبنان أو بين العراق وإيران في الوقت الحاضر. (١)

..... ونلمح كذلك مقابلة أخرى في هذه الآية، ولكنها خفية بعض الشيء وذلك أن العذاب من فوق ومن تحت الأرجل إنما هو من فعل الله وقدرته وبيده سبحانه، وهذا يقابل العذاب الناشئ من (يلبسكم شيعا) فإنه عذاب بأيديهم ومن صنع أنفسهم.

وهكذا... وفي آية واحدة مكونة من كلمات قليلة تأتي لدينا ثلاث مقابلات أثرت المعنى وزادته خصوبة، وأسهمت في إبراز التماسك والترابط في الأسلوب القرآني، بالإضافة إلى تصويرها لأنواع العذاب التي سيقَت الآية من أجل التهديد بها والوعيد لهؤلاء الكفار والمعاندين.

٨) لإظهار الفرق بينهم وبين المؤمنين في العمل والجزاء :

وبالإضافة إلى ما سبق فإن المقابلة في خطاب الكافرين قد تأتي لبيان وجهة نظرهم في الوحي والرسالة مقابلة بوجهة نظر المؤمنين، وما يترتب على هذين الموقفين المتقابلين من نتائج.

ويتضح ذلك في قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أُنْزِلَ رَّبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿١١﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٥﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَّاذَا أُنْزِلَ رَّبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ ﴿ جَنَّاتُ

(١) كتب هذا البحث إبان تلك الأحداث (١٩٨٤ م)

عَدْنِ يَدْخُلُونَهَا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ
يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ أَلْمَلِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾^(١)

(يروى الزمخشري في الكشف عن سبب نزول هذه الآيات : أن أحياء العرب
كانوا يبعثون أيام المواسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاءه الوافد
كفه المقتسمون^(٢)، وأمروه بالإنصراف، وقالوا : إن لم تلقه كان خيرا، فيقول : أنا شر
وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقي أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم، فيخبرونه بصدقه، وأنه مبعوث، فهم الذين قالوا خيرا وكان
المقتسمون يقول بعضهم لبعض : لا تغتروا بالخارج منا، فإنه ساحر، ويقول الآخر
كذاب والآخر شاعر)^(٣). فالآيات حين تحكى كلا الموقفين تستخدم أسلوب المقابلة
ليبان التقابل فيهما:

فالكفار والمشركون حين يسألون عن كنه الوحي وجوهر الرسالة يجيبون بغير الحق،
إذ يدعون أن ما أتى به محمد ليس وحيا من الله بل أساطير الأولين^(٤).
ويقابل هذا قول المؤمنين المتقين : إن ما جاء به محمد هو الخير كل الخير، فلمن
آمن به محسنا في إيمانه حسنة في الدنيا، أما في الآخرة فإن له دار المتقين بما فيها من
جنان عدن بأثمارها وما يشاءون فيها جزاء تقواهم.

(١) النحل : ٢٤ - ٣٢.

(٢) المقتسمون : ورد ذكرهم في آية ٩. من سورة الحجر (كما أنزلنا على المقتسمين) هم إثنا عشر
رجلا من قريش،

اقتسموا مداخل مكة أيام المواسم، فقصعدوا في كل مدخل متفرقين ليصدوا الناس عن الإيمان
بالرسول. انظر الكشف : ٣٩٨/٢.

(٣) انظر الكشف : ٤٠٧/٢. وتهذيب السجستان في غريب القرآن : ٩٦.

(٤) الأساطير : جميع أسطورة، ولها معنى أدبي هو (الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة على نحو ما
عرف من أساطير اليونان والفراعنة والفرس والهنود. المعاني الثانية ٢٣٩) ولها معنى لغوي،
مأخوذ من سطر الشيء إذا كتبه "المعجم الوسيط مادة سطر"، وقد زعم الدكتور : محمد أحمد
خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن) أن في القرآن أساطير بالمعنى الأدبي للأسطورة،
وهو زعم باطل، تولى تفنيده والرد عليه كل من الدكتور فتحي عامر في كتابه (المعاني الثانية في
الأسلوب القرآني : ص ٢٣٥ وما بعدها. والأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه (القصص
القرآني في منطوقه ومفهومه : ٣٠٢ - ط دار الفكر العربي مصر ١٩٧٤).

هذا ما يقوله كلا الفريقين، يظهر فيه التقابل التام، فبينما يصد المشركون من جاء يسألهم وينفرونه من محمد ورسالته، يحاول المتقون من المؤمنين عرض الجوانب المضيئة - وكلها كذلك - للسائلين حتى ينجذبوا إليها ويحبوها. فماذا عن مصير كل فريق وما جزاء كل منهما؟

إن التقابل أيضا بين المصيرين والجزاءين يتطابق مع ما قدمه كل منهما : فجزاء الكافرين القائلين بالأساطير، المضلين الناس بغير علم أنهم يحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم، وربما لحق بهم في الدنيا من العذاب مثل ما لحق بمن مكروا قبلهم كالنمرود أو بختنصر أو كل ماكر عنيد^١، حيث أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وحل عليهم عذاب الدنيا من حيث لا يشعرون، ويضاف إلى هذا العذاب الدنيوي ما يلحقهم من خزي وسوء يوم القيامة حين لا يستطيعون ولا يملكون الإجابة عن هذا السؤال : أين الشركاء الذين كنتم تشاقون فيهم وتخاصمون وتعادون فيهم الأنبياء^٢. وهؤلاء تتوفاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بهذا الكبر المزيف والاستعلاء الكاذب. لم يظلمهم أحد، ولا ينفعهم حينئذ ما يلقون من السلم والانقياد والخضوع، بل يؤمرون بدخول أبواب جهنم والخلود في مثوى المتكبرين.

وفي مقابل ذلك، يكون الرفق واللين ساعة الاحتضار، وترتع الملائكة أرواح المتقين، طيبة نفوسهم بقاء الله، مطمئنة قلوبهم بما ينتشر حولهم من السلام والأمن والترحاب، تفتح لهم أبواب الجنان، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

ولكننا نلاحظ على المقابلة بين الموقفين هنا شيئا هاما يستحق التسجيل، ذلك أن القرآن هنا يطيل في أوصاف الكافرين و يطنب في تفصيل ما يلقون في الآخرة من عذاب وخزي وهوان، بينما يختصر ما أعد للمتقين في أنهم : {تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}.

ونرجح أن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة المقابلة في القرآن المكّي، حيث إن الكفار هم المقصودون بالخطاب، ومن ثم يؤكد القرآن بهذا التفصيل أن مواقف الكفار الظالمة وإعراضهم وصددهم لا بد أن يلقى جزاء مبينا هو كذا وكذا بالتفصيل، لعل في هذا البيان رادعا يردعهم، ويكشفهم عما هم فيه من كبر وضلال، أما المؤمنون فهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٥٦٦/٢.

(٢) تهذيب السجستاني : ١٠٠.

مطمئنون إلى موقفهم متأكدون من سلامة اختيارهم ويكفيهم هذا السلام والأمن وقت الاحتضار ودخول الجنة جزاء هذا العمل الطيب، على أن هذه الملاحظة لا تتضح إلا حين نقارن بين خطاب الكافرين في (مكة) وخطابهم في (المدينة) فإن المؤمنين في المدينة هم الأكثرية، وهم المقصودون بالخطاب بالدرجة الأولى، فلهم العناية والرعاية أما الكافرون، فقد عرف مصيرهم، طوال ثلاث عشرة سنة من القرآن المكي ومن هنا يأتي الحديث عنهم مختصراً: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۖ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۖ﴾ (١٧٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

لِلْأَبْرَارِ ۖ﴾ (١٧٨) (١) إن وصف ما أعد للكافرين هنا لا يتجاوز كلمات أربع هي (مأواهم جهنم وبئس المهاد)، ولكن وصف ما أعد للمؤمنين المتقين يستغرق - إذا أضيف إليه ما ورد في السياق (٢) قبله - مدى أكبر ويتناول تفصيلات كثيرة : جنات تجري من تحتها الأنهار، فليست جنة واحدة بل جنات، وهذه الأنهار تضيء عليها الجمال والندى والنعيم، فهي نزلهم التي أعدها الله. لكن (ما عند الله) بما تحمله هذه الجملة من معان كبيرة (خير للإبرار) إنها تفضل متاع الدنيا والآخرة جميعاً.

ويتضح ما قلته بصورة أكبر حين نعرض للمقابلة بين الكفار المعاندين والمؤمنين المتقين في هذه الآيات، وفيها مقابلة صفات الكافرين وجزائهم بصفات وجزاءات أقل عدداً في جانب المؤمنين، وذلك راجع كما قلت إلى أن الخطاب موجه بالدرجة الأولى إلى الكافرين بغية حملهم على العدول عن موافقهم الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ﴾ (١٧٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۖ﴾

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۖ﴾ (١٨٠) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ۖ﴾ (١٨١) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ﴾ (١٨٢) * مثل

(١) آل عمران ١٩٨: ١٩٦.

(٢) في الآية : ١٩٥ من نفس السورة.

الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ (هود : ١٩ - ٢٤)

فصفات الكفار هنا هي أنهم :

- ١- يصدون عن سبيل الله، ويمنعون الناس من الإيمان به.
- ٢- ييغونها عوجا، ويريدون الدين على هواهم ومنحرفا لأغراضهم.
- ٣- بالآخرة كافرون. لا يؤمنون بالبعث وما وراءه.
- ٤- ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون. أي لم يحسنوا استخدام حواسهم التي وهبها الله لهم.

وجزاؤهم :

- ١- لم يكن أمرهم معجزا لله في الدنيا بل أجل عذابهم للآخرة رجاء لإصلاحهم.
 - ٢- ليس لهم من دون الله أولياء ينصرونهم.
 - ٣- يضاعف لهم العذاب، لأنهم عطلوا حواسهم عن التفكير وتمادوا في الصد عن سبيل الله، وابتغاء الأمر معوجا فاسدا.
 - ٤- خسروا أنفسهم في الدنيا حين لم يرتفعوا من وهدة الكفر إلى جلال الإيمان.
 - ٥- ضل عنهم ما كانوا يفترون، ضاع وتبدد كذبهم وافترائهم على الله.
 - ٦- ولا جرم أنهم الأَخْسَرُونَ في الآخرة كما خسروا في الدنيا.
- وهذا التفصيل والإطناب في صفات الكافرين وجزائهم يقابله صفات محددة للمؤمنين، وجزاء واحد، ولكن الكلمات تحمل من المعاني الكثير والكثير مما يبشر به الله عباده المؤمنين فهم :

١- آمنوا ٢- عملوا الصالحات

- ٣- وأُخْبِتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ (أي اطمأنوا إليه وانقطعوا لعبادته بالخشوع والتواضع من الخَبِيت وهي الأرض المطمئنة)^(١) وهذه الصفة أي الإخبات إلى الله والاطمئنان لجانبه تقابل في رأي كل الصفات التي ورد ذكرها في الكافرين، إنها تقابل الصدود والعوج والكفر بالآخرة وتعطيل حواس السمع والبصر.

(١) تفسير النسفي : ١٨٤/٢ الحلي وشركاه. مصر، والنسفي هو الإمام الجليل العلامة أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي وقد سمي هذا التفسير (مدراك التزيل وحقائق التأويل).

أما جزاء المؤمنين فقد اختصره الله سبحانه في قوله {أصحاب الجنة هم فيها خالدون} وهو جزاء يقابل ما عدد من جزاء للكافرين.

وقد أفادت هذه المقابلة الإنذار للكافرين حتى لا يكون هناك مجال للاعتذار بعد ذلك والختم الرائع هنا هو أن القرآن الكريم يلخص هذه الموقفين بهذا المثل الذي تبدو فيه المقابلة عاملاً هاماً في الحسم بين الفريقين وعدم استوائهما في أي عرف {مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون} فالمقابلة هنا تجسيم حي وتصوير بديع يضع القضية في صورة بديهية لمن يتذكر، ففريق الكافرين أعمى لا يرى نور الحق. أصم لا يسمع نداء الإيمان وفريق المؤمنين يقابله : أنه بصير يرى وسميع يسمع فيهديه سمعه وبصره إلى الحق، إنه ليس محروماً كنظيره من استخدام حواسه في الفكر والتدبر.. وفي ذلك حفز لكل ذي سمع وبصر أن يستخدمهما في الخير والهدى.

والذي نلاحظه على الأمثلة السابقة للمقابلة أنها مقابلة في المواقف والنتائج، لا تقف عند حدود اللفظة الواحدة، والجزئية الصغيرة، بل تشمل الموقف الكلي العام (وهكذا ينبغي أن ينظر إلى الأسلوب القرآني نظرة كلية فيقف الباحث عند الآية أو الآيات التي يظهر من خلالها موقف متكامل الخصائص والسمات، له كل ما يتعلق به من العناصر والأجزاء والصفات والإيجاءات وله كل ما يميزه عن غيره، وهنا تظهر روعة الموقف وجلاله وعظمته - وتأثيره النفسي مصوراً بارزاً من خلال التراكيب والأسلوب^(١).

وهذه المقابلات التي عرضنا لها في خطاب الكافرين قد وردت بالفعل تصور مواقفهم من الدعوة الإسلامية، وتفصح مكائدهم، وتفصح عن رأيهم المكنون والظاهر في الوحي واليوم الآخر، وصفات الله. ومن ثم يقابل القرآن بين مواقفهم تلك ومواقف المؤمنين، ليكون ذلك مثلاً واضحاً لكل ذي لب وبصر.

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، للدكتور فتحي عامر : ٢٨٥.

ثالثاً : المقابلة في مشاهد القيامة :-

تمهيد :-

يوم القيامة هو اليوم الذي يبعث الله فيه الموتى من قبورهم ويحشرهم أحياء كما كانوا، لحسابهم على ما قدموا من أعمال في الحياة الدنيا.

ولهذا اليوم في القرآن الكريم أسماء كثيرة، فيسمى الآخرة أو اليوم الآخر (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾) .

ويسمى يوم القيامة لأن فيه يقوم الناس مضطربين من قبورهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣﴾ ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ ﴿٤﴾

كما يسمى بالغاشية، لأنها تغشي الناس بأهوالها، وبالساعة حين يقصد به المباغثة والمفاجأة : (لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْثَةً) ﴿٥﴾ (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْثَةً قَالُوا يَحْشَرْتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا) ﴿٦﴾ .

ويسمى أيضا بالحاقة، فهو حق لا ريب فيه، وبالقارعة التي تفرع القلوب بأهوالها وبيوم الزلزلة، تزلزل فيه الأرض والجبال والنفوس، وبيوم الدين، وبالواقعة والآفة والصاخة، وبيوم البعث، والنشور، والحساب.

في هذا اليوم يحدث انقلاب عام في نظام الكون كله : في الأرض وفي السموات، وفي الأفلاك والنجوم والكواكب، يختل نظامها، وتنفك عراها، وتكون نهاية العالم الدنيوي، وبدء العالم الأخروي.

وقد عبرت آيات كثيرة في القرآن الكريم عما سيحدث في هذا اليوم من اختلال الموازين، وخرق النواميس، نورد منها قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴿١﴾

(١) البقرة : ٤

(٢) البقرة : ٨

(٣) المطففين : ٦

(٤) القيامة : ١

(٥) الأعراف : ١٨٧

(٦) الأنعام : ٣١

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ (٥) وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٦) ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ (٧) ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٩) ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (١٠) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (١١) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (١٢) يَوْمَذِ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (١٣) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (١٤) ۞ .

إلى آخر الآيات التي تصور هذا الانقلاب الكوني يوم القيامة، وهي كثيرة في القرآن الكريم وكلها توحى بأن النهاية ستكون مروعة كما صورتها الآيات، فالأرض تزلزل وتندك. والجبال تنسف وتبس وتبخر، والكواكب تتطاير وتتناثر وتتصادم، ويجمع بين الشمس والقمر، ولم يكن ينبغي لها أن تدرك القمر في الدنيا، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. وتنشق السموات، وتنفجر البحار وتسجر. ويصعق من في السموات ومن في الأرض، ثم إذا بالجميع قيام من قبورهم ينظرون، ويهدأ كل شيء ثم تشرق الأرض بنور ربها، ويصبح كل شيء، جاهزا للحساب والجزاء.

وقد حرص الإسلام على أن يجعل الإيمان بيوم القيامة قرين الإيمان بالله، فالمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا آمن باليوم الآخر ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ... ﴾ (١) وفي الحديث الشريف أن جبريل عليه السلام سأل الرسول - لكي يعلم المسلمين ما الإيمان؟ فقال الرسول : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..... الخ الحديث (٧).

وترجع عناية الإسلام بغرس الإيمان باليوم الآخر في النفوس، إلى أن الإيمان به يجعل المرء دائما على الطريق المستقيم، والإنسان إذا لم يعتقد باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، فلن يكون هناك وازع يزرعه عن الشر والفساد، والميل مع نزعات

(١) التكويد ٥-١

(٢) الانفطار ٤-١

(٣) الواقعة ٦-٤

(٤) القارعة ٥-٤

(٥) الزلزلة ٥-١

(٦) البقرة ١٥٧

(٧) صحيح البخاري : ٢/١ كتاب الشعب ط دار الشعب مصر.

وأهوائها، ولهذا كان المشركون شديدي الحرص على إنكار هذا اليوم، وعدم التصديق به
 (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا
 تُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ ١).

إن الإنسان إذا اعتقد أنه مجزي على ما قدم يوما ما، فإن ذلك الاعتقاد سيدفعه إلى
 فعل الصالحات، وترك المنكرات، وإصلاح النفس والمجتمع من حوله، وبذلك يكون
 الإيمان باليوم الآخر قوة إيجابية دافعة نحو الخير والسلام، ومن ثم تتحقق الغاية من
 رسالة الإسلام، ألا وهي الخلاقة الصالحة في الأرض.

ولقد أفاض القرآن الكريم في وصف مشاهد القيامة، ونقل إلينا صوراً حية مما
 سيحدث في هذا اليوم.

واعتمد هذا الوصف بدرجة كبيرة على أسلوب المقابلة، ذلك لأن يوم القيامة هو
 بحق - يوم المقابلة، يقابل الإنسان عمله، ويواجه مصيره، ويتقابل ما أسره في نفسه مع
 ما أعلنه ويتقابل التابعون المستضعفون مع الأقوياء والمستكبرين ويتقابل أصحاب اليمين
 وأصحاب الشمال، ويتقابل المؤمنون مع الكافرين، ويتقابل المؤمنون متكئين على سرر
 موضونه ويتقابل الأبرار مع الفجار، والقاتل والمقتول، والظالم والمظلوم. وأسلوب
 المقابلة هو الأسلوب الأمثل لعرض هذه الصور وتلك المشاهد، لكي يعتبر بها في الدنيا
 من يعتبر إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد
 ٢. ﴿٢٨﴾

وسوف نعرض لبعض صور المقابلة في مشاهد القيامة، وفي مواقف مختلفة مع
 الأخذ في الاعتبار أن تلك المشاهد أكبر من أن تحدها هذه الجزئية الصغيرة في هذا
 البحث :

١- في مشهد إيتاء الكتب :

يخصي الله التقدير أعمال عباده في الدنيا ويسجلها عليه الملكان المتلقيان رقيب
 وعتيد ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

(١) المؤمنون : ٣٥ - ٣٧

(٢) ق : ٣٧

حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ .

وفي يوم القيامة تنشر هذه الصحف على الملائكة، ويعطي كل إنسان كتاباً دون فيه كل صغيرة وكبيرة في حياته (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١٧﴾) ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٨﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٩﴾ .

فمن كان عمله صالحاً أعطى كتابه بيمينه، ومن كان عمله سيئاً يقذف إليه كتابه وقد غلّت يمينه إلى عنقه وتسلمه بشماله من وراء ظهره وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد في أكثر من موضع، وكانت المقابلة هي جوهر الصورة، ولب المشهد، وبغيرها لم يكن المشهد مصوراً أو موثقاً .. وهاك نموذجين من هذا المشهد:

أ- قال تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ ﴿١﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٢﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٣﴾ وَنَنْقُلِبُ إِلَيْهِ أَهْلَهُ مَسْرُورًا ﴿٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿٥﴾

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٦﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿٧﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٨﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿٩﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٠﴾

في هذه الآيات مقابلة بين صورتين : صورة المؤمن الكادح المجتهد في عمله، المستيقن بقاء ربه في الآخرة، ولقاء هذا الكدح مدونا في كتابه - فهو يقضى حياته في كدح ونصب ومراقبة لله في كل قول أو فعل ومن ثم يؤتي كتابه بيمينه، ويحاسب حساباً سهلاً هيناً، فيجازي على حسناته، ويتجاوز عن سيئاته، ثم يلقي أهله وصحبه

(١) ق: ١٦ - ١٨

(٢) الزلزلة ٧-٨

(٣) الإسراء: ١٣ - ١٤

(٤) الانشقاق: ٦-١٥ و معنى (يحور) : يرجع ، قال لبيد : (يحور رمادا بعد إذ هو ساطع) و عن ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى يحور، حتى سمعت أعربية تقول لبنية لها : حورى أى ارجعي (انظر الكشف ٢٣٥/٤) .

(٥) مدارك التزويل وحقائق التأويل للنسفي، ٤/٣٤٣ .

وهو مسرور مبتهج بالنجاح الذي حققه، والرضا الذي ناله، لقد تعب وشقى في الدنيا وجاهد نفسه وكفها عن كثير من الملذات والشهوات، وها هو الآن سعيد جذلان. ويقابل ذلك صورة هذا الذي قضى حياته الدنيوية في اللهو والسرور، ظانا أنه لن يرجع إلى ربه فإذا به يحور، ويعطى كتابه بشماله من وراء ظهره وقد غلت يمينه إلى عنقه^١، وهو يصرخ : يا ثبوره فقد تحقق أنه لا محاله هالك، ومَصْلَى في سعي جهنم.

لقد استغرق اللهو والغفلة والسرور كل حياته، وها هو الآن على هذه الصورة من الخزي والذل والهوان.

وبالإضافة إلى المقابلة في الصورة الكلية، والمشهد العام لكلا الفريقين، فإن هناك مقابلات جزئية في داخل الإطار العام للمشهد، تمثل النسيج الحي للصورة الكلية، هذا النسيج الذي يعطيها التماسك والترابط، ويضفي عليها لمسات من الجمال الفني المعبر والمؤثر، وهذه المقابلة الجزئية نلمحها بين إعطاء الكتاب باليمين وإعطائه من وراء الظهر، وبين الحساب اليسير والسرور في مقابل الثبور والاصطلاء بالسعير، وبين سرور الكافر في الدنيا وشقائه في الآخرة، وشقاء المؤمن وكدحه في الدنيا وسروره في الآخرة.

ولم يكن لهذا المشهد أن يعطي التأثير المطلوب بغير أسلوب المقابلة، فهي وحدها التي وضحت الفرق بين الفريقين، ونهاية كل فريق منهما.

ب- نموذج آخر للمقابلة في مشهد تسلم الكتب، ولكن المقابلة فيه تختلف عن سابقتها إذ تمتاز هنا بالبسط والتفصيل في عرض المشهد بكل دقائقه وجزئياته، ليتضح لكل ذي لب أن الطرفين لا يستويان :

قال تعالى : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ﴿٢﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٣﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٤﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٥﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُنَالِيَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٨﴾ : ﴿٩﴾ وَلَمْ أَذَرَ مَا حِسَابِيَةَ ﴿١٠﴾ يُنَالِيَنَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿١١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿١٢﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿١٣﴾ خُذُوهُ فَعُلُوهُ ﴿١٤﴾

(الحاقة : ١٨-٣٠) ويبدأ هذا المشهد بعرض الخلائق جميعهم على الله سبحانه، وقد كشف منهم ما كان خافيا (فالكل مكشوف الجسد والنفس والضمائر والعمل والمصير، ويتجرد الإنسان من حيطته ومكره، ومن تدبيره وشعوره، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه، وإنه لامر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء، أن يقف الإنسان عريان الجسد والنفس والمشاعر والتاريخ أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الإنس والجن والملائكة وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع)^١.

وبعد هذا العرض المكشوف أمام الجميع، يعطي كل واحد كتابه، وهنا ينقسم هذا المعرض إلى قسمين، وتبدأ المقابلة عملها، فتصورهما متقابلين في المشهد والشعور والقول والمصير :

فريق المؤمنين وقد أعطى كتابه باليمين، يقابله فريق الكافرين المكذبين أوتى كتابه بشماله.

ويطير الفريق الأول فرحا وبشرا، لا يسعه المكان من السرور فيجري ليرى أصحابه كتابه، ويدفعه إليهم ليقروا، ولا ينتظر حتى يقرؤوه بأنفسهم، بل يبادر قائلا : لقد حسبت حساب هذا اليوم فاستعددت له بالعمل الصالح فنجاني الله من هوله.

ويقابل هذا المشهد وتلك المشاعر فريق الكافرين، وقد جلله الخزي والعار، فيتمنى - نادما - لو لم تأت هذه اللحظة التي افتضح فيها أمره ويود لو لم يدر ما حسابه، ويتفجع أسوان نادما : ليتها كانت القاضية القاطعة لأمرى فلم أبعث لهذا الحساب.

وبعد هذا التقابل في المشهد والمشاعر والقول بين كلا الفريقين، يأتي أمر السماء إليهما بالانصراف من ساحة الحشد إلى حيث المصير الذي أعد لكل فريق، والتقابل الذي سنشهده في المصير يعطى صورة واضحة عما يستحقه كل منهما من جزاء ويقدم الأسباب التي من أجلها نال كل منهما ما ناله :

ففريق المؤمنين أصحاب كتاب اليمين، يلقي من التكرم النفسى والنعيم المادي والحسى ما يعوضه عما بذله في الأيام الخالية من جهد الطاعة ومشقه الالتزام، فهو في عيشة راضية، ذات رضا يرضى عنها صاحبها، وفي أعلى منزلة في الجنان ومع ذلك

(١) في ظلال القرآن : ٣٦٨٠/٦

فهي دانية القطوف (ينال منها القائم والقاعد والمتكيء^١) والتقابل بين الجنة العالية والقطوف الدانية يوحى بالمتعة والنعيم والعيشة الراضية التي يحياها أصحاب اليمين في الجنة.

وفي مقابل ذلك، يصدر الأمر العلوى لزبانية جهنم أن يأخذوا الكافرين أصحاب كتاب الشمال عنوة، ويغلونهم ويوثقون قيدهم، ثم يسلكونهم في سلسلة طويلة يبلغ طولها سبعون ذراعا، ويسحبون إلى نار جهنم وبئس المصير (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) في مقابل العيش الرضى والجنة العالية والقطوف الدانية.

ولكن المشهد لا يتركنا إلا وقد عرض علينا سبب هذا المصير، والتقابل في السبب أيضا جزء من نسيج هذه المقابلة الكبرى بين الفريقين.

لقد كان جزاء المؤمنين ما كان بسبب ما قدموا في الأيام الخالية واستحق أصحاب الشمال هذا الجزاء، لأنهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم، ولا يحضون على طعام المسكين.

وإذا كانت القطوف الدانية هي طعام المؤمنين في الجنة، فإن الغسلين^٢ هو طعام الخاطئين من أهل النار.

وإذا كان التكريم والنعيم هو ما قبول به المؤمنون، فإن التقريع والتوبيخ، والفضيحة على رؤس الأشهاد، والإتهام بالجحود والبخل - كل هذا هو ما يقابل به الكافرين. وهكذا لعبت المقابلة دورا بارزا في تصوير المشهد، حين أعطت كل جانب حقه من الوصف مقابلا بالجانب الآخر.

لكن الملاحظ هنا أن المشهد في جانب الكافرين ممتد ومتسع، وذلك لأن الجمال الفني، والتأثير الوجداني، والغرض الديني، كل ذلك يتطلب هذا التطويل حتى يتضح هذا الجمال، ويعمل التأثير عمله في الوجدان ويتحقق الغرض الديني من سوق المشهد (وهنا يشترك جرس الكلمات، وإيقاع العبارات مع السلسلة التي ذرعها سبعون

(١) تفسير النسفي : ٢٨٧/٤

(٢) الغسلين ما يخرج من الثوب ونحوه بالغسل، ويقصد به هنا : ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره - المعجم الوسيط. مادة (غسل) ط ٢ دار المعارف مصر ١٩٧٣.

ذراعاً - وذراع واحدة تكفي - يشترك هذا كله في إطالة الموقف أمام النظارة وفي حسهم أيضاً؛ ليتم التناسق بين المشهد المعروض والتأثير المطلوب^(١). ولعل هذا التطويل في وصف مشاهد العذاب مقصود قصداً للتخويف والترهيب، حتى يرعوي الكفار عن كفرهم حين يرون صورهم في الآخرة ماثلة أمامهم بهذا التفصيل.

٢- في مشهد الميزان :

ورد ذكر الميزان، والموازين، والقسطاس في القرآن الكريم، للدلالة على عدل الله المطلق في حساب العباد على ما قدموا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ^(٢). وقد خاض العلماء في حقيقة الميزان، هل هو مادي أو معنوي؟ وكيف يزن؟ وما الموزون؟ ولكن المتحفظين منهم قالوا (يجب الإيمان به ونمسك عن تعيين حقيقته)^(٣).

ونحن نرجح أن يكون رمزا لعدل الله في محاسبة عباده.

وكما رأينا الناس في مشهد تسلم الكتب قد انقسموا إلى أهل اليمين وأهل الشمال، نجد ميزان العدالة هنا يقسمهم إلى فريقين متقابلين، لا يستويان أبداً في المترلة والمآل، لأن عمليهما لم يتساويا في الميزان.

والفريقان هما : من ثقلت موازينه ورجحت لأنها مملوءة بصالح الأعمال ، ومن خفت موازينه وخلت من الطيبات. وهذه بعض النماذج لمشهد الميزان :

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٥﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٦﴾ ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

(١) مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب : ١٨٥ دار الشروق.

(٢) الأنبياء : ٤٧

(٣) انظر شرح البيجورى على الجوهرة ، المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد ، للإمام إبراهيم البيجورى ص ١٦٥ ط صبيح ، القاهرة ١٩٥٤

(٤) المؤمنون : ١٠٤

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

والمقابلة في الآيات، توضح أن المؤمنين قد ثقلت موازينهم بالأعمال الصالحة ففازوا في الآخرة بالفلاح، (وفي المعاجم اللغوية : أفلح الرجل : ظفر بما يريد، وأفلح المؤمن : فاز بنعيم الآخرة) ولعمري ما يريد المؤمن أكثر من الفوز برضا الله ونعيم الآخرة.

ونلاحظ أنه في آيات الميزان : يكتفي القرآن بإثبات الفلاح أو العيش الرضى لمن ثقلت موازينه، ولكنه في الجانب المقابل يزيد ويفصل في وصف العذاب الذي يلحق بمن خفت موازينه، ففي آيات (المؤمنون) نجدهم قد خسروا أنفسهم وذلك هو الخسران المبين، ثم ألقوا في نار جهنم تلعفهم بلهبها، فتعبس وجوههم وتتلقص شفاههم عن أسنانهم^١، ويتلقون من التقريع والسخرية والزجر ما يزيد في آلامهم وشقائهم :

(تَلْعَفُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَسْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾) ﴿١٣﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٤﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٦﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٨﴾) ﴿١٩﴾

ب- وفي سورة القارعة نرى مشهدا آخر، مصورا ومجسما يفيض بالسخرية والاستهزاء وتتميز صورته عن سابقه بالحدة والطرافة والتشخيص الحي قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿٥﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿٦﴾) ﴿٧﴾

إنه يكفي لمن ثقلت موازينه هذه العيشة الراضية، ترضيه وتحقق له كل رغباته. لكن الجانب المقابل لا يكفيه مجرد العذاب ومن ثم فإن روح السخرية والتجاهل تشيع في جوانب الحكم عليه، إن أمه ومأواه هاوية، قهوى به في الحضيض، ويؤكد المرحوم الأستاذ سيد قطب هذه السخرية حين يلحظ التقابل بين خفة الموازين وارتفاع كفتها

(١) الأعراف : ٨ - ٩

(٢) كلمات القرآن : ٢١٥ في تفسير معنى (كالهون).

(٣) المؤمنون : ١٠٤ - ١١٠

(٤) القارعة : ٦ - ١١

وبين هوي المأوى إلى الحضيض، وكذلك ينم أسلوب الاستفهام في قوله وما أدراك ما هيه ؟ عن الإمعان في التجاهل والتجهيل، لأنه لما كان التعبير بـ فَأَمُّهُ هَاوِيَةً ﴿٦﴾ غامضاً لم يسبق وروده، وهذا الغموض مقصود للتحويل بالمصير المجهول، فقد أعقبه سؤال التجهيل وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَّة ﴿٦﴾ ؟ ثم التفسير : نَارُ حَامِيَةٍ ﴿٦﴾^١.

ج- وميزان الله سبحانه ميزان دقيق وحساس { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ }^٢، والتقابل بين الثقالين هنا، وكذلك بين ذرتي الخير والشر، يؤكد تلك الدقة وهذه الحساسية، فهو يزن الذرة التي لا وزن لها في عالم الماديات فما بالك بذرة الخير والشر وكتلتهما معنوى .

د- وأعمال الكافرين لخفتها وعدم ثقلها تتطير كالهباء تذروه الرياح وفي مقابل ذلك فإن أعمال المؤمنين لثقلها واطمئنانها واستقرارها كانت سببا في استقرارهم وحسن مقيلمهم وهم ناعموا البال في ظلال الجنة الوارفة، بينما يصيب الكافرين من الهلع والفرع ما يجعلهم يصرخون بصيحتهم المعهودة حين تنزل بهم نازلة : حجرا محجورا^٣ : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١١﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْشُورًا ﴿١٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٣﴾^٤.

إن المقابلة في مشهد الميزان أضفت على عملية الحساب طابعا تصويريا مجسما، ونقلت إلينا المشهد في الدنيا، فكأننا نراه ونعيشه في الآخرة، وهذا من بلاغة المقابلة في هذا الباب.

٣- في مشهد الوجوه :

نتناول هنا المقابلة في مشهد وجوه الخلق يوم القيامة، أو بمعنى آخر التأثير المتقابل ليوم القيامة على وجوه الناس.

(١) مشاهد القيامة في القرآن : ٦٥

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٣) تفسير الفخر الرازي - المشتبه ب (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب) للإمام محمد الرازي
٧١/٢٤٣ ط ١ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١، أنظر ترجمة الرازي في
الأعلام ٣١٣/٦ وفي وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ - ٢٥٢.

(٤) الفرقان : ٢٢ - ٢٤

إن وجه الإنسان هو المرأة التي تنطبع عليها أحاسيسه الداخلية وما يدور في نفسه من هواجس (ومهما يحاول المرء إخفاء المظاهر الخارجية لانفعاله ليتصنع الهدوء والثبات أو ليتجنب الانكشاف والاعتراف كالمتهمة بالقتل، [فالصب تفضحه عيونه]. كما يقول الشاعر وقد أثبتت الدراسات النفسية أنه لا يمكن لأي شخص أن يخفي انفعالاته - واخترعت أجهزة لكشف محاولة الكذب والخداع)^١.

ومن هنا كانت وجوه العباد يوم القيامة دليلا على هويتهم، ومعلما من معالم عقيدتهم وأفعالهم، وفي الامثال (تخبر عن مجهوله مرآته)^٢.

ولا شك أن الفزع والهول سوف يصيب العباد جميعا لحظة البعث وساعة القيامة، ولكن عندما يمن الله على خلقه ويعطيهم صحيفة أعمالهم، فلسوف يطمئن المؤمنون ويزيد فزع الكافرين، وهنا تظهر على الوجه أمارات كل فريق، ويصبح مجرد النظر إلى الوجوه كافيا للتعرف على مصير أصحابها.

ولقد بين لنا القرآن الكريم أن وجوه المؤمنين المتقين المحسنين سوف تكون بيضاء مسفرة، يعلوها الاستبشار وتنطق بالضحك، إنها ناعمة ناضرة لا يرهقها قتر ولا ذلة ولا يمسها سوء.

وفي مقابل ذلك سوف تكون وجوه الكافرين المكذبين مسودة كأنما أغشيت قطعاً من الليل مظلماً، باسرة كالحة ذليلة، خاشعة، يعلوها الغبر ويكسوها القتر والنصب. وهذه بعض النماذج لهذا الجانب :

أ- في قوله تعالى : كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠٨﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢١٠﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢١١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ ﴿٢١٢﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢١٣﴾^٣.

تبين لنا المقابلة الفرق الشاسع بين وجوه تكتسى بالنضارة والإشراق، لأنها تنظر إلى جلال الله وكماله، والنظر إلى جلال الله هو تلك الزيادة التي عبر عنها القرآن في آية

(١) انظر علم النفس ودراسة التوافق، د. كمال دسوقي : ٢٠٨ ط ٢ من سلسلة تكنولوجيا العلوم الاجتماعية، مصر ١٩٧٦.

(٢) المنتخب من أدب العرب : ١٩٨/٤ جمعه وشرحه : أحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وآخرون ط دار الكتاب العربي في مصر ١٩٥٣

(٣) القيامة : ٢ - ٢٥

أخرى بقوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾^١. وكيف يلحقها القتر أو الذل وقد رضى الله عنها فتجلى لها ؟

ووجوه باسرة شديدة الكلوح والعبوس والتقطيب، مهمومة بما يعمل في داخلها من التوجس والتوقع لكارثة تقصم فقارها. والمقابلة بين الفريقين والوجهين تظهر إلى أي مدى من السعادة والرضا وصل المؤمنون، وإلى أي درك من الكدرة والتنغيص وسوء المنقلب وصل الكافرون، وما نظن أن أسلوبا آخر غير أسلوب المقابلة بقادر على تصوير هذا المشهد من مشاهد القيامة.

ب- وهذه مقابلة أخرى بين الوجوه، تمتاز عن سابقتها بالإطناب في وصف الملامح وذكر الأسباب التي من أجلها وجد التقابل والتفاوت بينهما ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْثِيَّةِ ۖ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۖ غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۖ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۖ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَائِنَةٍ ۖ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۖ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنَىٰ مِنْ جُوعٍ ۖ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لَّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۖ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۖ وَنَمَازٌ مَّصْفُوفَةٌ ۖ وَزُرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۖ﴾^٢.

إن التقابل هنا ظاهر وواضح بين الوجوه الخاشعة الذليلة المرهقة والوجوه الرقيقة الناعمة الراضية عن سعيها.

وبين النار الحامية تصلى هذه الوجوه بلظاها، وتقلق أصحابها بصخبها وزفيرها والجنة العالية بموائها الرطيب، وهدوئها الذي ينسجم مع هدوء أصحابها ورضاهم. وبين شراب الكافرين، حيث يسقون من عين بلغت أنها وغايتها في الحرارة، لا بارد ماؤها ولا كريم، ويطعمون الضريع المر المنتن الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع. وشراب المؤمنين الرطيب المستخرج من عين عذبة، ماؤها جار يتجدد ومقدم في أقداح من فضة يجدونها أنى شاءوا معدة للشراب الطهور. وبين مقام الكافرين في داخل جهنم يصطلون بنارها.

(١) يونس : ٢٦

(٢) الغاشية : ١ - ١٦، والغاشية هي الداهية تغشى الناس بشدائدها، وتلبسهم أهواها يعني القيامة. من قوله تعالى ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ وقيل : النار، من قوله تعالى : ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ : انظر الكشف : ٢٤٦/٤.

ومقام المؤمنين على الأسرة المرفوعة تكريماً، والنمارق المصفوفة، والبسط المفروشة.

من هذه المقابلات يتضح أنه قد اجتمعت للمؤمنين كل العوامل النفسية والمادية التي تجعل وجوههم منبسطة الأسارير ناعمة راضية، واجتمعت للكافرين كل عوامل النصب والشقاء والقلق التي تجعل وجوههم خاشعة ذليلة مهمومة.

وهذه المقابلة الكاملة في الجزئيات هي المادة الأساسية التي تكون الصورة الكلية لهذا المشهد المتقابل في تناسق عجيب يتميز به الأسلوب القرآني.

ج- ومثل هذا التقابل في مشهد الوجوه نلاحظه بسهولة في مثل قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٨﴾ وَوُجُوهُ يَوْمَ ذُرِّيَّتٍ مُّسْفَرَّةٌ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٠﴾ وَوُجُوهُ يَوْمَ ذُرِّيَّتٍ مُّسْفَرَّةٌ ﴿٤١﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٣﴾ ٢

٤- التقابل في المصير :-

رأينا فيما سبق تقابلا في مشهد تسلم الكتب، وعند الميزان، وكذلك التقابل بين الوجوه، وسنعرض فيما يلي لمشاهد متقابلة في مصير المؤمنين والكافرين، من لحظة استقبالهم على الأبواب إلى حيث يستقر كل فريق في مكانه في الجنة أو النار ثم نعرض لمشهد من التقابل النفسي.

(١) الزمر : ٦٠ - ٦١

(٢) يونس : ٢٦ - ٢٧

(٣) عبس : ٣٨ - ٤٢

أ= في مشهد الاستقبال :

تعرض سورة الزمر هذا المشهد بعد أن ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض

من الأحياء، ثم ينفخ في الصور مرة أخرى فيخرج الجميع من قبورهم قياما ينظرون، ويتجلى نور الله على البسيطة وتوفي كل نفس ما عملت .. وعند ذلك تستقبل النار أصحابها بكل مظاهر الازدراء والاحتقار والسخرية، وتستقبل الجنة أصحابها بكل مظاهر التكريم والاحترام : قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٩﴾ ١ .

نلمح هنا أن الكافرين يستقبلون بالسخرية والتهكم، فهم يساقون إلى جهنم ، (يدفعون إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسرى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل^٢) ولا يتركهم خزنة جهنم إلا وقد سقلوهم بأسئلة التبكيت والتقريع التي لا يملكون لها إجابة إلا الاعتراف بذنبهم، ثم يؤمرون بالدخول في أبواب جهنم للخلود فيها، فأصبح به من مثوى للمتكبرين.

وفي مقابل هذا العنف والاستهزاء (تساق مراكب أهل الجنة، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان. كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعض الملوك)^٣. وهذا هو الفرق بين السوقين، والمقابلة بينهما أيضا مع ما بين الفعلين من جناس تام.

(١) الزمر : ٧١ - ٧٤

(٢) الكشف : ٤١١/٣

(٣) تفسير النسفي : ٦٧/٤

ويسير أهل الجنة في هذا المركب الفخم، فيجدون الجنة وقد فتحت أبوابها أمامهم استعداداً لدخولهم، وهنا يجدون كل مظاهر الترحيب والاحترام، ولا تلقى عليهم أسئلة من أي نوع، بل يحفهم خزنتها بالسلام والأمان وطيب القول، ويدعون للدخول والخلود في أطيب مقام، وعندئذ يتوجهون بالحمد والثناء والإكبار لله الذي صدقهم وعده، وترجع معهم الملائكة هذا الحمد والتسبيح من حول العرش فيتجاوب المكان كله بهذا القول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويعبق الجو بهذا الأريج الطيب.. كل ذلك في مقابل زفير جهنم واصطراخ أهلها ونحاصمهم.

وهناك ملمح لطيف أشار إليه الزمخشري في الكشف في الفرق الدقيق بين استخدام الواو مع (فتحت) في جانب أبواب الجنة وعدم استخدامها في جانب أبواب جهنم وهو أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، فلذلك جئ بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاوزها وقد فتحت أبوابها^١.

ونضيف إلى ذلك أنه ربما أغلقت أبواب النار فلا تفتح إلا وقت الدخول فيها حتى لا يخرج منها وزفيرها وزخمها^٢ وضررها فيصيب غيرهم، بينما تفتح أبواب الجنة قبل الدخول، لأن ريحها طيب يتمناه كل إنسان وحتى يراها من بعيد أهل النار فيزداد ألمهم وندمهم.

ب- في مشهد من الداخل :

رأينا في النموذج السابق تقابلاً بين مظاهر الاحتقار ومظاهر التكريم عند استقبال الفريقين، ونعرض هنا لنموذج للتقابل في هذه المظاهر بينهما ولكن في داخل الجنة وفي داخل النار :

جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٤١﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٤٢﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ
الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٣﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ ﴿٤٤﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) الكشف : ٤١١/٣.

(٢) في معجم الوسيط : زخم اللحم ونحوه زحماً وزخمة : خبث رائحة وأنتن.

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْنَذِيرُ فذوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

إن صورة الأمن والراحة ممثلة في جنات عدن وفي دار المقامة وذهاب الحزن والشقاء تقابلها صورة القلق والاضطراب وئمني الموت للراحة دون جدوي.

ونعمة الشكر والدعاء والحمد تقابلها ضجة الاصطراخ وأصوات الاستغاثة.

ومظهر العناية والتكريم المادي والنفسي يقابله مظهر الإهمال والتأنيب.

(والجرس اللين والإيقاع الموسيقى الهادئ الناعم الرتيب، حتى أن لفظ (الحزن) لا يتكأ عليه بالسكون الجازم، بل يقال (الحزن) بالفتح للتسهيل والتخفيف المنسجم مع جو الراحة والهدوء.

يقابله الجرس الغليظ، والإيقاع العنيف المختلط الأصوات من شتى الأرجاء وهم يصطرخون فيها، فجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس صورة من أصوات المنبوذين في جهنم بحشرجتها وغلظها متناوحة من شتى الأرجاء)^٢.

وبهذا التقابل يتم التناسق في الجزئيات والكليات على السواء ويظهر المشهد منسجما متكاملا.

على أن هذه الصور المتقابلة التي عرضتها الآيات هنا إنما تأتي لتؤكد ما عرض في سياق السورة من الحديث عن عدل الله المطلق، وعدم استواء الكفر والإيمان، كما لا تستوى المتناقضات الكثيرة في الحياة.. مثل قوله تعالى^٣، وقوله وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى

وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣٨﴾

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٣٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٤٠﴾

وقبل أن تغادر هذا المشهد إلى غيره، نحب أن نناقش ما أثير حول ما ذكره الأستاذ سيد قطب من اشتراك الجرس الغليظ للفظ يصطرخون في استحضار صورة من أصوات المنبوذين في جهنم بحشرجتها وغلظها متناوحة من شتى الأرجاء. ذلك أن

(١) فاطر : ٣٣ - ٣٧

(٢) أنظر : مشاهد القيامة في القرآن : ١٠٠

(٣) فاطر : ١٢

(٤) فاطر : ١٩ - ٢٢

المرحوم سيد قطب يرى أن القرآن الكريم يستخدم ألفاظا مصورة وأن التصوير هو القاعدة الأساسية في تعبير القرآن، سواء أكان ذلك على مستوى العبارة الكاملة أو اللفظ الواحد وهو في تفسيره (في ظلال القرآن) وفي كتابه (التصوير الفني في القرآن) يستشهد على صحة رأيه هذا بالكثير من الأمثلة كما رأينا في لفظ (يصطرخون) وكما نلمح في كلمة (اثاقلتم) من قوله تعالى {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٦٨﴾} حيث ترتسم على الفور صورة الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، وكما في جرس كلمة (ليبطئن) من قوله تعالى {وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيَبْطِئَنَّ} من إحساس بالتبطئة مصورة حتى إن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل ببطء إلى نهايتها^(١).

فأستاذنا الدكتور عفت الشرقاوي في كتابه (الفكر الديني في مواجهة العصر) ينتقد هذا الاتجاه في التفسير تحت عنوان [الزعة الانطباعية في التفسير] لأنه يعطي للتذوق الذاتي للنص أولوية كبرى على حساب التحليل الموضوعي له، ونحن معه في أن التوازن بين حقيقة النص وموقعه على النفس مطلوب، حتى لا يخلق المتأولون بوجدانهم الخاص مترفعين عن كل قيد لغوي يرتبط بقواعد الكلام العربي من جهة، أو تاريخي يتعلق بمناسبات التزول من جهة أخرى^(٢). ونحن معه أيضا في عدم بحارة المرحوم الأستاذ سيد قطب على طول الخط - في دلالة جرس اللفظ على الصورة الخارجية، لأن الألفاظ قد تتصف بالإثارة الوجدانية دون ما تصوير حسي.

أما ما استشهد به في هذا المجال من كلام للدكتور شكري عياد حول الرابطة بين جرس اللفظ ومدلوله، فإن لنا بعض التحفظ عليه، ذلك أن الدكتور شكري عياد يرى (أن الألفاظ - وإن لم تخل من محاكاة للواقع الخارجي الملموس - ليست صورة مطابقة لذلك الواقع، بل هي في مجموعها ردود أفعال له - فإذا ذهبنا نلتمس رابطة مطردة بين جرس اللفظ ومدلوله، ضللنا في مطاوي النفس البشرية، ولم نهتد إلى أصل يعتمد عليه

(١) انظر المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع في كتاب التصوير الفني في القرآن ص ٦٨ وما بعدها.

(٢) انظر هذه القضية في كتاب : الفكر الديني في مواجهة العصر للدكتور عفت الشرقاوي تحت عنوان (الزعة الانطباعية في التفسير).

في تقرير هذه الرابطة، وإن الألفاظ تفهم بما يرتبط في ذهن قائلها أو سامعها من تجارب نفسية أكثر مما تفهم بصورها الحسية^(١).

ونحن نرى أن هذا القول - إذا انطبق على الآداب والألفاظ البشرية - فلا يصح أن ينطبق على لغة القرآن الكريم وهي كلام الله الذي لا يستطيع مسلم أن يزعم أنه ردود أفعال للواقع، أو أن ألفاظه مرتبطة بتجارب نفسية لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا. وقد نسب الأستاذ الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد إلى أن القرآن (صادر عن محض قدرته تعالى ظاهرا .. وباطنا، بحيث لا مدخل لوجود آخر بوجه من الوجوه، سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره، والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغيير والتبديل إليه، وليس في القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب البشر في وجوده ما يمس شرف نسبه، بل ذلك غاية ما دعا الدين إلى اعتقاده، فهو السنة، وهو ما كان عليه النبي وأصحابه، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلاله)^(٢).

ومعنى ذلك أن القرآن بألفاظه وتراكيبه ومجموع نظمه له طبيعة خاصة تخالف ما عهدناه من لغة البشر، وهي طبيعة لا تدرك إلا بالمراس الطويل، ولا تتأني إلا لمن يعايش القرآن ويستروح معانيه، تلك المعاني التي لا تقف عند حد معين، بل تفيض وتزيد كلما زاد البحث عنها وفاض وهي في كل مرة جديدة وبلغه، وليس في هذا حجرا على أرباب البلاغة بل هي دعوة إلى المزيد من التعمق والبحث للوصول إلى فهم القرآن وإدراك مرامييه.

ج- في مشهد نفسي :

ورد في سورة الفجر تقابل بين الحالة النفسية التي سيكون عليها أهل النار والحالة التي سيكون عليها أهل الجنة في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۚ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۚ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۚ وَلَا

(١) انظر "من وصف القرآن ليوم الدين والحساب" : ٩٧ مخطوط للدكتور شكري عياد بمكتبة جامعة القاهرة.

(٢) انظر رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده : ٣٤ ط صبيح وأولاده سنة ١٩٦٥

يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٣٠﴾ يَأْتِيَتْهَا النُّفُسُ الْمُظْمِئَةُ ﴿٣١﴾ أَرْجِعْنِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً ﴿٣٢﴾

فَأَدْخَلَنِي فِي عَبْدِي ﴿٣٣﴾ وَأَدْخَلَنِي جَنَّتِي ﴿٣٤﴾. الفجر : ٢١ - ٣٠

والتقابل هنا يبين الجو النفسي الرهيب الذي يغشى الكافرين بسبب الفزع الذي يصيبهم والذي تدك فيه الأرض دكا دكا، وترسمه صورة الملائكة في صفوف منتظمة أمام رب العزة، فيتذكر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الذكرى ولا يجدي الندم. في هذا اليوم الذي يجاء فيه بحهم وزبائيتها، لا يعذب أحد كعذاب الله ولا يوثق أحد كوثاقة ونلاحظ أن بناء الألفاظ و موسيقاها الرنانة تساعد في إيقاع الرعب والفزع في نفوس أهل النار وفي الجانب المقابل نرى الطمأنينة تبعث من كل جانب، فينادي المؤمنون نداء رقيقا أن يرجعوا راضين مرضيين إلى رضوان ربهم أحرار طلقاء في مقابل الوثاق المحكم لأهل النار، ويدخلون في عباد الرحمن ممتزجين بهم في صفاء ومحبة إلى جنة الرضوان. ففي مقابل جهنم بصحبها وضجيجها تبدو الجنة التي يزيد في قدرها إضافتها إلى الرحمن (جنّي)

وكما لا حظنا أن بناء الألفاظ وإيقاعها يبعث الرعب والخوف في نفوس أهل النار، نلاحظ في المقابل أن الألفاظ والموسيقى في جانب أهل الجنة تمتاز بالهدوء والاسترخاء الذي يناسب الطمأنينة والرضا الذي يعيشه أهل الجنة.

٥- التقابل في المشاهد الحسية : (صور من النعيم والعذاب)

في حديث القرآن الكريم عن القيامة ومشاهدها يرد ذكر بعض المظاهر التي يغلب عليها الطابع الحسي كألوان النعيم التي يتلذذ بها أهل الجنة من مأكّل ومشرب وملبس ومقام. وفي مقابل ذلك يذكر ما أعد للكافرين من صنوف العذاب التي يشقى بها أهل النار، وهي صنوف وألوان يغلب عليها الطابع الحسي أيضا كالطعام والشراب وغيرها. وهذا النوع من المقابلة يتكرر كثيرا في السور المكية، ولكنه في كل مرة يأتي ليضيف جديدا، أو يؤكد معنى أو قيمة تحتاج إلى تأكيد، ذلك أن التكرار في القرآن الكريم - أيضا ما كان نوع المكرر - له من المعاني الثانية التي تكمن وراءه ما يجعل لكل موقف شكلا متميزا، ويبدو فيه مغايرا للموقف الأول، كما أن له دلالة الفنية التي لا يسير غورها إلا الفكر المتأمل، والذوق الشفاف، لأن للنظم القرآني طبيعة خاصة لا تدرك إلا بالمراس الطويل^(١)

(١) انظر المزيد من الحديث عن بلاغة التكرار في القرآن الكريم - في كتاب المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٤٢٩ - ٤٤٧

وقبل أن نسوق بعض النماذج لهذا النوع من التقابل، نعرض لما أثاره المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) عن السبب في ذكر القرآن لبعض اللذائذ الحسية التي تنبعث منها إثارات جسدية لا يعني الأدب بإثارها، نظرا لارتباط ما أثاره بمحدثنا عن المشاهد الحسية لنعيم الجنة وما يقابلها من عذاب.

وقد أثار الدكتور بدوي هذا الموضوع حين تكلم عن المنهج الأدبي في القرآن، وهو يعني بالمنهج الأدبي (هذا المنهج الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارئ إثارة روحية رفيعة تحدث السرور في النفس فتقبل - أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض، ثم يقرر أن القرآن الكريم غني بذلك، لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل، فهو في وعده ووعيده وأوامره ونواهيه، وقصصه ووصفه، وابتهاله وتسييحه، بل في أحكامه وبراهينه، لا يغفل هذه الناحية من نواحي النفس الإنسانية، لأن العمل غالبا يرتبط بها ويقترن، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوي البشرية ليصل إلى هدفه من تهذيب النفس وحب العمل الصالح والإيمان بالله واليوم الآخر^(١).

ونحن ندرك صحة هذا الرأي وسداده حين نقرأ معه تلك النماذج الرفيعة التي يوردها من الأدب القرآني، ليدلل بها على صدق دعواه، ونحس - بالفعل - أنها لا تخاطب العقل وحده، بل تستثير فينا قوة الإدراك والفهم، وقوة الانفعال التي تستجيش العواطف، وقوة الإرادة التي تدفع الإنسان للتغيير.

ولكن الأستاذ أحمد بدوي وجد نفسه مضرا للوقوف عند بعض النصوص القرآنية التي يبدو فيها أنها تبعث إثارات جسمية ولذات جسدية من طعام وشراب ونساء لا يعني الأدب بإثارها.

فدافع عنها بأن القرآن معنى باستمالة الناس جميعا إليه، وفيهم المثالي ذو اللذة الروحية السامية، والواقعي الذي لا يسمو بروحه عن واقع الحياة، فتزل القرآن وفيه هذان الاتجاهان، حتى يجد فيه كلا الفريقين بغيته.

ومع تقديرنا لرأي الكاتب، وإخلاصه للقرآن وقضاياها، إلا أننا نميل إلى ما رآه أستاذنا الدكتور فتحى عامر - من أن مفهوم المثالية والواقعية في حياتنا الدنيا أمر نسبي متغير وليس قيمة مطلقة.

(١) من بلاغة القرآن، الدكتور أحمد بدوي : ٣٧ وما بعدها.

فالواقعية معنى يخضع للاعتبار، فرضا الفقير بالفقر أمر واقعي، وتطلعه إلى الغني أمر واقعي أيضا، واستسلام المظلوم للظلم أمر واقعي وتمرده عليه أمر واقعي أيضا. والمثالية كذلك معنى يخضع للاعتبار، فالذي يطيع رئيسه طاعة عمياء مثالي في نظر رئيسه، جبان متخاذل في نظر قرنائه وعارفيه .. وهكذا - أما معاني الآخرة فإنها أبعد من هذه وتلك، إنها حياة لا يستطيع العقل البشرى أن يتصور كنهها إلا بهذه الأمثلة التقريبية المحسوسة، حيث ينتقل الذهن من عالم الخيال المطلق إلى أنماط من الجسومات والمرئيات، وما دام الإنسان مركبا من الطين مستقرا فيه، ممتزجا به، فهو لا يستطيع أن يخلق فوق الزمان والمكان إلا بعين من الخيال الفذ، وهنا يظل هائما في الفضاء لا يستقر على حال.

والخيال لا يشبع الجوانب الشهوية التي ركبت فيها مع الطين فالأمثلة الأرضية المحسوسة تطفئ وقدة التطلع، وتجعل الإنسان قادرا على تصور غير الموجود بإدراكه المحدود، فإذا تخلص الإنسان من طينه فلا مشكلة إذن، لأنه يرى ما لم يكن قد رأى، وتسبح روحه حرة طليقة مع الآمال والأحلام. وينتهي الدكتور فتحى عامر من وجهة نظره تلك بأن الشيء الذي يسلم به بالبدهة، أن هناك جنة ونارا، وثوابا وعقابا، أنهارا ليست كالأنهار التي نعرفها، فواكه ليست كالتى نأكلها في الدنيا، وإلا فما معنى (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت لا خطر على قلب بشر^(١)) ؟.

ونعود إلى سياق حديثنا عن المقابلة في المشاهد الحسية للنعيم والعذاب يوم القيامة، فنورد هنا بعض النماذج لذلك، مكفين بالإشارة إلى مواضع الكثير منها في الهوامش^(٢)

أ- ورد في سورة الدخان قول الله تعالى :

قال تعالى : إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ ۖ طَعَامُ الْآئِمِّ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ۖ خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۖ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۖ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ يَلْبَسُونَ مِنْ

(١) انظر : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور فتحى عامر : ٢٩٢

(٢) ورد هذا النوع من المقابلات في كثير من السور المكية ومنها :

مريم (٦١ - ٧٢)، يس (٥٣ - ٦٨)، الصافات (٤٠ - ٦٨)، النبأ (٢١ - ٣٦)، النازعات (٣٧ - ٤١)، الانفطار (١٣ - ١٩)، المطففين (٧ - ٣٦)، الطور (١٣ - ٣٨).

سُنْدُسٌ وَإِسْتَبْرَقٌ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٦﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٧﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٨﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقْنَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٩﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾

في هذه الآيات تقابل بين ما أعد للكافرين من صنوف العذاب الحسية كالطعام والشراب والتنكيل، وما أعد للمؤمنين في مقابل ذلك.

إن طعام أهل النار الذي أعد لهم هو الطعام الأثيم (الفاجر الكثير الآثام)^١. وهذا الطعام مأخوذ من نبات شجرة الزقوم، تلك الشجرة التي ورد ذكرها في القرآن كثيرا، قال تعالى لَا كُلُّونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن زَقُومٍ ﴿٥٩﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٠﴾ وقال في وصفها أذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَم شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿٦١﴾ أَنَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٤﴾.

وهي شجرة مرة كريهة الرائحة، وطعامها قاتل كما تذكر المعاجم اللغوية^٢ وهي طعام أهل النار، يقبلون عليها بنهم فيملئون منها البطون، لأنه لا طعام غيرها وغير الغسلين من القيح والدم ويرى المرحوم الأستاذ سيد قطب أن لفظ الزقوم يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مديبا يشوك الأكف بله الحلوق^٣.

ومما يزيد في قزازه الزقوم وفضاعته أنه في الآخرة كالمهل (الزيت المغلى أو المعدن المذاب)^٤ تصهر به أحشائهم من الداخل وتكوى به جلودهم من الظاهر ويغلى في بطونهم كغلى الحميم (وهو الماء الذي بلغ غاية الحرارة)^٥، ولا يكتفى القرآن بتصوير هذا الطعام بتلك الصورة الفظيعة الشنيعة، بل إنه ينبه إلى أن هذا الطعام مصحوب بعذاب بدني آخر، فهؤلاء زبانية جهنم يأخذونه ويعتلونه فيجرونه بعنف وقهر إلى وسط الجحيم، ويصبون الحميم المغلى على رأسه، فيضاف إلى آلام الباطن آلام الظاهر.

(١) الدخان : ٤٣ - ٥٧

(٢) تفسير النسفي : ٤ / ١٣١

(٣) الواقعة : ٥٢ - ٥٣

(٤) الصافات : ٦٢ - ٦٥

(٥) المعجم الوسيط : مادة (زقم) .

(٦) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٤٦٥

(٧) كلمات القرآن، مخلوف : ٣١٣

(٨) نفسه : ٣١٣

ولنا أن تتخيل هذه الصورة المفزعة والحالة الشنيعة لواحد من أهل النار وهو يزدرد
بِنَهْمٍ طعام الزقوم، وفي نفس الوقت يصب فوق رأسه الحميم، وفي اللحظة نفسها
يجر بعنف ويلقى في سواء الجحيم. كل هذا وكلمات التقريع والسخرية تلقى عليه
من كل جانب (ذق) أيها الكريم في دنياك المتعالى على الرسول ورسالته، فهذا العذاب
هو ما كنت تماري فيه وتجادل.

ويذكر السيوطي أن قوله تعالى {ذق إنك أنت العزيز الكريم} نزلت في أبي جهل،
فحين لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم، قال له : إن الله أمرني أن أقول لك أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٦﴾^١، فترع أبو جهل ثوبه من يده قائلا ما
تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أُمْنَعُ أهل البطحاء، وأنا العزيز
الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأذله وعيره بكلمته^٢.

ولكننا نرى في الآية تهديدا مباشرا لكل من ظن نفسه عزيزا كريما على الله وعلى
المرسلين، فالعزة لله وحده، والكرامة يهبها سبحانه للأتقياء من عباده.
فإذا تركنا أهل النار واتجهنا إلى الجانب المقابل للصورة التي عليها الكفار فإننا نرى
المستقين في مقام أمين وكريم، إنهم يسرحون ويمرحون في جنات ندية تعطرت أجواؤها
بنسائم رقيقة من العيون المنبثة فيها. وهذا في مقابلة الجحيم الذي يمثل الكافرون في
سوائه.

ثم هم يلبسون من الملابس الفاخرة الحرير بنوعيه : السندس الرقيق والاستبرق
السميك ويجلسون مكرمين على الأسرة متقابلين يسمرون بأحلى حديث وأعذبه وقد
زوجوا بالخور العين. في مقابل النكد والهم الذي يغشى الكافرين.
أما طعامهم، فإن لهم ما يطلبون، لأنهم أصحاب الدار المكرمون، يدعون فيها بكل
فاكهة آمين، في مقابل الزقوم والمهل والحميم.

وهم في الجنة مقيمون في نعيمها إلى الأبد، فلا موت فيها، فقد ذاقوا الموت الأولى،
ونجاهم الله من عذاب الجحيم بفضلهم وكرمه وذلك هو الفوز العظيم.
وهكذا أسهمت المقابلة في إعطاء صورة كاملة لمشهد من المشاهد الحسية يوم القيامة
يتمثله الناس شاخصا أمام أبصارهم، فيطرب المؤمنون ويتشئون لما أعد لهم من نعيم،

(١) القيامة : ٣٤ - ٣٥

(٢) أسباب النزول للسيوطي : ١٥٢/٤

ويرتعد الكافرون من هول المصير، فيفكرون مرات ومرات وربما هداهم التفكير، وأقنعهم المشهد بالعدول عما هم فيه من غي وضلال.

ب- وهذا نموذج آخر من النماذج الحسية لمشهد النعيم والعذاب، يختلف عن

المشهد السابق

في أمرين :-

١- الإطالة المقصودة قصدا في وصف ألوان النعيم التي يتمتع بها المؤمنون، وذلك لأن هذا النعيم أعد لفريقين من المؤمنين وليس لفريق واحد، وهما السابقون السابقون بإيمانهم وأعمالهم وأصحاب اليمين، والفريق الأول مكون من جماعتين ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين، والفريق الثاني مكون أيضا من جماعتين ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، ولا شك أن هذه المجموعات تحتاج إلى مزيد من النعيم ومزيد من الرفاهية ومن ثم قلنا إن المشهد قد قصد فيه التطويل قصدا ليلائم حاجات هؤلاء جميعا.

٢- أن صور العذاب في جانب الكفار مصحوبة هذه المرة بالأسباب التي من أجلها استحقوا هذا العذاب، واستحضرت فيها الأفعال والأقوال التي ارتكبوها في الدنيا لتكون دليل اتهمهم وشاهد كفرهم والنموذج الذي قدمنا له هذا التقديم من سورة الواقعة^١ قال تعالى :

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿١٦﴾ يُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدْعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكِهِم مِّمَّا يَتَخَيَّروْنَ ﴿٢٠﴾ ﴿

﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَلَكِهِ كَثِيرَةٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ

مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ۝ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۝ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ إِنِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَاعِلُونَ ۝ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لَأَكَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَرِبُوا شَرَبَ الْهَيْمِ ۝ هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝

ولا شك أننا إذا أعدنا قراءة الآيات، سيتضح لنا التقابل الحاد بين صور النعيم وصور العذاب، وكل منها صور حسية لألوان من الطعام والشراب والمقام والنساء وسيتضح لنا ما قلت في التقديم لهذا النموذج من الإطالة المتعمدة في وصف النعيم وذكر الأسباب التي من أجلها استحق أهل الشمال ما أعد لهم.

لكن الذي يلفت الانتباه في هذا النموذج أن المقابلة هنا تأخذ شكلا متميزا، بل أكاد أقول إنه شكل فريد، فنحن هنا أمام ثلاثة أطراف للمقابلة لا طرفين، والأطراف الثلاثة هي :

١- أصحاب الميمنة.

٢- أصحاب المشأمة.

٣- السابقون السابقون.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأطراف الثلاثة وجدنا أن فيها مقابلتين :

الأولى : بين أصحاب الميمنة وبين السابقين السابقين، والمقابلة هنا ينطبق عليها ما سبق أن بيناه في التمهيد من معنى التناسب والتماثل ومراعاة النظير، وقد ذهب غير واحد من علماء البلاغة إلى أن المقابلة (تكون بالجمع بين المعنيين اللذين يكون بينهما نسبة تقتضى لأحدهما أن يذكر مع الآخر. من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب على صفة في الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر، كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه^(١)) فبين أصحاب الميمنة والسابقين مقابلة بالتماثل ويؤكد ذلك أن

(١) انظر المقابلة عند حازم القرطاجني في منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٥٢ - ٥٥ وكذلك عند الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" ٤٥٨/٣

أصحاب الميمنة يتكونون من ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وأصحاب السبق المقربين يتكونون أيضا من ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

والثانية : بين أصحاب المشأمة (الطرف الثاني في الثلاثي السابق) وبين المؤمنين جميعا ممثلين في (أصحاب الميمنة والسابقين السابقين) وهي هنا مقابلة بالتضاد على اعتبار أنهما نقضيان في العمل وفي الجزاء على حد سواء.

وقد لخصت السورة جزاء كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة ووضحت التقابل بينها في قوله تعالى : فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٦٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٦١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٦٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٦٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٦٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾

٥- المقابلة في مشاهد القيامة بين المكي والمدني :

ترد المقابلة في مشاهد القيامة في القرآن المكي بكثرة كاثرة كما رأينا في هذا الفصل.

ولكنها ترد في القرآن المدني قليلا جدا بالقياس إلى المكي، ولا شك أن السبب في ذلك راجع - كما قلنا سابقا - إلى أن القرآن في مكة كان معنيا - بالدرجة الأولى - ببناء العقيدة الصحيحة، والإيمان باليوم الآخر وما فيه يعتبر جزءا أساسيا من عقيدة الإسلام، وبدونه لا يصح الإيمان.

ومن هنا كثر الحديث عن اليوم الآخر، وعن مشاهد القيامة في القرآن المكي، بينما قل الحديث عن ذلك في القرآن المدني، لأن العقيدة كانت قد وضحت بما فيه الكفاية، فانصرف جلّه إلى معالجه قضايا أخرى تتصل بتكوين المجتمع الإسلامي والتشريع لقوانينه ونظمه في الداخل والخارج.

ومع أن المقابلة في مشاهد القيامة قليلة جدا في المدني^١، إلا أن لها طابعا مميزا، وسمّة بارزة تدل عليها وتعرف بها من خلال الملاحظة الهادئة، والتأمل الواعي للمقابلات في

(١) الواقعة : ٨٨ - ٩٦

(٢) انظر المقابلة في مشاهد القيامة في السور المدنية الآتية :-

البقرة (٢٤ - ٢٥)، النساء (٥٦ - ٥٧)، الحج (١٩ - ٢٣)، (٥٦ - ٥٧)، الرحمن (٤١ - ٧٨)، التغابن (٩ - ١٠).

الجانبيين، وبالمقارنة الموضوعية بينهما، نستطيع أن نسجل الاختلاف بينهما في نقطتين أساسيتين :-

الأولى :-

أن المواقف الذي تعرضها المقابلة في المكي تختلف عن نظائرها في المدني، فينما ترتبط مقابلة المشاهد في المكي بتدعيم العقيدة والرد على منكري البعث والمكذبين بيوم الدين، فإنها في المدني ترتبط بمواقف تشريعية أو أخلاقية أو حربية اقتضتها ظروف النشأة والتكوين للمجتمع الإسلامي الجديد.

ومن المهم هنا ذكر بعض المواقف التي تعرض فيها مقابلة المشاهد في القرآن المدني، فمن هذه المواقف :-

أ- ارتباطها بالقتال والجهاد في سبيل الله، فمن الطبيعي أن بين القرآن - وقد حث المسلمين على الجهاد - منازل الشهداء في الآخرة، وما أعد لهم في الجنة من النعيم مقابلاً عما ينتظر أعداءهم في النار من ألوان العذاب، وقد ورد ذلك في سورتي الحج ومحمد :

١ - ففي سورة الحج يرد قوله تعالى :

﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اٰخْتَصَمُوْا فِي رَبِّهِنَّ فَاَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِعَتْ لَهُمْ نِّيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصْبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ اَلْحَمِيْمُ ۝۵ يُّضْهَرُ بِهٖ مَا فِيْ بُطُوْنِهِمْ وَاَلَّذِيْذُ ۝۶ وَلَهُمْ مَّقْلِعٌ مِّنْ حَدِيْدٍ ۝۷ كَلَّمَا اَرَادُوْا اَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيْدُوْا فِيْهَا وَذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ ۝۸ اِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ جَنَّتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيْهَا مِنْ اَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيْهَا حَرِيْرٌ ۝۹﴾

فقد نزلت هذه الآيات - كما ذكر السيوطي - في غزوة بدر تتحدث عن الفريقين اللذين نزلا إلى الساحة للمبارزة في بداية المعركة، وهما حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث من المؤمنين.

وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن ربيعة من الكفار. وفي رواية أخرى أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم وأقدم كتاباً ونبينا قبل

نبيكم، فقال المؤمنون : نحن أحق بالله، آمنا بمحمد عليه السلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً.

والروايتان تؤكدان هنا شيئاً واحداً هو ارتباط المقابلة بين الفريقين بموقف من مواقف التزال بين المسلمين وأعدائهم، سواء أكان نزالاً بالسيف في ميدان القتال، أو بالكلمة في وقت السلم، ومن ثم تأتي هذه المقابلة المدنية لتبين جزاء كل فريق، وهو جزاء متقابل :

فالكفار قُذِّتْ لهم ثياب من نار تصهر به جلودهم.

والمؤمنون لباسهم في الجنة من الحرير الناعم الملمس يرفلون فيه ندياً رخياً.

والكفار يصب الحميم على رؤوسهم فيكويهم ظاهراً وباطناً. والمؤمنون ترف عليهم النسائم الندية لما ينبعث من الأنهار التي تجري تحت الجنات من الرطوبة والنضارة.

والكفار لهم مقامع من حديد وسياط يضربون بها.

والمؤمنون لهم أساور من ذهب يتحلون بها.

والكفار في غم متجدد.

والمؤمنون في نعيم متجدد ودائم أيضاً.

١- وهي في سورة محمد مرتبطة أشد الارتباط بالتعبئة المعنوية للقتال والجهاد، فالسورة تسمى أيضاً سورة القتال، ومن ثم تأتي فيها بعض مشاهد القيامة بمثابة حفز للمسلمين على التضحية والجهاد، لأنهم إذا رأوا ما أعد لهم في الآخرة من النعيم، وما يقابله مما أعد لأعدائهم من صنوف العذاب. هانت التضحية ورخص الغالي والنفيس، وعرفوا أنهم على الحق فاستماتوا في الدفاع عنه، لأن ما عند الله خير وأبقى. يقول تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿٢٣١﴾

إنهما مثلاً متقابلان في العمل وفي الجزاء، وفي هذا التقابل ما فيه من قوة دافعة للمؤمنين للقتال والجهاد في سبيل الله.

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطي : ١١٩/٣، وللنيسابوري ٢٣١.

(٢) محمد : ١٥

ب- ارتباطها بموقف يتصل بالمثل الأعلى في تقوى الله، ورعاية مقامه الجليل، ومن ذلك هذه المقابلة في المشاهد التي وردت في سورة الرحمن مرتبطة بما أبداه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من خوف وخشية حين ذكرت أمامه القيامة والموازن، والجنة والنار، فقال : وَدَدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضِرًا مِنْ هَذِهِ الْخَضِرِ تَأْتِي عَلَيَّ بِهِمَّةٌ تَأْكُلُنِي وَأَنِّي لَمْ أُحْلَقْ، فترل قول الله تعالى : {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} .

ومن ثم جاءت الآيات قبلها وبعدها تصف مشهدا متقابلا من مشاهد العذاب والنعيم في القرآن الكريم، من أجل إعلاء شأن هذا المثل الرفيع من التقوى، ولتحفز المسلمين إلى مراقبة الله حتى يغنموا نعيم هذا المشهد، وينجو من عذابه، والتقابل في الآيات واضح لا لبس فيه. قال تعالى : * ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُدْهَامَتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ

(١) أسباب النزول للسيوطي : ١٦١/٤

*معاني بعض الكلمات من كتاب (كلمات القرآن : مخلوف : ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(حميم آن) : ماء حار تنتهي حره، (ذواتا أفنان) : أغصان أو أنواع من الثمار.

(جني الجنتين دان) : ما يجني من ثمارها قريب من يد المتناول.

(قاصرات الطرف) : قصرون أبصارهن على أزواجهن، (مدھامتان) : شديدتا الخضرة

(نضاختان) : فوارتان بالماء لا تنقطعان، (حور) : نساء بيض حسان

(عقري) : بسط ذات حمل رقيق، (رفرف) : وسائد أو فرش مرتفعة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٦﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٥٧﴾ فَبِأَيِّ
 ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٥٩﴾ [الرحمن: ٤١-٧٨].

ونلاحظ على هذه المقابلات إطالة في وصف النعيم، يساعد على إطالته تكرار هذه
 الآية {فبأي آلاء ربكما تكذبان}، كما أن الفاصلة الممتدة، بالألف والنون في الآيات
 وما فيها من استرخاء تطيل أيضا من عرض هذا المشهد الجميل للنعيم حتى يتلذذ به
 المسلمون في الدنيا قبل أن يتلذذوا به في الآخرة.

ج- وقد ترتبط مقابلة المشاهد في القرآن المدني بموقف من مواقف الحرب النفسية
 التي كان أوارها أشد لهيبا، وأعظم وقعا من الحرب الفعلية وكان اليهود هم زعماء هذه
 الحرب وقادتها.

ويمثل هذا الموقف قوله تعالى في سورة النساء : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ
 نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
 وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾^(١).

ففسى مقابل جهنم يصطلى بنارها الكفار، وتشوى بها جلودهم حتى إذا نضجت
 بدلت بغيرها حتى يتكرر الألم ويشتد العذاب، في مقابل هذا اللهب القاتل نجد المؤمنين
 في جنات ندية رطبة وفي ظل ظليل مع أزواجهم المطهرة. وبذلك يتم التقابل في العمل
 بسين من كفروا بآياتنا، وبين من آمنوا وعملوا الصالحات والتقابل في الجزاء بين السعير
 المتأجج والروح الندية الظليلة. و المقابلة هنا تبدو قوية ومؤثرة لأن الموقف كان خطيرا،
 فلا بد أن يواجه بمثله وأشد، فاليهود الذين يشترون الضلالة بالهدى ويحرفون الكلم عن
 مواضعه. ويزكون أنفسهم، ويفترون على الله الكذب، ويؤمنون بالجبوت والطاغوت
 (وكل معبود أو مطاع من دون الله^(٢)) وقد كان أولى بهم معرفة الحق لأنهم أهل
 الكتاب. هؤلاء اليهود قد امتلأت نفوسهم بالحقد والغيط على محمد ورسالته وعجزوا
 عن مقاومته بالسلاح، لم يتورعوا عن اللجوء للحرب النفسية التي عرفوا بها والمؤامرات
 والدسائس التي عاشوا عليها وهدفهم الأكبر هو صرف الناس عن محمد وصددهم عن

(١) النساء : ٥٦ - ٥٧

(٢) كلمات القرآن : ٥٤

الإسلام وإقرارهم على ضلالهم، ومن ثم يتملقون الكافرين ويرضون غرورهم، حين يحتكمون إليهم في خصومتهم مع محمد.

هذا كعب بن الأشرف من أحرار اليهود تسأله قريش : ألا ترى هذا المنصير المنبر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية ؟ فيقول لهم : أنتم أهدي منه ومن اتبعه^(١).

لا عجب إذن أن تواجه هذه الأقاويل بالحسم، وأن يتولى القرآن دمع اليهود بالكذب والتحريف واشتراء الضلالة بالهدى، وأن توضح الآيات هذا الباطل والافتراء، ثم تبين للكافرين بعد ذلك الحقيقة واضحة جلية دون مجاملة أو تملق، حتى لا يبقوا على كفرهم، ويستمروا في ضلالهم بعد أن أخذوا الفتوى من اليهود - علماء عصرهم - وتبين لهم أنه لا يستوى مصير من يكفر بآيات الله ويبقى على ضلاله، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا.

وهكذا ارتبطت هذه المقابلة بموقف مدني من المواقف التي كانت تجدد بين الحين والحين في مجتمع المدينة، ويتولى القرآن بيان الحقيقة وجلاءها. حرب بحرب، وسلاح بسلاح أشد منه وأنكى.

الثانية :-

أما النقطة الثانية التي نسجلها في المقارنة بين مشاهد القيامة في القرآن المكي والمدني، فهي أن المقابلة في السور المكية غالبا ما تطيل في وصف العذاب وتختصر في وصف النعيم اختصارا ظاهرا.

بينما المقابلة في السور المدنية تكون على العكس من ذلك، فهي تطيل في وصف النعيم، وتختصر في وصف العذاب.

وسوف نقدم فيما يلي الدليل على هذه الملاحظة، ونحاول معرفة السر في ذلك الاختلاف بينهما :

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطي : ٥٤/٢

ودليلنا على أن المقابلة المكية في مشاهد القيامة تطيل في وصف العذاب بينما تختصر في وصف النعيم^(١) أننا إذا رجعنا إلى ما ذكرناه منها في هذا البحث نتبين صدق هذا الزعم.

ثم نؤكد ذلك بالدعوة إلى قراءة هذه المشاهد في سور (يس) و(الملك) و(المرسلات) وهي مكيات.

ففي سورة (يس) يرد مشهد متقابل لصور النعيم والعذاب في ثلاث عشرة آية من قوله تعالى : **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾** إلى قوله تعالى : **وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾** آية (٦٨). تحتل مشاهد النعيم هنا الآيات الأربعة الأولى (٥٥ - ٥٨).

بينما تحتل مشاهد العذاب تسع آيات (٥٩ - ٦٨)، فتكون النسبة هنا ٩:٤ أربع آيات إلى تسع.

وفي سورة الملك تأتي المقابلة في ست آيات من قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٦﴾** إلى قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٢﴾** تحتل مشاهد العذاب الآيات الخمسة الأولى (٦ - ١١) بينما تشير آية واحدة إلى النعيم وهو **﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٢﴾** فتكون النسبة هنا ١:٥ - آية واحدة إلى خمس آيات.

ج- وفي سورة المرسلات - يرد المشهد في ست عشرة آية من قوله تعالى : **﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾** إلى قوله تعالى : **﴿إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾**.

تحتل مشاهد العذاب هنا اثني عشرة آية (٢٩ - ٤٠)

بينما تحتل مشاهد النعيم أربع آيات فقط (٤١ - ٤٤)

فتكون النسبة ٤:١٢ أربع آيات إلى اثني عشرة آية.

(١) هذه السمة الغالبة على القرآن المكي، ونادرا ما تطيل السور المكية مشاهد النعيم فإذا ما وجدنا سورة مكية تطيل في وصف التعيم لا حظنا أنه نعيم حسي بالدرجة الأولى - يهر الكافرين ويثير تطلعهم ويصلح جزاء لهم يرضى أعرق رغباتهم .. والدليل على ذلك ما ورد في سورة (الإنسان) من صور النعيم في الآيات (٥ - ٦)، (١١ - ٢٢).

ولست هنا بصدد دراسة إحصائية وإنما هي ملاحظات لعلها تكون صادقة ومن ثم قلت إن المشاهد المكينة غالباً ما تطيل في وصف العذاب وتختصر في وصف النعيم. والدليل على أن المقابلة المدنية في هذا المجال تكون على العكس من ذلك أي تطيل في وصف النعيم وتختصر في وصف العذاب هو مراجعة هذه المشاهد في سورتي البقرة والرحمن.

أ- ففي سورة البقرة آيتان لمشهد متقابل من مشاهد العذاب والنعيم، ولكن الآية الأولى قصيرة والثانية طويلة، والأولى تختصر العذاب في عدة كلمات فإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾^(١) فلم يذكر من صور العذاب سوى (وقودها الناس والحجارة) بينما الآية الثانية وهي تصف النعيم الذي أعد للمؤمنين لا تكتفي بالبشارة بالجنات، بل تزيد في وصفها بالأثمار الجارية، وبالثمر المتجدد والمتشابه، وبالأزواج المطهرة وبالخلود وَيَشْرِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠﴾^(٢)

ب- أما في سورة الرحمن : فالظاهرة أوضح وأجلى فقد وردت المقابلة في مشهد مكون من ثمان وثلاثين آية من قوله تعالى : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ آية (٤١) إلى آخر السورة وهي قوله تعالى تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ آية (٧٨).

ويمكن الرجوع إلى هذا المشهد، فقد ذكرناه منذ قليل عند حديثنا عن ارتباط المقابلة المدنية بموقف يتصل بالمثل الأعلى في تقوى الله، وبالتأمل فيه نرى أن مشهد العذاب يحتل خمس آيات فقط بينما يحتل مشهد النعيم الممتد وصور الراحة وألوان الرفاهية في اللجنة الآيات الباقية كلها وهي ثلاث وثلاثون آية.

والآن نحاول الإجابة عن هذا السؤال : لماذا طالت مشاهد العذاب وتضخمت في السور المكينة وقصرت مشاهد النعيم ؟ بينما طالت مشاهد النعيم وتعددت في السور المدنية، وقصرت مشاهد العذاب ؟

(١) البقرة : ٢٤

(٢) البقرة : ٥٢

أغلب الظن أن طبيعة الدعوة في مكة اقتضت ذلك، وأن الكلمة القرآنية كانت هي السلاح الوحيد الذي يملكه الرسول والمستضعفون معه من المسلمين.

وهذا احتمال له ما يؤيده من شواهد الأحداث في مكة، فلقد كان الرسول فردا في مواجهة قريش بجبروتها وسلطانها وعنادها وكان القرآن سلاحه الوحيد، والعرب ذوو فصاحة وفطانة، ومعرفة بأسرار الكلمة وإيجاءاتها، وكثير منهم عرفوا أن ما جاء به محمد لا يمكن أن يكون من عنده، ولم يمنعهم من اتباعه إلا العناد والكبر. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥١﴾^١. وقصة عتبه بن ربيعة وغيره دليل على مدى ما كانت تحدثه في نفوسهم آيات الترهيب والتخويف بعذاب دنيوي أخروي.

ويذكر البغوي^٢ (ت ٥١٠) في تفسيره أن عتبة بن ربيعة وضع يده على فم الرسول وهو يتلو قول الله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٥١﴾ يقول : (فقد أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم.. ثم لما حدثوه في هذا قال : "فأمسكت بفیه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن يترل بكم العذاب).

وإذن، فلم يكن بد من الإكثار من مشاهد التخويف والترهيب والتهديد حتى تلين قلوب كالحجارة أو أشد قسوة، ومن ثم طالت مشاهد العذاب وصور النكال في القرآن المكي.

أما المسلمون في مكة. فقد كان إيمانهم بالله أقوى من كل عوامل الإغراء الدنيوية والأخروية، لقد آمنوا بالدعوة ابتداء لأنهم عرفوا أنها الحق، ولأنهم لم يجدوا في عبادة الأصنام إلا السفة والخبال، فلم تكثر صور النعيم التي يمكن أن تغريهم بالإيمان، ولم يكونوا بحاجة إليها لتزيد في إيمانهم.

وفي المدينة لم يكن هناك كفار فلا حاجة للقرآن المدني في تهديدهم والإكثار من مشاهد الرعب والعذاب لهم، بل كان في المدينة المسلمون وبعض اليهود، وكانت العقيدة قد اتضحت وبدأ المسلمون في تكوين مجتمع مستقر من الداخل لكن الخطر ما

(١) النمل : ١٤

(٢) هو أبو محمد مسعود الفراء البغوي المتوفى ٥١٦ هـ (الأعلام ٢/٢٥٩).

زال ماثلاً خارجة، ومن ثم فلا بد من الجهاد والقتال، وهنا يأتي القرآن المدني فيطيل في وصف النعيم وألوان المتعة التي أعدت للمؤمنين حتى يحفزهم ذلك على الجهاد والقتال. وتطول مشاهد النعيم في المدينة بعد أن طالت رحلة الكفاح والصبر على الأذى فيكون في هذا التطويل ذاته نوع من المكافأة الجزاء يتلذذ به المسلمون في دنياهم قبل أن يعيشوه في آخرهم.

الفصل الثاني

أسلوب المقابلة في القرآن المدني..

يشتمل هذا الفصل على المواقف الآتية :

- ١- المقابلة في مخاطبة النبي والمؤمنين ومقارنة ذلك بالمكي
- ٢- المقابلة في مخاطبة اليهود والمنافقين
- ٣- المقابلة في آيات التشريع
- ٤- المقابلة في مواقف الجهاد
- ٥- المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك

تقديم

رأينا أن موضوعات المكي كانت معالجة العقيدة الإسلامية وتوضيح عناصرها من توحيد لله وإيمان باليوم الآخر وإثبات لصدق الرسل السابقين ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، والتحذير من عاقبة الكفر والتكذيب بعذاب دنيوي أو أخروي، وتعزيز الرسول وطمأنته، وتثبيت المؤمنين، والتبشير والإنذار وكان اهتمام القرآن المكي بذلك، لأن قضية الإيمان والعقيدة هي الأساس الذي ستبني عليه بعد ذلك التشريعات والتكاليف.

أما القرآن المدني، فإنه يعالج - في الغالب - تطبيق تلك العقيدة وإرساء القيم والمعايير الإسلامية في الحياة الواقعية، ويخاطب النفوس التي آمنت بالعقيدة أن تقوى على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشرعية في معترك الحياة.

ومن أجل ذلك اختلفت موضوعاته عن سابقه، فهي هنا تشرع وتقن للفرد وللأسرة وتضع الأسس السليمة للعلاقات الزوجية، وكيفية التعامل بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه، وبين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات، وهي أيضا تفضح نوايا المنافقين، وتواجه كيد اليهود وأعداء الدين فكلها أمور حدثت في المدينة، ولم تكن قبل ذلك في مكة.

لا عجب إذن أن تكون المقابلة وهي من بنية القرآن ونسيجه تابعة لهذه الموضوعات، وأن يغلب عليها الطابع التقريرى العقلي بينما تتصف في المكي بالوجدانية والإثارة، وقد سبق أن بينا شيئا من خصائص التركيب اللغوي للجملة المكية والمدنية ومراعاة ذلك للظروف النفسية وأحوال السامعين^(١).

بعد هذا التقديم أحب أن أشير إلى أننا سنتناول المقابلة في القرآن المدني في المواقف الآتية :-

١ - خطاب النبي والمؤمنين في المدينة ومقارنة ذلك بنظيره في مكة.

٢ - خطاب اليهود والمنافقين.

٣ - المقابلة في آيات التشريع.

٤ - المقابلة في مواقف الجهاد.

٥ - المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك.

(١) انظر ص (١٤٨) من هذا البحث.

أولاً.. في خطاب النبي والمؤمنين

من الصعب على الباحث في القرآن المدني أن يفصل هذا العنوان عن العناوين الأخرى اللاحقة، لأن موضوعاتها ترد غالباً مصدرة بخطاب للنبي أو للمؤمنين يأمرهم أو ينهاهم أو يبين لهم شريعة من الشرائع.

كما أنه من الصعب أيضاً فصل خطاب النبي عن خطاب المؤمنين، فالصواب أن كل خطاب للنبي هو خطاب لأمة، حتى عندما يخاطب القرآن بعض المؤمنين، فإننا نجد المفسرين يرددون هذه العبارة : (والخطاب لجميع المؤمنين) ولكننا - لغرض التنظيم فقط - سنورد بعض النماذج الخاصة بالرسول ثم نتبعها بنماذج عامة لكل المؤمنين.

ويغلب على الخطاب في السور المدنية أن يكون بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بينما يرد الخطاب بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في القرآن المكي، والحكمة في ذلك كما يقول الزركشي في البرهان (أنه يأتي بعد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الأمر بتفاصيل الشريعة^(١)) وهذا القول يتفق مع طبيعة المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية (وليس في السور المكية ولو مرة واحدة خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾).

(أما في السور المدنية، فقد ورد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إحدى عشرة مرة حين قصد بالخطاب المشركون أو جميع المكلفين)^(٢).

وقد اخترنا من نماذج المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين، ما ليس فيه تشريعات أو تنظيمات محددة كالجهاد أو أركان الإسلام أو قواعد السلوك، فقد اخترنا هنا ما يتصل بالأسس العامة، والقيم المطلقة التي لا تحدها التشريعات المفروضة بل تتصل بتربية النفس وتهذيبها، والحث على التعاون والمحبة، أو تلك التي ارتبطت بمواقف خاصة ورأينا فيها قيمة يقصد القرآن إلى تعميمها وإشاعتها بين المسلمين.

نماذج للمقابلة في خطاب النبي والغرض البلاغي منها :

أ- ترد المقابلة في خطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم لتوضيح مهمته وطبيعته ورسالته.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٢٩/٢.

(٢) القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة : ٣٠.

فهو البشير النذير قال تعالى: يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾^١. والمقابلة بين كون الرسول مبشرا وكونه منذرا في آن واحد تلخص طبيعة الرسالة في كلمتين، فهي بشارة بالصلاح في الدنيا والصلاح في الآخرة لمن اتبعها، وإنذار بالعذاب دنيا وأخرى لمن أعرض عنها.

وأحيانا ترد هذه المقابلة بطرف واحد، بكونه نذيرا فقط، دون التصريح بكونه بشيرا، كما في قوله تعالى قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٦﴾ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾^٢

وقد فطن الزمخشري بحصافة فكره إلى المغزي البلاغي من وراء حذف الطرف الثاني وهو (بشير) بقوله : (وكان السياق يقتضى "إنما أنا لكم بشير ونذير" لذكر الفريقين بعده، ولكن الحديث هنا مسوق إلى المشركين و ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ نداء لهم، فهم الذين يستعجلون العذاب في الآية السابقة، وإنما أقحم المؤمنين وثوابهم ليغاظوا)^٣.

ويتأكد معنى البشارة والإنذار من المقابلة التي وردت في الآيات بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين الذين سعوا في آياتنا معاجزين وبين الجزاءين : المغفرة والرزق الكريم للمؤمنين، والجحيم للفريق الآخر.

ب- وقد تأتي مرتبطة بحادثة معينة، فتوضح لنا كيفية التصرف، لعلاج هذا الموقف أو تلك الحادثة، كقوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكَرِينَ ﴿٤٩﴾^٤

ويروى السيوطي والنيسابوري من طرق متعددة أن هذه الآية نزلت في رجل جاء يستفتي النبي صلى الله عليه وسلم في ما اقترفه من إثم قائلا له : أتتني امرأة تبتاع ثمرا. فقلت لها : إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فقال له الرسول غاضبا : خنت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بهذا، وأطرق عنه حتى ظن

(١) الأحزاب : ٤٥

(٢) الحج : ٤٩ - ٥١.

(٣) الكشف للزمخشري : ١٨/٣.

(٤) هود : ١١٤.. مع ملاحظة أن السورة كلها مكية إلا الآيات ١٢، ١٧، ١١٤ فمدينيات.

الرجل أنه من أهل النار، وأن الله لا يغفر له أبداً حتى أوحى الله إليه (وأقم الصلاة...) فلما سمعها الرجل قال : أليّ هذه ؟ قال النبي لجميع أمّتي كلهم^١.

وقد وردت المقابلة هنا بين (الصلاة طرقي النهار والصلاة زلفاً من الليل) لتدل على أن علاج مثل هذه الذنوب يكون بالاتصال الدائم صباحاً ومساءً بالله غفار الذنوب، ثم جاءت المقابلة بين (الحسنات والسيئات) لتؤكد أثر المقابلة الأولى في غفران الذنوب فالصلاة من أكبر الحسنات التي يتقرب بها العبد لربه، ولذلك تذهب بالسيئات وتمحوها.

نماذج للمقابلة في خطاب المؤمنين :

جاءت المقابلة في خطاب المؤمنين في السور المدنية في مواضع كثيرة نختار منها :-

أ- في الحث على البذل والإنفاق :

فاجتمع الإسلامي قائم على مبدأ التعاون والتكافل، والمال كله لله، ولكن البشر مستخلفون فيه ووكلاء عليه، ولذلك تكثر الدعوة إلى الإنفاق والتصدق في سبيل الله حتى يكتمل إيمان المؤمنين، ولكن القرآن يمهّد للدعوة إلى الإنفاق بمقابلات تستثير الوجدان وتأسر القلوب. قال تعالى^٢ :

قال تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا

(١) انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٠٣/٣، وللتيسابوري : ٢٠٠

(٢) سبق الاستشهاد بهذه الآيات في مشاهد الطبيعة في القرآن المدني والفرق بينها وبين المكي

ص(١٨٦) من هذا البحث ولكن موطن الشاهد في الموضعين مختلف.

بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾
 وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي
 مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ
 بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ مَنْ ذَا الَّذِي
 يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٣﴾

لقد بدأت الآيات بالحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى بصورة مؤثرة تفتح
 الوجدان وتوقظ القلب على صوت الوجود كله وهو يسبح لله مالك السموات
 والأرض الذي يحيي ويميت، وهو صاحب

القدرة المهيمنة على كل شيء، الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، المستغرق لحدود
 الزمن كله، الظاهر في كل شيء والباطن في كل شيء، فهو إذن يشغل كل حيز الزمان
 وحيز المكان، وهو بكل شيء عليم. ثم هو خالق السموات والأرض، المهيمن على
 العرش، العليم بكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج
 فيها، وهو معنا أينما كنا، بصير بكل ما نعمل، وكل الأمور راجعة إليه، وهو المدبر
 لحركة الليل والنهار، العليم بأسرار الصدور.

وبعد هذه الدفقة من التحليات يكون القلب مستعدا لتلقى الامر : { آمنوا } وهم
 مؤمنون. لاشك إذن أن يكون المطلوب هو تحقيق الإيمان القلبي بالسلوك العملى وهنا
 يصدر الأمر المقصود من كل هذه المقدمات : { وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه } ثم
 تسترسل الآيات في حث المؤمنين على الإنفاق وبيان الدوافع لذلك وهي أن الدين
 إخراج من ظلمات الشح والنفوس إلى نور البذل ولألاء الكرم، وتحت على المزيد من
 التصديق حين تبين عدم استواء من أنفق من قبل الفتح وقاتل، حين كان المال قليلا
 والبذل خالصا لوجه الله والعدو متربص من كل جانب، ومن أنفق بعد الفتح والمال
 وفير والأمان أكبر.. وكلاهما له الحسنى على تفاوت في الدرجة..

وقد اعتمد عرض الآيات - هذا العرض المؤثر - على العديد من المقابلات الحسية والمعنوية التي تشعر القلب المؤمن بعظمة الله وجلاله فيقبل راضيا مختارا على الإنفاق والتصدق ويمكن لنا أن نلمح هذه المقابلات بين :

تسبيح ما في السموات وما في الأرض
وملكية الله لما في السموات والأرض
وبين يحيى ويميت
والأول والآخر
والظاهر والباطن
وخالق السموات والأرض
والعليم بما يلج في الأرض وما يخرج منها
وبما يزل من السماء وما يعرج فيها
وبين تأكيد ملكيته للسموات والأرض
وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل
وبين الظلمات والنور
وميراث السموات وميراث الأرض
ومن أنفق من قبل الفتح ومن بعد
ومقابلة يضاعفه له وله أجر كريم بإقراض الله قرضا حسنا

ولا شك أن هذه المقابلات المكثفة التي تظهر شمول قدرة الله وعظمة صفاته لاغني عنها في مثل هذه المواقف التي تتطلب استجاشة وجدانية تكفكف من صوله المادة وتحد من تغلغل حب المال في النفوس، وقد أثرت بالفعل في المسلمين الأوائل، وهي قادرة بعون الله - على إيجاد التأثير نفسه إذا وجدت من يقدمها للناس بروحها الأصيل في كل زمان.

ونلاحظ أن أسلوب المقابلة في هذا النص هادئ يشع بالنورانية ليس فيه عنف المطارق التي لمسناها في المقابلات المكية، فالموقف هنا يستلزم شفافية ورقة تتسلل إلى القلوب، وتنفذ إلى المشاعر، فتستلب من المؤمنين ما تبقى من أنانية أو أثره وتدفعهم إلى البذل عن رضا واقتناع.

والقرآن المدني حافل بالأيات التي تؤدي فيها المقابلة دورا هاما في الحث على الصدق والإنفاق، وهي ظاهرة بجلاء في مثل قوله تعالى : **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ^(١) والمقابلة بين الليل والنهار، والسر والعلانية أفادت الحث على الصدق في جميع الأوقات وجميع الحالات حتى يفوزوا بالأمان والفرح.

ومثل قوله تعالى : **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَاءً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ^(٢)

فهنا مقابلة بين ما يعد به الشيطان من الفقر والشح وما يأمر به من فاحشة البخل والخوف من الفقر بسبب الإنفاق وبين ما يعد به الله من واسع المغفرة وعميم الفضل. وتفيد هذه المقابلة التحذير من اتباع هواجس الشيطان بالبخل والحرص كما تفيد الترغيب في الصدق طمعا في المغفرة والفضل. فقد كان بعض الأنصار يتيممون الخبيث من التمر فيتصدقون به ويحتفظون لأنفسهم بالجيد خوف الفقر^٣، فترلت هذه الآية وما قبلها تنهاهم عن ذلك وتحذرهم من شيطان البخل والحرص.

ب- في تربية النفوس وتهذيبها

يخاطب القرآن المسلمين في هذا النموذج ليعين لهم الفرق بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة. فقد ركبت في الفطرة البشرية شهوة النساء والبنين والنهم إلى جمع المال من الذهب والفضة والرغبة في اقتناء الخيل والأرض المخصبة والانعام، والإسلام لا يحارب الفطر ولا يسعى لكبت الرغائب بل يرسى في النفس المؤمنة الضوابط التي تحد من اندفاع الإنسان إلى الانغماس في هذه اللذائذ الدنيوية فينسى المثل العليا والقيم الرفيعة التي يتسامى بها عن وهدة الطين ومستنقع الشهوات ولذلك يعرض هنا ما أعده الله للمتقين الذين هذبوا نوازعهم وربوا أنفسهم على الاعتدال والقسطاس المستقيم في مقابل هذا المتاع الدنيوي قال تعالى : **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ** ^(٣) * قُلْ

(١) البقرة : ٢٧٤

(٢) البقرة : ٢٦٨

(٣) أسباب الزول للسيوطي : ٣٥/١

أَوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

ففي مقابل الأرض الخصبة والحرث والزرع في الدنيا :

لهم في الآخرة جنات ناضرة دائمة النظرة بفعل الأنهار تجري من تحتها. وفي مقابل
النساء والبنين في الدنيا :

لهم في الآخرة أزواج مطهرة من دنس الرغائب والشهوات.

وفي مقابل متعة الخيل المسومة والأنعام والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة : هناك
رضوان من الله، وهو متعة لاتعدلها متع الدنيا، بل والآخرة أيضا. وهذه المقابلات يتبين
للمسلمين إلى أي مستوى من الطهارة والرفعة يعلو بهم الإسلام فيندفعون - مقتنعين -
إلى السمو بأنفسهم وتهذيبها بغية الفوز بالخير الذي عبر عنه القرآن ب {قل أؤنبئكم
بخير من ذلكم...}.

ج - في الحث على التمسك بولاية الله :

وأحيانا تأتي المقابلة في خطاب المؤمنين لتبين لهم صواب الطريق الذي اختاروه
وضلال الطريق المقابل، حتى لا يكون ثمة ندم أو تراجع، فهم قد اختاروا ولاية الله
ورعايته، فأخرجهم من ظلمات الكفر وعماية الجهل إلى نور الإيمان ووضاءة الهدى
والرشاد أما الذين اختاروا ولاية الطاغوت، فقد خرجوا من النور إلى الظلمات وكان
مآلهم الخلود في النار. قال تعالى :

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

ولسنا مع السيوطي في تخصيصة المؤمنين هنا بالذين آمنوا بعيسى فلما جاءهم محمد
آمنوا به، والكافرين ببعض من آمن بعيسى وكفر بمحمد، لأن الإيمان إخراج من

(١) آل عمران : ١٤ - ١٥

(٢) الطاغوت : ما يطغى من صنم وشيطان ونحوهما (كلمات القرآن : ٣٠)

(٣) البقرة : ٢٥٧

(٤) أسباب النزول للسيوطي : ٣٤/١

الظلمات إلى النور لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان، وليس ذلك لفئة معينة من المؤمنين. والكفر ظلام وضلاله، وتعطيل للمدارك التي أودعها الله في الإنسان ليفكر ويختار.

والمقابلة بين الفريقين والطريقين هنا تهدف إلى توضيح الفرق بينهما (إن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط، ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائرويهتدى به الحائر، لأن عقابة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب^١) ولعل السر في إفراد لفظ (نور) في مقابل (الظلمات) بالجمع هو أن طريق الحق واحد لأن الله واحد، أما الكفر فأنواع وأنماط متعددة وهي تدخل الإنسان في ظلمة بعد ظلمة.

وقد أدخل الباقلاني في الإعجاز هذه الآية فيما يسمى في البديع ب (صحة التقسيم^٢).

وأغلب الظن أنه اعتبرها كذلك نظرا إلى قسميها الكبيرين : الإيمان وطريقه وعاقبته ثم الكفر وطريقه وعاقبته. فليس هناك في أقسام الجواب أكثر من هذا كما يقول البديعيون وقد سبق في التمهيد أن بينا أن ابن وهب الكاتب في (نقد النثر) يمزج بين المقابلة وصحة التقسيم.

وعلاوة على أن التقابل في الصورة الكلية واضح بين الفريقين، فإن التقابل الجزئي واضح أيضا بسين الإيمان والكفر، وبين ولاية الله وولاية الطاغوت، وبين النور والظلمات. وبين الإخراج من الظلمات إلى النور والإخراج من النور إلى الظلمات. وهذه المقابلات فيها حث للمسلمين على التمسك بولاية الله، وطمأنة لهم على صحة اختيارهم لهذا الطريق.

د- في التحذير من الردة :

وقد ترتبط المقابلة في خطاب المؤمنين بتحذيرهم من الارتداد عن دين الله بأي صورة من صور الارتداد، سواء أكان بالولاء والمناصرة لأهل الكتاب أم بغير ذلك، فالله سبحانه يحذر المؤمنين بأن ذلك لو حدث منهم، فسوف يستبدل بهم آخرين. قال

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي : ١٤ ط مطبعة المعارف ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م بغداد.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ٩٤

تعالى : يَتَّيِبُهَا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم مِّن دِينِهِ فَمَا يَتَّبِعِ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ والقوم الذين سيستبدلهم بالمؤمنين يمتازون عنهم بحبهم الخالص لله وحب الله لهم، ويتصفون بالبرقة والليونة على إخوانهم المؤمنين، وبالإباء والشمم والعزة على أعدائهم الكافرين، وقد ورد هذا المعنى في أكثر من سورة حتى يحرص المؤمنون على حب الله وعدم موالاة أعدائهم لأعدائهم قال تعالى وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢﴾ وقال ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٤﴾ وقال معرزا هذا المعنى {محمد رسول والذين معه أشداء على الكفار رحماء...} ؟

والمقابلة بين يحبهم ويحبونه، وبين أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين، وبين المؤمنين الحاليين والخلق الجديد، وبين الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين كل هذه الصور من المقابلة تحمل معنى التحذير والتهديد للمؤمنين حتى يحافظوا على دينهم، ويرفعوا بأنفسهم عن موالاة أعداء الدين أيا كانت نخلتهم، ويؤكد هذا التحذير أن الآية التي معنا وردت في سياق النهي الصريح عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء. قال تعالى : ﴿يَتَّيِبُهَا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا يَلَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُم فَأِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾

هـ- بين المؤمنين وأهل الكتاب :

رأينا في النموذج السابق تحذيرا للمسلمين من الولاء لأهل الكتاب، ورأينا كيف اعتبر القرآن ذلك نوعا من الارتداد عن دين الله، وفي هذا النموذج يحرص القرآن الكريم على إظهار الفرق بين المؤمنين وأهل الكتاب، ولا يتردد في وصف أهل الكتاب

(١) المائدة : ٥٤

(٢) محمد : ٣٨

(٣) فاطر : ١٦ - ١٧

(٤) الفتح : ٢٩

(٥) المائدة : ٥١ وما بعدها يؤكد النهي عن اتخاذهم أولياء.

بالكفر لأنهم انحرفوا عن النهج السوى للإيمان. وقد عرض ذلك بأسلوب المقابلة التي تظهر الفرق بين الاتجاهين. اتجاه الإيمان واتجاه الكفر وأسلوب كل منهما. قال تعالى :
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نَحْنُ نُبَيِّنُ
وَنَكْفُرُ بِبَعْضِ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٢﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٣﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٤﴾

وشواهد الحال تدل على أن أهل الكتاب يستحقون هذا الوصف الذين أكدده الله
بقوله {أُولَئِكَ... هم الكافرون حقا}، فاليهود مثلا يؤمنون بأنبيائهم وينكرون رسالة
عيسى ومحمد.

والنصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى فضلا عن تأليهه، وينكرون رسالة محمد.
ولكن المؤمنين بدين محمد لا يفرقون بين أحد من رسله وأنبيائه وهذه المقابلة تجمع
بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى في كفة وبين المؤمنين في الكفة الأخرى.

وتوازن بين الأولين ومعتقداتهم وجزائهم،

وبين المؤمنين ومعتقداتهم وجزائهم،

فأهل الكتاب يكفرون بالله ورسله

يقابلها المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله

وأهل الكتاب يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، يؤمنون ببعضهم ويكفرون

بالبعض الآخر والمؤمنون لم يفرقوا بين أحد منهم، فالكل عندهم رسل يجب الإيمان
بهم.

وجزاء أهل الكتاب العذاب المهين

وجزاء المؤمنين الأجر الحسن والغفران والرحمة

وبهذا التقابل التام في العقيدة والمنهج والجزاء وضح الفرق وجلا بين الفريقين وفي

ذلك حفز للمسلمين على الاعتزاز بدينهم والتمسك به لأنهم على الحق وغيرهم على

الباطل. وهذا نموذج آخر للمقابلة بين المؤمنين واليهود، يحمل في ثناياه معنى التحذير

للمسلمين من كيد اليهود ونفاقهم. قال تعالى مخاطبا المؤمنين هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٦٠﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تَصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٠﴾

د- بين المؤمنين والمنافقين :

وتأتي المقابلة هنا - أيضا- لتوضح الفرق بينهم وبين المنافقين، كما جاءت مقابلات أخرى من قبل لبيان الفرق بينهم وبين الكافرين وبينهم وبين أهل الكتاب والهدف البين من وراء مثل هذه المقابلات تمييز الشخصية المسلمة عن غيرها من الناس ووسمها بالسلمات والملامح التي تعرف بها في كل زمان ومكان.

وفي هذا النموذج نرى تقابلا واضحا بينهم وبين المنافقين في الطبع والسلوك والمصير ، قال تعالى : **الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ابْنَ الْيَمِينِ** **الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦٢﴾** **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٦٣﴾** **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٤﴾** **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ مُعَدَّنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦٥﴾** ﴿١٦٢﴾

١- فإن الأمر بالمنكر عند المنافقين يقابله عند المؤمنين الأمر بالمعروف.

٢- والنهي عن المعروف عندهم يقابله عند المؤمنين الأمر بالمعروف.

٣- وقبض الأيدي يقابله إيتاء الزكاة.

(١) آل عمران : ١١٩ - ١٢٠

(٢) يقال عدن بالمكان عدنا وعدونا : أقام به، وجنة عدن : جنة إقامة : لمكان الخلد فيها (المعجم الوسيط)

(٣) التوبة : آيات (٦٧ ، ٦٨) ، (٧١ ، ٧٢)

٤- ونسيانهم لله يقابله إقامة الصلاة وطاعة الله ورسوله.

٥- ولعنة الله للمنافقين والكفار ونسيانهم لهم تقابلها رحمة الله العزيز الحكيم بالمؤمنين.

٦- والوعيد بجهنم والخلود فيها وفي عذابها المقيم للمنافقين والكافرين يقابله وعد بالنعيم والمتعة في جنات ندية تجري من تحتها الأنهار.

٧- بالإضافة إلى أن المساكن الطيبة. والرضوان الأكبر من الله يعتبر تكريما من الله للمؤمنين في مقابل الازدراء واللعن والطرده من رحمة الله في جانب المنافقين.

وللطاهر بن عاشور ملمح دقيق في بيان السر في التعبير في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض في مقابل التعبير في جانب المنافقين والمنافقات بأنهم من بعض، وهو أن المؤمنين أولياء بعض (للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعا له على غير بصيرة، لما في الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين، فكأن بعضهم ناشئ من بعض في مذامهم).^١

ونصيف إلى ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى هذه الولاية وهذا التكاتف والتماسك، لأن الدعوات الإصلاحية - عموما في حاجة إلى جهد الرجال وإخلاص الولاء. إذ هي دعوة إلى الخير والمعروف ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء بطبيعتها ومن هنا جاء التعبير (أولياء بعض)، ولكن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف لا يحتاج أي منهما إلى جماعة منظمة متكاتف من أجل إشاعة الفساد بل يكفي عدد قليل من المفسدين لتدنيس مدينة بأكملها.

ز- في حديث الإفك

روعت المدينة المنورة شهرا كاملا بحديث الإفك. الذي كان يسرى بين الناس فيزلزل النفوس، وملخص هذا الإفك كما ورد في كتب التفسير^٢ أن عائشة رضي الله عنها - كانت مع الرسول في غزوة بني المصطلق، فتأخرت عن الجيش، ولقيها صفوان

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور/ ج ١٠/ ٢٦٣ ط الدار التونسية للنشر.

(٢) انظر في ذلك الكشف للزمخشري ٥٢/٣ وابن كثير ٢٦٨/٣-٢٧١ وانظر أيضا أسباب النزول للسيوطي ١٢٦/٣، ١٢٢، وكذلك النيسابوري ٢٣٨

بن المعطل السلمي، فحملها على راحلته وهو يقودها ولا يكلمها، فلما مر صفوان بهودجها على عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، قال : من هذه ؟ فقالوا عائشة فقال : والله ما نجحت منه ولا نجا منها، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وسرت الفتنة في المدينة شهرا كاملا كان من أشق الأيام على الرسول وأهل بيته، وعلى المؤمنين حتى نزلت الآيات ببراءة عائشة (١١ - ٢٢ من سورة النور) نختار منها ما ورد بأسلوب المقابلة، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وفي هذه الآيات من المقابلات ما كان له أثره في تسكين الفتنة وتهدئة القلق والاضطراب في نفوس المسلمين.

١- فهناك المقابلة بين الشر والخير في قوله تعالى { لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم }

وهذه المقابلة تطمئن المسلمين إلى أن هذا الحديث وما صحبه من رجة وإرجاف بين المسلمين لم يكن شرا، بل إنه الخير كل الخير، لأنه كشف للمسلمين عن الوجه القمئ للمنافقين واليهود الذين يكيّدون للإسلام ولرسوله، إنه خير كما يقول الزمخشري (لن ساء ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله صلى عليه وسلم وأبا بكر وعائشة وصفوان بن المعطل، ومعنى كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة).

وأضيف إلى ذلك أنه خير لما صحب ذلك من نزول آيات في حدود القذف تحمي المسلمين من هوة الفتنة ونفس الأعراض.

٢- والمقابلة الثانية في قوله تعالى : { وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم }.

بين {هين} بمعنى يسير وبسيط و {عظيم} بمعنى : جليل وخطير وهي هنا تلفت نظر المسلمين في حينه وفي كل حين إلى أن الخوض في أعراض الناس، وتناقل الفتنة وتلقف الشائعات دون وعي أو إدراك شيء عظيم عند الله تنزل من هوله الجبال الراسيات وإن ظنه الناس مجرد لهُ هين أو سمر برئ.

٣- وتأتي المقابلة الثالثة تحذيرا - لمن يحبون إشاعة الفاحشة ولقالة السوء بين المؤمنين - بعذاب أليم في الدنيا والآخرة، وإرشادا إلى أن الله عليم بخفايا الصدور وطوايا النفوس، ونحن لا نعلم من ذلك شيئا {إن الذين... لا تعلمون} فالمقابلة بين الدنيا والآخرة توحى بشدة هذا العذاب ودوامه. بينما المقابلة بين علم الله وجهلنا تكفكف من غلوائنا واعتدادنا بما نعلم وتوحى بعظم علم الله وشموله.

٤- وفي التعقيب على حديث الإفك يأتي قوله تعالى : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٥١﴾

في مقابلة ظاهرة وصريحة بين الخبيث والطيب من الرجال والنساء والأقوال والأفعال، لتؤكد طهارة أهل بيت الرسول مما رموا به من خبيث القول، أو لتوحى بأن الطيبات من النساء وعائشة في القمة منهن للطيبين من الرجال ومحمد عليه السلام في القمة منهم، فمن كان هذا شأنه لا بد أن يحفظه الله من الشك والريب.

بين المكي والمدني في خطاب النبي

سبق أن قلنا إن القرآن المكي خلا تماما من الخطاب المباشر للمؤمنين لأننا لم نجد فيه ولو مرة واحدة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وذلك راجع بالقطع إلى طبيعة الدعوة في تلك المرحلة، فقد كان جل اهتمامها موجها إلى المشركين.

أما الخطاب إلى الرسول (فإنه في المكي أكثر منه في المدني، لأن الرسول في مكة هو وحده المكلف ببناء العقيدة ونشر الدعوة، ومن هنا كثر الخطاب إليه، بينما قل ذلك في المدينة، لأن مسؤولية بناء المجتمع أصحبت مشتركة بينه وبين من معه من المؤمنين. ولهذا فإن مجال المقارنة هنا سوف ينحصر في الفرق بين المقابلة في خطاب النبي في مكة وخطابه في المدينة.

١- ولعلنا لا نتجاوز الصواب إذا قلنا إن الفرق بينهما هو الفرق بين طبيعة الدعوة في كلا البلديين، وبين مهمة الرسول في كلتا المرحلتين ولذلك تميزت المقابلة في خطاب النبي في مكة بالحسم والمواجهة الجادة كما تميزت بالشدة في حملتها على الشرك والضللال فليس الخطاب فيها موجها بالدرجة الأولى إلى محمد بل إلى المشركين. والأمثلة على ذلك كثيرة منها :-

تلك المقابلات التي تؤكد للرسول عدم مسؤوليته المطلقة عن تحقيق نتيجة إيجابية للدعوة، إنه مبلغ فقط ومسؤوليته تقف عند هذا الحد، أما الإضلال والهدى فليس من شأنه هو، ومثال ذلك

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝ ﴾

(١) الزمر : ٣٦ - ٣٧.

(٢) الفرقان : ٥٦.

(٣) مريم : ١٧ و(قوما لدا) أي شديدي الخصومة بالباطل.

فالمقابلات بين الإضلال والهدى، وبين التبشير والإنذار إنما تؤكد عدم مسئوليته بصورة قاطعة عن عدم اعتداء هؤلاء القوم، وفي ذلك تخفيف من أساءه وهمه وحزنه على ما يبدو أنه فشل مؤقت في الدعوة.

ونلمح مثل هذا القطع والحسم والشدة - أيضا - في قوله تعالى :-
﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾
١

ففيها مقابلة بين من يستجيب لأن أجهزة الاستقبال عنده متفتحة وفطرته لم تفسد فهو يسمع ويتأثر ويستجيب، ومن ران على قلبه ما كسب، وأمات فطرته وعقله، فذلك حسابه عندما يرجع إلى ربه.

وأشد منها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾
٢

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ٣ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٦ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٧ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٨

فهذه المقابلات بين علمه وعلمهم، وعبادته وعبادتهم، ودينه ودينهم، توحى بأنه ليس مسئولاً عن بقائهم على الكفر والضلال، وتؤكد المسئولية الفردية وعدم تحمل أي شخص لأخطاء الآخرين.

٢- وكما تميزت المقابلة في خطاب النبي في مكة بالشدة والحسم في مواجهة المشركين والكافرين امتازت - كذلك - بالشدة في عتاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما ييذر منه - ولو أقل القليل - مما لا يليق بأصحاب الرسالات السامية، كالغضب العارض أو عبوس الوجه لأي سبب لأن أصحاب الرسالات السامية يمتازون برحابة الصدر قال تعالى : وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ؛ وهذه الشدة كما قلت نابعة من طبيعة الدعوة في تلك المرحلة التي تتطلب الصراحة والوضوح

(١) الأنعام : ٣٦

(٢) يونس : ٤١

(٣) الكافرون : ١ - ٦

(٤) آل عمران : ١٥٩

في كل شيء وعدم المحاملة أو المحاباة، حتى وإن ظنَّ أن وراء ذلك استرضاء واستقطاباً لبعض قيادات الكافرين وضمهم إلى حظيرة الإسلام.

والنموذج التالي يعلم الرسول أن الإسلام لا يهتم بالمظهر قدر اهتمامه بالجوهر قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ۚ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آسِئْتِنِي ۚ ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقْتَ ۚ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكِّي ۚ وَمَا مِنْ جَاءِكَ يَسْعَى ۚ ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ۚ ﴾

ذلك أن عبد الله بن أم مكتوم. وهو صحابي جليل كفيف البصر - أتى ليسأل الرسول عن شيء، وألح في سؤاله، بينما الرسول مشغول بمخاطبة عتبة بن ربيعة، وأبي جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وبعض عظماء قريش ممن كان الرسول حريصاً على أن يؤمنوا، ولكن عبد الله جعل يستقرئ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن، ويقول يا رسول الله، علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه. وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، وخفق برأسه، ثم أنزل الله تعالى. الآيات ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ ... الخ ﴾ ويتابع بن جرير الطبري ت (٣١٠) روايته فيقول : فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه، وقال له ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء ؟^٢

والمقابلة الملحوظة في هذه الآيات بين حالة الرسول مقبلاً على الكبراء محتفياً بهم وهم راضون ببقائهم في دنس الكفر، معرضون عنه وعن رسالته. وحالته عابساً في وجه الأعمى الفقير، كارهاً لكلامه، وهو له محب وعليه مقبل.

... وهذه المقابلة توحى بالعتاب الشديد للرسول، وتؤكد النبر الحاد للمقابلات في خطاب النبي في مكة، لأنها تذكره كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يصح أن يكون حاملاً على كراهة كلامه والإعراض عنه، فإنه حي القلب ذكي الفؤاد، إذا سمع الحكمة وعامها فيتطهر بها من

(١) عبس : ١ - ١٠

(٢) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ٣٠/١٢ ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان سنة ١٩٨٠

أوضار الآثام، وتصفوها نفسه من كدر الوسوس أو يذكر بها ويتعظ فتتنفعه العظة في مستقبل أمره، فلا يقع في مأثم. أما أولئك الأغنياء الأقوياء، فأكثرهم الجحدة الأغبياء، فلا ينبغي الانصراف إليهم والتصدى لهم بمجرد الطمع في إقبالهم على الأمر، يَلْجُونَ فيه فيتبعهم غيرهم، فإن قوة الإنسان في حياة قلبه وذكاء لبه، والإذعان للحق إذا ظهر، والانقياد للدليل إذا بهر. أما المال والنشب والعصبة والنسب، والحشم والأعوان، والأكاليل والتهيجان، فهي عوار تغدو. وترتحل وتقر حيناً ثم تنتقل،... وفي ذلك من تأديب الله لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم^(١).

وقد تكررت دعوة القرآن للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصير مع الضعفاء والفقراء، لأنهم أشد صلة بالله، ولأن المقياس في هذا كما وضع الإمام محمد عبده هو أن قوة الإنسان في حياة قلبه وذكاء لبه، والإذعان للحق إذا ظهر، والانقياد للدليل إذا بهر، قال تعالى: **وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَاشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**^(٢)

فالمقابلة بين هؤلاء الذاكرين لله بصفة دائمة، والغافلين عن ذكره والمتبعين أهواءهم، المفرطين في أمورهم، توحى بالفرق الشاسع بينهما، وفي هذا حث للرسول على الصبر مع الذاكرين وعدم طاعة المعرضين الغافلين، حتى ولو كانوا وجهاء القوم، لأن ما عند الله أفضل من زينة الحياة الدنيا ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٣)

٣- وثمة ميزة أخيرة للمقابلة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن المكي، وهي أنها تأتي في مجال حثه على الالتجاء إلى الله والاستعانة به حين تذللهم الأمور، ويسرى هاجس اليأس في قلبه، حينئذ تأتي المقابلة في خطابه لتثبت قدميه، وتربط على فؤاده، وتعزیه وتسليه، وتقدم له الحل الأمثل في هذا الوقت العصيب وقبل أن يؤذن له بالقتال والجهاد، إنه الصلة الدائمة بالله فهو السند والنصير قال تعالى :

(١) انظر تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده : ١٥ ، ط دار الشعب، مصر.

(٢) الكهف : ٢٨

(٣) النحل : ٩٦

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٤﴾

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿٥٥﴾
﴿٥٦﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٥٧﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ
رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٥٨﴾

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ ﴿٥٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَذْبِرَ السُّجُودَ ﴿٦٠﴾

فالمقابلة المتكررة هنا بين التسبيح والصلاة في العشي والإبكار وقبل طلوع الشمس
وقبل غروبها، وأنائى الليل وأطراف النهار، والتهجد بالقرآن في الفجر وفي الليل كلها
تدعو الرسول إلى الاستعانة على شدائده ومشاكل الدعوة بالصبر وباستمرار الاتصال
بالله في جميع الأوقات، فإن في ذلك زادا أي زاد، وقوة أي قوة.

أما نظير ذلك من مقابلات في خطاب الرسول في المدينة، فقد رأيناها تمتاز بهدوء
النيرة. ورقة النعمة بعد رحلة الكفاح المضنية، وطول الطريق، لقد كانت في المكي
مستدفقة سريعة حادة كالنهار في أوله أما في المدني، فإن موجاتها قد هدأت واعتمدت
إلى حد كبير على الحجة والمنطق، وبعدت عن الانفعال والحدة.

ونستطيع أن نلمس ذلك الهدوء في كثرة حروف المد وطولها في قوله تعالى: يَتَأْتِيهَا
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦١﴾

ونحس الثقة في المنطق والحجة في قوله: قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾

(١) غافر : ٥٥

(٢) طه : ١٣٠

(٣) الإسراء : ٧٨ - ٧٩

(٤) ق : ٣٩ - ٤٠

(٥) الأحزاب : ٤٥

(٦) الحج : ٤٩ - ٥١

ولا غرو .. فإن هذا الهدوء، وتلك العقلانية هما اللذان يناسبان ما كان عليه المسلمون في المدينة من استقرار نسبي، ومن خطط وتشريعات لبناء المجتمع الجديد وذلك يتنافى مع الشدة والحدة والانفعال.

ثانيا : في خطاب اليهود والمنافقين

تقديم :

استقر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد الهجرة، وبدأ في تنظيم المجتمع الإسلامي الجديد على أسس من الإخاء بين المسلمين، مهاجريهم والأنصار وعلى حسن الجوار بين المسلمين وغيرهم من اليهود وأهل الكتاب، ويمكن القول بأن الطوائف التي استقرت في المدينة في عهد الرسول كانت ثلاثا :

- ١- المهاجرون وهم الذين فروا بدينهم من مكة إلى المدينة.
- ٢- الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين من الأوس والخزرج.

٣- اليهود - وهم بقية من بني إسرائيل مع من تَهَوَّدَ من العرب.

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أول عهده بالمدينة على أن يقيم فيها مجتمعا فاضلا تسوده المودة والاحترام، ولذلك عقد معاهدة بين المسلمين واليهود وأقليات أخرى صغيرة كانت تعيش في المدينة، (وهذه المعاهدة تعتبر من أنفس المعاهدات الدولية وأجدرها بالتقدير)^١.

ويهمنا هنا إظهار إلى أي مدى كان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حسن معاملة اليهود وعدم المساس بحقوقهم، لنرى - بعد ذلك - مقدار غدرهم وكيدهم في مقابلة ما وجدوه من طيب المعاملة، ومما يدل على توفر حسن النية من جانب المسلمين ما ذكره ابن هشام في السيرة من نصوص في تلك المعاهدة التي عقدت بين الرسول وبين بقية الطوائف في المدينة، نذكر منها بعض ما يتصل باليهود.

(... وإن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) (وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم أو أثم).

(١) انظر المجتمع الإسلامي للدكتور أحمد شلي : ٥٢ ط النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٣

(وإن ليهود بني النحر، ويهود بني الحارث، مثل ماليهود بني عوف إلا من ظلم أو أثم)، (وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)^١.

ولقد فصل فضيلة الشيخ عطية صقر العلاقة بين المسلمين واليهود في كتابة (دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة) حين كان يتحدث عن اليهود كما وصفهم القرآن ونختار من حديثه ما يلي : (ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمل أن يكون اليهود الموجودون بالمدينة أول المؤمنين به لا أول الكافرين، وذلك لأن دعوته كلها سلام لا تبغى هدماً لصحيح من العقائد أو العادات، ولا عداً لأحد يستجيب لدعوة الحق ويتعاون على نشر كلمة العدل بين الناس : قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)^٢

...ولكن عداؤهم لشخص الرسول ولجماعة المسلمين ما لبث أن ظهر في السب والقدح والاستهزاء وَلِتَسْمَعُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً^٣ وفي تهديدهم بقتال المسلمين عقب انتصارهم في بدر قائلين لهم (لا يغرنكم أنكم قتلتهم نفراً من قريش لا يعرفون القتال، ولو قاتلتمونا، لعرفتم أنا نحن الناس) ، وفي عدم التعاون مع المسلمين في تنفيذ نصوص المعاهدة، وفي محاولة التخلص من النبي باغتياله، أو بإلقاء الحجر عليه أو دس السم له، وفي نقضهم للعهد حين تحرشوا بإحدى نساء الأنصار في السوق، وفي إيذاء المسلمين اقتصادياً باحتكار السلع وموارد الثروة وفي محاولة تفريق صفوفهم بالوقعة بين الأوس والخزرج على يد شاس بن قيس وفي تأمرهم مع المشركين ضد المسلمين، فكانت غزوة أحد بتحريضهم، وغزوة الأحزاب بسعيهم ونشاطهم، وكذلك أنشأوا جبهة ثالثة في المجتمع بين المسلمين والكافرين وهي جبهة المنافقين...^٤

(١) السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول ويشتمل على الجزء الأول والثاني: ٥٠٣ تحقيق : إبراهيم الإبياري وآخرون ط ٢، الحلبي مصر ١٩٥٥م.

(٢) آل عمران : ٦٤

(٣) آل عمران : ١٨٦

(٤) دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، عطية صقر (٣٢٨) - مؤسسة الصباح الكويت سنة

أما المنافقون. فلم يكن لهم وجود في مكة، كما لم يكن لهم وجود في المدينة قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها.

لم يكن هناك نفاق في مكة، لأن النبي ومن معه لم يكونوا من القوة في حالة تستدعى وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم فتتملقهم وتزلف إليهم في الظاهر وتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام، لقد كان أهل مكة وزعمائها يناوئون النبي جهاراً، ويقاومون دعوته دوماً تحرز أو تحفظ.

أما كيف ولماذا ظهر النفاق في المدينة ؟ فإن ابن كثير يشير إلى ذلك بقوله (.. فلما قدم الرسول المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من الأوس والخزرج، كان فيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج. وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله.

فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول : هذا أمر قد تَوَجَّه^١، فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونخلته ، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب. وينفى ابن كثير تهمة النفاق عن المهاجرين، لأنه لم يكن فيهم أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه، رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة^٢.

ولقد وجد المنافقون في اليهود سندا لهم ونصيراً، لأن اليهود في المدينة كانوا على ما ذكرنا من الحقد والكراهية للرسول ولرسالته، فنشأ بين المنافقين واليهود حلف بغيض، بات يحيك المؤامرات ويدس في كل مناسبة، يظهر عداوتهم ويجهرون به إذا أملت بالمسلمين ضائقة أو نزلت بهم شدة ، ويخفون كيدهم وتآمرهم إذا كان المسلمون في قوة ورخاء.

(١) تَوَجَّهَ : كَبَّرَ، انْطَلَقَ (المعجم الوسيط).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٧/١

وقد تولى القرآن الكريم فضح اليهود والمنافقين، وكشف كيدهم وضلالهم في آيات كثيرة، حتى أن هناك سورة باسم (المنافقون) وسنحاول فيما يلي إبراز دور المقابلة في كشف اليهود والمنافقين والآثر البلاغي والديني لذلك :

أولاً : في خطاب اليهود :

وردت المقابلة في خطاب اليهود في مواقف كثيرة نعرض لبعضها فيما يلي :

١- في حثهم على الإسلام : ترد المقابلة في خطاب اليهود لتدعوهم إلى الإسلام وتبين لهم الطريق الواضح. قال تعالى : يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾

وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارى كما يقول الزمخشري^١، والقرآن الكريم عندما يعبر بأهل الكتاب فإنما يقصد بذلك اليهود والنصارى، وأحياناً يخص اليهود بالحديث عندما يناديهم بني إسرائيل وهو هنا يدعو أهل الكتاب عموماً، واليهود بخاصة بأن يتبعوا ما جاء به الرسول فإن في رسالته الكثير مما أخفوه لحاجة في نفوسهم (فقد أخفى النصارى التوحيد وقالوا بالثليث وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كرجم الزاني وتحريم الربا كافة، كما أخفوا جميعاً خبر بعثة النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل)^٢ ويروى السيوطي في أسباب النزول (إن اليهود أتوا للنبي صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الرجم، فقال : أيكم أعلم، فأشاروا إلى ابن صوريا فناشده النبي بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذه أفكلاً^٣، فقال : إنه لما كثر فينا جلدناً مائة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم^٤).

(١) المائدة : ١٥/١٦

(٢) الكشف : ١/٦٠١

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب : ٢/٨٦١

(٤) الأفكل، على وزن أحمد. هو الرعدة، يقال : مفكول أي مرتعد : (المعجم الوسيط). ٤

(٥) أسباب النزول للسيوطي : ٢/٧٠

والآيات هنا تعرض عليهم رسالة الإسلام باستخدام المقابلات بين : (بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون، ويعفو عن كثير)، وبين (الظلمات والنور). ونحن نلاحظ على هذه المقابلات أنها بين فعلين وبين اسم واسم، كما نلاحظ أن عنصر الضياء والكشف والجلاء يشع من رسالة الإسلام في مقابل التخفى والظلمات التي يعيش فيها أهل الكتاب.

٢- في دحض كذبهم على الله وعلى الناس :

فقد كذب اليهود على الله واتهموه بالبخل، وكذبوا على الله حين حرفوا الكلم عن مواضعه، وكذبوا على الله وعلى الناس حين ادعوا أنهم قتلوا المسيح بن مريم وهذه نماذج من كذبهم وإخفائهم للحقائق، يفضحهم فيها القرآن الكريم وتؤدي المقابلات فيها دوراً هاماً ومؤثراً في هذا المجال.

أ- قال تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآيات : (روي أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا. فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه كلف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص ابن عازوراء : يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون فأشركوا فيه) ٢.

فاليهود هنا يكذبون على الله وينسبون البخل إليه بينما شواهد الحال تدل على أنهم أبخل خلق الله.

(١) المائدة : ٦٤ - ٦٦

(٢) الكشف : ٦٢٨/١

والمقابلات هنا متعددة :

١- فقد قابل قولهم يد الله مغلولة بالدعاء عليهم بغل الأيدي، وبإثبات الكرم لله في قوله (بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) فتكون هذه من المقابلات الفريدة في القرآن التي يقابل فيها طرفان بطرف واحد؛ وذلك لبشاعة التهمة التي يحاول اليهود- كذبا واختلاقا- أن يطلقوها على الله سبحانه.

وللزمخشري تعليل لطيف في تشية (يدها) في قوله (بل يدها مبسوطتان) وهي مفردة في (يد الله المغلول)، وهو أن هذه التشية (ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعا فبني المجاز على ذلك)^(١).

٢- وقابل (أطفأها الله) بـ (أوقدوا نارا للحرب) وهي توحى بفشل مقاصدهم في الكيد للإسلام وللمسلمين، وبكشف أكاذيبهم.

٣- وقابل بين حبهم للفساد وعدم حب الله لذلك. لبيان الفرق بينهم وبين المسلمين.

٤- وقابل بين (أكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) للإيحاء بكثرة الخير الذي يمكن أن يجنوه لو أنهم لم يكذبوا على الله، وأقاموا الكتب السماوية دستورا لهم ولم يحرفوها ويخفوها.

٥- وقابل بين قوله "(منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون) وهي مقابلة بين طائفتين من اليهود، (طائفة حالها أَمَمٌ"^(٢) في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي الطائفة المؤمنة كعبد الله بن سلام وأصحابه^(٣)) والطائفة الأخرى ساء عملها وهي الطائفة الكبيرة من اليهود. وهذه المقابلة فيها حث لليهود على تدبر أمرهم والتفكير في عاقبة أفعالهم السيئة. وناسب الختام بها بعد أن كشف كذبهم وتدبيرهم حتى ينصلح حالهم.

(١) نفسه : ٦٢٨/١

(٢) الأَمَمُ : السير القريب التناول، الهين، والوسط.

(٣) تفسير النسفي : ٢٩٢/١

ب- وفي مجال خطاب اليهود لكشف كذبهم أيضا يأتي قوله تعالى : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٧﴾

فالمقابلة هنا بين تأكيدهم (إننا قتلنا) ونفي الله لذلك في قوله تعالى : {وما قتلوه} وتأكيده ذلك بعدة مؤكدات بعدها، وهي نفي الصلب الذي ادعوه والاستدراك ب {لكن شبه لهم} وتأكيده النفي في (وما قتلوه يقينا) كل هذه المؤكدات في مقابل ما يزعمون تأكيده بقولهم (إننا قتلنا المسيح).

والمقابلة بين جو الشك والظن الذي أحاط بنهاية عيسى وجو العلم واليقين الذي يشته القرآن في هذه القضية.

وهذه المقابلات توحى بكذب اليهود وضلالهم، ومحاولتهم تزييف الحقائق.

٣- في تحذيرهم وتهديدهم :

وتأتي المقابلة في خطاب اليهود للتحذير والتهديد إن لم يؤمنوا قال تعالى : يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ إِن نَّطْمِسْ^(١) وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾ والمقابلة هنا بين (الوجوه والأدبار) توحى بالتهديد بطمس مادي أو معنوي: مادي كالسخ والتشويه ومسح معالم الوجه حتى يصير كالقفا كما حدث لأصحاب السبت حين مسخهم الله قردة خاسئين، أو معنوي بطمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم.

وهو تهديد مخيف ومرعب كان له أثره الفعلي في إسلام كعب الأحبار فحين سمع هذه الآية بادر إلى الماء فاغتسل وأسلم وهو يقول : (وإني لأمسُّ وجهي مخافة أن أطمس^(٢)).

(١) النساء : ١٧٥

(٢) نطمس وجوها : أي نسويها حتى تعود كأقفاهم، مجاز القرآن ١٢٩/١

(٣) النساء : ٤٧

(٤) تفسير ابن كثير : ٥٠٨/١

٤- في بيان جوانب من أخلاقهم :

وهذه طائفة من المقابلات في عدة آيات متفرقات تكشف عن بعض الجوانب الخلقية التي تعاملوا بها مع المسلمين، والقرآن يكثر من ذكر هذه الآيات حتى يحذر المسلمون كيد اليهود ويعدوا لهم العدة. والمقابلات هنا واضحة وصریحة ومعظمها يبرز التناقض في شخصية اليهود.

١- فهم يؤمنون بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأخذون من الدين ما يوافق هواهم ويتركون غيره قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (١)

٢- ويشترون الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٢)

٣- ويشترون الدنيا بالآخرة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٣)

٤- ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

٥- ويؤمنون بالإسلام أول النهار ويكفرون آخره ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٥)

(١) المائدة : ٦١

(٢) البقرة : ١٧٥

(٣) البقرة : ٨٦

(٤) البقرة : ٨٥

(٥) آل عمران : ٧٢

والهدف الظاهر من وراء دعوتهم تلك هو إيقاع المؤمنين من أتباع محمد في الشك، لأنهم كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أعرف منهم بيوطن الأمور، فإذا رأوهم آمنوا ثم رجعوا عن إيمانهم ظن هؤلاء الأميون أنهم رجعوا لأنهم اكتشفوا خللا أو نقصا في الدين ولذلك عقب الآية بهذا الهدف (لعلهم يرجعون^(١)).

٦- ويتناقض قولهم مع فعلهم ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾^(٢) وتلك آفة يجب أن يتخلص منها كل داعية إلى الخير، حتى لا يصاب الناس بالشك والحيرة فتنتطفئ جذوة الإيمان في قلوبهم لما يرونه من تناقض أقوال الدعاة مع أفعالهم.

ثانيا : المقابلة في خطاب المنافقين :

عرفنا أن المنافقين ظهروا في المدينة وكان على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول والمنافق كما ورد في المعاجم هو من يخفى الكفر ويظهر الإيمان، ومن يضمر العداوة ويظهر الصداقة ومن يظهر خلاف ما يظن^(٣).

وقد وردت المقابلة في خطاب الله للمنافقين في أكثر من موضع في السور المدنية وكان لها أثرها في كشف نواياهم تجاه المسلمين وتحذير المسلمين منهم وتهديد المنافقين بسوء العاقبة، ومن هذه المقابلات ما يلي :

أ- فيما يتصل بعقيدتهم :

إذا جاز أن يكون للمنافقين عقيدة، فإن الآيات التالية توضح أنهم أصحاب عقيدة مزدوجة، يستخدمون جزءا منها في العلن والآخر في الخفاء. والآيات التالية توضح هذا الازدواج والتذبذب في عقيدتهم :

قال تعالى في سورة البقرة : يصف أحوال المنافقين كما ذكر ابن كثير

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠١﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٠٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ

(١) تفسير ابن كثير : ٣٧٣/١

(٢) البقرة : ٤٤

(٣) المعجم الوسيط مادة (نقق).

النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٧﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٢٠﴾

١- فهذه الآيات تقابل ما يخفون من عدم الإيمان بما يبدونه من قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر.

٢- وتقابل خداعهم لأنفسهم دون وعي وشعور بخداعهم لله والذين آمنوا.

٣- وتقابل ما زاده الله عليهم من مرض الرجس والضلال بما في قلوبهم من مرض النفاق في الدين^(٢).

٤- وتقابل ادعاءهم الكاذب بأنهم مصلحون بدعوة الدين لهم بترك الفساد في الأرض.

٥- وتقابل تعاليهم وتكبرهم حين يصفون المسلمين بالسفة بدعوة الدين لهم بالإيمان كما آمن الناس.

٦- وتقابل بين ما يلقون به المؤمنين من التظاهر بالإيمان وما يقولونه لرؤسائهم - شياطين اليهود والمشركين - من التحزب معهم، والسير وإياهم في طريق الضلال والاستهزاء بالدين.

٧- وتقابل بين استهزائهم بالمؤمنين واستهزاء الله بهم على طريقة المشاكلة^(٣).

٨- وتختتم الحديث عن عقيدتهم بالمقابلة بين الضلالة والهدى إشعاراً بأن المنافقين بهذا السلوك المشين قد اختاروا - بل اشتروا - الضلالة بالهدى ..

وهذه المقابلات الثمان تعكس حالة التآرجح والذبذبة والتناقض التي تميز المنافقين وهي تكشف بهذا عن المخبوء من سرائرهم حتى يتعرف عليهم المجتمع الإسلامي فيحذر منهم.

(١) البقرة : ٨ - ١٦

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٨/١

(٣) المتشاكلة : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. (الإيضاح) للقزويني

ولعل في هذا الكشف ما يحمل بعضهم على الخجل من نفسه حين يراها عارية بالسوء أمام الجميع فيأدر إلى التوبة والاستقامة.

ب- في بيان حالهم عند نزول سورة من القرآن :

توضح المقابلة الآتية أثر القرآن على نفوس المنافقين بالمقارنة بأثره على نفوس المؤمنين قال تعالى :

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ^(١) ﴿١٢٨﴾

والمقابلة هنا بين موقفين تجاه الوحي :

١- موقف المنافقين، ويظهر في التساؤل المريب المخذل المشكك : أيكم زادته هذه

إيماناً ؟

كما يظهر في نظر بعضهم إلى بعض نظرة يفهم منها أنهم يريدون الانصراف خلسة عن مجلس الرسول خشية أن يكون في السورة ما يفضحهم أو يكلفهم بأمر جديد، ثم ينصرفون تتبعهم لعنة الله.

ولذلك لا يزيدهم هذا التصرف إلا رجسا فوق رجسهم يلزمهم حتى يموتوا وهم كافرون..

٢- موقف المؤمنين : يتلقى المؤمنون السورة الجديدة بالحفاوة والاستبشار فتقع على قلوبهم موقع الندى على الغلة الصادية، تزيدهم إيماناً على إيمانهم ويستبشرون بما فيها من أوامر يغيرونها بتنفيذها حب الله والدين.

ج- موقفهم من الدعوة إلى الجهاد :

والجهاد هو المحك العملي الذي يكشف المنافق من الصادق. فلئن أظهر شخص ما إسلامه فليس لنا عليه من سبيل، ولكن التجربة والاختيار يظهران صدق هذا الإسلام، ومن ثم كان الجهاد هو الذي كشف المستور من نواياهم، وأظهر الوجه القمئ للمنافقين.

(١) التوبة : الآيات (١٢٤، ١٢٥، ١٢٧).

وسنعرض هنا نماذج للمقابلات في خطاب المنافقين نتبين منها أن موقفهم من الدعوة إلى الجهاد يتلخص في :

(١) التخلف والنكوص.

(٢) التثييط من همة المسلمين والخط من روحهم العالية في القتال.

(٣) الترقب والتريص انتظارا للنتائج حتى ينضموا إلى الغالب.

(٤) تكالبتهم على طلب الغنائم بغير حق.

وبالطبع ليست هذه كل مواقفهم في الجهاد، فهناك التحالف مع اليهود والمشركين وهناك الإرجاف بالباطل بين الصفوف، ولكننا نختار من المواقف ما عرض فقط بأسلوب المقابلة.

(١) المقابلة في التخلف والنكوص عن الجهاد :

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولَئِكَ أَلْقَوْا^(١) مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾^(٢) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(٣) لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٤) ﴾

فالمقابلة بينهم وبين المؤمنين هنا حين يأمر القرآن بالجهاد، تظهر مدى تقاعسهم عن الجهاد. ورضاهم بأن يكونوا من النساء القواعد المتخلفات عن الجهاد. بينما الرسول والذي آمنوا معه يسارعون بتلبية داعي الجهاد باذلين المال والنفس في سبيل الله.

ومن ثم كان الجزاء بينهما متقابلا أيضا لأن الجزاء غالبا من جنس العمل فكان جزاء المؤمنين الفلاح والخلود في الجنات تجري الأثمار العذبة من تحتها وذلك هو الفوز العظيم في مقابل دمغهم بعدم الفهم والفقہ والطبع على قلوبهم فلا يهتدون.

(١) أولو الطول : أصحاب الغنى والسعة من المنافقين : (كلمات القرآن ١١٤).

(٢) التوبة : ٨٦ - ٨٩

(٢) التشييط من عزائم المسلمين :

مثلما حدث في غزوة تبوك التي تسمى غزوة العسرة، وكانت في الصيف القاطظ،

فلما أمر الرسول الناس أن ينبعثوا معه، تعلل المنافقون بشدة الحر^(١) - قال تعالى :

﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾^(٢) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا جَرَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(٣) ﴿

والمنافقون بهذا التعلل إنما يشيعون روح الكسل والتراخي بين صفوف المسلمين النشطين إلى الجهاد.

ولذلك قابل الله تعللهم بعدم النفور في حر الدنيا بأن نار جهنم التي تنتظر المتخاذلين أشد حرا، وقابل الضحك القليل في الدنيا بالبكاء الكثير في الآخرة فأيام الدنيا محدودة معدودة، أما في الآخرة فإن يوما عند ربك كآلف سنة مما تعدون.

(٣) التربص والترقب انتظارا للنتائج :

رأينا المنافقين وقت الجهاد ينكصون على أعقابهم ويتعللون بأعذار واهية ويشيعون الخور والضعف بين المسلمين، فإذا ما شمر المسلمون - بالفعل - عن مساعد الجدد وخاضوا حومة الوغي وقف المنافقون متربصين ينتظرون نتيجة المعركة فإذا تم الفتح والنصر للمسلمين، تظاهروا للمسلمين بالمودعة، ودلوا عليهم دلالة كاذبا بأنهم كانوا معهم، بقلوبهم، أو بما قدموه لهم من مساعدات.

أما إذا كان للكفار الغلبة - كما حدث في غزوة أحد - فإنهم يدلون عليهم أيضا بما قدموه لهم من مساعدة في الباطن من تخذيل وخبال في صفوف المسلمين قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ^(١) عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) انظر أسباب النزول للسيوطي : ٩٨/٢

(٢) التوبة : ٨١ - ٨٢

(٣) نستحوذ عليكم : نحافظ عليكم، ونمنع اذى المسلمين عنكم. (المعجم الوسيط).

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١﴾

والمنافقون يحسون بالنشوة والسعادة حين يصاب المسلمون بأذى ويحسون بالنكد والهم والسوء إذا أصاب المسلمين خير. قال تعالى :

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢﴾

والمقابلة هنا بين حالهم تبرز مدى الحقد والغيط الذي يعتمل في قلوبهم تجاه المسلمين. وفيها تحذير للمسلمين منهم وكشف لخططهم ومشاعرهم تجاههم وشبه بهذا الموقف أيضا قول الله تعالى عنهم :

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٣﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِئْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٤﴾

والمقابلة في الآيتين بين حالتين من حالات المنافقين تثير الاشتزاز من تصرفهم المخجل والمخزى.

فهم لا يسارعون إلى القتال والجهاد شأن المؤمنين المخلصين بل يتباطئون ويتأقلون تربصا وانتظارا لنتيجة المعركة : فإن كانت الدائرة على المسلمين أو أصابتهم مصيبة فرحوا إذ نجوا منها واعتبروا - لجهلهم - أن عدم اشتراكهم واستشهادهم في المعركة نعمة من الله عليهم.

وإن كانت الغلبة للمسلمين وأصابوا الغنائم... تمنوا أن لو كانوا معهم فيفوزون فوزهم العظيم مع أنهم هم الذين تباطئوا وتكاسلوا.

وهذان الموقفان المتقابلان يبرزان مدى التناقض بين ظاهر المنافقين وباطنهم ومدى الأرجحة وعدم الثبات على موقف واحد، وفيها أيضا كشف وتعرية لنواياهم حتى يحذرهم المسلمون.

(١) النساء : ١٤١

(٢) التوبة : ٥٠

(٣) النساء : ٧٢ - ٧٣

(٤) تكالبهم على طلب الغنائم بغير حق :

كان من المفروض أن يتواري المنافقون خجلا من المسلمين ومن أنفسهم حين يعود المسلمون منتصرين غانمين، ولكن العجيب أنهم - وقد نكصوا عن القتال وخذلوا المقاتلين.. وتربصوا بالمسلمين - يزاحمون المسلمين أرزاقهم، ويرون لهم في الغنائم حقا واجبا، بل يتناولون أحيانا على الرسول ويلمزونه في عدالة التوزيع فإذا أعطاهم منها رضوا وإذا لم يعطهم منها سخطوا.

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾^(١)

والمقابلة هنا تكشف حالهم بين الرضا إذا نالوا مالا يستحقون والسخط إذا لم ينالوا شيئا.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حلما معهم إلى أبعد حدود الحلم، وترك للقرآن ولفهم المسلمين له مهمة كشفهم والقضاء عليهم :

يروى البخارى والنسائى عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله، فقال رسول : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ائذن لي فأضرب عنقه، فقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية قال أبو سعيد فتزلت فيهم "ومنهم من يلزمك في الصدقات... إلخ"^(٢)

(٥) بين المؤمنين و المنافقين :

سبق أن عرضنا لموقف المنافقين وموقف المؤمنين والفرق بين ما يتصف به كل فريق مسنهما عندما تحدثنا تحت هذا العنوان في سياق الحديث عن المقابلة في خطاب النبي والمؤمنين وعرضنا لذلك الآيات (٦٧ - ٦٨)، (٧١ - ٧٢) من سورة التوبة، فلا داعي لتكرارها هنا مرة أخرى^(٣).

(١) التوبة : ٥٨

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣٦٣/٢، وأسباب النزول للسيوطي : ٩٥/٢

(٣) انظر ص (٢٥٥) من هذا البحث

ثالثا : المقابلة في آيات التشريع

تقديم :

يرتبط التشريع في الدين الإسلامي بالعقيدة ارتباطا وثيقا، فإذا كانت العقيدة تعني الاعتقاد الجازم وتصديق القلب بكل ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم مما علم بحديثه به.

وإذا كانت الشريعة هي الطريقة الموضوعية للسير عليها، والتكاليف التي تؤدي بالجوارح، فإن الإسلام يشمل العقيدة والشريعة، أي التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح^(١).

وقد سبق القول بأن القرآن المكي اهتم بغرس العقيدة، بينما اهتم القرآن المدني بالتطبيق العملي لتلك العقيدة عن طريق رسم النظم والتشريعات التي تكفل السلامة والأمن للفرد والمجتمع.

ونضيف هنا أن تشريع الله للبشر قائم على أساس علمه تعالى بما يصلحهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟﴾^(٢).

وإذا كانت القوانين الأرضية تحترم برقابة الشرطة وبدافع الخوف من العقاب فإن التشريعات الإلهية تحترم بوازع من الضمير الديني الذي يرى في رقابة الله المطلقة عاصما له من الوقوع في الخطأ، ولذلك يندر أن تجد آية من آيات التشريع غير مقترنة بالحث على طاعة الله ورقابته لأنه بدون هذه الطاعة، والشعور بالمراقبة لن تنفذ وصايا أو تشريعات. وحتى في أمور التعامل المادي البحت كآيات الميراث أو آية الدين، نجد في ثناياها أوامرا أو نواهي بتقوى الله وطاعته مثل... وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣).

ومن الطبيعي - ونحن نبحث في المقابلة في آيات التشريع - ألا نتعرض لكل آيات التشريع في القرآن الكريم، بل نختار منها ما ورد بأسلوب المقابلة فقط، ونأخذ من المقابلات ما أدى دورا مؤثرا في بيان الحكمة من هذا التشريع والربط بينه وبين خشية الله ومراقبته.

(١) انظر دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة : عطية صقر

(٢) الملك : ١٤

(٣) البقرة : ٢٨٢

ويمكن القول بأن المقابلة في آيات التشريع كانت أكثر ظهوراً في التشريع للأسرة وما يرتبط بها من زواج وطلاق ونفقة وتبين^(١)، وفي بعض المحرمات كالخمر والربا، وفي بعض الحدود كحد القذف والقتل، وفي جانب من أصول العلاقات بين الدولة المسلمة وغيرها، كما ترد على قلة - في العبادات كالصلاة والحج.

وهذه طائفة من النماذج للمقابلة في التشريع :

(١) في الصلاة .. سبق الحديث عنها في (خطاب النبي) ص: ٢٤٦

(٢) في الحج

(٣) في بناء الأسرة

(٤) في تحريم الخمر

(٥) في تحريم الربا

(٦) في حد القذف

(٧) في القصاص

(٨) في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم

(٢) في الحج :

أ- قال تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

ورغم أن سياق الآيات يوحي بأن الأمر هنا إنما هو لسيدنا إبراهيم عليه السلام إلا أننا نميل إلى ما أورده الزمخشري في رواية عن الحسن^٢ : أنه خطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع. والمقابلة في الآيتين بين :

(١) التبيين : اتخاذ ولد الغير ابناً واعطاؤه كافة الحقوق المترتبة على هذا التبنى وقد أبطله الإسلام

بقوله سبحانه {وما جعل أدياءكم أبناءكم} . وسيأتي الحديث عن ذلك ص (٢٨٦) .

(٢) الحج : ٢٧ - ٢٨

(٣) الكشف للزمخشري : ١١/٣

(١) الذهاب إلى الحج مترجلين والذهاب راكبين وهي توحى بكثرة الجموع الملبية للأذان بالحج، وتدافعهم ما بين راجل وراكب قاصدين إلى مكة من كل فج عميق.

(٢) وبين منافع لهم ويذكروا اسم الله. أي بين المادة والروح وهي تلخص الحكمة من الحج، والأثر الذي يعود على المسلمين من ورائه ففيه غذاء مادي وغذاء روحي: فيه التجارة والمنافع الدنيوية وفيه ذكر الله والالتجاء إليه وتلبية ندائه وهذا أكبر زاد روحي.

وهكذا جمعت الآيتان - بأسلوب المقابلة - بين تشريع الحج والحكمة من ورائه ماديا وروحيا.

ب- ومما يتصل بفريضة الحج، ما ورد من آيات في سورة البقرة تعلم المسلمين بعض الآداب المتعلقة بهذه الفريضة.

قال تعالى : فَإِذَا قُضِيَتْمْ مِّنْ نَّسِكِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

والأدب الذي يريد القرآن أن يثبت في قلوب المسلمين هو أن مناسبة الحج يحسن أن يتغلب فيها الطابع الروحي على الطابع المادي. وعلى المسلمين إذا ما انتهوا من أداء النسك أن يستوجهوا إلى ربهم بالدعاء بخيري الدنيا والآخرة ولا يقتصرُوا في دعائهم على مطالب الدنيا.

والآيات تعرض نموذجين متقابلين :

نموذج هم الدنيا وحدها، فهي شغله الشاغل حتى في أفدس الأماكن وهؤلاء قد يعطيهم الله في الدنيا ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب والنموذج الآخر الذي يقابله، لمن لا يحرصون همهم في الدنيا بل يتطلعون إلى الخير في الدنيا والآخرة ومن ثم يدعون الله بحسنة الدنيا وهي النعمة والعافية والتوفيق، وحسنة الآخرة وهي الرحمة والإحسان والنجاة، فيستجيب الله لدعائهم.

(١) خلاق : نصيب من الخير أو قدر منه (كلمات القرآن : ٢٤).

(٢) البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢

ولقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى هذا الموقف قائلين : اللهم اجعله عام غيث
وعام خصب وعام ولاء وحسن، ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم هذه
الآيات^(١).

والمقابلة بين الفريقين تجعل المسلم ذا القلب البصير يختار من الدعاء والأدب في هذا
الموقف ما يعود عليه بخيري الدنيا والآخرة.

(٣) في بناء الأسرة :

يحرص الإسلام فيما يحرص على تكوين أسرة سليمة متماسكة، لأنها الخلية الأولى في
المجتمع ويتوقف صلاحه على صلاحها وبالعكس
ولذلك وضعت الضوابط التي من شأنها أن تكفل سلامة هذا الأساس الذي سيقام
عليه ببناء المجتمع. ومن الضوابط التي وردت بأسلوب المقابلة :

أ- اختيار الزوجة :

لا يحفل الإسلام بجمال المرأة أو حسبها قدر احتفاله بدينها فقد ورد في الحديث
الشريف (... فاظفر بذات الدين تربت يداك^(٢)).

والآية التي نستشهد بها هنا والتي جاءت بأسلوب المقابلة حتى يتبين المسلم الصواب
من الخطأ هي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ
أَعَجَبْتَكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ
وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

والمقابلة في هذه الآية بين طريقتين لا يلتقيان أبداً، لأن أحدهما موصل إلى النار
والآخر موصل إلى الجنة، إنها بين الشرك والإيمان وهيئات أن تبني أسرة مترابطة
وطرفاها متنافران.

(١) أسباب النزول للسيوطي : ٢٧/١

(٢) صحيح البخاري : كتاب الشعب ٩/٧

(٣) البقرة : ٢٢١

والإسلام حريص على تحريم نكاح المشركات حتى يُؤْمِنَنَّ، والمشركين حتى يؤمنوا ويفضل الأمة المؤمنة والعبد المؤمن على المشرِك ولو كان حرا حتى تتميز الشخصية المسلمة بالتماسك والقوة.

ب- العلاقة الزوجية :

في آيات كثيرة ترى القرآن الكريم يصور العلاقة الزوجية بأنها السكن والمودة والرحمة ومن هذه المودة والرحمة ينبت النبت الطيب الصالح وتنشأ الأسرة الإسلامية التي تنتظمها روح المحبة والتعاون .. وحتى عندما يتعرض القرآن للعلاقة الجنسية بين الرجل و زوجته، وهي في الحياة أمر شهواني صرف يتزل بالإنسان إلى البعد الحيواني نجد الإسلام يضيف عليها من الشفافية والرقّة ما يذهب بغلظ الحيوانية ويلبس العملية الجنسية ستارا روحيا راقيا. قال تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ^(١)

والمقابلة بين كون الزوجات لباسا للرجال وكون الرجال لباسا للنساء توحى (بقرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام^(٢)) وفيها من التقارب والتلاحم الروحي والنفسي ما يفوق بكثير هذه الدقائق القليلة من الاتصال المادي.

ج- في آداب الطلاق :

فإذا ما دب الخلاف بين الزوجين وخيف على تلك العلاقة من الشقاق،

١- فإن الخطوة الأولى هي فَاَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا^(٣)
حكم عدل من أهل الزوج في مقابل حكم عدل من أهلها، في محاولة مخلصة لرأب الصدع بين الزوجين.

٢- فإذا استحال العشرة بين الزوجين، فلا مناص من الطلاق، وحتى يخفف الإسلام من وطأته وبغضه فإنه شرع محمدا بطلقتين، حتى لا يكون الطلاق سلاحا في

(١) البقرة : ١٨٧

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي.

(٣) النساء : ٣٥

يد الرجل يستعمله في إضرار الزوجة وبقائها معلقة، كما ذكر السيوطي (حين قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك. فكلما هممتُ عدتُك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فسكت حتى نزل القرآن^(١) **الطَّلَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**^(٢)

وبعد الطلقتين يخيره الإسلام بين أمرين كلاهما فيه حفاظ على الأسرة وعلى علاقات المودة بين الناس : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد تكرر هذا المطلب في أكثر من موضع لأهميته الكبيرة في الحفاظ على أواصر المحبة قال تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا^(٣) ﴾ وقال أيضا : **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**^(٤)

ولا نريد الدخول في تفاصيل فقهية ليس مجالها هذا البحث البلاغي وإنما يهمنا هنا أن نشير إلى موقع المقابلة في النص القرآني ووقعها وأثرها في ربط التشريع بالتأثير الوجداني والروحي.

فالمقابلة بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان

أو بين الإمساك بمعروف والمفارقة بمعروف

ثم التعقيب على ذلك بالنهي عن الإمساك ضررا واعتداء على حرية المرأة وبإشهاد العدول وإقامة الشهادة الخالصة لله، والتذكير بتقوي الله في هذا الموقف .. كل ذلك يشير إلى الربط بين المقابلة في التشريع وبين هذا التأثير الروحي الذي يوقظ الضمير، فكما قلنا سابقا^(٥) إن أي قانون لا بد له من عين ساهرة تحرص عليه وتحرسه أما القانون

(١) أسباب النزول للسيوطي : ٣٢/١

(٢) البقرة : ٢٢٩

(٣) البقرة : ٢٣١

(٤) الطلاق : ٢

(٥) انظر التقديم للمقابلة في آيات التشريع ص (٢٧٩) .

الإسلامي فالضمير هو الرقيب الأول، ولذلك ارتبطت التشريعات بما يوقظ منه الحس الديني وينبئه.

٣- وسوف يترتب على هذا الطلاق بعض الأحكام كرضاعة الطفل أو نفقة الزوجة وهنا يحرص الإسلام على بيان هذه الأحكام في أسلوب المقابلة المؤثرة أيضا في الجانب الوجداني الذي يسهم في تنفيذ هذه الأحكام على الوجه الصحيح.

قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا ^(١) عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ^(٢)

ففي الآية مقابلة بين الواجبات والحقوق التي تكفل للرضيع نشأة سليمة قوية رغم ما حدث من فراق بين الأبوين.

إن عليها أن ترضعه حولين كاملين، وهي الفترة التي اعتبرها الأطباء وعلماء النفس المعاصرون فترة مثالية تلي جميع الحاجات الصحية والنفسية للطفل.

وفي مقابل ذلك، فإن لها حقا واجبا على والد الطفل وهو أن يتكفل برزقها أي إطعامها وكسوتها بالمعروف.

وتأتي هذه المقابلة مصحوبة بمقابلة أخرى هي عدم الإضرار بالوالدة في مقابل عدم الإضرار بالوالد.

والمقابلتان تأتيان في جو من الألفة والتشاور والمعروف ويعقب عليهما بالأمر بتقوى الله ومراقبته فهو البصير بالأعمال وبالنوايا.

وهكذا يتحقق التأثير الوجداني المطلوب في مثل هذه المواقف الحساسة.

٤- وهناك آية أخرى تتصل بالنفقة، وتشتمل على مقابلة رقيقة ولطيفة في مثل هذا الموقف الذي يحتاج إلى الرقة واللفظ لتضميد الجراح وتهدئة الخواطر وهي تأتي بعد

(١) إن أراد فصلا : فطاما للولد قبل الحولين. (كلمات القرآن: ٢٨).

(٢) البقرة : ٢٣٣

تفصيل في النفقة تُضَمَّنَ المسكن وأجرة الرضاعة وقد وضعت هذه المقابلة قاعدة عامة لا يختلف عليها، وهي أن النفقة عموماً تخضع لحالة الزوج يساراً وإعساراً قال تعالى :
لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾^(١)
فالمقابلة هنا بين الغنى والفقر، وبين العسر واليسر

وقد عبر القرآن عن الغنى بقوله {ذو سعة} إشعاراً بالبسطة وسعة الرزق كما عبر عن الفقر بقوله {من قدر عليه رزقه} إشعاراً بالشفقة عليه وعدم تكليفه بما فوق طاقته.

د- إبطال الظهار والتبني :

ومن الأمور التي كانت تهدد كيان الأسرة بالتفكك، أو تبني كياناً أسرياً على أساس كاذب، عادتا الظهار والتبني.

والظهار (أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي. وكان طلاقاً في الجاهلية ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم^(٢)) والتبني : أن يلحق الرجل بنسبه من ليس من صلبه ويدعوه ابناً له، وقد كان موجوداً في صدر الإسلام فقد تبني الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة الكلبي فكان يدعى زيد بن محمد^(٣) فلما بدأ الإسلام يقيم صرح الأسرة على الأسس الطبيعية دون خلط أو تشويه أبطل التبني وعلم المسلمين أن محمداً ليس أباً لـ أحد من المسلمين ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾^(٤)

والآية التي نستشهد بها للمقابلة في إبطال الظهار والتبني هي قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ أَلْفًا تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(٥)

(١) الطلاق : ٧

(٢) تفسير ابن كثير : ٣٢٠/٤

(٣) نفسه : ٤٦٥/٣

(٤) الأحزاب : ٤٠

(٥) الأحزاب : ٤

والمقابلة هنا (١) بين الزوجات والأمهات

(٢) وبين الأدعياء والأبناء

(٣) بين الكذب من جانب هؤلاء المتقولين بأفواههم حين يجعلون الزوجة أما والدعى ابنا. والصدق والحق في قول الله الذي يحرم هذا ويهدي إلى الفطرة السليمة والسبيل الحق وقد أفادت هذه المقابلة الحسم في تحريم هاتين العادتين كما أفادت حرص الإسلام على قيام العلاقات الأسرية على أسس طبيعية غير مزيفة.

(٤) المقابلة في تحريم الخمر :

مر تحريم الخمر في الإسلام بمراحل متدرجة، جريا على عادة الإسلام عندما يحرم ما جرى مجرى العرف في طباع الناس، فإنه لا يأخذ الناس أخذا بل يتدرج بهم في رفق وتؤدة حتى يقتنع الناس بأنفسهم بسلامة الخط الإسلامي ومنفعته لهم.

والآيات القرآنية الواردة في الخمر لم تخل من أسلوب المقابلة على ما سنرى ولعل السر في ذلك هو ما يؤديه التقابل في مثل هذه المواقف من تأمل ونظر في جانبيين أحدهما ضار والآخر نافع، فيختار الإنسان ما ينفع ويصلح ويترك غيره.

والمراحل التي مر بها تحريم الخمر هي :

١- قال تعالى في سورة النحل وهي مكية لا مدنية :

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

في مكة حيث لم تنزل بعد التشريعات والنظم والقوانين، لأنه لم توجد الدولة المسلمة حينذاك، ترد هنا إشارة عابرة إلى الخمر يفهم منها المسلمون شيئا ما، وهو أن الخمر ليست من الرزق الحسن، لأن العطف بين السُّكَّر والرزق الحسن يقتضى المغايرة وكانت المقابلة بين السُّكَّر وهو الشراب المُسَكَّر الذي يتخذونه من البلح والعنب، وبين الرزق الحسن هي التمهيد والبداية لترويض النفوس على تقبل ما سيأتي بعد ذلك في الخمر من أحكام.

٢- أما في المدينة، فقد بدأ المسلمون يسألون عن حكم الخمر ضمن ما كانوا يسألون عن أحكام كثيرة، وهذه الأسئلة تصور اليقظة الفعلية للضمير المسلم ولم يكن

الإسلام ليلجأ - كما قلنا - إلى تحريمها دفعة واحدة، حتى ولو ملك من القوة المادية ما يستطيع به قهر الناس وإجبارهم، ومن أجل ذلك كانت الإشارة الثانية أوضح وأصرح، ولكنها غير قاطعة، بل تركت لهم حرية الاختيار، بعد أن أرشدتهم إلى بداية الطريق... قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا... ﴾^(١)

فقابل هنا بين الإثم الكبير، ومنافع للناس، ولكنه جريا على مبدأ التدرج - بينَ للمسلمين أن إثمهما أكبر من نفعهما.

والمقابلة هنا تجعل المسلم يوازن ويقارن بين ما يكسبه من الإثم الكبير وما يجنيه من منفعة دنيوية، وتترك له - وحده - اختيار ما يتواءم ومصلحة دينه ودنياه.

٣- ثم يخطو التشريع خطوة أكبر، بعد أن يكون قد أطمأن إلى أنه قد احتل من مساحة الضمير المسلم رقعة أكبر، وبعد أن يجار عمر وأمثاله بالدعاء "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا"^(٢) وبعد أن تفسد الخمر صلاة المسلمين فيخطئون في قراءة القرآن خطأ فاحشا. على نحو ما روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فَأَخَذْتُ الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون^(٣).

فيلجأ القرآن الكريم عن طريق المقابلة أيضا. إلى خطوة أخرى تحد بصورة كبيرة من تعاطي الخمر، وتخفف من عادة الإدمان عند الناس :

قال تعالى : يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ^(٤)

(١) البقرة : ٢١٩

(٢) تفسير ابن كثير : ٥٠٠/١

(٣) أسباب النزول للسيوطي : ٢

(٤) النساء : ٤٣

والمقابلة هنا بين قوله (وأنتم سكارى) وقوله (تعلموا ما تقولون) أي بين أوقات السكر وأوقات الصحو والإفاقة، وبين طمس العقل وتغشيته بعمى السكر وغطاء الخمر، وبين يقظة الفكر والإدراك والتمييز بين غث الكلام وجيده وبين الجهل والعلم. ولقد كان العرب يدمنون شرب الخمر وبما أن أوقات الصلاة متفرقة تتخلل النهار والليل، فلن يجد المسلم الذي يتغني المحافظة على دينه وعقله - بعد أن أيقن أن الصلاة عماد الدين - لن يجد المسلم حينئذ وقتا للشراب، ولن يجد وجها للمقارنة بين أداء الصلاة عالما وواعيا بما يقوله فيها، وبين لذة الشراب والغيبة عن الوعي، إنه - لاشك - سيختار الصلاة، لأنها الصلة بربه ودينه الذي يحفظ عليه خلقه وعقله، ولن ينحاز إلى الخمر التي تقطع صلته بالوعي والإدراك.

٤- وبعد هذا التدرج تكون النفوس قد هيئت بالفعل لتقبل الكلمة الأخيرة في شأن الخمر، فيجئ الحكم الحاسم في النهاية ليقضى على دولة الخمر والسكر ولا يبقى في نفس عمر وغيره أدنى شك في تحريمها، فيأتي قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾^(١)

وهنا يجيب عمر على قوله تعالى {فهل أنتم منتهون}؟ قائلا (انتبهنا انتبهنا)^(٢).

ويمكن أن نلمس المقابلة هنا بين ما يريده الله للمؤمنين من طهارة وبين ما يريده الشيطان لهم من رجس ودنس.

بين نقاء العقل وصفائه وإقباله على ذكر الله والصلاة وبين غشاوته وصدده عن ذكر الله وعن الصلاة.

بين الصداقة وتآلف القلوب مع طهارة الإيمان، والعداوة والبغضاء والشحناء التي يوقعها الشيطان بين الناس، حين تلعب الخمر برعوسهم فيتسابون ويتشائمون، وربما

(١) المائدة : ٩٠ - ٩٢

(٢) ابن كثير : ٥/١

يقتل بعضهم بعضا دون وعي، حتى إذا أفاق لم يجد أمامه سوى الثارات والعداوات والبغضاء.

وأخيرا هناك مقابلة بين طاعة الله بالتزام تحريم الخمر وبين عصيانه باتباع هوى الشيطان.

٥- المقابلة في تحريم الربا :

الربا : في اللغة : الفضل والزيادة

وفي الشرع : فضل حال عن عوض شرط لأحد المتعاقدين^(١)، وفي علم الإقتصاد : المبلغ يؤديه المقرض زيادة على ما اقترض تبعا لشروط خاصة^(٢).

وقد كان التعامل بالربا شائعا في الجاهلية، يمارسه التجار وأصحاب النفوذ والسطوة. ويرزح تحت ثقله وعبئه المحتاجون والضعاف ولكي يحل الإسلام نظامه في التعامل محل الربا، لم يكن أمامه بد من الحث على الصدقة وتطهير المال بالزكاة، وبث روح الأخوة والشعور بالتضامن بين المسلمين واعتبارهم كالجسد الواحد.

ولذلك فإننا نجد في القرآن المكي نفسه إشارات تلفت النظر إلى أن نظام الربا ليس هو النظام الذي يرضيه الإسلام، وكانت هذه الإشارات هي التمهيد لتحريمه في المدينة تحريما قاطعا.

١- هذه آية مكية تحذر الناس من استثمار أموالهم عن طريق الربا بعد أن تحثهم على إعطاء كل ذي حق حقه.

قال تعالى {فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًّا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} (٣)

فالمقابلة هنا بين مال يستثمر في الربا، الهدف منه أكل أموال الناس ومال يعطى كزكاة يقصد بها وجه الله.

(١) انظر : كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار : ٢١٧/١، تقي الدين الحسيني الدمشقي ط ٢، صبيح، القاهرة.

(٢) انظر المعجم الوسيط : ٣٢٦/١

(٣) الروم : ٢٨-٣٩

فتكون النتيجة المتقابلة أيضا أن المال الأول لا يربو عند الله ولا يزيد (فلا يربو عند الله) وأن المال الثاني يتضاعف ويزيد ويبارك الله فيه وفي أصحابه (فأولئك هم المضعفون)

٢- أما في المدينة فقد نزل القرآن يحرم الربا تحريما قاطعا، ويدحض قول الزاعمين بأنه مثل البيع، ويبين جزاء المرايين وثواب المتصدقين، وذلك في سياق حديثه عن الصدقة : الوجه المضى المقابل لوجه الربا الكالح، قال تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ [البقرة: ٢٧٤-٢٧٥]

﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ [البقرة: ٢٧٦-٢٨٠]

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ^(١) ﴿٢٨١﴾

وقد حسمت هذه الآيات القول في قضية الربا وبينت - عن طريق التقابل - الفرق بينه وبين النظام الإسلامي القائم على التصديق والزكاة ولسنا بحاجة إلى بيان الأضرار الفاحشة للنظام الربوي الذي يسود العالم في العصر الحديث، فهي بادية لكل ذي عين، ولعل في ما رأيناه من تلك الأضرار ما يجعلنا ندرك حكمة الله البالغة من وراء التهديد بحرب من الله ورسوله، وبالمسحق والمس.

وبالرجوع إلى الآيات نرى فيها من المقابلات الكثير. وكلها تهدف من ناحية إلى حث المسلمين على الصدقة والزكاة والتطهر، وإلى إظهار الفرق بين الربا والبيع وبين الربا والصدقة، وتهدف كذلك إلى بيان عاقبة من يتصدق ويتطهر وعاقبة من يتمسك بالربا.

فهناك التقابل اللفظي بين الليل والنهار، والسر والعلانية، وبين البيع والربا، وبين أحل وحرم، وبين يحق الله الربا ويرى الصدقات وبين العسرة والميسرة. والتقابل المعنوي بين من أكلوا الربا وأتوا الزكاة وبين جزاء المرابين وهو المحق والسحق والتخبط، وجزاء المتصدقين وهو الأجر الكبير وإزالة الخوف والحزن من نفوسهم.

والتقابل الشرطي بين عدم الالتزام بمنهج الله في تحريم الربا والإيذان بحرب من الله ورسوله، وبين التوبة والاكتفاء باسترداد رءوس الأموال وهذه المقابلات جميعها ساهمت في توضيح موقف الإسلام من الربا وفي التنفير منه والحث على المقابل له وهو الصدقة.

٦- المقابلة في حد القذف :

وفي مجال محافظة الإسلام على وقاية المجتمع الإسلامي من التفكك، وصون أعراض الناس مسن القذف والهتك شدد في عقوبة الزنى فجعلها الجلد أو الرجم، ثم شدد في عقوبة القذف حتى لا تترك أعراض الحرائر هكذا نهبا لقالة السوء ومحبي الفتن ومروجي الشائعات، فجاء حد القذف في سورة النور عقب حد الزنى قال تعالى :

١- وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ^(١)

والمقابلة هنا بين العقاب المادي والعقاب الأدبي

فالعقاب المادي هو الجلد ثمانين جلدة

والعقاب الأدبي وهو أقسى على النفس الحرة من العقاب المادي وهو إسقاط شهادته

وردها وعدم قبوله شاهدا في أية قضية بالإضافة إلى وصفه بالفسق والخروج عن طاعة الله. ولعل في هذه المقابلة بين العقابين رادعا له عن القذف.

٢- وحين شق هذا الأمر^(١) على المسلمين اعتبرت هذه الآية حكماً للقذف العام،

أما حين يقذف الرجل زوجته فالآيات التالية تبين حكمه :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۖ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۖ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۖ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [النور: ٦-١٠]

إن من الصعب على من يقذف زوجته أن يأتي بأربعة شهداء ولقد كانت هذه الصعوبة مثار عجب سعد بن عبادة زعيم الأنصار حيث يقول للرسول صلى الله عليه وسلم (....ولكني تعجبت اني لو وجدت لكاع^(٢) قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أنحيه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته^(٣)).

ولهذا التعجب من سعد، ولغيره مما حدث لهلال بن أمية حين قذف زوجته كان حد من يقذف زوجته هو الملاءنة أو اللعان وهو في الشريعة كما فصلته الآيات أن يقسم الزوج أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنى والخامسة باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذباً وبذا يبرأ من حد القذف ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه والخامسة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقاً فبرأ من حد الزنى^(٤).

والمقابلة في حد القذف في هذه الآيات بين أربع شهادات للرجل أنه صادق وخامسة يستحق اللعنة عليها إن كان كاذباً

وأربع شهادات للمرأة أنه كاذب وخامسة تستحق غضب الله عليها إن كان صادقاً وبهذا التقابل بين شهادته و شهادتها يبرأ من حد القذف فلا يجلد ثمانين جلدة، وتبرأ هي من حد الزنى فلا ترحم ويتم التفريق بين الزوجين كما فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هلال بن أمية وزوجته^(٥).

(١) يعني أمر احضار أربعة شهداء.

(٢) يقال في سب المرأة بالحمق : يالكاع. (المعجم الوسيط).

(٣) انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٢٢/٣ وتفسير ابن كثير : ٢٦٥/٣

(٤) المعجم الوسيط : ٨٢٩/٢

(٥) ابن كثير : ٢٦٨/٣

ونحن نلاحظ هنا أن الحدود - وحد القذف دليل على ما نقول - مرتبطة بغيرها من قضايا التشريع بالحث على تقوى الله وطاعته، ومراعاة الله وهيبته فعنصر التأثير الوجداني لا يفصل عن عنصر التشريع بدليل التحذير هنا من لعنة الله ومن غضبه في حاله الادعاء الكاذب وبدليل النص على أن هذا من فضل الله ورحمته على الزوجين، حتى تبرأ الأعراض والنوايا مما بها من شك ودخل.

٧- المقابلة في القصاص :

القصاص : أن يوقع على الجاني مثل ما جنى : النفس بالنفس والجرح بالجرح^(١). ويعرفه علماء الفقه بأنه المماثلة، مأخوذ من اقتصاص الأثر وهو تتبعه لأنه يتبع الجناية فيأخذ مثلها^(٢).

وقد شرع الله القصاص حتى يرتدع من يفكر في جناية القتل أو الاعتداء على الغير، لأن الجاني إذا عرف أنه سيقبض منه بمثل جنايته، فإنه لا شك لن يقدم على الجناية وفي هذا حفظ لنفسه ولغيره وسلامة للمجتمع كله.

وقد ورد ذكر القصاص في سورة البقرة وفي سورة المائدة، وفي كلتا السورتين جاءت المقابلة تؤدي دورا بالغيا في التهيب والتخويف من مغبة الاعتداء.

قال تعالى : يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كِتَابَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾^(٣)

إن قتل النفس بغير حق من أكبر الكبائر بعد الكفر بالله كما ورد في الحديث الشريف (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات^(٤)).

(١) المعجم الوسيط : مادة (قصص).

(٢) انظر : كفاية الأحيار في حل غاية الاختصار، للإمام تقي الدين أبو بكر بن محمد الحصري الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩ هـ. ج ٢ - ١٤١ ط صبيح القاهرة.

(٣) البقرة : ١٧٨ - ١٧٩

(٤) الكبائر : شمس الدين الذهبي الشهير بـ (الحافظ الذهبي : ص ١٢ ط - دار الكتب الشعبية، بيروت.

والله سبحانه وتعالى يقول وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا^(١) ومن أجل ذلك شرع القصاص حتى يأمن الناس على حياتهم، إلا إذا عفا أهل القتل عن القاتل (فتجب دية مغلظة حالة في مال القاتل^(٢)) وقدرها مائة من الإبل كما ذكرت كتب الفقه.

وقد استمد الفقهاء هذه الأحكام مما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ويهمننا هنا أن نشير إلى المقابلة البلاغية في هاتين الآيتين..

فهنا مقابلة الحر بالحر، أي قتل الجاني الحر بسبب قتل المجنى عليه الحر وهكذا أيضا في العبد بالعبد والأنثى بالأنثى.

وفي هذه المقابلة جناس أيضا بين اللفظين حيث تشابها، بل اتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها واختلف المراد من كل منها^(٣)، فالأول الجاني والثاني هو المجنى عليه.

وبجانب هذه المقابلات : هناك مقابلة بين (فاتباع بالمعروف) و (أداء إليه بإحسان) والمقابلة هنا في حالة العفو وقبول الدية، فإن على أهل القتل ألا يلحوا في طلب الدية، وفي مقابل ذلك، فإن على القاتل أن يؤديها بإحسان دونما مضايقات.

أما المقابلة الأظهر والأهم في هاتين الآيتين : فهي في قوله تعالى {ولكم في القصاص حياة}.

المقابلة بين القصاص وهو قتل أو موت وبين الحياة. وهي توحى بالهدف من القصاص وهو الحفاظ على الحياة، وجاء تنكيرها لتشمل حياة القاتل والمقتول وحياة المجتمع بأسره، فالحياة التي في القصاص ناشئة أصلا من امتناع المعتدى عن اعتدائه إذا أيقن أنه سيقنص منه لفعلة.

وللعرب قول شبيه بهذا المعنى أجمع الناس على بلاغته وفصاحته، ولكن الآية الكريمة أبلغ منه. والقول العربي هو (القتل أنفي للقتل).

(١) النساء : ٩٣

(٢) (الغاية والتقريب) للقاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهاني ص ٣٧، ط- مكتبة الجمهورية / مصر.

(٣) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ٢١٦

وقد بين الدكتور فتحي عامر الوجوه التي ذكرها العلماء لبيان فضل قوله تعالى {ولكم في القصاص حياة} على القول العربي (القتل أنفى للقتل) ولا بأس هنا من ذكر بعض هذه الوجوه^(١).

١- أن قوله تعالى {القصاص حياة} أوجز، فإن حروفه عشرة، وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر حرفاً.

٢- أن قولهم فيه كلفة بتكرير القتل، ولا تكرار في الآية.

٣- أن القصاص المبني على المساواة أوزن في المعادلة من مطلق القتل، لذلك يلزم التخصيص. بخلاف الآية.

٤- الطباع أقبل للفظ (الحياة) من كلمة (القتل).

٥- أن نفى القتل يستلزم الحياة، والآية ناصة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.....

٦- في تنكير (حياة) نوع تعظيم يدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ...﴾^(٢) ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولهذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٧- أن في الآية طباقاً، لأن القصاص مشعر بضد الحياة بخلاف المثل ويضيف الدكتور عامر إلى هذه الوجوه التي ذكرها علماء البلاغة ما رآه هو من أن زيادة (لكم) في الآية تفيد - زيادة على أن هذه الحياة المترتبة على القصاص خاصة بالمسلمين - أن حياة غيرهم في حكم العدم، حيث هي قائمة على غير أساس، بخلاف حياة المسلمين التي تستحق هذا الوصف لأنها قائمة على أسس سليمة من العقيدة والإيمان.

كما يضيف أيضاً جانباً لفظياً يتمثل في إحكام نسق الآية الكريمة، وهو هذا التسلسل الموسيقي العجيب الذي يربط بين كلمات الآية من حيث الطول والقصر في الأصوات الناشئة عنها على هذا النحو :

ل ق ص ا ص ح ي ا هـ

(١) ارجع إلى المزيد من ذلك في كتاب : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني للدكتور فتحي عامر

ص ٣٩٦ وما وراءها. وكتاب : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : ٨٦

(٢) البقرة : ٩٦

حركة فسكون حركتان فسكون ثلاث حركات فسكونان
مع انعدام التنوين، فإذا بقى التنوين زاد القسم الأخير قسماً آخر على هذا النحو :

ا ل ق ص ا ص ح ي ا
حركة فسكون حركتان فسكون ثلاث حركات فسكون

ت ن

حركة فسكون

فتبدأ النغمة قصيرة ثم تطول شيئاً فشيئاً، حتى تعود إلى حالة القصر الأولى حيث ينشأ هذا التوافق في لحن قصير بخلاف المثل الذي لا تستقيم فيه النغمة الصوتية، نظراً لعدم توالى الحركات في تسلسل واتساق^(١).

وما أضافه الدكتور فتحي عامر وخاصة هذا الجانب الموسيقي في النص القرآني يدل على أن القرآن الكريم كان وما زال كترًا ثمينا لكل ألوان العلوم والفنون ومعينا لا ينضب لكل ذي ذوق جميل.

والذي أحب أن أضيفه هنا هو أن الموسيقى القرآنية ليست كموسيقى الشعر يمكن تقنينها أو وضعها في قوالب خاصة، بل هي في معظمها موسيقى داخلية نابغة من انسجام النسق القرآني للحروف والألفاظ والفواصل ومن انسجام كل ذلك مع الموقف العام الذي تعبر عنه.

٨- المقابلة في أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم :

يمتاز الدين الإسلامي بأنه دين السلام والمسالمة مع غيره من الأديان والطوائف ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٣) وعلاقته بغيره قائمة على مبادئ المودة والمحبة والأخوة الإنسانية الجامعة.

لكنه لا يرضى للمسلمين أن يوادعوا من بادأهم بالعدوان، ويحذر المسلمين من اتخاذ أعدائهم أولياء، وخاصة في أوقات الحرب :

(١) انظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٤٠٠

(٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) الكافرون : ٦

١ - هذه آية كريمة عرضت هذا التحذير وبينت أسبابه بأسلوب المقابلة :

قال تعالى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾^(١)

فقد جاءت المقابلات في الآية الكريمة بين الإيمان والكفر وبين الأعداء والأولياء وبين العداوة والمودة وبين ما أخفيتهم وما أعلنتهم.

وهذه المقابلات تظهر من جهة: التناقض والخطأ الذي يمكن أن يقع فيه بعض المسلمين عن سذاجة أو حسن نية كما حدث لحاطب بن أبي بلتعة حين أرسل كتابا إلى أهل مكة يعلمهم فيه بعزم الرسول على فتح مكة^(٢) ولولا أنه كان من أهل بدر لكان للرسول ولعمر بن الخطاب معه شأن آخر.

ومن جهة أخرى: فإن المقابلة بين (وأنا أعلم بما أخفيتهم وما أعلنتهم) تؤكد للمسلمين علم الله الشامل لكل خفايا الصدور، وظواهر الأمور وفي هذا تحذير للمسلمين يدفعهم إلى الاستجابة للتوصية الكريمة بعدم مجاملة الأعداء في أي شيء.

١ - ولكن القرآن الكريم لا يمنع المسلمين من البر إلى من خالفهم في الدين إذا لم يظهروا للمسلمين روح العداوة، ولم يقاتلوهم أو يخرجوهم من ديارهم. إنه ينهاهم فقط عن من قاتلوا المسلمين وأخرجوهم أو ساعدوا في إخراجهم.

قال تعالى:

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾^(٣)

(١) المتحنة : ١

(٢) وردت قصة حاطب بن أبي بلتعة في الكشف للزمخشري : ٨٩/٤ وفي تفسير ابن كثير : ٤/

٣٤٥ وأسباب النزول للسيوطي : ١٦٧/٤

(٣) المتحنة : ٨ - ٩

والمقابلة بين الآيتين والتوجيهين ظاهرة واضحة، إنها بين من لم يقاتل المسلمين ولم يؤذهم بأية صورة من الصور.

ومن قاتل المسلمين وأذاهم وأخرجهم من ديارهم أو ساعد في إيذائهم والفريق الأول لا بأس على المسلمين من مصادقتهم وموادتهم كما أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر أن تصل أمها وتقبل هداياها^(١).

والفريق الثاني يقابل الأول، ولذلك نهانا الله عن موالاتهم وحذرنا من عاقبة ذلك.

٣- وفي توجيهه ثالث يبيح الله للمسلمين تبادل الأطعمة والمنفعة بينهم وبين أهل

الكتاب، ولا مانع من الزواج من المحصنات الكتابيات قال تعالى :

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِلَا يَمْنٍ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٢﴾^(٢)

فالمقابلة بين المؤمنين وأهل الكتاب

وبين طعام أهل الكتاب حل لكم - وطعامكم حل لهم

وبين المحصنات المؤمنات - والمحصنات الكتابيات

وبين الإحصان والسفاح واتخاذ الأخدان

وبين الكفر والإيمان

وقد وضحت هذه المقابلات القضية وأكدت سماحة الإسلام وتعايشه مع الطوائف

الأخرى التي تعيش في داخل المجتمع الإسلامي أو قريبا منه.

(١) أسباب النزول للسيوطي : ١٦٧/٤

(٢) المائدة : ٥

رابعاً : المقابلة في مواقف الجهاد

بدأت الدعوة الإسلامية في أول عهدها سرا، إلى أن أمر الله نبيه بالجهار بها في قوله

تعالى :

فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

وهنا قبلت الدعوة بكل مظاهر العنف والمعارضة المادية والمعنوية، وتحمل أتباعها الأولون من العنت والإرهاق ما لا يقدر عليه إلا أولو العزائم القوية، وكان شعار الدعوة في ذلك الوقت هو الدعوة بالحسنى **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴿٢﴾

وتحكى كتب السيرة صورا من العذاب والبطش والمقاطعة قابلها المسلمون الأوائل بصبر منقطع النظير. إلى أن أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة وهناك نزلت الآيات تترى، تأذن للمسلمين تارة بالرد على العدوان وتحرضهم على قتال الأعداء تارة أخرى، أو تبين لهم منازل الشهداء، أو تعاتب المتناقلين أو تبين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.

وقد كثرت الدعاوى والأقاويل في الجهاد في الإسلام وهي أقوال تهدف في النهاية إلى إثبات أن الإسلام انتشر بالسيف لا بالدعوة الحسنى وليس هنا مجال مناقشة هذه الدعاوى والأباطيل، ولكن حسبنا أن نشير فقط إلى ما ذكره الأستاذ عباس العقاد في كتاب (ما يقال عن الإسلام) من أن النظرة العابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفى لتقرير وقائع التاريخ في هذه المسألة وخلاصتها أن أكثر البلاد عدد مسلمين هي أقل البلاد غزوات إسلامية^(٣). وإلى ما استشهد به من كلام واحد من نوادر المؤلفين الغربيين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم في مسألة الجهاد وهو توماس كارليل فهو ينتهي بزعم الزاعمين أن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى الغاية من السخف والغثاثة، ولا يرتضى أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ فإنه أضعف من أن يحسب من الأكاذيب التي تحتاج إلى تصحيح، وهو أظهر بطلانا من أن يبطل بالمناقشة، لأن القائل

(١) الحجر : ٩٤

(٢) النحل : ١٢٥

(٣) ما يقال عن الإسلام، عباس محمود العقاد : ١٢٩ العدد ١٨٩ من سلسلة كتاب الهلال، مصر.

به سواء ومن يقول : إن رجلا واحدا حمل سيفه وخرج إلى جميع مخالفيه ليعث فيهم الخوف من سيفه - وحده - ويسوقهم كرها إلى اعتقاد ما ينكرون، فيعتقدونه ويشبتون عليه، ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين^(١).

لقد كان الجهاد ضرورة اقتضاها واقع الحال، وطبيعة الدعوة الإسلامية العالمية ولم يكره الإسلام الناس على اتباعه، وكان معظم الجهاد ضد من يقفون في وجه تبليغ الدعوة إلى الناس، فإذا وصلتهم دعوة الإسلام فإن لهم الخيار في أن يدخلوا في الإسلام أو يبقوا على دينهم.

وقد فهم المسلمون الأوائل طبيعة الدعوة حق الفهم، وكان لآيات الجهاد التي سنعرض لبعضها هنا أثر طيب في توجيه نفوسهم وقلوبهم إلى الجهاد وما فيه من فضائل في الدنيا والآخرة.

وسنحاول أن نعرض هنا لأثر المقابلة في مواقف الجهاد من الناحية البلاغية والدينية.

١ - المقابلة في الحث على الجهاد والترغيب فيه :

ترد المقابلة في آيات الحث على الجهاد والترغيب فيه على صور كثيرة في القرآن منها :-

أ- ما يهون من مشقته على النفوس، فهو يجارى الفطرة البشرية في كرهها للقتال، ولكنه يشرع ما يرتجى من وراء ما يكرهه الإنسان أحيانا من خير عظيم قال تعالى :
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(٢)
وقد جمعت هذه الآية كما يقول ابن أبي الأصبع في (بديع القرآن) بين المقابلة، وبين طباق السلب المعنوي :

فالمقابلة هنا بين ألفاظ الكره والحب، والخير والشر والطباق المعنوي بين العلم والجهل^(٣) ولكنها بالمعنى العام مقابلة بين ظاهرتين يلمسهما كل إنسان من تجاربه الخاصة، فكم من أمور مكروهة تعرض للإنسان وتصيبه في حينها بالأس والضييق ولكنها هي بعينها تكون سببا في خير عظيم لم يكن في حسبانها وكم من أمنيات ود

(١) نفسه : ١٣١

(٢) البقرة : ٢١٦

(٣) انظر : بديع القرآن، لابن أبي الأصبع : ٣٣

الإنسان لو تحققت له، ثم يتبين بعد مدة أن الشر كامن فيما أحب. ولذلك فإن على المسلم الحق أن يقبل على الجهاد مهما كان ثقيلاً على النفس فإن وراءه الخير لنفسه ولدينه ولأمته فالله يعلم ونحن لا نعلم.

وفي المقابلة أيضاً بجانب الحث على القتال : تربية للنفوس المسلمة على تحمل المشاق والاستسلام لقدر الله، والثقة في ما يختاره الله لنا.

ب- ومن صور الترغيب في الجهاد ما تأتي فيه المقابلة لتشجيع المسلمين وحثهم على عدم التراخي عن القتال بحجة ما قد يصيبهم من الألم، فتقوى دافع القتال عندهم بمقابلة ألمهم أو ما أصابهم من قرح بما أصاب أعداءهم من الألم أو القرح قال تعالى :
وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً^(١)

وهنا مقابلة وتجنيس في آن واحد بسبب اتحاد الأطراف في اللفظ والمقابلة هنا بين :
{ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ } و { فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ }
وبين قتال المؤمنين وهم يرجون من الله إحدى الحسنين،
وقتل الكافرين بلا رجاء في شيء.

وهذا هو الفرق بين المؤمنين والكافرين، فكلا الفريقين يقاتل ويصيبه من جراء القتال ما يصيبه من الألم والمعاناة، ولكن قتال المؤمنين له هدف ورجاء، وقاتل الكافرين لا رجاء فيه ولا نفع.

ج- ويلتقي مع ما سبق ويزيد عليه قوله تعالى :
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٢)
(٣) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ^(٤)
فالمقابلة هنا بين ما أصاب المسلمين من جراح وقتل يوم أحد وما أصاب المشركين يوم بدر، فالأيام متداولة بين الناس، وقد حاول الزمخشري تقريب هذا المعنى حين استشهد بقول الشاعر :

فيوما علينا ويوما لنا .. فيوما نُسَاءُ ويوما نُسَرُّ^(٥)

(١) النساء : ١٠٤

(٢) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١

(٣) الكشف للزمخشري (بتصرف) : ١/٤٦٦

ولكن المقابلة القرآنية سامقة لا يدانيها هذا القول الذي كثر فيه تكرار (يوم) وتكرار العطف وتكرار الضمير. ولم يكن دقيقا في تصوير المقابل الذي برز في الآية فإن أقل جرح يمس المسلمين يقابل بمثله، كما زادت الآية العلة فيما يصيب المسلمين من أذى في بعض المعارك، أو ما ينتج عنها من استشهاد بعضهم وهي تمييز المؤمن الكامل من غيره واتخاذ شهداء منهم يترلمهم الله في أعلى الدرجات، وفي هذا حث على تجاوز الآلام التي يمكن أن تصيبهم استشرافا لما هو أكبر وأعظم. والله أعلم بمراده.

٢- المقابلة في تبكيت المشاغلين والقاعدين :

ذلك أنه حين أمر المسلمون بغزوة تبوك بعد الفتح كان الوقت صيفا وقد طابت الثمار واشتهدى الناس الظلال، وشق عليهم الخروج فتباطأ بعضهم، وتقدم البعض للرسول بأعذار للتخلف، فزلت الآيات التالية بما فيها من مقابلات كثيرة تهدف إلى توبيخهم على ثقلهم وتباطئهم في النفير،

وتهديدهم بالعذاب واستبدال قوم غيرهم بهم يؤمرون فيطيعون قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (١) **﴿إِن تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (٢) **﴿إِن تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (٣) **﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (٤)

فهنا مقابلات متنوعة بين النفير والثقل، وبين الدنيا يرضى بها المشاغلون مع أن متاعها قليل والآخرة رغم ما فيها من نعيم. والغرض من هاتين المقابلتين هو السخرية والتبكيت والتقريع. ثم مقابلة بين المتخاذلين من المؤمنين، وبين قوم آخرين أسرع نفيرا أو أكثر طاعة يستبدلهم الله بهم، ويترك المؤمنين هملا بلا كرامة.

والغرض من هذه المقابلة التهديد. ثم هذه المقابلة التي تصور الحالة النفسية للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار حين من الله عليهما بالهدوء والسكينة بعد الفرع والحزن.

وهذه المقابلة تأتي في هذا المقام لتفهم المتخاذلين أن نصر محمد ورسالته ليس متوقفا عليهم هم وإنما سبق أن نصره الله وأيده وطمأنه وهو في الغار لاجند حوله ولا صحاب.

والمقابلة بين كلمة الكفر السفلى وكلمة الله العليا تفيد رفعة الإسلام وشموخه. وأخيرا وبعد عرض هذه المقابلات فإن القرآن يختمها بالأمر بالنفير خفافا وثقالا، في مقابلة بين اللفظين، لكي لا يكون هناك عذر لمتخلف، فعلى أي الحالات كنتم، وجب عليكم النفير : إن موسرين أو معسرين، أو إن خفت عليكم الحركة أو ثقلت، أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا^(١).

وقد كان لهذه الآيات التي عرضت بهذا الأسلوب أثرها الوجداني في نفوس المسلمين فقد ذكر الزمخشري رواية عن صفوان بن عمر يقول فيها كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم : قد أعذر الله إليك، فرفع حاجبه وقال : يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافا وثقالا، ألا إنه من يحبه الله يبتليه^(٢).

والقرآن الكريم لا يسوى بين من قعد عن الجهاد بغير عذر شديد وبين من جاهد في سبيل الله، فهما متقابلان، ولا يمكن لميزان العدالة أن يسوى بينهما قال تعالى :

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ^(٣)

وما كان هذا المعنى ليتضح لو أنه عرض بغير أسلوب المقابلة التي وضحت الفرق بين صنفين من الناس لا يمكن التسوية بينهما.

(١) معاني القرآن واعرابة للزجاج : ٩٧/٢ تحقيق عبد الجليل شلبي ط المطابع الأميرية ١٩٨٤.

(٢) الكشف للزمخشري : ١٩١/٢

(٣) النساء : ٩٥

٣- المقابلة في الحديث عن منازل الشهداء :

سبق أن بينا - عند الحديث عن مشاهد القيامة في القرآن - ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من ألوان النعيم الحسى والمعنوي، وبما أن الجنة درجات فلا شك أن الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، سيكونون في أعلى الدرجات من الجنة، إنهم كما أخبر القرآن في درجة النبيين والصديقين، لأنهم أطاعوا الله في أمر من أشق الأمور على النفس وهو القتال وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١١﴾

ولكن الميزة العظمى التي أعدها الله للشهداء هي أنهم لم يموتوا بهذا الاستشهاد بل إنهم ما زالوا أحياء عند ربهم يرزقون :

قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَّقُونَ ﴿١٠﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٢﴾

والمقابلة هنا بين مفهومين : مفهوم راسخ في أذهان الناس وهو أن القتلى في المعارك قد ماتوا وانتهت حياتهم، ومفهوم إسلامي جديد يريد القرآن أن يثبه في عقيدة المسلمين هو أن الشهيد لم يموت وإنما هو حي عند ربه يرزق ويفرح بالفضل الذي أعطيه، ويستبشر بمن سيلحق به من ركب الشهداء، وبنعمة الله وفضله.

والمفهوم الإسلامي عن حياة الشهيد بعد موته الظاهري يحفز المسلمين إلى السير في درب القتال في سبيل الله وهم واثقون أن لهم إحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة وهي حياة لا تعدلها حياة.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾

(١) النساء : ٦٩ - ٧٠

(٢) آل عمران : ١٦٩ - ١٧١

(٣) البقرة : ١٥٤

٤- المقابلة في غزوة بدر :

في بعض ما ورد من آيات كريمة عن غزوة بدر صورة مجسمة لمشهد المعركة وهنا تؤدي المقابلة دورا هاما في تجسيد المشهد أمام القارئ والسامع واعادة تمثيل المعركة من جديد، ومن هذه الآيات :

قال تعالى :

١- اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإب الله لسميع عليم ﴿١﴾ اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أريتهم كثيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾ واذ يريكموهم اذ اتفقتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ ﴿٣﴾ (١)

أ- فالمقابلة بين (أنتم بالعدوة الدنيا) (وهم بالعدوة القصوى) تحدد موقع المعركة والأرض التي دارت عليها، فالعدوة الدنيا قرب المدينة، والقصوى قرب مكة^(١).

ب- والمقابلة بين (ليهلك من هلك عن بينة) (ويحيى من حي عن بينة) تبين السبب في لقاء المسلمين والمشركين في بدر في مكان واحد على غير ميعاد وهو أن يعز الله المسلمين وينصرهم (فيصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ (يهلك من هلك) أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه و (يحيى من حي) أي يؤمن من آمن عن بينة أي حجة وبصيرة^(٢)) ويذهب الطاهر بن عاشور إلى أن الهلاك والحياة هنا يرمزان إلى معنى ذهاب الشوكة، ونهوض الأمة، فإن الكفار كانوا في عزة ومنعة، وكان المسلمون في قلة، فلما قضى الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدة ونهوض، وكان كل ذلك عن بينة^(٣).

(١) الأنفال : ٤٢ - ٤٤

(٢) الكشف للزمخشري : ١٥٩/٢

(٣) تفسير ابن كثير : ٣١٥/٢

(٤) انظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ١٠ / ٢ ط الدار التونسية للنشر

ت- والمقابلة بين عدد المشركين الفعلى (وهو كثير) وعددهم كما يراهم الرسول في المنام أو كما يراهم المسلمون في المعركة (وهو قليل) تهدف كما تذكر الآيات إلى حكمة قدرها الله أحسن تقدير وهي ثبات المسلمين وعدم فشلهم، فيقبلون على العدو وهم واثقون أنهم الأكثر عددا وعدة ولذلك تم لهم النصر بإذن الله.

١- وفي آيات أخرى عن غزوة بدر مقابلات أخرى لتؤكد الهدف من هذه المعركة ولتبين بعض ما دار فيها أو لتعلم المسلمين درسا من دروس التواضع ورد النصر الذي حدث لله وحده.

أ- وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾^(١)

فالمقابلة هنا بين ما يوده المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر وهو العير : (غير ذات الشوكة) وما يريد الله في هذا اليوم وهو إحقاقه الحق بمعركة تقطع دابر الكافرين، وحينئذ يحق الحق ويبطل الباطل.

وهذه المقابلة تؤكد الهدف الأسمى الذي أراده الله من وراء هذه المعركة.

ب- كما أن في قوله تعالى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ }^(٢)

مقابلة بين المؤمنين والكافرين تصور ثبات المؤمنين بسبب تأييد الله لهم بالملائكة، وفرع ورعب الكافرين مما لقوه من ضرب فوق الأعناق وتقطيع للأيدي والبنان.

ج- وأخيرا نجد في قوله تعالى :

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٧﴾^(٣)

(١) الأنفال : ٧-٨

(٢) الأنفال : ١٢

(٣) الأنفال : ١٧

مقابلة بين قتلهم وقتل الله، وبين رمى الرسول الحصى في وجوه الكفار ليلة
الحجرة^(١) ورمى الله، تهدف إلى إشعار المسلمين بفضل الله عليهم في هذه المعركة حتى
لا تنسيهم نشوة الظفر يد الله الخفية التي مكنتهم من هذا النصر.

٥- المقابلة في معاهدات الصلح :

ومما يقترن بالجهاد تلك المعاهدات التي تعقب الحرب ويتفق فيها الطرفان المتحاربان
على شروط للهدنة أو للصلح والسلم، والإسلام ينادى دائما بالوفاء بالعقود والعهود
والالتزامات والآيات التي تحض على الوفاء بالعهد كثيرة في القرآن مثل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْإِنْعَمِ إِلَّا مَا
يُتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلَىٰ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٠١﴾^(٢)

و مثل قوله تعالى:

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿١٠٢﴾^(٣)

ولكن أحداث التاريخ تثبت أن أعداء الإسلام غالبا ما ينقضون العهد والميثاق في
كل مرة وهم لا يتقون.

ولذلك طلب القرآن من المسلمين أن يكونوا حذرين في التعامل مع أعدائهم حتى لا
يؤخذوا على غرة : فطلب من المسلمين الاستعداد بالقوة الممكنة إذا أحسوا خيانة من
العدو، فإذا مالوا بعد ذلك للسلم سالوهم عن قوة، ولن ينفع خداعهم حينئذ فالله
يكفيهم قال تعالى :

وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاْنَبِذِ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿١٠٣﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا
أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٦﴾

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٩٥

(٢) المائدة : ١

(٣) الإسراء : ٣٤

فالمقابلة بين الآيتين هي مقابلة بين الأمر بنبذ عهد الأعداء إذا ظهر أو خيف منهم نقض لما تعاهدوا عليه، وبين المسألة إذا ظهر منهم ميل شديد إليها (كما يميل الطائر الجانح^(١)). فهي مقابلة بين الحرب والسلم لكن الروح الإسلامية في نبذ العهد تختلف عن روح الغدر عند الكفار في نقض العهد فالمسلمون مطالبون بأن يعلموا الكفار بأنهم قد نبذوا عهدهم، وأنه لا عهد بينهم وبينهم وبذلك لا يكون نبذ العهد خيانة وغدرا كما يفعل الأعداء

ت - وهذه مقابلة ثانية تبين أن الكفار غالبا ما تملكهم العصبية الجاهلية، وهذه العصبية والحمية تدفعهم إلى محاولة استفزاز المسلمين لنقض عهدهم، ولكن المسلمين دائما محافظون هادئون ملتزمون بكلمة التقوى والوفاء، فهم أهل ذلك.

قال تعالى إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^(٢)

ففي الآية مقابلة بين حمية الجاهلية التي تملك قلوب الكفار عام الحديبية فصودوا المسلمين عن المسجد الحرام، ومنعوا الهدى من أن يبلغ محله.

وبين هدوء المسلمين وثباتهم، ويقينهم أن الفتح قريب فالتزموا بكلمة التقوى التي ألزمهم بها الله سبحانه. ولم يحدث قتال وحدث صلح الحديبية.

هذا الصلح نفسه كانت إجراءاته الأولية وكذلك شروطه متقابلة حيث لا حظنا الحمية والعصبية في جانب المشركين. وهي حمية ظهرت في رفض سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم وفي عدم الاعتراف في العهد بصفة رسول الله، بينما كان التساهل والتسامح من جانب الرسول قد بلغ إلى الحد الذي جعل عمر يتساءل في دهشة بالغة : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فلم نعطي الدنية في ديننا ؟^(٣)

(١) تفسير التحرير والتنوير : ١٠ / ٥٩ .

(٢) الفتح : ٢٦

(٣) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٩٨

خامسا : المقابلة في الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك

يحرص الإسلام على أن يُنشئ أبناءه تنشئة اجتماعية صالحة قائمة على احترام الآخرين وتقدير مشاعرهم وظروفهم، ومبنية على توثيق روابط الأخوة الجامعة بين المسلمين بعضهم البعض، ولذلك يحثنا على معاملة الناس بمثل ما نحب أن يعاملونا به، والإسلام في هذا يهذب من جموح النفس ويحد من الأهواء العابثة ويرسي دعائم القيم الرفيعة والمثل العليا.

والقرآن ملئ بمثل هذه الآداب التي تنظم الحياة الاجتماعية للناس وتضع لهم قواعد السلوك ومبادئ العلاقات.

وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ورد من هذه الآداب بأسلوب المقابلة لنرى أثرها الفني والديني في الإقناع والتهذيب :

١- في آداب الزيارة والمجالس :

وردت هذه الآداب في سور كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك ما ورد في سور

النور : (٢٧ - ٢٩)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا
فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ
أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا
غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

وفي سور النور : (٥٨ - ٦٣)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَتْ ذُنُوبُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ
الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا
كَمَا أَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ
أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

والأحزاب (٥٣ - ٥٥) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثٍ أَنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيُسْتَحْيَى مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَى مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَرْوَاحَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٧﴾

والحجرات (٢ - ٥) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾ إِنْ

الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

والمجادلة (١١) :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ
لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾

وهي في مجموعها آداب تحض المسلمين على ضرورة الاستئذان قبل الدخول
والاستئناس والتسليم على من في البيت، وعدم الدخول إن لم يكن رب الدار موجودا،
وضرورة غض الأبصار، وعدم الأكل إلا بدعوة إلى الطعام والانتشار والذهاب بعد
الطعام وعدم الجلوس مدة طويلة، والتفسيح في المجالس، وعدم رفع الصوت بالمناداة أو
الحديث وهي كلها آداب سبق لها الإسلام كل النظم والآداب التي توصلت إليها
المجتمعات المتمدنية في عصرنا الحديث والمقابلة التي وردت في هذه الآداب، جاءت
ختاما أو تعقيبا عليها فقد ورد في سورة النور قوله تعالى :

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١﴾

وورد في سورة الأحزاب أيضا قوله تعالى :

{إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٠﴾}

ومجئ المقابلة بين علم الله لما نبديه وعلمه لما نكتمه أو نخفيه ختاما لتلك الآداب التي
سبققتها للربط بين المبادئ الأخلاقية وبين المشاعر الدينية برباط متين، فالمسلم الحق
حين تتلى عليه هذه الآداب ثم يعقب عليها بعلم الله الشامل الكامل لكل ما يظهر أو
يخفى من كلام أو أفعال أو مشاعر، فإنه يستشعر الرهبة في نفسه ومن ثم فلن يقتحم
بيتا بغير استئذان، ولن يتمادى في الجلوس بغير ما سبب، ولن يسمح لنفسه باقتحام
عوارت البيوت بناظره، كما أن في التعقيب بهذه المقابلة أيضا ربط التهذيب بالترهيب

(١) النور : ٢٩

(٢) الأحزاب : ٥٤

وإشعار المسلم بعين الله الرقيب على تصرفاته ومشاعره، فلا يكون هناك مجال للخداع أو النفاق الاجتماعي الذي يظهر الملمس الحريري ويخفى تحته الجوهر الخشن. والتربية الحديثة التي تعتمد في مبادئها على نظريات علم النفس أصبحت لا تغفل جانب التهيب في محاولاتها لتهديب النفوس وإصلاحها.

٢- المقابلة في محاربة الشائعات :

بحث القرآن الكريم أتباعه على التثبت من الأنباء قبل تصديقها، وينهاهم عن الجري وراء الشائعات التي ليس لها سند من الحقيقة، وذلك لأن الناس إذا انطلقوا بعواطفهم وأفعالهم وراء الأخبار الكاذبة، فقد يؤدي ذلك إلى الفتن والاضطرابات وربما حمل الناس السلاح فتقاتلوا دون أن يكون هناك داع في الحقيقة لذلك. وقد سبق أن رأينا عند الحديث عن المقابلة في خطاب المؤمنين، حين تحدثنا عن (حديث الإفك^(١)) كيف جاءت المقابلة بين (المهين والعظيم) في قوله تعالى : {وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم}.^(٢)

أقول رأينا أن القرآن يحذر المسلمين من ترويح الشائعات أو تصديقها فهم يحسبون ذلك أمرا هينا ولكنه عند الله عظيم.

وهنا نجد القرآن الكريم يعتبر من يأتي نبأ كاذب فاسقا، وهو سبحانه لا يريد لنا الفسوق بل يحيب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا قال تعالى :

{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِبْحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} ١٠ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبُ إِلَيْكُمْ إِلَا يَمْنَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} ١١ {^(٢)

فالمقابلة في هذه الآيات بين الإيمان حبه الله إلينا وزينه في قلوبنا وبين الكفر والفسوق والعصيان كرهه إلينا.

وهذه المقابلة تأتي في سياق سورة الحجرات الحافلة بالآداب والقيم الحريضة على أن يبدو المسلم في صورة نظيفة عفة، وفي سلوك رقيق مهذب كما تأتي لتعلم المسلمين التروى الذي يناسب الإيمان المطمئن في القلوب وتخبرهم أن الاندفاع وراء الأنباء

(١) انظر ص (٢٥٦) من هذا البحث

(٢) الحجرات : ٦-٧

الكاذبة هو فسق وكفر وعصيان لا يليق بالراشدين الذين تتسم خطواتهم وأفعالهم بالثقة والاتزان. وذلك بعدما اندفع بعض المسلمين وراء النبا الكاذب الذي أشاعه الفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط حول بني المصطلق والذي زعم فيه أنهم حاولوا قتله وأنهم منعه الزكاة وأنهم يستعدون لمقاتلة النبي^(١).

٣- المقابلة في الإحسان إلى الوالدين :

ومن الآداب الاجتماعية التي شدد الإسلام في مراعاتها، وقرنها بالإيمان بالله وعبادته؛ الإحسان إلى الوالدين وطاعتهما في كل شيء فيما عدا الشرك بالله، بل إنه أوصى بمصاحبتهم بالمعروف حتى لو كانا على غير الإيمان، وذلك لأن الأدب معهما يحفظ للأسرة المسلمة كيانها وتماسكها، ولأن فضل الأم والأب على الإنسان لا يمكن إنكاره.

هذه مقابلة بين نموذجين من البشر : أحدهما آمن بربه فعرف قدر أبويه واستجاب لوصية القرآن في ذلك، والثاني : جمع السوأيتين الكفر والعقوق، ومن ثم تقابل الجزاءان والمصيران. فالأول في الجنة والثاني مع الخاسرين. قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّيْ تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ (٢) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أَتَعَذَّيْنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٤) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥) (٢)

(١) تفسير ابن كثير : ٢٠٩ / ٤ وأسباب النزول للسيوطي : ١٥٧ / ٤

(٢) الأحقاف : ١٥ - ١٩ ورغم أن السورة مكية إلا أن الآية (١٥) مدنية كما نص المصحف الأميري على ذلك. وسياق الآيات التالية يوحي بأنها جميعا مدنية وخاصة أن السيدة عائشة نفت أن تكون آية (والذي قال لوالديه أف لكما) نزلت في أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، وأيد الحافظ بن حجر نفى عائشة واعتبره أصح إسنادا وأولى بالقبول. انظر أسباب النزول للسيوطي : ١٥٣ / ٤

وقد جاءت المقابلة بين هذين النموذجين على هذا التفصيل في السلوك والجزاء لتعطى الشخص فسحة للتأمل في كلا النموذجين فيختار الأهدى منهما سبيلا. والوصية الواردة في الآيات عامة لجنس الإنسان في كل زمان ومكان وليست مرتبطة بشخص معين فإن الإحسان إلى الوالدين من القيم المطلقة العامة التي تنسجم مع الفطرة والغريزة.

٤- المقابلة في آداب الصدقة :

إن من أقسى الأمور على نفس الفقير أن يشعر بأن الغني المتصدق عليه، قد تعالى وتكبر أو من عليه بهذه الصدقة.

والإسلام حريص على مراعاة مشاعر الناس على اختلاف طبقاتهم ولذلك اعتبر أن الصدقة المتبوعة بالمن والأذى صدقة باطلة لا ثواب لها، لأن صاحبها مرء ومنافق، أما من أخفى صدقته أو أخرجها ابتغاء مرضاة الله فهو المؤمن الكامل والمهذب.

وقد عرض لنا القرآن الكريم مقابلة بين من ينفق ابتغاء مرضاة الله ومن ينفق رياء أو يتبع صدقته بالأذى، بطريقة تمثيلية مصورة قال تعالى :

{يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٧٧﴾} (١)

وقد عرض المرحوم الأستاذ سيد قطب هذا المشهد المتقابل المصور عرضا فنيا رائعا حين قال "هذا المشهد مؤلف من منظرين متقابلين :

المنظر الأول : قلب صلد ينفق ماله رياء الناس، ليغطي صلادة قلبه بغشاء من السرياء، ويمثل هذا القلب صفوان عليه تراب خفيف يحجب صلاذته عن العين كالرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان، نزل على الصفوان وابل غزير فانكشف الحجر بجذبه وقساوته ولم ينبت ولم يثمر، كذلك القلب الذي ينفق رياء الناس لم يثمر خيرا ولم يعقب مثوبة.

(١) البقرة : ٢٦٤ - ٢٦٥

والمنظر المقابل : قلب عامر بالإيمان ينفق ابتغاء مرضاة الله، عن ثقة ثابتة في الخير عميقة الجذور في الضمير، هذا القلب تمثله جنة خصيبة، عميقة التربة في مقابل حفنة التراب على الصفوان، والجنة على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التراب، ليكون المنظر متناسق الأشكال، فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التراب هناك، بل أحيائها وأخصبها ونماها - كذلك تحي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزكو ماله ويضاعف الله له ما يشاء وتركوا معه حياة الجماعة المسلمة بالإتفاق وتصلح وتنمو وإن لم يصبها وابل فطل خفيف من الندى والرضا ذكفها^(١).

وللمسلم بعد ذلك أن يختار ما بين الصفوان الصلد، والربوة الزاكية المثمرة وما بين الرياء الذي سرعان ما يكشف عن الوجه القبيح لصاحبه، والإخلاص الذي يؤدي ثمرة مضاعفة، فالله بصير بالحالتين معط لكل حالة جزاءها العادل.

٥- المقابلة في رعاية أموال اليتامى :

اليتيم هو من فقد أباه دون البلوغ^(٢)، فقد بذلك الحنان والعطف والرعاية التي كان يستظل بها في حياة والده ومثل هذا الطفل في حاجة إلى من ينسبه آلامه ويعوض حرمانه، وقد نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم يتيما فعرف معنى اليتيم، ولذلك يوصيه الله سبحانه بقوله { فأما اليتيم فلا تقهر^(٣) }.

والإسلام يوصي أبناءه برعاية اليتيم والحفاظ على ماله، ودفعه إليه بعد أن يصبح رشيدا.

وتأتي المقابلة في هذا الجانب فتوضح ما خفى، وتؤكد ما يحتاج إلى تأكيد من المعاني والقيم.

قال تعالى : { وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ الَّتِي آتَاكُمْ أَنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا }^(٤)
وقال تعالى : { وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ

(١) في ظلال القرآن : ٣٠٩/١

(٢) المعجم الوسيط مادة (يتم).

(٣) الضحى : ٩

(٤) النساء ٢ - والحبوب : الإثم العظيم (انظر معاني القرآن وأعاربه للزجاج ٢/٤).

غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١﴾

فالمقابلة في الآية الأولى بين الخبيث والطيب، وبين أموال اليتامى وأموال الأوصياء
تؤكد الفرق الحاد الذي يجب أن يراعيه الأوصياء بين مال اليتامى ومالههم حتى لا
يتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا يعطوا الرديء في مقابل الجيد.

والمقابلة في الآية الثانية بين حالتين من حالات الأوصياء : الحالة الأولى: أن يكون
الوصي غنيا فلا بد أن يستعف عن أكل أموال اليتيم ولا يطمع ويكتفى بما رزقه الله.

والحالة الثانية: المقابلة هي أن يكون الوصي فقيرا فإنه يأكل من مال اليتيم قدر ما
يكفيه (على سبيل الأجرة أو استقراضا على ما في ذلك من الاختلاف)^(٢) والمقابلة بهذا
تضع للأوصياء حدودا قاطعة لكيفية التعامل في أموال اليتامى حتى يكبروا، هذا
بالإضافة إلى ما يجب عليهم إزاءهم من الرعاية العاطفيه والنفسية.

(١) النساء : ٦

(٢) الكشف للزمخشري : ٥٠٢/١

الفصل الثالث

المقابلة في القصص القرآني والأمثال

أولا : في القصص القرآني

تقديم :

اعتمد القرآن الكريم على القصة كطريقة من طرق التعبير القرآني ومن يتتبع القصص القرآني يجد أن معظمه وارد في السور المكية، ومعنى ذلك أن القصة استخدمت في القرآن كسلاح من أسلحة الدعوة في أول عهدها. وكوسيلة للإقناع واستخلاص العبر والدروس في وقت لم تكن الدعوة تملك فيه سوى الكلمة سلاحا تعتمد عليه في نشرها بين الناس.

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى الهدف من سوق القصص فيه، فقال

تعالى :

{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } (١) وقال سبحانه : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (٢) وقال { وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } (٣)

ومعنى ذلك أن القصة القرآنية خاضعة بالدرجة الأولى للأغراض الدينية وأنها تساق

كما يقول العقاد : (للعبرة والموعظة، أو للقدوة وتثبيت العزيمة أو للتعليم والهداية^(٤)).

ويضيف الدكتور فتحي عامر إلى هذه الأغراض : تأكيد شأن الرسالة المحمدية

وإثبات الوحي للرسول، وتأكيد وحدة الأديان جميعها، لأن الأنبياء جميعا تجمعهم تلك

(١) الأعراف : ١٧٦

(٢) يوسف : ١١١

(٣) هود : ١٢٠

(٤) حياة قلم للعقاد : ٢٧٢. كتاب الهلال العدد ١٦٥ ديسمبر ١٩٦٤.

الرابطة النفسية العميقة في الدعوة لإله واحد، والتعرض لصنوف شتى من الاضطهاد والتعذيب، والتقليد بأحسن صفات الصبر والعزيمة^(١). والقصة في القرآن الكريم تعتمد على عرض وقائع من تاريخ الأمم السابقة وصور لمصارع الغابرين والمكذبين ونماذج لأصحاب اليقين والإيمان وتستعرض موكب الأنبياء الحافل بالجهاد المضني لإرساء قيم التوحيد والخير بين الناس. وهي في كل ذلك سجل تاريخي وثيق وإن لم يعتمد على التسلسل الزمني للأحداث، إنما تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعني به الدين، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين^(٢).

إن الغرض الأساسي من وجودها في القرآن ديني كما قلت، ومع ذلك فإن الخصائص الفنية بارزة في عرضها (شأن التعبير القرآني كله يؤلف بين الغرض الديني والفني^(٣)).

ويتحقق الغرض الديني من التأثير الوجداني، واستخلاص العبرة والموعظة فيقبل الناس على الإيمان خوفاً من أن يحقق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة أو إعجاباً وتأسياً بالمثل السرفعة التي تعرضها القصة القرآنية. ويتحقق الغرض الفني بجمال العرض الذي يعتمد على الواقعية وصدق الأداء ولا يعتمد على الخيال الممنهج أو التزييق الكاذب.

ولسنا هنا بصدد بحث القصة في القرآن الكريم حتى يلزمنا المضي في هذا التقدم إلى أبعد من ذلك، ولكننا هنا نعرض - فقط - لما ورد من مقابلات في القصص القرآني، لنلقى الضوء على الأثر الفني أو الديني لإيثار القرآن التعبير عن هذا الموقف أو ذاك بأسلوب المقابلة.

وهذه نماذج لذلك :

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : الدكتور فتحي عامر : ٢٢٩

(٢) حياة قلم : للعقاد : ٢٧٤

(٣) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ١١١ ط بيروت

١- المقابلة في قصة قابيل وهايل :

وردت القصة في سورة المائدة مختصرة دون ذكر لاسم قابيل أو هايل وإنما أشارت فقط إلى أنهما ابني آدم عليه السلام، ولم تذكر السورة من القصة إلا اللقطة التي تمثل عنصر الصراع بين جانبيين متقابلين في حياتنا أما بقية القصة فيمكن الاطلاع عليها في المصادر الأخرى^(١).

قال تعالى : ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِلْتَنِي آعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢٤﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٥﴾ ۝ ٢٦ ۝ ٢٧ ۝ ٢٨ ۝ ٢٩ ۝ ٣٠ ۝ ٣١ ۝ ٣٢ ۝ ٣٣ ۝ ٣٤ ۝ ٣٥ ۝ ٣٦ ۝ ٣٧ ۝ ٣٨ ۝ ٣٩ ۝ ٤٠ ۝ ٤١ ۝ ٤٢ ۝ ٤٣ ۝ ٤٤ ۝ ٤٥ ۝ ٤٦ ۝ ٤٧ ۝ ٤٨ ۝ ٤٩ ۝ ٥٠ ۝ ٥١ ۝ ٥٢ ۝ ٥٣ ۝ ٥٤ ۝ ٥٥ ۝ ٥٦ ۝ ٥٧ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩ ۝ ٦٠ ۝ ٦١ ۝ ٦٢ ۝ ٦٣ ۝ ٦٤ ۝ ٦٥ ۝ ٦٦ ۝ ٦٧ ۝ ٦٨ ۝ ٦٩ ۝ ٧٠ ۝ ٧١ ۝ ٧٢ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥ ۝ ١١٦٦ ۝ ١١٦٧ ۝ ١١٦٨ ۝ ١١٦٩ ۝ ١١٧٠ ۝ ١١٧١ ۝ ١١٧٢ ۝ ١١٧٣ ۝ ١١٧٤ ۝ ١١٧٥ ۝ ١١

كما يمثل قابيل جانب الشر والأنانية والحقد، ولذلك لم يتقبل الله قربانه، وأصر على قتل أخيه فأصبح من الخاسرين، ومن النادمين.

والمعزى الديني من هذه القصة واضح من التعقيب الوارد عليها، وهو التنفير من جريمة القتل، وإظهار بشاعتها وشمول أضرارها للناس جميعا (فكأنما قتل الناس جميعا) وكذلك في الحث على حفظ الأنفس وحياتها (فكأنما أحيأ الناس جميعا)، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه القصة تأتي تمهيدا لتشريع بعض الحدود كحد قاطعي الطريق والخارجين على القانون وكحد السرقة^(١) فتهيأ النفوس بهذا التمهيد لتقبل هذه التشريعات الجديدة.

أما الغرض الفني فقد تحقق كما قلت من إبراز عنصر الصراع وهو من أهم عناصر العمل القصص.

٢- المقابلة في قصة نوح عليه السلام :

ورد ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم، وهو يعد النبي الثاني ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام، والأول هو جده الأكبر إدريس عليه السلام^(٢) وهي قصة طويلة ومتفرقة في أعطاف القرآن الكريم، وحياته في قومه بلغت ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها كلها يدعوهم بمختلف وسائل الدعوة إلى ترك الأوثان وطلب المغفرة من الله وحده، ووعدهم بما يحبونه من عاجل الدنيا بالعيش الرغد وكثرة المال والولد {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ ۞ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾}

واللقطة التي أعرضها هنا تصور نوحا عليه السلام بعد أن قطع شوطا طويلا جدا في دعوة قومه إلى الله - يجأ بالشكوى إلى ربه من صلادة قلوبهم ونفورهم وكأنه يقدم إلى ربه عريضة الدعوى متضمنة الجهد الجهد والصبر الطويل ومدى ما لقيه من عناء في دعوتهم إلى الله. وما قابل ذلك من نفور وإعراض، ولعله بهذا يطلب من ربه أن يستجيب لدعوته عليهم بعد ذلك ألا يذر على الأرض من الكافرين ديارا.

(١) ورد حد قاطع الطريق في الآية (٣٣) وحد السرقة في الآية (٣٨) من السورة

(٢) قصص الأنبياء: ٤٥

(٣) نوح: ١٠-١٢

قال تعالى : { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٧﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُتَمِصِّينَ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١٠﴾ } (١)

فالمقابلة في هذا المقطع بين (الليل والنهار) تصور انشغاله الدائم بالدعوة طول الوقت إن ليلاً أو نهاراً.

والمقابلة بين هذا الإقبال والانشغال من جانبه بما يحقق لهم الغفران والسعادة وبين النفور والإعراض المتمثل في صم الآذان واستغشاء الثياب والإصرار على الكفر والاستكبار من جانبهم، تبين مدى العناء الذي واجهه من قومه مما جعل اليأس من إصلاحهم يتسلل إلى قلبه.

وكذلك المقابلة بين الدعوة جهاراً وعلانية والدعوة سرا وإسراراً تظهر عدم تقصيره فيها، وتؤكد لجوئه إلى كل وسائل الدعوة، سواء عن طريق الاجتماعات العامة، أو عن طريق الإقناع الفردي والتأثير السري ولكن دون جدوي.

وقد تحقق الغرض الفني من هذه المقابلات في تصوير البطل في إحدى مراحل الصراع، وهي تلك المرحلة التي يلجأ فيها إلى الابتهاال والاستعانة بالله على قومه؛ المرحلة التي تسبق الحل عن طريق العنف بعد اليأس من كل الوسائل التقليدية للإقناع.

أما الغرض الديني فقد تحقق من عرض هذه القصة على كفار مكة. فهي تحمل معنى التهديد لهم بعقاب مشابه لما حل بقوم نوح { مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١٠﴾ } (٢) وذلك لأن الشبه بين عناد قوم نوح وعناد كفار مكة شبه كبير، فهولاء يتمسكون باللات والعزى { وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿١١﴾ } (٣) وأولئك قد مكروا مكراً كبيراً { وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٢﴾ } (٤). والتهديد بعرض مصارع الغابرين من الأمم السالفة وسيلة من الوسائل التي لجأت إليها الدعوة وخاصة في مكة.

(١) نوح : ٥ - ٩

(٢) نوح : ٢٥

(٣) النجم : ٢٠

(٤) نوح : ٢٣

٣- المقابلة في قصة إبراهيم عليه السلام :

نختار من قصة إبراهيم عليه السلام مشهدا من مشاهد الحوار والجدال الذي كان يسدور بكثرة بينه وبين قومه، وهو يعرض قضية التوحيد التي هداه الله إليها بعد رحلة الحيرة والشك في بدء حياته.

وذلك لنرى ما تؤديه المقابلة في عنصر الحوار القصصي من دور هام.

أ- قال تعالى في سورة الأنبياء :

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥١﴾
قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾ }

{ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٥٣﴾ }
{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٥٥﴾ }

لقد سخر سيدنا إبراهيم من هذه التماثيل التي عكفوا على عبادتها بحجة أنها ميراث الآباء، فوسمهم وآباءهم بالضلال المبين، ودار بينهم وبينه هذا الحوار الذي ظهر فيه التقابل في سؤالهم إياه : (أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين بين الحق واللعب، ولقد كان السياق يقتضى أن يقولوا : أجئتنا بالحق أم بالباطل لكنهم - والله أعلم - عدلوا عنها إلى (أم أنت من اللاعبين) لأنهم من تجربتهم لإبراهيم منذ نشأته، عرفوا أنه لا يقول الباطل أبدا { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ }^(١)

ولذلك ظنوه يلهو أو يلعب، مما يدل على زعزعة العقيدة في نفوسهم حين لم يفرقوا بين الحق والباطل أو بين الجد واللعب.

ويظهر التقابل أيضا في رد إبراهيم على سؤالهم حين ردّ عليهم بمضمون الحق لا اللعب وهو أن العقيدة التي جاء بها هي عقيدة ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، فخلق السموات والأرض ليس لها أو لعبا كما ظنوا قال تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَلْعِبَنِ ﴿٥٧﴾ }^(٢)

(١) الأنبياء : ٥١

(٢) الأنبياء : ١٦

كما يظهر التقابل مع استمرار الحوار بينه وبينهم، بالمقابلة الساخرة بين ما لا ينفع وما لا يضر في عقيدتهم المهترئة.

ثم هذا التقابل الذي تتدخل فيه القدرة الإلهية فتكون طرفا في الحوار وهو التقابل بين ما قالوه في النار {حرقوه وانصروا آلهتكم} وما قالته العناية الإلهية {يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم}.

وأخيرا هذا التقابل بين ما أرادوه لإبراهيم من الكيد وما أراد الله له من النجاة ولهم من الخسران المبين ولقد اكتسب الحوار في هذه القصة حيوية وجدة بهذه المقابلات التي تظهر التناقض بين ما يدعو إليه سيدنا إبراهيم، وما يتمسكون به من الزيف والضلal.

ثم إن هذه المقابلات - أيضا - تتطور بالحوار في اتجاه صاعد نحو العقدة فالحل، فالآيات التي لم تُذكرْ هنا تُذكرُ أن الحوار بينهما قد تطور إلى تحطيم الأصنام وجعلها جذاذا، ثم إلى الإعداد لحرق إبراهيم عليه السلام ونجاته من النار.

ب- وفي سورة العنكبوت يظهر لنا طرف من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه بعد أن نجاه الله من كيدهم وظهر أنه على الحق، نرى فيه التقابل واضحا وعجيبا قال تعالى :

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾} وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٦٢﴾} ^(١)

فالنار التي أعدوها لإبراهيم وألقوه فيها لتحرقه، كان الله ناصره وحافظه منها.

تقابلها تلك النار التي أعدها الله لهم في الآخرة مأوى ومثوى، ليس لهم ناصر أو حافظ يمنعهم منها.

والمودة التي حرصوا عليها في الدنيا ورفعوها فوق العقيدة يقابلها يوم القيامة الكفر والتلاعن والخصام والتبرؤ.

وهي مقابلة بين صورة قرية في الدنيا. وصورة بعيدة في الآخرة، ولكن الآيات تطوى الزمن في لحظة لتعقد تلك المقارنة المؤثرة الموحية بين حالهم في الدنيا والآخرة.

ج- وفي ختام قصة إبراهيم عليه السلام يرد قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١)

إنه الختام السعيد لهذه القصة، وإنما المكافأة للبطل على جهوده المخلصة التي بذلها طوال الأحداث، لقد عوضه الله عوضاً مزدوجاً متقابلاً في الدنيا والآخرة :

وهبه في الدنيا ذرية صالحة حملت مشعل النبوة والكتاب وينظر ذلك في الآخرة أنه من الصالحين، ومن المعروف أن جزاء الصالحين في أعلى منازل الجنة ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٢)

٤- المقابلة في قصة يوسف عليه السلام :

على كثرة ما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام من المواقف المثيرة، إلا أننا نختار من مشاهدتها ما ورد بأسلوب المقابلة، لتبين الدلالات الفنية والدينية فيها.

أ- **المشهد الأول :** بينه وبين امرأة العزيز : التي فتنت بجمال يوسف فراودته عن نفسه بعد تهمة الجور الكامل له، فكان من جوابه الرفض التام مستعيذاً بالله الذي يؤمن به أن يعصيه، ومذكراً لها أن الواجب الإنساني يأبى أن يقابل المعروف بالجحود، فربه أي سيده الذي رباه وائتمنه على عرضه وأسرار بيته لا يكون جزاء معروفه خيانة الأمانة، والطعن في الشرف وهنا أحست امرأة العزيز بصدمة عنيفة ضد رغبتها الجامحة وبطعنة في كبريائها (فهمت به جذبا إليها وانتقاما، وهم بها تخلصا ودفاعا، لولا أن رأي برهان ربه أي تمثل له عقاب الله على فتكه بها، فرأي الفرار من وجهها متجها إلى الباب وهي تلاحقة ممسكة بقميصه من خلفه، وتطور هذا المشهد إلى الأسوأ بوجود زوجها لدي الباب فبادرت بالانقاص. بل بإصدار الحكم على يوسف : (٣) قال تعالى :

(١) العنكبوت : ٢٧

(٢) النساء : ٦٩-٧٠

(٣) المصطفون الأخيار، عطية صقر : ١٠٤-١٠٥ ط : مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع - الكويت.

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾}

والمقابلات التي وردت في هذه الآيات تصور المأزق الذي وقع فيه سيدنا يوسف والأزمة العنيفة التي حاصرتها، وبلغت ذروتها حين فوجئ بالزوج على الباب فازداد التعقيد، ورأي سيدنا يوسف أن الصدق وحده هو المنجي، فاعترف بأنها هي التي دعت، وترسل العناية الإلهية شاهدا من أهلها ليعرض فكرة تحل هذا التعقيد، ويعرف من المعتدى وهي قد القميص فإن كان من الأمام فهي صادقة وهو كاذب وإن كان من الخلف فهي كاذبة وهو الصادق وتنفرج الأزمة حين يرى القميص وقد قُدَّ من الخلف، وينتهي الموقف ببراءة يوسف وتخطئة الزوجة.

وهذه المقابلات نلمحها في الآيات بين عفة يوسف وطهارته وأمانته وقوة إرادته وبين خيانة امرأة العزيز، ودنسها وجريها وراء شهوتها. ونراها بين شغفها به وإعراضه عنها.

كما نراها في منطقية الدليل على براءته وهو القميص قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين، في مقابل افتراض كذبه لو كان عكس ذلك.

ونراها أخيرا بين الزوجة الخائنة، والزوج الطيب المتسامح الذي يكفي في مثل هذا الموقف بالعتاب الخفيف وبطلب الاستغفار من الذنب.

وهذه المقابلات أظهرتنا على الغريب من النماذج البشرية، وعلى التقابل في النفوس والضمائر، ما بين الخير منها والشرير، والعفيف منها والدنيء وذو الإرادة القوية، وضعيف الإرادة.

كما بعثت في القصة الحيوية والحركة، ونقلت مشهد الصراع أمامنا فكأننا نراه الآن حيا شاخصا بعد أن عفت عليه القرون.

ومن الناحية الدينية والأخلاقية، فإن المشهد يقدم لنا المثل الأعلى للبطولة حيث صمد يوسف (وقبل أن يبعث ويكون رسولا) ^(١) أمام مغريات الجمال والسلطان لا خوفا من البشر - فقد كانت كل الظروف مهيأة، ولكن استعصاما بالمثل واستمساكا بالقيم، ومن أجل ذلك كان تكرم الله له في هذا الموقف الحرج بإظهار براءته، وبجعله بعد ذلك قيما على خزائن الأرض.

ب - المشهد الثاني في السجن :

لم يهدأ بال امرأة العزيز بعد أن طعنها يوسف في كبريائها . وبعد أن شاع خبرها في المدينة . وأمام إصراره على الطهارة والاستعصام بحبل الله لم يهدأ بالها إلا حين أُلقت به في السجن بعد أن فضله يوسف على الغواية والصبابة . وفي السجن بدأ يمارس علمه وحكمه الذي ألهمه الله إياه، واشتهر في السجن كمعبر للرؤى والأحلام، وتمر عليه في السجن السنون، ويحلم الملك حلما مفرعا ويحار في تفسيره كل من حوله، فيطمئنونه بأنه أضغاث أحلام ^(٢) ويتطوع أحد من أفرج عنهم ممن كانوا زملاء السجن مع الصديق يوسف وخبر قدرته على تأويل الأحلام ويعرض رؤيا الملك على يوسف . وفي تأويل للرؤيا تظهر المقابلات العجيبة بين ما رآه الملك في الحلم وما سيتحقق وقوعه في الواقع والمستقبل . قال تعالى :

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تَأْكُلُونَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا

(١) المصطفون الأخيار : عطية صقر : ١٠٦

(٢) أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها (كلمات القرآن : ١٣٦) .

قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ

يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ (يوسف: ٤٦ - ٤٩)

فإن الرؤيا نفسها فيها مقابلة بين :

(١) سبع بقرات سمان وسبع عجاف

(٢) وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات

ويقابل هذه الرؤيا المتقابلة تعبير لها متقابل أيضا :

(١) فالبقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر : تؤول وتقابل بالزراعة

الحياة والسعى الدءوب سبع سنين . تكفى إطعامهم ويخزن الباقي في سنابله لسبع عجاف أخرى .

(٢) والبقرات السبع العجاف والسنبلات اليابسات : تؤول وتقابل بسبع سنوات

شداد عجاف ينعدم فيها المطر وينتشر الجذب والجفاف . وتأكل هذه السنوات العجاف ما خزنوه من الغلال في سنوات الجذب والدأب .

وهنا نلاحظ أن هذه السنين العجاف يأتى بعدها عام فيه يغاث الناس وفيه

يعصرون: يترل المطر فتخصب الأرض وتنبت الزيتون والفواكه وكل ما من شأنه أن يعصر. ^(١)

هذا العام وهو عام الرخاء الكامل، لا يقابله رمز في رؤيا الملك فما هو السر في

ذلك ؟ ولماذا صرح به يوسف ؟ وعلى أي شيء يدل ؟ أغلب الظن - كما يقول

الأستاذ سيد قطب - أن هذا من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف فيشر به الساقى

(زميله في السجن) ليبشر به الملك والناس بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخي

رغيد ^(٢)

وهذه المقابلات بين الرمز في الرؤيا وما يقابلها من أحداث، تقوى النسيج

القصصى، وتكسبه التماسك والقوة، بالإضافة إلى دلالتها على ذكاء البطل وحسن

تدبيره . وهذا قد أدى بدوره إلى الإفراج عن يوسف عليه السلام وإخراجه من السجن

وزيرا على خزائن الأرض ومن الناحية الدينية والأخلاقية أفادت بيان شرف العلم

وأثره، فبهذا التأويل بلغ يوسف هذا المنصب المرموق .

(١) كلمات القرآن : ٣٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ٤ / ١٩٩٤ .

ج - بين يوسف وإخوته :

وهذه مقابلة قليلة الكلمات ولكنها تؤدي معاني بلاغية وفنية كبيرة . قال تعالى :
﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (يوسف : ٥٨)
فماذا أفادت المقابلة بين (عرفهم) و (منكرون) في الأسلوب القصصي ؟
أعتقد أنها تضيف إلى القصة عنصر التشويق والإثارة، وتتيح للبطل (يوسف عليه السلام) أن يطور الأحداث بمعرفته، ويديرها تجاه الهدف الذي يريد أن يصل إليه.
وفي الأسلوب القصصي نلاحظ أن البطل عندما يتخفى أو يخفى على بقية الشخصيات بحيث يعرفهم ولا يعرفونه، فإن ذلك يتيح له أن يضع من الخطط والأحداث ما يكفل له - بحرية تامة - الوصول إلى هدف معين يخدم في تنمية العمل القصصي .
وهنا نجد أن معرفة يوسف عليه السلام لإخوته، وجهلهم به، قد أتاحت له أن يطور الأحداث كما يريد، فطلب منهم أن يحضروا أخاهم من أبيهم هو (بنيامين : أخوه لأمه وأبيه وهو أصغر من يوسف^(١)) ولقد كان إحضار (بنيامين) بداية لسلسلة من الأحداث الشيقة، بدأت باهتمامهم بالسرقة ثم استبقاء بنيامين الذي وجد صواع الملك في رحله لكي يكشف له يوسف عن شخصيته، ثم تتابع الأحداث وتنتهي باستقدام يوسف لأبويه ورفعهما على العرش . وَخَرَّ الْجَمِيعُ لَهُ سَجْدًا لِتَحْقِيقِ رُؤْيَا يَوْسُفَ صَبِيًا .

على أن في المقابلة بين (عرفهم، ومنكرون) جمالا يضاف إلى ما لمسناه من أثرها الفني، فقد كان السياق يقتضي (عرفهم وهم لم يعرفوه)، ولكن التعبير ب (منكرون) يدل على أنه كان من طبيعة الأمور أن يعرف أخوة يوسف أخاهم، ولكنهم بفعلتهم المنكرة معه صغيرا قد أصبح يوسف غريبا منكرا عندهم كأن لم يكن في يوم من الأيام واحدا من أبناء يعقوب^(٢) .

د - مقابلة آخر القصة بأولها :

ومن الطريف في قصة سيدنا يوسف ربط بدئها بختامها، فلقد بدأت برؤيا يوسف الصبي وانتهت بواقع يوسف وزيرا على خزائن مصر حفيظا لها عليما بأمورها، قد أوتى الملك والحكمة وبين البدء والختام سارت الأحداث في تسلسل وترابط .

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار : ١٦٧ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب : ٤٥٨، ط : دار الفكر العربي،

مصر، ١٩٧٤ .

والمقابلة التي أعنيها : بين قوله تعالى في مطلع السورة :
﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف : ٤) .
وقوله سبحانه في نهايتها :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرًا إِن شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴾ (١١) وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبْتُ هَذَا تَأْوِيلُ
رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَيِّ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي
لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف : ٩٩ - ١٠٠) .

فيمكن مقابلة أحد عشر كوكبا بأخوة يوسف الأحد عشر^(١)

ومقابلة الشمس والقمر بأبيه وأمه

ومقابلة سجود الكواكب والشمس والقمر ليوسف في الرؤيا

بالسجود له بعد أن بلغ ما بلغ في ملك مصر في دنيا الواقع .

وهكذا يتصل المشهد الختامي بمطلع القصة، وتتقابل الرؤيا مع الواقع في نسيج محكم
قوى يخدم الغرض الفني من جهة، ويدل على تأصيل القيم الدينية والأخلاقية من جهة
أخرى، بما بين المطلع والختام من معاني الصبر على الظلم، ومقاومة التزعات الجسدية،
وذم الحسد والكيد وكل ما أفادته قصة يوسف من هذه العبر والعظات .

٥ - المقابلة في قصة أصحاب الكهف :

وأصحاب الكهف كما أخبر عنهم القرآن الكريم فتية آمنوا بربهم فزادهم الله
هدى، قاموا يدعون إلى التوحيد في عصر فشت فيه عبادة الآلهة من دون الله دون
سلطان بين فلما أحسوا بصدود قومهم ومحاربتهم لهم أَوُوا إلى الكهف فضرَب الله على
آذانهم وظلوا نائمين فيه سنين عددا : ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا . ثم بعثهم الله
وأعثر عليهم قومهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها .

والمشهد الذي نعرض له هنا يصور عناية الله بهم وهم نيام طوال هذه المدة في حين
يحسبهم الرائي أيقاظا . قال تعالى :

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار : ١٥٥

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝ ﴾ (الكهف: ١٧ - ١٨) .

والمقابلة هنا توضح كيف حفظهم الله من عوامل الطبيعة الشمس والهواء ومن عوادي البشر، فيظنهم الرائي أيقاظا فلا يقترب منهم، بينما هم رقاد في سبات طويل . كما توضح المقابلة أثر عناية الله بهم في نفوس البشر . فهي آية تهدي من ينتفع بها أما من أصم عقله فإنه ضال لن يجد من يرشده .

ومن الناحية الشكلية، فإن المقابلة ظاهرة بين طلوع الشمس وغروبها، وبين تزاورها عنهم جهة اليمين في الصباح حتى لا تتعامد عليهم فتؤذيهم وقرضها عنهم جهة الشمال في الغروب حتى يظلوا في الوسط لا تصيبهم الشمس بحرها ولظاها . وظاهرة أيضا بين أيقاظ ورقود، وبين الهدى والضلال .

وهذه المقابلات من الناحية الفنية وصفت بدقة بالغة حالات الشخوص في القصة، هذا الوصف الذي ظهرت فيه عناية الله بهم ليظلوا آية من آيات الله . وقدرته على البعث .

ونلاحظ من الناحية الفنية أيضا أن القرآن لم يهتم بمكان الحدث أو زمانه أو أسماء الأشخاص

(لأن التسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، وهي تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان)^(١) .

إن المكان هنا كهف . وما أكثر الكهوف والمدينة التي بعثوا أحدهم إليها بورقهم لينظر أيها أزكى طعاما . . مدينة بلا عنوان، والأشخاص كذلك، لأن هذه أمور لا تقدم ولا تؤخر في العبرة المأخوذة من القصة، وهي الدلالة على قدرة الله على البعث، وهي القضية التي كان الكافرون ينكرونها . إن القرآن ليس كتاب تاريخ وإن حوى الكثير من وثائقه، وليس كتابا في فن القصص، وإن ظلَّ يُعجزُ أمهرَ القصاصين عن مجاراته .

(١) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٢٨٩ .

٦- المقابلة في القصص التعليمي بين لقمان وولده :

لم يتعرض القرآن الكريم لقصة لقمان، وإن أفرد باسمه سورة كاملة لكن ما ورد في شأنه هو الوصايا التي وصى بها ابنه، وهي طريقة من طرق القرآن الكريم في عرض القصة، قد يأتي بها كاملة وفي سورة واحدة كما في قصة يوسف، وقد يأتي بها متفرقة في عديد من السور .

وقد يختار من القصة مشهدا واحدا، لأن فيه العبرة .

وقد يحمل القصة كلها في آية أو آيتين كما في قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت

: ١٣)، دون ذكر لأحداث القصة والناقة وسيدنا صالح، لأن الغرض هنا هو الطرق بشدة على أفئدة المشركين ترهيبا وتخويفا .

وفي قصة لقمان لم يورد بشأنه سوى ما وصى به ولده، ليعرض على المشركين صورة مشرفة للوالد الحريص على مستقبل ابنه، وعلى توجيهه وجهة التوحيد الخالص وطاعة الوالدين إلا في الشرك، والنهي عن الكبر والأمر بالمعروف والصلاة، إلى آخر هذه الفضائل في مواجهة ما كان يعم المجتمع المكى من عادات مردولة ومن تواس بالكفر جيلا بعد جيل .

قال تعالى : ﴿ يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَأْتِ بِهَا اَللّٰهُ اِنَّ اَللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴾ (يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْاُمُوْر) (لقمان : ١٦-١٧) .

فقد جاءت في ثنايا هذه الموعظة مقابلات تؤدي دور التأثير في الوليد الناشئ حتى يستجيب للنصيحة الخالصة الصادرة من قلب الأب إلى الابن .

هذه مقابلة بين حبة الخردل الصغيرة المتناهية في صغرها وبين الصخرة الضخمة، قد توارت في أعماقها حبة الخردل فلا يكاد يراها أو يصل إليها أحد لكن علم الله نافذ إليها .

ومقابلة بين السموات والأرض، تبين شمول علم الله بما فيهما حتى ولو غيبت في تضاعيفهما حبة الخردل المذكورة .

ومقابلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأتي بعد أن هيا لقمان ابنه لتقبلهم بعرض مثل لشمول علم الله وإحاطته بالصغيرة والكبيرة ما خفى منها وما ظهر .

ثم مقابلة بين علاقة الابن بربه متمثلة في إقامة الصلاة وعلاقة الابن بالبشر متمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما تلا ذلك من النهي عن المنكر والخيلاء والقصد في المشي وغض الصوت .

وهذه المقابلات أفادت من الناحية الفنية تصوير حرص الأب على تربية ابنه وتنشئته تنشئة سوية متوازنة تلبى كل حاجاته النفسية والاجتماعية والروحية .

ومما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة، فلا تمل ولا تكل، أما الدروس التلقينية والإلقائية فإنها تورث الملل . والمعهود - حتى في حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية وتعي ذاكرته ما يروى له فيحاكيه ويقصه.^(١)

كما أفادت من الناحية الدينية عرض نموذج للمثل الأعلى في التربية الإسلامية التي يهدف إليها القرآن في تربية المسلمين .

٧- المقابلة بين الإيمان والكفر في قصص الأنبياء :

نعرض هنا للخط الرئيسي الذي ينتظم معظم القصص القرآني، وخاصة قصص الأنبياء . . وفي يقيني أن المقابلات الواردة في هذا القصص تهدف أساسا إلى تصوير الصراع بين دعوة الإيمان ودعوة الكفر، وهذا الصراع هو الخط الرئيسي الذي يقوم عليه القصص القرآني، وصولا إلى الهدف منه وهو كونه عبرة لأولى الألباب .

وقد عرضت سورة الأعراف لقطات سريعة لقصص سيدنا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وهذه اللقطات تعتمد على المقابلة في المواقف بين كل نبي وقومه بين دعوة الربوبية الخالصة، وأثر هذه الدعوة في نفوس القوم .

ويلاحظ في هذا المجال أن المدعويين جميعا، قد انقسموا إلى فريقين متقابلين فريق لم يستكبر ولم يتكبر وشرح الله صدره للإيمان والتوحيد وفريق هم (الملأ) أصحاب المصلحة في الإفساد والكفر، يستكبر ويستنكف عن قبول دعوة الحق، لأنها تسلبهم السلطان على النفوس، وتقضي على المباءة والمستنقع الآسن الذي فيه يمرحون .

ثم يكون الصراع بين الفريقين وتحسم القضية في النهاية بنتيجة متقابلة تناسب المواقف المتقابلة، وهي هلاك المتجبرين ونجاة المؤمنين والآيات التي تصور ذلك في سورة

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان : ٣١٠، ط ٦، مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٧٨ .

الأعراف محصورة من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ
 أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)
 (الأعراف إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ
 رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (٢) (الأعراف)
 ولا نجد من الضروري إثبات كل هذه الآيات هنا، بل نكتفى بإيراد ما يمثل خط
 الصراع في المواقف المتقابلة .

فموقف الأنبياء يتمثل في الدعوة إلى التوحيد من منطلق حرص هؤلاء الأنبياء على
 قومهم وخوفهم على مصيرهم إن هم استمروا على الضلال .

١ - يقول نوح عليه السلام لقومه :

﴿ ... لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
 إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) (الأعراف) .
 ٢ - ويقول هود عليه السلام لقومه عاد :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٤) (الأعراف) .

٣ - ويقول صالح عليه السلام لقومه ثمود :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي
 أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ (٥) (الأعراف) .

٤ - أما لوط عليه السلام فلم يقل لقومه كما قال سابقوه : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا
 لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، وإن كان ما دعا إليه في الحقيقة لا يخرج عن مضمون الدعوة
 إلى التوحيد فقد خرج قوم لوط عن الفطرة السليمة، ومن يؤمن بالله الواحد لا يمكن
 أن يخرج عن سنته في الكون وهي (أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)، وأن التقاءهما
 لعمارة الكون هو الفطرة السوية، أما الانحراف عن ذلك إلى الشذوذ الجنسي وإتيان
 الذكران، فهو مخالفة للفطرة، أي مخالفة للتوحيد .

ولذلك توجه لوط مباشرة إلى هذا الشذوذ عند قومه . فبدأ بالاستفهام
 الاستكاري:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (١٢) (الأعراف) .

٥ - وأما شعيب عليه السلام فقد قال لأهل مدين :

﴿ ... يَنْقُومِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . ثم اتبع ذلك بدعوتهم إلى الوفاء بالكيل والميزان وعدم الإفساد وعدم الصد عن سبيل الله، مذكرا إياهم بفضل الله عليهم ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٣) (الأعراف) .

هذا هو الجانب الأول من المقابلة : الرسل يدعون إلى التوحيد والهدى والفطرة والعدل، ويحذرون أقوامهم من الضلال المؤدى إلى العذاب ويحضونهم على التقوى، ويقدمون لهم البينات من رهم وينهونهم عن الإسراف في مناوأة الحق وعن الانحراف عن الفطرة السوية إلى ابتغائها عوجا.

فما الموقف الذي يقابل به أقوامهم هذه الدعوة السامية ؟

١ - إن قوم نوح يتهمونهم بالضلال المبين :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٤) (الأعراف) .

ويتعجبون من مجئ الوحي والذكر على رجل منهم ينذرهم ويرجو لهم الرحمة وهو موقف مقابل ومعاكس تماما لموقف نوح الرسول، إنه الإعراض التام عن دعوة الهدى، في مقابل حرصه عليها وخوفه عليهم، إنه الضلال في مقابل الهدى والسخرية والتهكم في مقابل الحكمة والنصح والإشفاق .

٢ - وقوم هود يتهمونهم بالسفاهة وبالكذب على الله :

﴿ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١٥)

(الأعراف)، وما به سفاهة أو كذب وإنه لناصح أمين، ويتعجبون كما تعجب قوم نوح - من كون الرسول رجلا منهم ويسخرون من دعوته إلى التوحيد، ويستعجلون ما أوعدهم به من العذاب، ويجادلون في أسماء اخترعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان .

وهو موقف شبيه بموقف السخرية والعناد الذي وقفه قوم نوح ومن ثم يقابل موقف هود الناصح الأمين الحريص على الأخذ بأيديهم إلى الرشاد .

٣ - وها هم أولاء قوم صالح، وخاصة الملائمة منهم، يقفون موقف العداء والكبر من صالح ومن تبعه من المستضعفين، ويجاهرون في غرور وكبرياء : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (الأعراف)، ولا يكتفون بكلمة الكفر، بل يقدمون الدليل العملي على كفرهم وعنادهم : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَسْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف) .

٤ - أما قوم لوط : فإنهم يقابلون دعوته إلى التطهر والفطرة السليمة بالإجماع على طرده هو ومن اتبعه من القرية : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف)، والعجب كل العجب من منطق يدعو إلى إبعاد الطهر والنقاء من قريتهم كي لا يبقى فيها إلا الدنس والفساد .

٥ - وماذا قابلت مدين دعوة شعيب ؟



لقد هددوه بالإخراج عنوة من قريتهم إن لم يعد هو وتابعوه إلى ملتهم تلك الملة التي تبخس الناس أشياءهم، وتفسد الأرض بعد إصلاحها، وتقعّد بكل صراط تتوعد وتهدد وتصد عن سبيل الله وتبغيها عوجاً : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (الأعراف) .

وبعد أن يعرض القرآن كل موقف وما يقابله، يعرض النتيجة والجزاء الملائم لطبيعة كل فريق، وهي نتيجة متقابلة أيضاً تقابل الفريقين والموقفين، إذ تدور الدائرة على الظلم والظالمين، وينجي الله المؤمنين :

١ - ففي قصة نوح يكون الختام : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف)

٢ - وفي قصة هود : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف) .

٣ - وفي قصة صالح : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ (الأعراف) .

٤- وفي قصة لوط : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٤١)  وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفُ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٤٢)  (الأعراف)

٥- وفي قصة مدين : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴾
 الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ
 الْخُسْرَيْنِ ﴿٤٧﴾ (الأعراف).

لقد رأينا في هذه اللقطات القصيرة من قصص الأنبياء تركيزا شديدا على إبراز المواقف المتقابلة، وعن طريقها يتجسد الصراع ويظهر للعيان، والصراع من أهم العناصر المحسوسة في هذه اللقطات، لأنه موجود دائما في حياتنا بين الخير والشر، ولا تكاد الحياة تخلو من صورة من صوره، وهو هنا يشتد ويشتد بين النبي وقومه إلى أن تتعقد الأمور، فيكون الحل هو هلاك المكذبين ونجاة النبي ومن معه من المؤمنين .

أما الغرض الديني من سوق هذه القصص في القرآن الكريم فقد جاء صريحاً في التعقيب على هذه المواقف في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٦ ﴾ (الأعراف)، وفي هذا تلميح إلى كفار مكة بأن يؤمنوا حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم صالح ثم تأتي الآيات بعد ذلك تحمل معنى التهديد لأهل مكة : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَاعِمُونَ ١٧ ﴾ أو ﴿ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ١٨ ﴾ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿ ١٩ ﴾ (الأعراف) .

ثانيا : في الأمثال القرآنية :

تقديم :

وكما اعتمد القرآن الكريم على القصة سلاحا من أسلحة الدعوة، وطريقة من طريق القرآن للتذكير بما حدث للقرون الأولى، عل في ذلك عبرة لأولى الألباب، استخدم القرآن المثل كذلك باعتباره طريقة من طرق التعبير القرآني يكشف به عن نماذج مؤمنه بلغ بها اليقين النفسى، والاطمئنان للإيمان درجة كبيرة. ونماذج كافرة بلغ بها الحقد والعناد والمهاترة مبلغا عظيما. ونماذج منافقة يصدر عنها القول الحسن في فعل بدئى وتظهر في أشكال جذابه، وبواطن مظلمة، وللمثل دلالة الفنية التي تجسم الأفكار، وترسم الصور وتقرّب إلى الأفهام ما هو بعيد عنها .^(١)

وتؤدى المقابلة في الأمثال القرآنية دور المقارنة بين النماذج الإنسانية والأفكار والمعتقدات، فتضع أمام القارئ المثل في مقابل المثل، والفكرة تجاه الفكرة وتترك للعقل حرية التنقل بينهما فيختار المؤمن منهما ما يتوافق مع الفطرة والهدى .

وبهذه الطريقة كما يقول عبد القاهر الجرجاني يكسب التمثيل المعانى منقبة ويرفع من أقدارها ويشب من نارها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعوة القلوب إليها^(٢)

وهذه طائفة من الأمثال القرآنية كان للمقابلة فيها دور بارز في نقل الفكرة القرآنية إلى القارئ وفي تقريب المعنى المستهدف إلى الأذهان بطريقة تمثيلية جذابة تخدم الغرض الفنى والدينى في آن واحد

مع التنبيه هنا إلى أن الله المثل الأعلى وأنه : ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾ (الشورى) .

١ - المقابلة في مثل الشرك والتوحيد :

لكى يؤدى المثل دوره في التأثير وتقريب المعنى لا بد أن تكون مادته مأخوذة مما يحيط بالبيئة التي سيضرب فيها المثل ولذلك يمثل الله للشرك بالعبد المملوك والشخص الأبكم العاجز عن الكلام والإفهام، ويمثل للتوحيد بالحر يتصرف كما يشاء وبالفصيح يأمر بالعدل ويتبع المنهج القويم،

(١) المعاني الثانية للدكتور فتحى عامر : ٤٤٥ .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني : ١٠٨

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ ثَمَرِ رِزْقٍ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٦) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦) (النحل) .

فالعبد المملوك الذي لا يستطيع التصرف إلا بأمر سيده، لا يمكن أن يتساوى مع مقابله وهو الحر الذي رزق رزقا حسنا يتصرف فيه سرا وجهرا كيف يشاء، وانهم ليرون ذلك واقعا تحت أنظارهم فكيف هم يسرون بين الله سبحانه وبين ما يعبدون من دونه : بين الله المالك المتصرف، وبين أي شيء آخر لا حول له ولا طول ؟ .

فالمثل بهذا الاستفهام الإنكارى (هل يستوون ؟) يعتبر صفة لهؤلاء المشركين، ووصمة عار عليهم لخطأ رأيهم وفساد عقيدتهم .

وكذلك المثل الثانى الذي يعرض في صورة مقابلة بين رجل أبكم عيى لا يقدر على شئ بل هو عبء على غيره ورجل آخر يملك القدرة على إثبات وجوده وفعاليته بين الناس حين يأمرهم ويسوسهم بالعدل ويتبع المنهج المستقيم إن العاقل لا يمكن أن يسوى بينهما، فكيف هم يسرون بين الله بكل صفاته، وبين الأصنام والأوثان ؟

ويذهب ابن جرير الطبرى إلى أن المثل في الآية الأولى : إنما هو مثل للكافر والمؤمن، على اعتبار أن الكافر لا يعمل بطاعة الله، ولا ينفق من ماله شيئا في سبيل الله، فهو كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شئ فينفق، وأن المؤمن في مقابل ذلك يعمل بطاعة الله، وينفق في سبيله فهو كالحُر في تصرفه^(١) ولا بأس من انصراف المثل للكافر والمؤمن، ولو أن السياق يرجح أنه مثل للشرك والتوحيد، نظرا لورود المثل - كما يقول ابن قتيبة^(٢) - في سياق الحديث عن الشرك في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٧٦) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧٦) (النحل) .

(١) انظر تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لابی جعفر محمد بن جرير الطبرى، ٩٩ / ١٤، ط بولاق، ١٣٢٩ هـ .

(٢) انظر (تأويل مشكل القرآن) ابن قتيبة : ٣٨٤، تحقيق السيد صقر، ط ٢، دار التراث : القاهرة، ١٩٧٣ .

ومما يشبهه ما سبق، تلك المقابلة بين المشرک والموحد في هذا المثل الذي ورد في سورة الزمر :

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر) .
فالمقابلة هنا بين عبد يملكه شركاء يتخاصمون في ملكيته وأمره وعمله، فلا يستطيع هذا العبد أن يرضى جميع نزعاتهم ورغباتهم المتعارضة، وعبد لسيد واحد قد عرف السيد إمكانات عبده وعرف العبد رغبات سيده، فأصبح مستريحاً لطريقته إنهما لا يستويان .

فكذلك المشرک والموحد، لا يستويان ولا يلتقيان : المشرک موزع ومشتت بين الآلهة والمؤمن موحد الوجهه والنية والعمل، عارف بطريقه ماشٍ فيه على هدى وبصيره .
٢- المقابلة في مثل نور الإيمان وظلمات الكفر :

والآيات التي تعرض هذا المثل من سورة سميت باسم النور دلالة على ما فيها من نور الله وهدايته .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) في بيوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٢٥) رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تَجَرَّةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٢٦) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٨) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (سورة النور) .

والمقابلة هنا بين نور الله المشرق على الكائنات، وبين ظلمات الكفر التي تغشى جوانب الكون والنفوس حين تضل عن نور الله فما لها من نور بعده .
وقد صور المثل نور الله بطريقة مجسمة متخيلة، مقابلة تماماً لظلمات الكفر .

فإشعاعات النور والألاء المنبعثة بقوة وصفاء من مصباح مسقى بزيت الزيتون المقدس المضئ من غير نار، وقد وضع في زجاجة بلورية تشبه الكوكب الدرى فأفاض نورا على نور يغمر الأكوان والنفوس بالهدى واليقين .

في مقابل تلايف الظلمات الشبيهة بظلمات بحر طاغى الأمواج بعضها فوق بعض، وفوق هذه الأمواج الصاخبة اللاحبة سحب أسود داكن فتتكون ظلمات بعضها فوق بعض، لا يرى الشخص فيها يده إذا أخرجها . . فأنى للكافر في وسط هذه الظلمات أن يستهدي، وقد فقد نور الله ؟ .

وقد وضحت المقابلة بين المثليين الفرق الهائل بين نور الإيمان وظلمات الكفر، وفي هذا حث على اتباع نور الله، وهجر الكفر وظلماته .
ويذهب الحكيم الترمذي^(١) إلى أن هذه الآيات مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله :

(فنفس المؤمن مثل بيت وقلبه مثل قنديل ومعرفته مثل السراج وفمه مثل الباب ولسانه مثل المفتاح والقنديل معلق فيه، دهنها من اليقين والفتيلة من الزهد، وزجاجها من الرضا، وعلائقها من العقل إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما في قلبه، فاستضاء المصباح من كونه إلى عرش الله تعالى . فكلامه نور، وعمله نور، وظاهره نور، وباطنه نور، ومدخله في الاعمال نور، ومخرجه منها نور، ومصيره يوم القيامة نور أما الكافر فان قلبه مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم)^(٢)

(١) الحكيم الترمذي هو (أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن شير الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم من علماء القرن الثالث الهجري، انظر الأعلام : ٧ / ١٥٦، دائرة المعارف الإسلامية : ٢٢٧ / ٥ .

(٢) الأمثال من الكتاب والسنة، لأبي عبد الله بن علي الحكيم الترمذي : ٢٦ - ٢٧، تحقيق : علي محمد البجاري، طهضة مصر : القاهرة، ١٩٧٥ .

ونحن نرى أن هذا إغراق في الصوفية يزيد في غموض المثل ولا يوضحه، والأقرب إلى الفهم أن يكون هذا مثلاً لهدى الإيمان الذي ينير البصر والبصيرة، ولضلال الكفر الذي يحتم على القلوب ويصيبها بالرين والصدأ .

٣- المقابلة في مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦١﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٦٣﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٤﴾ ﴾ (إبراهيم).

فالكلمة الطيبة هنا سواء أكانت كلمة التوحيد أم كلمة الحق أو عمل المؤمن توضع في هذا المثل في مقابل الكلمة الخبيثة وتشبه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة الثابتة الشامخة، لا ترعزها العواصف أو تلعب بها الأنواء فأصلها ثابت وفرعها في السماء وفي مقابل هذا تشبه الكلمة الخبيثة شجرة خبيثة مهما تكاثرت أغصانها والتفت فروعها وظن الناس أنها شجرة نافعة فإن مآلها أن تجث من فوق الأرض فلا يكون لها بقاء أو يقر لها قرار .

ويعقب هذا المثل تقرير مفاده أن المؤمنين يشبههم الله بالقول الثابت وبتلك الكلمة الطيبة الثابتة في الدنيا والآخرة . . . في مقابل ضلال وزعزعة الظالمين الكافرين (وهكذا تبرز الأمثال الأمر المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم) .^(١)

ومما يدور في فلك هذا المثل أيضاً، قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِذَا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف) .

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان : ٢٨٧، ط ٦، مؤسسة الرسالة : بيروت، ١٩٧٨ .

وهو تمثيل للقلب الطيب بالأرض الطيبة وبالثرة الخصبة تخرج بإذن الله نباتا مثمرا طيبا في مقابل القلب الخبيث الذي يشبه أرضا جدباء لا تنبت سوى الشوك والخنظل .
وقد فسر صاحب مجاز القرآن، قوله تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ بقوله: ﴿قليلًا عسرا في شدة﴾ مستشهدا بقول الشاعر :

لَا تُنَجِّزُ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ . . . أُعْطِيتَ أُعْطِيتَ تَأْفِهًا نَكِدًا^(١)

وهو تفسير يصور الشدة والعسر والضيق المصاحب للكفر وخبث الطوية، في مقابل الثمر الطيب الكثير المصاحب للإيمان .

٤ - المقابلة في مثل الكفر والإيمان (بين النساء) :

هذا مثل ضربه الله لامرأتين خائنتين، مقابل امرأتين مؤمنتين والأوليان هما امرأة نوح وامرأة لوط والأخريان هما آسيا امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمِينَ ﴿١٢﴾﴾ (التحریم: ١٠ - ١٢)

والمقابلة هنا متعددة الجوانب والأطراف، فهي مقابلة بالتناظر والتماثل إذا أخذنا كل مثل على حدة، لأن امرأة نوح تناظر وتماثل امرأة لوط في الكفر والخيانة .
وكذلك امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، فإنهما متناظرتان ومتماثلتان في الإيمان والطهارة .

فإذا قابلنا بين المثليين كانت المقابلة بمعنى التضاد .

ففي المثل الأول نموذج لامرأتين خائنتا زوجيهما (خيانة إيمان لا خيانة فاحشة) لأن زوجات الأنبياء لا يبغين، وخيانتهم نفاقهما وإبطائهما الكفر وتظاهرها على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفانه^(٢)، فكان

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى : ٢١٧ .

(٢) الكشف للزمخشري : ٤ / ١٣١ .

نصيهما النار، ولم يغن صلاح زوجيهما عنهما من الله شيئا وفي المثل الثاني نجد نموذجا عكسيا .

ففي مقابل هاتين المرأتين الكافرتين، امرأتان آثرتا الإيمان على الكفر، ولم تستجيبا لضغوط البيئة وعادات المجتمع، فامرأة فرعون آثرت الآخرة على الدنيا وفضلت قصور الجنة على قصور فرعون، فهي تدعو ربها أن يبنى لها بيتا في الجنة وتستجير بالله كي ينجيها من فرعون وعمله .

ومريم طهرها الله وفضلها على نساء العالمين .

ويبدو لي أن امرأة فرعون تقابل امرأة نوح وأن مريم ابنة عمران تقابل امرأة لوط . وذلك لأن امرأة فرعون تمثل الإيمان الراسخ والعقيدة الصلبة رغم أنف زوجها العاتى في كفره المتجبر في طغيانه بينما تمثل امرأة نوح - في مقابل ذلك - الكفر والتحريض على زوجها وسخريتها منه وإقامها إياه بالجنون^(١)، بينما زوجها نبي صالح من عباد الله . فهو مقابل أيضا لفرعون في كفره .

كما أن السيدة مريم ابنة عمران بطهرها وعفافها ونقاها، وبراءتها مما ألصق بها اليهود من تهمة الزنا تقابل امرأة لوط التي كانت تشجع قوم لوط على ارتكاب جريمة هى أبشع من جريمة الزنا وهى (اللواط) وتدلم على أضياف زوجها حتى يمارسوا معهم هذه الجريمة الشاذة^(٢) .

والتأمل في هذين المثليين من خلال سورة التحريم يرى أنهما قد سيقا في معرض تأديب زوجات النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحتذين بامرأة فرعون وبمريم في الإيمان والطهارة، ويعتبرن مما صارت إليه امرأتا نوح ولوط حين لم يغن عنهما زوجاهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين .

تعقيب :

وهكذا نرى من خلال هذا الفصل أن المقابلة تأتي في القصص القرآني لهدف ديني هو العبرة والعظة كما تأتي لغرض فني يختلف من قصة لأخرى .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩٣ .

(٣) نفسه : ٤ / ٣٩٣ .

فقد تأتى لتزكية عنصر الصراع وتحليلته، هذا الصراع الذي ظهر جليا بين الخير والشر كما في قصة قابيل وهايل ابني آدم . أو بين دعوة الإيمان ودعوة الكفر كما رأينا في قصص الأنبياء (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) في سورة الأعراف .

أو قد تأتى المقابلة في القصص القرآني لتصوير الأزمة والعقدة كما في قصة نوح وهو يشكو قومه إلى ربه، أو في قصة يوسف وامرأة العزيز حين ألفيا سيدها لدى الباب أو لتطويع الحوار في اتجاه صاعد نحو العقدة فالحل كما رأينا في حوار سيدنا إبراهيم مع قومه .

أو لتأكيد أهمية الوصف الدقيق لأحوال الشخصوس وتحديد حالاتهم كما في قصة أهل الكهف .

أو لاطهار مدى حرص الآباء على إرشاد أبنائهم كما في قصة لقمان وفي جميع هذه الأمور، جاءت المقابلة في القصص القرآني مصورة ومعبرة قوية ومتماسكة تربط معظم الخطوط والخيوط ببعضها في نسيج محكم وقوي، وإن كان مختلفا عن المعهود في القصص الأدبي .

كما جاءت في الأمثال القرآنية أيضا لتؤدي دورا هاما هو إظهار التناقض بين النماذج موضع المثل حتى يختار العاقل النموذج الطيب والمثل الرفيع، ويطرح غيره .

الفصل الرابع

مقابلات متميزة في القرآن الكريم

تمهيد :

في خلال رحلة البحث الطويلة عن المقابلة في القرآن الكريم استطعت بفضل الله وتوفيقه - أن أضع يدي على مقابلات فريدة في القرآن الكريم، تمتاز عن غيرها بالجدّة والطرافة .

وأشهد أن مالفت نظري إلى مثل هذه المقابلات في القرآن، إنما كان بعض الإشارات غير المقصودة من جانب الزمخشري في الكشف والزمخشري في البرهان وغير ذلك من المصادر العديدة التي استعنت بها .

وعلى سبيل المثال، فإن الجملة القصيرة التي نقلها الزمخشري عن أبي بن كعب وهو يبحث عن السر في عدم تصدير سورة (براءة) بالبسملة، وهو (ان في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبد العهود^(١)) .. كانت هذه الجملة حافزا لي على محاولة تبين ما بين السورتين من تقابل، ثم محاولة البحث عن نظائر لمثل هذه المقابلة .

ومثلها إشارة الزمخشري في البرهان إلى أن (في القرآن سورتين أولهما ﴿يأيها الناس﴾ إحداهما تشتمل على شرح المبدأ والثانية تشتمل على شرح المعاد، وهما سورتا (النساء والحج^(٢))، وذلك في خلال حديثه عن خطاب الجنس في القرآن الكريم .

وقد دفعتني مثل تلك الإشارات العابرة إلى البحث عن المقابلات المتميزة في القرآن الكريم، فاهتديت - بفضل الله - إلى العديد منها، ورأيت في تسجيلها هنا دليلا جديدا على إعجاز القرآن الكريم وسمو بلاغته وتفردّه، عن غيره من أساليب البشر بالجديد والطريف .

(١) الكشف للزمخشري : ٢ / ١٧١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزمخشري : ٢ / ٢٢٧ .

ومن هذه المقابلات ما يأتي :

أولا - المقابلات بين السور :

وردت المقابلة بين السور في القرآن الكريم في أكثر من صورة، ويمكن لنا تصنيفها على النحو التالي : -

أ - مقابلة بين مطلع السورتين فقط :

وذلك كالمقابلة التي التقطناها من إشارة الزركشى بين مطلع سورتى النساء والحج، ففي مطلع سورة النساء شرح للمبدأ أي بداية الحياة، قال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتَقُوءُ رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ (النساء) .

وتستمر السورة بعد ذلك في تشريع النظم والقوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في الدنيا: كرعاية اليتامى، والنساء، والزواج والميراث .

ويقابل ذلك مطلع سورة الحج الذي يشتمل على شرح المعاد ونهاية الحياة على الأرض وبداية يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتَقُوءُ رَبُّكُمْ ابْتَزَزِلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ (الحج) وتستمر السورة بعد ذلك في الحديث عن يوم البعث وما فيه من حشر ونشر وجنة ونار، إلى الربع الأول .

ونحن نلاحظ - مع هذا التقابل بين السورتين - أن القضيتين اللتين وردتا في مطلعيهما من الخطورة بمكان، ومن ثم كان الخطاب في كليهما ب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ رغم ندرته في القرآن المدنى، فإن رعاية اليتيم قضية إنسانية باعتبار أن اليتيم موجود في كل زمان ومكان، وكذلك اليوم الآخر، فإنه قضية عامة لم تخل أية أمة من الأمم من تصوره على نحو من الأنحاء . . . ولذلك صدر الخطاب في السورتين المتقابلتين بتقوى الله فهي العاصمة من زلل الدنيا، والمنجية من زلزلة الآخرة.

ب - مقابلة بين أهم ما في السورتين :

وأعنى بها تلك المقابلة التي أشار الزمخشري إليها دونما قصد بين سورة الأنفال وسورة التوبة أو (براءة) حيث ورد في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود، ومن ثم لم تصدر (براءة) بالبسملة على اعتبار أنهما قرينتان، فهما كسورة واحدة .

ويمكن توضيح نقاط التقابل بين السورتين فيما يأتي : -

١- حفلت سورة الأنفال بذكر العهود التي يجب على المسلمين أن يلتزموا بها في معاملة الأعداء في الحرب والسلم على السواء ففي الحرب : فيها بيان أحوال معاملة الأعداء حال وفائهم بالعهد أو خيانتهم له، وكيف يحل المسلمون معهم العهد إن خافوا خيانتهم، وبيان معاملة الأسرى، والأمر بالاستعداد للعدو بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل بغرض الترهيب والتخويف وكسر الشوكة .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٨١) ﴿فَأَمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٨٧) ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٩١) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١٠٦) (الأنفال) .

وفي حالة السلم : بينت السورة أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة وكفوا عن حالة الحرب، فأمر الله المسلمين ألا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سألهم منهم .^(١) قال تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٠٦) (الأنفال) .

ولقد كان من نتائج هذه التوجيهات في سورة الأنفال، كثير من المعاهدات بين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والكفار، ومن أهم هذه المعاهدات صلح الحديبية بين الرسول وكفار مكة قبل الفتح .

٢- أما سورة براءة فإن اسمها يعني (الخروج والتفصّي "التنصل" مما يُتعب ورفع التبعة) ولما كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويعد الإخلاف بشيء منه غدرا على المخلف كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي كانت بحيث تنشأ عن إخلاف العهد فلذلك كان لفظ براءة هنا مفيدا فسخ العهد ونبذه ليأخذ المتعاهدون حذرهم .^(٢)

(١) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ١٠ / ٥٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ١٠ / ١٠٤ .

والآيات الأولى من السورة تتحدث عن نبذ العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، في مقابل ما تضمنته سورة الأنفال من ذكر للعهود .

ونبذ العهود في السورة إشعار وإعلان للأعداء أن ما بينهم وبين المسلمين من عهود مطلقة سوف تنتهى بعد أربعة أشهر : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴿ ٢ ﴾ وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴿ ٣ ﴾ (التوبة) .

أما العهود المقيدة بمدة معلومة، فيجب على المسلمين الوفاء بها إلى أجلها ما لم ييدر من الطرف الآخر ما يشير إلى الغدر أو النقض : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٤ (التوبة) .

وتستمر السورة بعد ذلك في بيان كيفية نبذ هذه العهود وما يترتب عليها، وفي بيان الأسباب وراء اتخاذ هذا القرار الخطير في تاريخ الإسلام : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ٥ أشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصددوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿ ٦ ﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴿ ٧ ﴾ فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لعلهم يعلمون ﴿ ٨ ﴾ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقتلوا أئمة الكفر إنهم لا أئمن لهم لعلهم ينتهون ﴿ ٩ ﴾ (التوبة) وقد بين السيد رشيد رضا الحكمة في ذلك بقوله : (ثبت بالتجربة لهم في حالى قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم، ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم، فلا يمكن للمسلمين أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات المرعية، مع بقائهم على شركهم الذي ليس له شرع يدان) (١) .

(١) تفسير المنار، ١٠ / ١٥٠، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار : مصر، ١٩٣١م

ولهذا تفصل السورة القول في نبذ هذه العهود إلى أن تصل إلى الحسم والتحديد في نبذ عهود المشركين وأهل الكتاب على السواء . قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٥) قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٦﴾ (التوبة) .

ج - مقابلة بين معظم ما في السورتين :

ونلمس ذلك في المقابلة بين سورتى (المؤمنون) ، و (المنافقون) والتقابل بين السورتين هو تقابل بين معظم ما فيهما وليس التقابل الكلى كما سنراه فيما بعد . . .

وأوجه التقابل بين السورتين :

أولا : التقابل في الاسم ما بين (الإيمان والنفاق) .

ثانيا : التقابل في التزول، فسورة (المؤمنون [مكية]) وسورة (المنافقون [مدنية]) .

ثالثا : التقابل في الموضوعات التي تعالجها كلتا السورتين .

ففي معظم السورتين نجد حديثا صريحا مكشوبا عن صفات كل من المؤمنين والمنافقين ونرى تحديدا لمعالم شخصية كل منهما، ثم حديثا عن عاقبة كل فريق : فالمؤمنون : يعاجل القرآن بوصفهم أولا بالفلاح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) وهو هنا مسوق في المقدمة للبشارة والطمأنة، ثم تفصل السورة بعد ذلك القول في صفات هؤلاء المفلحين، وهى صفات تكشف عن طبيعة الإيمان وأثره في نفوس المؤمنين هذا الأثر الذي يشمل مختلف الجوانب للعلاقة السوية بين المؤمن وربّه ومجتمعه وأسرته :

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (١) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٥﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٨﴾ (المؤمنون) .

وبعد ذلك تأتى نتيجة التمسك بهذه الصفات النبيلة التي تمثل معلما من معالم الشخصية المؤمنة :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾ (المؤمنون) .

أما المنافقون : فإن سورتهم تبادر بإبراز أهم معلم من معالم النفاق، وهو الظهور بوجهين : الحديث إلى النبي بوجه الإيمان وفي نفس الوقت إبطان الكفر والكذب :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٦﴾ (المنافقون) .

وقبل الاستطراد في تحديد ملامحهم تصمُّهم بسوء الأعمال : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٦﴾ (المنافقون)

إنهم بستلك الأيمان المغلظة التي يحلفونها لتأكيد إيمانهم وصدقهم بينما هم يخفون الكفر، إنما يصدون الناس أو يصدون أنفسهم عن سبيل الله، فبئس هذا العمل وساء ما كانوا يعملون .

ثم تواصل السورة بيان صفاتهم : إنهم ذوو أجسام فارعة تعجب الناظرين ما داموا في صمت، فإذا تحدثوا أظهر حديثهم أنهم خواء من كل معنى أو قيمة، كما أنهم جنباء تطير قلوبهم هلعاً وفرقاً من كل صيحة، متكبرون يُلَوُّونَ رعو سهم صدا وعلوا وبالإضافة إلى ذلك فهم مناعون للخير، محرضون على البخل بينما خزائن السموات والأرض كلها لله، ثم هم يستغلون الخلاقات وينموها، ظنا منهم أنهم هم الغالبون، وإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون (الآيات ٤ - ٨) .

ثم تستمر سورة (المؤمنون) بعد ذلك - شأن السور المكية - في سوق دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وفي عرض قافلة الأنبياء عليهم السلام من نوح إلى محمد الخاتم - إلى أن تنتهي بعرض صورة من صور عاقبة التكذيب يوم القيامة، وتقرير التوحيد ووصم الكافرين بالخسران وعدم الفلاح .

أما (المنافقون) فلأنها من قصار السور نراها تلجأ - بعد تلك الحملة العنيفة على المنافقين - إلى تحذير المؤمنين من الأفعال التي يمكن أن تقرهم من صفات المنافقين .

وبالمقارنة بين السورتين نرى أن معظم ما في السورتين متقابل : إن المؤمنين أصحاب منهج واضح وشخصية محددة لا لف فيها أو دوران، ومن ثم كانوا الوارثين للفردوس وكانوا المفلحين، بينما المنافقون مُتَلَوِّثُونَ تَلَوُّنَ الحِرْبَاءِ لا يثبتون على وجه واحد انتظارا وتربصا، آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم .

والمقابلة في هذا الباب مقابلة معان وليست مقابلة ألفاظ، وفيها كما يذكر ابن الأثير: (باب عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر)^(١)

د - مقابلة بين كل ما في السورتين :

وقد وجدت هذا التقابل في موضعين : الأول بين سورة الشمس وسورة الليل، والثاني أشار إليه أحد الواعظين - بين سورة الماعون وسورة الكوثر .

١ - بين سورة الشمس وسورة الليل :

إن المتأمل في هاتين السورتين يهره هذا التقابل التام بينهما ويمكن حصر وجوه التقابل بينهما فيما يأتي :

الوجه الأول : التقابل بين اسمي السورتين (الشمس والليل) .

الوجه الثاني : التقابل بين القسم فيها : فالقسم في الشمس ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ يقابله في الليل ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ . وفي الشمس ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ﴾ يقابل في الليل ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .

الوجه الثالث : التقابل بين المقسم عليه في كل منهما .

فالمقسم عليه في سورة (الشمس) أو جواب القسم: أن من زكَّى نفسه وطهرها ونماها وأعلاها فقد ربح وفاز، ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعي الشهوة البهيمية ودسَّى نفسه أى أنقضها وأخفاها، فقد خاب وخسر^(٢). أى أن المقسم عليه هنا هو النفس من الداخل أو هو الإرادة والعزيمة الداخلية للإنسان: تقوى وتشتد فتركوا النفس وتسمو، وتضعف وتخور فتتدسَّى النفس وتَحْمُلُ وتلوم وتصاب بالغواية والفساد .

أما المقسم عليه في سورة (الليل) فإنه السلوك الخارجى أو الفعل وهو مقابل تماما لما رأيناه في الشمس وهو النفس من الداخل إنه هنا السعى والحركة الظاهرية المترتبة على الإرادة .

فالذي طهر نفسه وزكاها من الداخل (في الشمس) أعطى واتقى وصدق بالحسنى في (الليل) فيسر الله له الأمور .

والذي دساها وأحملها هناك : بخل واستغنى وكذب بالحسنى هنا فضيق عليه .

إن المقسم عليه في سورة الشمس شيء لا تراه العيون، خفى في نفس الإنسان .

(١) المثل السائر، ٢ / ٣٠١

(٢) تفسير (جزء عم) للأستاذ الإمام محمد عبده، ٤٧، ط كتاب الشعب .

أما المقسم عليه في سورة الليل فهو السعى الظاهر الملموس . وهذا هو وجه التقابل بين المقسم عليه في كلتا السورتين .

الوجه الرابع: التقابل بين مثل الكفر ومثل الإيمان في السورتين .

وأعنى به ذلك التقابل بين الصورة القبيحة لتكذيب ثمود وكفرها وعصيانها حين عقرت الناقة وخالفت ما أوصى به رسول الله (صالح) وبين الصورة الوضيئة المشرقة لمن يؤتى ماله يتركى به وتطهر نفسه وتنمو ابتغاء رحمة ربه الأعلى . ومن ثم كان التقابل أيضا بين نتيجة الكفر والتكذيب

﴿ فَدُمْدَمٌ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذْبُحُهُمْ فِسْوَاهَا ﴾ ، ونتيجة الإيمان والتطهر هي البعد عن النار ولهيئها وله بعد ذلك الرضا ﴿ وَلِسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وهكذا رأينا التقابل التام بين السورتين في المطلع والوسط والختام .

٢- بين سورة الماعون والكوثر :

وعلى الرغم من قصر السورتين، وقصر الكوثر عن الماعون، إلا أن الإمام البيضاوي ألمح إلى وجه التقابل بينهما وهو يفسر قوله تعالى في سورة الكوثر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ حين قال : فَدُمٌ عَلَى الصَّلَاةِ خالصا لوجه الله خلاف الساهى عنها المرائى فيها، (وانحر) البُذْنُ التي هي خيار أموال العرب وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعُهم ويمنع عنهم الماعون فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة .^(١)

ثم وضع صاحب (درة الناصحين في الوعظ والإرشاد) نقلا عن شيخ زاده وجه المقابلة بين السورتين، بأن الله وصف المنافقين في سورة الماعون بأربعة أمور :

بالبخل : وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١﴾

وبترك الصلاة : وهو المراد من قوله : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿٢﴾

وبالرياء في الصلاة : وهو المراد من قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرْآؤُونَ ﴾ ﴿٣﴾

ويمنع الزكاة : وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ﴿٤﴾

فذكر في مقابلة ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ﴿٥﴾ قوله ﴿ فَصَلِّ ﴾

وذكر في مقابلة ﴿ يُرْآؤُونَ ﴾ قوله ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أى خالصة لوجهه تعالى .

(١) أنظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن

محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى ٥٧٩١ - ٥٧٨ ، ط ١ ، المطبعة البهية المصرية ، ١٩٢٢ م .

وذكر في مقابلة البخل ومنع الزكاة والمعونة، قوله ﴿وَأَنْحَر﴾ لأن بذل خيار الأموال يقابل البخل، ثم إن صرفها على المحاويج يقابل الماعون .^(١)

... وهكذا ظهر لنا وجه التقابل بين السورتين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم حافل بالأسرار البلاغية التي تنتظر من يكشف سترها ويجليها للناس فيقبلون على القرآن - علما وفهما وسلوكا - كما يقبلون عليه منهجا ودستورا .

ثانيا : مقابلات في السورة الواحدة :

وهي المقابلات التي تكون في داخل السورة، وتأتي بصور متعددة أيضا على النحو التالي :

أ - مقابلة بين مطلع السورة وختامها :

ومثل هذه المقابلات يتخذها القرآن عادة وسيلة للربط الفني بين أوائل السور وأواخرها مما يوحى بالوحدة الفنية التي تلتزمها السورة على كثرة ما بداخلها من موضوعات .

وقد ورد التقابل بين مطلع السورة وختامها في موضعين هما :

١ - سورة (المؤمنون) .

٢ - سورة (يوسف) .

ففي مطلع سورة (المؤمنون) يرد قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وفي ختامها يسرد قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ في سياق تقرير الخسران الأكبر لمن يشرك بالله ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المؤمنون)، ومن أجل ذلك يطلب الله من الرسول ومن المؤمنين التوجه بالدعاء طلبا للرحمة واستعاذة من الكفر ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (المؤمنون) .

وفي سورة يوسف عليه السلام يتقابل ما رآه سيدنا يوسف في المنام في مطلع السورة مع ما تحقق بالفعل في واقع الحياة . في أواخر السورة ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف)، هذه هي رؤيا يوسف، تقابلها الحقيقة في آخر السورة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا

(١) أنظر (درة الناصحين في الوعظ والإرشاد) تأليف عثمان بن حسن بن أحمد الشاكر الخوبري من علماء القرن الثالث عشر الهجري، ص ٢٨٩ - ٢٩٠، ط الخلي : القاهرة .

عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوبِهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَرَفَعَ
 أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ
 قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ
 الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ
 إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٥﴾ (يوسف) وقد سبق توضيح ذلك وتفصيله عند
 الحديث عن المقابلة في قصة يوسف عليه السلام .

ب- مقابلة بين مجموع السورة وآخر آيتين فيها :

وأعني بها ما ورد من مقابلة بين مجموع سورة (القمر) وبين آخر آيتين فيها .
 فإن السورة في مجموعها تُروِّعُنَا بِجَوِّ الْفَرْعِ وَالرَّعْبِ الَّذِي يَنْبُعُ مِنْ تَصْوِيرِ مَا
 يَنْتَظِرُ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ، وَتَغْشَانَا سَحْبَ الْهَوْلِ وَالْدمَارِ فِي مَوْجَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ سَرِيعَةٍ مِنْ
 مَصَارِعِ الْمَكْذِبِينَ وَالْمَعَانِدِينَ .
 وإن استعراضاً سريعاً لبعض آيات السورة ليطلعنا على هذا الجو، ويلهنا بتلك
 السياط .

قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .
 وقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ
 يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ ﴿١﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
 الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٢﴾ .

وفي تصوير مصارع المكذبين يفرقنا طوفان نوح ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ
 مُنْهَمِرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٤﴾
 وَنَزَّلْنَا رِيَّاحًا عَادٌ ﴿٥﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٧﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
 مُنْقَعِرٍ ﴿٨﴾ وَتَصْخَرُ أَعْيُنُنَا وَتَرْهَقُ الصَّيْحَةُ ثُمُودَ ﴿٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
 كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ ﴿١٠﴾ وَتَخْصِبْنَا حِصْبَاءَ لُوطَ ﴿١١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا
 ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿١٢﴾ وَيُوْخِدُ آلَ فِرْعَوْنَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ .

وينتقل هذا الجو الرعيب إلى الكفار من أهل مكة والمكذبين بالبعث في مواجهة
 مباشرة مع العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَاتِكُمْ أَمْ لَكُمْ
 بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿١٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

الدُّبُرِ ﴿١٤﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿١٥﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ
وَسُعْرٍ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿١٧﴾ إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٠﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٢١﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٢٢﴾ .

وعندما تشرف السورة على الانتهاء، ينتهى هذا الجو العصيب المليء بالخوف
والفرع والذي تتخلله مطارق منتظمة تشيع فيه روح القلق والتوتر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ متكررة عقب كل موجة من موجات العذاب .

ثم ينتهى هذا المشهد الصاخب فإذا بآخر السورة يطل بمشهد آخر، ففي كلمات
معدودة يذوب الرعب ويتوارى الخوف ويحل محله الأمن والسكينة : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢٤﴾ . (وهى صورة للنعيم
بطرفيه : نعيم الحس والجوارح ونعيم القلب والروح في تعبير جامع شامل يلقي ظلال
السنماء واليسر حتى في لفظه الناعم المنساب وليس لمجرد إيقاع الفاصلة تجئ كلمة
﴿ نَهَرٍ ﴾ بفتح الهاء، بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعمومة في جرس اللفظ وإيقاع
التعبير ^(١)) . وهكذا يتقابل الأمن واليسر والسهولة في آخر السورة مع الكرب والفرع
والسدمار في مجموعها كطريق من طرق التعبير القرآني الفريد الذي يربى النفوس تارة
بالعنف والترهيب وأخرى باللين والترغيب .

ج - مقابلة تشطر السورة شطرين متقابلين :

وهى تلك المقابلة العجيبة الواردة في سورة الحجر في قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ
عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٢﴾
(الحجر)، وليس وجه العجب هنا هو المقابلة بين الآيتين . وإنما العجب والروعة في أن
هذه المقابلة تنوسط سورة الحجر فتشطرها شطرين متقابلين أيضا : الشطر الأول من
السورة تكثر فيه الآيات المعبرة عن غفران الله ورحمته بعباده، والشطر الثاني المقابل تكثر
فيه الآيات المعبرة عن العذاب الأليم وحدير بالذكر أن السورة تسع وتسعون آية وأن
المقابلة واقعة في آيتي تسع وأربعين وخمسين : أى في منتصف السورة تماما .
ونزيد هذا الأمر إيضاحاً فنستعرض بعض جوانب الرحمة والغفران في الشطر الأول
من السورة، ثم بعض جوانب العذاب الأليم في الشطر الثاني .

(١) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٤٤٢ .

فمن مظاهر رحمة الله بعباده وبالمخلوق أجمعين في الشطر الأول من السورة حفظ القرآن الكريم من التغير والتبدل على مر العصور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر) .

وحفظ السماء من كل شيطان رجيم : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَآنٍ رَجِيمٍ ﴾ (الحجر)، وبسط الأرض وتثبيتها بالجبال الرواسي كيلا تميد، وإنباتها من كل لون ونوع من النباتات بميزان حكيم يراعى احتياجات البشر والمخلوقات جميعها، وتصريف الناس والدواب في معاشها الله لهم بقدر معلوم وتسخير الرياح للقيام بعملية تلقيح النباتات، وسوق المطر لسقيها، كل ذلك رحمة من الغفور الرحيم : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر) .

ومن مظاهر الرحمة والمغفرة أيضا حفظ الله لعباده المخلصين من غواية الشيطان :

﴿ ... وَلَا غُوبِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الحجر) .

ثم يختتم الشطر الأول من السورة بما يناسب الشطر الأول من المقابلة وهو وعد الله للمتقين بالجنات والعيون والأمن والسلامة، وتطهير الصدور من أى آثار دنيوية، والاستقرار في هناء مقيم : ﴿ ابْنَ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أَذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحجر) .

أما الشطر الثاني من السورة فإنه يقابل الشطر الأول منها، لأن فيه الكثير من جوانب العذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

ومن هذه الجوانب :

ما حل بقوم لوط عليه السلام نتيجة خروجهم عن الفطرة السوية جزاء عادلا لشذوذهم وذنسهم : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ

مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ (الحجر ٦٦)، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿٦٨﴾ (الحجر).

وما حل بأصحاب الأيكة : (وهم قوم شعيب^(١))، ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٠﴾ (الحجر).

ومثله ما أصاب أصحاب الحجر وهم قوم ثمود كما ذكر ابن كثير، حين خالفوا نبيهم وأعرضوا عن آيات الله : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ (الحجر).

وكذلك تهديد المقتسمين الذين جعلوا القرآن عِضِينَ، وتخويفهم من مغبة السؤال عما كانوا يعملون في الدنيا حين تحالفوا على الكفر والتكذيب وجزءوا الكتاب المتزل عليهم فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض الآخر : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٧٦﴾ أى النذير بعذاب يحل على المكذبين من قريش كما حل على السابقين : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٧٩﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾ (الحجر).

ونحن نرى أن كل هذا مناسب للشطر الثاني من المقابلة ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وهذا العرض اتضح لنا أن شطرى السورة متقابلان تقابل آيتى : ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنْتَ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ﴿٨٣﴾، ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على إحكام البناء الفنى فى القرآن الكريم، وسمو هذا النسق التعبيرى على أى نسق آخر . وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

د - سور كاملة يغلب على أسلوبها التقابل الجزئى :

وقد لمست هذا فى سورتى الليل والرعد .

(١) تفسير ابن كثير : ٥٥٦/٢ .

(٢) وإثما لىامام مبن : يعنى أن قرى قوم لوط والأىكة بطرىق واضح يأتمون به فى أسفارهم (كلمات القرآن : ١٥٣) .

١- في سورة الليل :

تتميز سورة الليل بكثرة المقابلات بين آياتها، وقد أجملت الدكتور بنت الشاطي هذا التقابل والتفاوت بقولها : (أنه يبدأ باللفظ إلى ما هو حسي مدرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتحلى النهار، وخلقة الذكر والأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعى الناس : بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الأخرى : الأشقى الذي يصلى ناراً تلظى، والأتقى الذي يُجَنَّبُها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ولسوف يَرْضَى)^(١)

ونزيد هذا الأمر وضوحاً وتفصيلاً فنقول إن المقابلة في هذا السورة موجودة في القسم والمقسم عليه . وفي مثل الهدى والضلال وعاقبة كل نموذج .

إنما في القسم بالليل إذا يغشى الكون وما فيه، يقابل النهار حين يتجلى فيصبح كل ما في الأرض ظاهراً واضحاً (وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ومتقابلان في الصورة . ومتقابلان في الخصائص . ومتقابلان في الآثار)^(٢) وفي القسم بخلق الزوجين الذكر والأنثى، وهما متقابلان في كل شيء .

وفي المقسم عليه وهو اختلاف وتفاوت سعى الناس وسلوكهم وما يترتب على هذا السلوك المتقابل من نتائج وعواقب متقابلة أيضاً : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (الليل) .

إن سعى الناس مختلف ومتقابل في دوافعه وطريقته ونتيجته، فالمخاطبون جميعاً من ذكر وأنثى ينقسمون إلى نموذجين متباينين أشد التباين، نموذج يعطى الجهد والنفس والمال وكل شيء ويتقى الله ويخشاه فيتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويصدق بالعقيدة الحسنى، ولذلك يسره الله لليسرى والسهولة والنجاة .

وفي مقابل ذلك نجد النموذج الثاني يخل بنفسه وماله وعرقه ويستغنى عن هدى الله ونوره معتزلاً بما لديه من مال أو جاه ويكذب بالعقيدة وما يتبعها، لذلك - حين اختار هذا النموذج طريق الضلال، بمحض إرادته وجد طريق الضلال والعسر والمشقة سهلاً يسيراً .

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي)، ١٠٣/٢، ط ٣

دار المعارف : مصر

(٢) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٩٢١ .

أما نتيجة هذا السلوك المتقابل يوم القيامة، فإن الآيات تبينه في جو من التقابل يتلاءم مع مقدماته .

فإن من بخل واستغنى وكذب بالحسنى وسار في طريق العسرى ينذر الله نارا تلظى، يشقى فيها جزاء كذبه وتولييه عن الحق والهدى . ويقابل ذلك نجاة الأتقى الذي تركى بماله ابتغاء وجه ربه الأعلى . . .

وهكذا رأينا المقابلات تغلف جو السورة كلها، فكأن الله العزيز يقسم بمشاهد متقابلة في الكون ومشاهد متقابلة في النفس الإنسانية على حقائق متقابلة في سلوك الناس وسعيهم، ونتائج متقابلة مترتبة على هذا السلوك، ويتم ذلك كله في ربط وإحكام لا يتميز بهما في هذه الدقة والروعة سوى الأسلوب القرآني الفريد .

٢- في سورة الرعد :

سارت سورة الرعد كلها في أداء فني رائع أبرز عناصره هو المقابلة وحين نستعرض آيات هذه السورة يروعنا هذا التقابل بين مشاهد الطبيعة المحسوسة : الشمس والقمر والسموات والأرض، والليل والنهار والرواسي والأنهار، والنخيل صنوان وغير صنوان، والظلمات والنور، والزبد يذهب جفاء، والماء يمكث في الأرض لنفع الناس، والغدو والآصال .

والتقابل في الأشياء المعنوية بين السيئة والحسنة، والخوف والطمع والطمع والكراهة، والنفعة والضرر، والحق والباطل، والوفاء بالعهد ونقض الميثاق والسر والعلانية، والقطع والوصل، وبسط الرزق وقدره، والضلال والهدى والخو والإثبات .

كما تتقابل مشاهد النفس وحركات البشر مما يتصل بعلم الله وإحاطته بتلك المشاهد وهذه الحركات، كالتقابل بين غيظ الأرحام وزيادتها والغيث والشهادة وإسرار القول والجهر به، والاستخفاء بالليل والسرّ بالنهار والتقابل في تأثير دعوة الإيمان على النفوس، بين الداعى إلى الحق والداعى إلى الشرك ومن يستجيب ومن لا يستجيب، ومن يعلم أن القرآن حق ومن هو أعمى، وبين الله القائم على كل نفس بما كسبت وما جعلوا له من شركاء، وبين الذين يفرحون بالكتاب المنزل إلى الرسول والذين ينكرون بعضه .

ومن هذه المقابلات الفنية البليغة بين جزئيات السورة يشع لون من الموسيقى المتماوجة النغمات بين المعاني والألفاظ يشتد وقعها مع البرق والرعد والصواعق

والسجود طوعا وكرها، ويهدأ مع الصابرين ابتغاء وجه ربهم والمنفقين سرا وعلانية، والدارئين بالحسنة السيئة، في صورة فريدة من التناسق البليغ لهذا النسق الراقى من التعبير القرآنى الفريد .

ثالثا : نماذج أخرى متنوعة :

وهذه طائفة من النماذج الفريدة للمقابلة في القرآن الكريم لا تندرج تحت عنوان معين ولهذا آثرنا الحديث عنها كنماذج متنوعة . ومن هذه النماذج :

١ - مقابلة في النفس البشرية :

عرض القرآن الكريم لظاهرة شائعة في نفوس البشر، تتصل بغريزة الإنسان ويظهر تأثيرها على قوله وفعله كلما دعا إلى ظهورها داع . . . وتلك الظاهرة هي ما يعترى الإنسان من كبر وغرور وإعراض عن الله في حالة الرخاء والنعمى وما يقابل ذلك في وقت الشدة والضيق من إقبال على الله ولجوء إليه واستعانة به .

وهما خطان متقابلان في النفس الإنسانية تقابل الشدة والرخاء والعسر واليسر، والقرآن الكريم حين يعرض لهذين الخطين المتقابلين في نفس الإنسان إنما يحاول أن يهذب من انحرافها ويصلح من فسادها دون تصادم مع الفطرة والغريزة والآيات التي تعبر عن هذا التقابل، وتحاول تقويم الإنسان من خلاله كثيرة في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر) . أعقبت هذه الآية بآيتين أخريين تحاولان تهذيب هذا السلوك عن طريق تهديد الإنسان بعذاب قد يصيبه مثلما أصاب من ساروا في هذا الدرب الخاطئ :

﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الزمر) .

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء)

فالمقابلة هنا ترد في صورة ملموسة لكل البشر بين حالة الإنسان عطيت به السفينة أو طغى عليها موج البحر فمسه الضر مسا خفيفا، فلم يجد من يستعين به إلا الله، وحالته حين نجاه الله إلى البر معرضا ناسيا كفوورا

ولأن هذا سلوك شائن في نفس الإنسان، فإن القرآن يعتمد إلى تضخيمه وتنويع الإيقاع عليه، ثم يلجأ إلى تهذيبه والحد منه، فالآيات عقب هذا تهديد بخسف جانب البر حتى تنداح فيه مياه البحر، كما تهدد بإرسال قاصف من الريح في رحلة أخرى يفرق فيها هؤلاء الجاحدين :

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٣٦) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٣٧﴾ (الإسراء) .

وللاطلاع على المزيد من مثل تلك الآيات يرجع إليها في مواضعها في القرآن الكريم^(١) .

٢ - مقابلة ثلاثية :

عهدنا في المقابلات السابقة في هذا البحث أن تكون بين طرفين اثنين: لفظين أو موقفين . . ولكن القرآن الكريم الذي لا تنقضي غرابته يطلعنا على العجيب من الأساليب البلاغية التي لا يرقى إليها البشر . . ها هنا مقابلة بثلاثة أطراف وردت في قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (الروم) .

إنها مقابلة ثلاثية ذات حد وسط وطرفين :

والحد الوسط هنا هو القوة، يقابلها الطرف الأول والثالث وهو الضعف (ضعف - قوة - ضعف) .

والآية تتحدث عن قدرة الله في خلق الإنسان وأطوار حياته، فكأن القوة هنا هي الخط البياني الصاعد في حياة الإنسان هذا الخط الذي يمثل حداً وسطاً لمقابلتين : الأولى بين الضعف والقوة، والثانية بين القوة والضعف، ولكنها في الأولى تمثل الضعف المتدرج الصاعد نحو القوة، ذلك الضعف المادي والنفسي منذ أن يبدأ الإنسان نطفة فعلاقة فمضغة فعظاماً ولحماً، ثم يولد طفلاً ويتدرج إلى الصبا والشباب إلى أن يصل إلى أقصى

(١) وردت هذه الآيات في سورة (الزمر : ٨ - ٩) ، (الإسراء : ٨٣) ، (فصلت : ٤٩ ، ٥٠ - ٥١) ، (الحج : ١١) ، (الفجر : ١٥ - ١٦) ، (الروم : ٣٣ ، ٣٦ - ٣٧) .

مراحل القوة وفي المقابلة الثانية التي بين القوة والضعف، يظهر لنا هذا الخط البياني وقد بدأ في التزول والانحدار إلى مظاهر الضعف الجسدية والنفسية . . .
وهذه المقابلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، أو بين الصبا والشباب والكهولة، تتضح صورة الحياة للإنسان، وتمثل أطوارها أمام ناظره، فيحاول أن يأخذ من المراحل الأولى في حياته زادا ورصيда ينتفع به في المراحل التالية .

وعلى هذا النمط من المقابلة الثلاثية يمكن اعتبار المقابلة في قوله تعالى :
﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) مقابلة ثلاثية أيضا ذات حد وسط هو (يميتكم) وطرفين أولا هو (يحْيِيكُمْ) وثالثا هو (يجمعكم إلى يوم القيامة) .

وهذه المقابلة تأتي ردا على منكرى البعث الذين يطلبون من الرسول إحياء آبائهم في الدنيا بعدما ماتوا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا أَتَشْتَوْنَ بِإِبْرَاهِيمَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الجاثية) .
لتبين لهم أن الإحياء مرة أخرى في الدنيا لا داعي له، إنما سيكون ذلك يوم القيامة، وإذا كان الغرض من طلبهم هو إثبات قدرة الله على البعث، فلينظروا إلى قدرة الله على الإحياء والإماتة في كل لحظة من لحظات الحياة .

٣- مقابلة رباعية :

بين أربعة طوائف أو مواقف، لكل فريق موقف يقابل أو يناظر الفريق الآخر . .
وأعني بها تلك المقابلة الواردة في سورة الأحزاب والتي تصور مواقف الأطراف التي اشتركت في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

والأطراف الأربعة هم :

(١) الكفار (الأحزاب) .

(٢) المؤمنون .

(٣) المنافقون .

(٤) اليهود .

ولكسل طرف موقف مقابل أو مناظر للطرف الآخر، من بداية المعركة إلى نهايتها، وقد صورت الآيات^(١) هذه المواقف ونتيجة كل موقف من قوله تعالى في الآية العاشرة من السورة :

(١) الأحزاب : ١٠ - ٢٧ .

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ [١٠] .

إلى قوله تعالى في الآية السابعة والعشرين: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [٢٧] .

١- **فالكفار** : أو الأحزاب تقاطروا على المدينة بدافع الثأر والانتقام مما حل بهم من هزائم سابقة، وهذا الفريق كان من الكثرة والرغبة والاستعداد بحيث أطبق على المدينة من أعلى الوادي ومن أسفله ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وبحيث بث الرعب والفرع والهلح في قلوب المؤمنين فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن بالله الظنون، كان موقف الكفار اذن هو التجمع الحزبي من جميع القبائل للإجهاز على الدعوة في المدينة .

٢- **أما المؤمنون** : فقد صورت الآيات موقفهم أثناء المعركة تصويراً رائعاً : إهم في البداية :

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ لكنهم سرعان ما اتخذوا من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر، ذلك أنهم صدقوا قول الله تعالى من قبل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا ابْتَ نَصُرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة) وهامهم أولاء يزلزلون، فنصر الله اذن قريب ومن ثم قالوا: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾^(١)

٣- **والفريق الثالث** : هم المنافقون :

أصابهم الزلزال فلم يثبتوا له، وفاجأهم الهول فكشف عن زيف إيمانهم وكشأن المنافقين في جميع الأحوال، انطلقوا يرحفون ويشطون : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ثم شرعوا يشنون روح الهزيمة بين الصفوف

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ

(١) انظر في ظلال القرآن، ٢٨٤٣/٥

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٠٠﴾ وَهُمْ إِذْ يَبِيدُونَ حَرَّصَهُمْ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ عَوْرَاتِ بَيْوتِهِمُ الْمُرْعُومَةِ فِي الْمَدِينَةِ، جَبْنَاءُ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٠٢﴾ .

ويستمر القرآن في رسم صورة مزرية لموقف المنافقين ﴿١٠٣﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠٤﴾ وهو: (تصوير لما يحدثه الخوف من تغيير في ملاحظتهم حيث تدور أعينهم في محاجرها شاخصة في ذهول محملقة لا تكاد تبصر، وحين يذهب الخوف تراهم وقد حل الادعاء الكاذب فيهم محل الخوف والاضطراب وطالت ألسنتهم السليطة على المسلمين) (١)

٤- وأما اليهود :

فهم الذين ظاهروا الكفار والمنافقين وساعدوهم بالمال، نقضت قريظة ما كان بينها وبين رسول الله من العهد وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري أثناء الغزوة، وحرص بنو النضير قريشا على حرب النبي ووعدوهم النصر والإعانة (٢) .
هذه هي المواقف المتقابلة أو المتناظرة أثناء الغزوة .

موقف الكفار ضد موقف المؤمنين، لأن الكفار معتدون والمؤمنين معتدى عليهم .
موقف المؤمنين ضد موقف المنافقين، لأنه الصلابة والعزيمة ضد الذبذبة والتخاذل والتخاذل .

وموقف المؤمنين مضاد لموقف اليهود .

ثم يتناظر موقف الكفار مع موقف المنافقين وكذلك مع موقف اليهود، حيث يلتقى الجميع على هدف واحد، وإن اختلفت الوسائل . . .

ثم تأتى المقابلة في نتائج هذه المواقف كما تصورها الآيات :

فَالْكَافِرُ : أَوِ الْأَحْزَابِ ﴿١٠٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٠٦﴾ .

(١) تفسير سورة الأحزاب، دكتور مصطفى زيد، ٦٨، ط ١، دار الفكر العربي : القاهرة، ١٩٦٧

(٢) تفسير ابن كثير، ٣ / ٤٧٠ .

والمؤمنون : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ ﴾ .

والمنافقون : تولت الآيات فضحهم وكشفت خداعهم وأظهرت مدى جنهم وتناقضهم (١٣ - ٢٠) .

واليهود : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُرُوا هُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ .
والذي أريد أن أسجله هنا : هو أن هذه المقابلة الرباعية هي مقابلة مواقف كلية بالدرجة الأولى بين هذه الأطراف، ومع ذلك فإن في داخل هذه المقابلة الرباعية الشاملة توجد عدة مقابلات جزئية تكون أو تساهم في إبراز هذه المواقف المتقابلة . . .

ومن ذلك :

١- المقابلة بين ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ۝ ﴾ ، وهي تصور مدى إطباق الأعداء من كل جانب على المدينة، هذا الإطباق الذي ضغط على أطرافها فضغط معه على صدور المسلمين، فضافت حتى بلغت القلوب الحناجر .

٢- المقابلة بين ما قاله المنافقون وضعاف القلوب في تلك المحنة، وما قاله المؤمنون الصادقون :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝ ﴾ . وهي مقابلة تصور البون الشاسع بين الخوف والثقة، وبين التزعزع والثبات .

٣- مقابلة بين من ﴿ .. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَذْبَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝ ﴾ فنقضوا العهد وفروا ولم ينفعهم الفرار من الموت أو القتل وسر ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝ ﴾ وهي مقابلة تصور مدى التزام المؤمنين بالعهد التي يقطعونها على أنفسهم، ونقض المنافقين ومرضى القلوب للعهد .

٤- مقابلة بين طرف صريح وآخر ضمني :

وهذا النوع من المقابلات القرآنية ألمح الزمخشري إليه وهو يفسر قوله تعالى :

﴿لَيْسَ سَلِّ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الأحزاب)
فالمقابلة هنا بين ما أعدده الله للكافرين من عذاب أليم وما أعدده للصادقين من ثواب
عظيم .

ذكر الزمخشري أن الطرف الأول من المقابلة قد فهم مما دل عليه قوله تعالى :
﴿لَيْسَ سَلِّ الصَّدِيقِينَ﴾ (١)

ونضيف إلى ذلك أن سؤال الصادقين عن صدق عقيدتهم وقوة إيمانهم يوم القيامة
أمام الملأ إنما يمثل تكريما لهم يستحقون عليه الثواب العظيم في مقابل ما أعد لمن كذبوا
وكفروا من العذاب الأليم .

ومثل هذه المقابلة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى) .

فالمقابلة هنا بين طرف صريح هو (الظالمون) وآخر ضمني لم يصرح به ولكن
يفهم من قوله تعالى : ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهذا الطرف هو (المؤمنون)
لأن الله وليهم ونصيرهم .

وعلى غرار ذلك تأتي المقابلة بين (مسّ الشيطان الذي يعمى ويغشى العيون)
(وتذكر الله الذي يبصر ويهدي) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ
طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف)، فالطرف الأول
من المقابلة وهو العمى من مسّ الشيطان، ضمني لم يصرح به وفهم من المقابل وهو
﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

رابعاً : خصائص المقابلة في القرآن الكريم :

نستطيع من خلال ما عرضناه من مقابلات قرآنية - أن نضع لها ملامح عامة تميزها
عن المقابلة التي ألفناها في كلام البلغاء والمفسرين ومن ثم يستبين لنا الفرق بين تصورهم
للمقابلة وبين واقعها في القرآن الكريم .

ومن هذه الملامح والخصائص :

١ - أن المقابلة القرآنية ذات مفهوم متسع يضم في أعطافه كثيرا من الألوان البديعية
القرية من معنى التقابل كالطباق والتناسب والعكس والتبديل والتقسيم واللف والنشر .

(١) الكشاف للزمخشري، ٣ / ٢٥٣

٢- أن المقابلة في القرآن الكريم، لا تتسم بالتفرد والانعزال، بل هي متداخلة ومتراصة في تركيب بديع مع ما يسبقها أو يلحقها من مقابلات أخرى، مكونة سلسلة من المقابلات يسلم بعضها إلى بعض، فتأكد الوحدة العضوية في داخل المشهد الواحد.

خذ مثلاً : تلك المقابلات المتداخلة في أول سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلَكُمْ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝ ﴾ (الأنعام) .

فقد بينا في موضعها من هذا البحث^(١) أن المقابلات المتعددة منها لا تنفصل عن بعضها .

فالمقابلة بين السموات والأرض مع المقابلة بين الظلمات والنور، إذا اعتبرنا ما في السموات من مصادر للضياء والنور، وما في الأرض من عتمة الطين وظلماتها .

ثم المقابلة بين الطين والخلق، وبين الموت والبعث، وما بين المقابلتين من تناسب وارتباط، لأن كليهما إحياء من عدم، ثم ما بين الآخرين وما سبقهما من الظلمات والنور، إذا رمزنا بالطين والموت إلى الظلمات وبالخلق والبعث إلى النور ثم ما بين خلق الكون ممثلاً في (السموات والأرض) وخلق النفس ممثلاً في (خلقكم من طين) وقد رأينا هذا التداخل والترابط فيها أوردناه للزركشي من مقابلات متعددة يستنبطها ذوو الخبرة والتأمل من آية واحدة .^(٢)

٣- أنها قد تأتي في القرآن الكريم ضمنية تفهم من سياق الكلام ولا يصرح بشئ من طرفيها المتقابلين، كذلك المقابلة بين الزمان والمكان المفهومة ضمناً من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ١٠ ۝ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ١١ ﴾ (الأنعام)، فبين الآيتين تقابل ضمنى بين هيمنة الله وسيطرته على المكان ممثلاً في السموات والأرض وسيطرته على الزمان ممثلاً في ﴿ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ومعنى

(١) انظر ص (١٦٩) من هذا البحث .

(٢) انظر ص (١١٩) من هذا البحث .

ذلك أن المقابلة القرآنية لا تقتصر على مجرد التقابل بين الألفاظ، بل تتسع وتمتد لتشمل المقابلات الضمنية المفهومة بين أية وأية .

وقد تأتي بطرف ضمنى وآخر صريح كما رأينا^(١)

٤- أنها قد تكون مقابلات حقيقية وقد تكون مقابلات مجازية . . . فمما ورد بالألفاظ الحقيقية دون تأويل، تلك المقابلة بين الحياة والموت، وبين الأنعام والأناسي، وبين الماء العذب والماء المالح الأجاج في قوله تعالى : ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا ۝﴾ (الفرقان)، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝﴾ (الفرقان) .

ومما ورد بالألفاظ مجازية قوله تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ (الأنعام)، فالمعنى المقصود هنا (ضالا فهديناه) .

٥- أنها قد تأتي بلفظ واحد أو صفة واحدة في مقابل ألفاظ أو صفات متعددة ويكون ذلك غالبا إذا كان في هذا اللفظ غناء وكفاية، كمقابلة لفظ (المفلحون) بـ (الخسران واللفح والكلوحة والتبكيث) في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أَلْنَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَىٰكَ فُتُورٌ ۝﴾ (المؤمنون)،

فالفلاح هنا يقابل كل هذه الأشياء، ربما لأن في الفلاح على صغر لفظه كل ما يريد الإنسان من الفوز والنجاح . ومعنى ذلك أنها في القرآن، لا تشترط التماثل العددي بين الآطراف^(٢) .

٦- أن السمة الغالبة على المقابلات القرآنية أنها مقابلات مواقف كلية . وهى سمة تكاد تطرد في مشاهد القيامة - على الأخص، ويكفى للتدليل على ذلك أن نعود

(١) انظر ص (٣٥٩) من هذا البحث .

(٢) انظر مقابلة أربعة بثمانية في سورة الرعد (٢٠ - ٢٥) وشرحها في هذا البحث ص (١٢٦) من الباب الثاني .

لقراءة أى مشهد من هذه المشاهد، فنجد أن المقابلة فيه توضح موقف الفريقين وجزأهما بصورة قد تمتد لتشمل صفحة كاملة من آيات القرآن الكريم وقليل من الباحثين هم الذين فطنوا إلى أن في مقابلة المعاني والمواقف بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل كاهن الأثير والزر كشي^(١) ومن قبلهما أشار الزمخشري إلى أن المطاييع لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني^(٢) ولكنهم لم يتجاوزا ذلك القول إلى الناحية التطبيقية وقصروها على التقابل في الفواصل القرآنية .

٧- وأنه في داخل الموقف الكلى والصورة الشاملة للمقابلة، تلعب المقابلات الجزئية دور اللُحمة والسدى لهذا الموقف أو ذاك، ومن شأن هذه المقابلات الجزئية في داخل الإطار العام أن تعطيه التماسك والحيوية، وأن تضيف عليه لمسة الجمال الفني والتأثير المطلوب نلمس ذلك في المقابلات الجزئية بين إعطاء الكتاب للمؤمن باليمين وإعطائه للكافر من وراء ظهره، وبين الحساب اليسير والسرور وما يقابله من العسر المؤدى إلى الهلاك والسعير، وبين سرور الكافر في الدنيا وشقائه في الآخرة، وشقاء المؤمن وكدحه في الدنيا وسروره في الآخرة . . كل ذلك في إطار الموقف الكلى لأصحاب اليمين وأصحاب الشمال في قوله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ۚ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ ﴿٨﴾ وَنَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿١٠﴾ (الإنشاق) .

٨- أن القرآن الكريم لا يلتزم بالترتيب في المقابلة فقد عهدنا في الشعر غالبا أن الصفة الاولى أو اللفظ الأول يقابل بالأول والثاني بالثاني وهكذا .

كما في قول المتنبي المشهور :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأثنى وبياض الصبح يغرى بى
أما القرآن فإنه أحيانا يلتزم بهذا الترتيب كما في آية الليل المشهورة ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۚ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۚ ﴿٢﴾ ۝ ﴾

وأحيانا لا يلتزم هذا الترتيب كالمقابلة بين المؤمنين والمنافقين في السلوك والمصير في قوله تعالى :

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير، ٢ / ٣٠١، والبرهان في علوم القرآن للزركشى، ٣ / ٤٦٣ .

(٢) الكشف للزمخشري، ٤ / ١٤٥ .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١)
 ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢) (التوبة) .

فالصفات الأربع في المؤمنين تقابل بأربع في المنافقين بدون ترتيب وهي :

صفات المؤمنين	صفات المنافقين
(١) الأمر بالمعروف	(١) الأمر بالمنكر
(٢) والنهي عن المنكر	(٢) والنهي عن المعروف
(٣) وإقامة الصلاة	(٣) وقبض الأيدي
(٤) وإيتاء الزكاة	(٤) ونسيان الله

والمستأمل في هذه الصفات يرى أن الصفة الثالثة من صفات المؤمنين وهي إقامة الصلاة بمعنى التذكر الدائم له إنما تقابل بالصفة الرابعة للمنافقين وهي نسيان الله، والرابعة في صفات المؤمنين وهي إيتاء الزكاة تقابل بالثالثة في صفات المنافقين وهي قبض الأيدي، وربما يرجع ذلك إلى بلاغة التقديم والتأخير وقد أشار حازم القرطاجني في المنهاج إلى أنه (ليس يشترط تحاذي عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفي الكلام في الرتبة وأنشد فيما لم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين :

أَسْرَتَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ . . . وَسَقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا
 فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ . . . وَلَا أَذُّوْا لِحُسْنِ يَدِ ثَوَابَا

فقابل ما في صدر البيت الأول بما في عجز الثاني، وما في عجز الأول بما في صدر الثاني^(١) .

ولكن ينقص حازما وغيره أنهم لم يفتنوا إلى وجود مثل هذا النوع من المقابلات في القرآن الكريم. ولذا لم يستشهدوا له إلا بالشعر .

٩- وقد تأتى المقابلة بين طرفين مقابل طرف واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . .﴾^(٢) (المائدة: ٦٤)، وذلك لأن الموقف البلاغي يقتضى مقابلة اثنين بواحد .

(١) منهاج البلاغ وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، ص ٥٣ .

فالطرف الأول هنا قول اليهود إن يد الله مغلولة .

ولشناعة التهمة وعظم جرمها، فقد نفى الله قولهم هذا حين قابلة بشئين :

الأول : الدعاء عليهم بغل أيديهم

الثاني : تقرير أن يديه مبسوطتان

١٠- وقف البلاغيون عند حد مقابلة خمسة ألفاظ بخمسة في بيت أبي الطيب

المشهور

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأثنى وياض الصبح يعري بي

ولكننا وجدنا الزركشى في البرهان قد وضع يده على مقابلة خمسة بخمسة وستة

بسته في القرآن الكريم^(١).

١١- أن المقابلة في آية واحدة قصيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ

بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الحج : ١٠) . قد يتفرع عنها

مقابلات أخرى بالنقيض أو النظير أو الخلاف كما رأينا أيضا عند الزركشى^(٢).

١٢- أن القرآن الكريم حافل بالمقابلات المتميزة عن غيرها بين السور وبعضها أو

في داخل السورة الواحدة، كما رأينا في الفصل الأخير من هذا البحث .

١٣- أن المقابلة في أسلوب القرآن المكي تختلف عنها في المدني، وقد أوضحنا أن

السري في ذلك إنما يرجع - ضمن ما يرجع - إلى تطورات الدعوة الإسلامية وظروف

البشر واستعدادهم .

١٤- أن المقابلة في القصص القرآني تركز على تجسيد عنصر الصراع وإبراز

التفاوت النفسي والعقلي بين الشخصوص .

١٥- وأنها قد تأتي لبيان التقابل بين صورة وصورة أو أكثر من ذلك كما رأينا عند

سيد قطب في صورتى البث والجمع في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى)

فصورة البث والجمع يلتقيان في سطر واحد بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى

أطول في تصورهما واحدة بعد الأخرى^(٣)، وقد فصلنا هذا في موضعه من البحث^(٤)

(١) انظر ص (١٢٤) من هذا البحث .

(٢) انظر ص (١١٧) من هذا البحث .

(٣) التصوير الفني، ٧٥

(٤) أنظر ص (١٣١) من هذا البحث .

١٦- وأخيرا - وهو الأهم - أن أسلوب المقابلة لم يتخلف عن مصاحبة القرآن الكريم بأجمعه، فلا تكاد صفحة من صفحات المصحف الشريف تخلو من وجودها سواء بالتضاد أو التناسب أو الخلاف أو ما يدور في فلكها من ألوان بديعية أخرى، فلا بدع أن نقول مع الزركشى إن القرآن كله وارد على أسلوب المقابلة، وأنها تمتد لتشمل الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الإلهيات^(١) .

وكأن هذه الثنائية الضدية التي تنتظم العالم كله - كما أشرت من قبل - دليل على أن الله وحده هو المتزه عن الشريك والضد والنظير .

(١) أنظر ص (١٢٢) من هذا البحث .

الخاتمة

رأينا في هذا البحث كيف ارتبط مفهوم المقابلة بالطباق، واشتركا في معنى التضاد والمواجهة، كما اشتركا في المساواة بين الشيئين أو في مراعاة النظير والتماثل بين الشيئين، وكيف خلط علماء البلاغة بين الطباق والمقابلة والتجنيس والعكس والتبديل. وكان هذا دافعا لنا إلى بحث موضوع المقابلة في القرآن الكريم من خلال رؤية أشمل وأعم من المصطلحات المحددة والتعريفات الضيقة.

من ثم خرجت هذه الدراسة بمجموعة من النتائج نذكر منها :

١- تتبع البحث مفهوم المقابلة والطباق وبعض الألوان البديعية القرية منهما منذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن الثامن، ووضع بين يدي القارئ العربي آراء مجموعة ضخمة من اللغويين والنقاد والبلاغيين حول هذا الفن وما يشترك معه من قريب في معنى التقابل، وتوصل إلى أن الأفضل هو ضم هذه الألوان جميعها تحت اسم المقابلة.

٢- اطمأن البحث إلى ما ارتآه بعض علمائنا الأفاضل من أن الطباق والمقابلة من الأصالة العربية. بمكان وليس من تأثير الفكر اليوناني، وإن لم ينكر عنصر التأثير والتأثير بين الآداب المختلفة.

٣- أكد البحث أن المقابلة ومعظم ألوان البديع. لا يمكن فصلها عن عناصر الأسلوب، وعاب تمزيق البلاغة إلى معان وبيان وبديع، واستنكر النظر إلى البديع على أنه تابع وذيل للمعاني، يجلب للزينة والتحسين فقط.

٤- أنكر البحث على الباقلاني استبعاده البديع من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم بحجة أنه مقدور عليه بالتدريب والتعود، وأثبت وأيد القول بالإعجاز القرآني عن طريق ما فيه من البديع وغيره، وأنه معجز جملة وتفصيلا.

٥- أشاد البحث ببعض العلماء الذين نظروا إلى المقابلة نظرة واسعة واهتموا بمقابلة المعاني والمواقف كالزحشري وابن رشيق وغيرهما لأنهم بذلك يقتربون بالفعل - من مفهوم المقابلة القرآنية كما بحثناه.

كما حمد لكل الدارسين اعتمادهم على القرآن الكريم في الاستشهاد لآرائهم في المقابلة وغيرها.

٦- أخذ البحث على غالبية العلماء تداخل المصطلحات. وعدم تحديدها وخلطهم بين شواهد بعض الألوان القرية من المقابلة كالعكس والتبديل واللف والنشر، واتخذ من هذا التداخل عندهم سندا لتوحيد هذه الألوان في القرآن الكريم وضمها تحت اسم المقابلة القرآنية.

٧- وفي الجانب التطبيقي من البحث، أثبت الباحث أن أسلوب المقابلة لم يتخلف عن ركب القرآن الكريم في جميع المواقف والمشاهد والصور تقريبا وذلك حين عرض البحث نماذج كثيرة من المقابلات القرآنية في سائر السور.

٨- حرص الباحث على تحليل هذه المقابلات وعرضها بأسلوب واضح مظهرا وجه التقابل فيها والمغزي البلاغي لإيثار القرآن الكريم التعبير عن هذا الموقف أو ذاك بأسلوب المقابلة وهو كونها طريقا من طرق الوضوح والقوة والجمال في الأسلوب القرآني عامة، بالإضافة إلى أثرها الخاص في كل موقف.

٩- بين البحث أهمية المقابلة في القصص والأمثال القرآنية والدور الذي أداه أسلوب المقابلة فيهما، وهو تجسيد الصراع في القصص واستخلاص العبرة من المثل.

١٠- اهتم البحث بعقد عدة مقارنات بين أسلوب المقابلة في القرآن المكي والمدني مبينا الفرق بينهما سواء في الطبيعة العامة لكل منهما، أو في تناولهما لموقف معين مرجعا هذا الفرق إلى طبيعة الدعوة الإسلامية وتطورها، وظروف المجتمع المكي والمدني.

١١- كما اهتم أيضا بعقد مثل هذه المقارنة بين تناول الشعر لفكرة معينة بأسلوب المقابلة، وتناول القرآن لنفس الفكرة، ليظهر مقدار السمو والرفعة في التعبير القرآني .

١٢- استخلص البحث من القرآن الكريم طائفة من المقابلات المتميزة والفريدة وأفرد لها فصلا خاصا بها، وهي مقابلات لم يعرض لمعظمها أحد من السابقين على حد علمنا وهي تدل على إعجاز القرآن الكريم وسمو بلاغته.

١٣- انفرد البحث - أيضا - ببيان السمات والخصائص التي تميز المقابلات القرآنية عن غيرها، وبما يظهر مقدار التفاوت بين تعقيد البلاء والأدباء للمقابلة وبين واقعها في القرآن الكريم مما يجعلنا ندعو إلى المزيد من الدراسات والبحوث التي تستجلي عظمة القرآن وأسراره البلاغية والتي تعين على فهم القرآن وتذوقه. وتدفع إلى العمل بما فيه.

وفي النهاية أحب أن أقول إن في صحبة القرآن الكريم متعة لا تعدلها متعة الدنيا بأسرها، فإن أكن قد وقعت في تقديم المقابلة القرآنية تقديمًا يرضى عنه الله ورسوله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فحسبي ما شعرت به من السعادة والمتعة في مصاحبة القرآن الكريم، وعلى الله قصد السبيل.

د. كمال عبد العزيز

المراجع

مراجع البحث ترتيباً هجائياً

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً :

- ١- ابن أبي الأصبع المصري بين علماء البلاغة، الدكتور حفنى محمد شرف، ط ١، مكتبة نهضة مصر
- ٢- ابن قتيبة، الدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر .
- ٣- ابن المعتز ونثراته في الأدب والنقد والبيان، محمد عبد المنعم خفاجى، ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨ م .
- ٤- أثر القرآن في تطور النقد العربى إلى آخر القرن الرابع الهجرى، الدكتور محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦١ م .
- ٥- أسباب النزول، النيسابورى (الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدى)، ط : عالم الكتب، بيروت .
- ٦- أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجانى، تعليق الأستاذ محمد عبد العزيز النجار، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٧٣ م .
- ٧- الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية، الأستاذ أحمد الشايب، ط ٦، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٦٦ م .
- ٨- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، الجرجانى (أحمد بن على بن محمد)، تحقيق : الدكتور عبد القادر حسين، ط : دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨١ م .
- ٩- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخى، تحقيق : الدكتور عبد الله شحاته، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥ م .
- ١٠- الأضداد في اللغة، محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى النحوى، ط : المطبعة الحسينية، القاهرة .
- ١١- الأطول (شرح تلخيص المفتاح)، عصام الدين بن عريشاه الإسفرايينى، المطبعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٤ هـ .
- ١٢- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق، الدكتورة بنت الشاطى، ط : دار المعارف، مصر .
- ١٣- إعجاز القرآن، الباقلانى (أبو بكر بن الطيب)، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٤، دار المعارف، مصر .

- ١٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط ٦، القاهرة، ١٩٥٦ م .
- ١٥- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ هـ .
- ١٦- الأمثال من الكتاب والسنة، الحكيم الترمذى (أبو عبد الله محمد بن علي)، تحقيق : علي محمد بجاوي، ط : نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥ م .
- ١٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الإمام البيضاوي، ط ١، المطبعة البهية المصرية، ١٩٢٢ م .
- ١٨- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٧١ م .
- ١٩- البديع، ابن المعتز العباسي، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٢، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨ م (ملحق بالكتاب رقم ٣ من هذا الثبت) .
- ٢٠- البديع في ضوء أساليب القرآن، الدكتور عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، مصر، ١٩٧١ م .
- ٢١- بديع القرآن، ابن أبي الاصبع المصري العدواني، تحقيق : الدكتور حفنى محمد شرف، ط ٢، دار نهضة مصر، ١٩٥٧ م .
- ٢٢- البرهان في علوم القرآن (٤ أجزاء)، الزركشى (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله ابن بهادر)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، الحلبي، مصر، ١٩٧٥ م .
- ٢٣- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق : الدكتور حفنى شرف، ط : مكتبة الشباب، القاهرة .
- ٢٤- بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعدي، ط ٦، مكتبة الآداب ومطبعها، مصر .
- ٢٥- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، الدكتور إبراهيم سلامة، ط ٢، الأنجلو المصرية .
- ٢٦- البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور شوقي ضيف، ط ٢، دار المعارف .
- ٢٧- بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوية، الدكتور عفت الشرقاوى، ط : دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م .
- ٢٨- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، الدكتور فتحى أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية .
- ٢٩- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، الدكتور محمد محمد أبو موسى، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة .
- ٣٠- البلاغة الواضحة، الأستاذ على الجارم، ط ٤، دار المعارف، ١٩٣٩ م .
- ٣١- البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون، ط ٤، الخانجي، مصر، ١٩٧٥ م .
- ٣٢- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط ٢، دار التراث، القاهرة .

- ٣٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع العدواني، تحقيق : الدكتور حفنى محمد شرف، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة .
- ٣٤- تحفة المريد على جوهرة التوحيد، الإمام إبراهيم البيجورى، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٥٤م .
- ٣٥- التصوير الفنى في القرآن، الأستاذ سيد قطب، ط : بيروت .
- ٣٦- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة بنت الشاطىء، ط ٣، دار المعارف، مصر .
- ٣٧- تفسير البغوى، المعروف بمعالم التنزيل، على هامش تفسير الخازن، ط ٢، الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م .
- ٣٨- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط : الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣م .
- ٣٩- تفسير جزء عم، الأستاذ الإمام محمد عبده، ط : دار الشعب، مصر .
- ٤٠- تفسير سورة الأحزاب، الدكتور مصطفى زيد، ط ١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٧م .
- ٤١- تفسير الفخر الرازى، المشتهر ب (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، الإمام محمد الرازى (فخر الدين)، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م .
- ٤٢- تفسير القرآن الكريم، الشهير ب (تفسير المنار)، السيد محمد رشيد رضا، ط ١، مطبعة المنار، مصر، ١٩٣١م .
- ٤٣- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحافظ عماد الدين ابو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى)، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة .
- ٤٤- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضى، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٥م .
- ٤٥- تلخيص الخطابه، ابن سينا، ط : وزارة التربية والتعليم .
- ٤٦- تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوى البراعة، نجم الدين أحمد بن إسماعيل ابن الأثير الحلبي، تحقيق : الدكتور محمد زغلول سلام، ط : منشأة المعارف، الاسكندرية .
- ٤٧- تلخيص المفتاح، الخطيب القزوينى، ط : صبيح، القاهرة .
- ٤٨- تهذيب السجستانى في غريب القرآن، الشيخ محمد مرسى، ط ٢، دار الكتاب العربى، مصر .
- ٤٩- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبرى، ط : دار المعرفة ببيروت، ١٩٨٠م .
- ٥٠- جواهر البلاغة في المعانى والبيان والبدیع، أحمد الهاشمى، ط ١٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م .
- ٥١- حاشية قطب الدين التحتانى على الكشف (رسالة دكتوراه) بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الدكتور إبراهيم طه الجعلى، ١٩٨١م .
- ٥٢- حياة قلم، عباس محمود العقاد، كتاب الهلال، العدد ١٦٥، دار الهلال، ١٩٦٤م .

- ٥٣- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين، ط : بيروت .
- ٥٤- دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، الشيخ عطيه صقر، ط : مؤسسة الصباح، الكويت، ١٩٨٠ م .
- ٥٥- درة الناصحين في الوعظ والارشاد، عثمان بن حسن الخوبري، ط : الحلبي، القاهرة .
- ٥٦- دلائل الاعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح : الشيخ محمد عبده، تعليق الناشر : محمد رشيد رضا، ط ٦، صبيح، القاهرة، ١٩٦٠ م .
- ٥٧- ديوان ابن المعتز، عبد الله بن المعتز (الخليفة العباسي)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠ م .
- ٥٨- الذرة في خدمة الزراعة، الدكتور محمد يوسف الشواربي، المكتبة الثقافية العدد : ٣٦، وزارة الثقافة، مصر .
- ٥٩- رسالة التوحيد، الأستاذ الإمام محمد عبده، ط : صبيح، القاهرة، ١٩٦٥ م .
- ٦٠- الزمخشري، الدكتور أحمد الخوفي، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٦١- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعدي، صبيح، ١٩٦٠ م .
- ٦٢- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق : إبراهيم الإيباري وآخرين، ط ٢، الحلبي، ١٩٥٥ م .
- ٦٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ط : دار الآفاق الجديدة، بيروت .
- ٦٤- الصيغ البديعية في اللغة العربية، الدكتور أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩ م .
- ٦٥- صحيح البخاري، ط : دار الشعب، القاهرة .
- ٦٦- الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، الدكتور حفيظ محمد شرف، ط ١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٦ م .
- ٦٧- علم النفس ودراسة التوافق، الدكتور كمال دسوقي، ط ٢، سلسلة تكنولوجيا العلوم الاجتماعية، مصر .
- ٦٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٢ م .
- ٦٩- الغاية والتقريب، القاضي أبو شجاع (أحمد بن الحسين بن أحمد الاصفهاني)، مكتبة الجمهورية، مصر .
- ٧٠- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، الدكتور فتحي عامر، ط : المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥ م .

- ٧١- الفكر الدينى في مواجهة العصر، الدكتور عفت الشرقاوى، دار الحقوق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م .
- ٧٢- الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، ط : مكتبة المتنبي، القاهرة . وقد صحح الدكتور زكريا سعيد نسبة هذا الكتاب واسمه وجعله تحت اسم (مقدمة تفسير ابن النقيب) وطبع ١٩٩٤م في مطبعة الخانجي - مصر
- ٧٣- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٧، دار الشروق، ١٩٧٨م .
- ٧٤- في فلسفة الحضارة الإسلامية، الدكتور عفت الشرقاوى، ط ٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م .
- ٧٥- القاموس المحيط، الفيروزابادى، ط ٢، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ .
- ٧٦- القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة، سلسلة المكتبة الثقافية العدد السابع، مصر، ١٩٦٢م .
- ٧٧- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ط : مكتبة التراث، القاهرة .
- ٧٨- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، ط : بيروت، ١٩٧٨م .
- ٧٩- قصص من القرآن، محمود زهران، مكتبة غريب، القاهرة .
- ٨٠- القصص القرآنى في منطق ومفهومه، الأستاذ عبد الكريم الخطيب، ط : دار الفكر العربى، مصر، ١٩٧٤م .
- ٨١- قواعد الشعر، ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى)، تحقيق : الدكتور رمضان عبد التواب، ط ١ دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦م .
- ٨٢- الكامل في اللغة والأدب، المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، ط : مكتبة المعارف، بيروت .
- ٨٣- الكبائر، شمس الدين الذهبى (الحافظ)، ط : دار الكتب الشعبية، بيروت .
- ٨٤- كتاب الخطابة لأرسططاليس، ترجمة وتقديم وتحقيق : الدكتور إبراهيم سلامة، ط ٢، الانجلو المصرية، ١٩٥٣م .
- ٨٥- كتاب سيبويه، تحقيق : عبد السلام هارون، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م .
- ٨٦- كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق : على محمد بجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، الحلبي، مصر .
- ٨٧- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري واعتمدت فيه على طبعين، ط : مطبعة الاستقامة، القاهرة، و ط : دار الفكر، بيروت .

- ٨٨- كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، للشيخ تقى الدين أبى بكر بن محمد الحصنى الحسينى
الدمشقى، ط ٢، صبيح، القاهرة .
- ٨٩- كلمات القرآن، الشيخ حسنين محمد مخلوف، ط ٨، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠ م .
- ٩٠- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطى، ط : كتاب التحرير، العدد الخامس،
القاهرة، ١٣٨٢ هـ .
- ٩١- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق مجموعة من أساتذة دار المعارف، ط : دار المعارف، مصر .
- ٩٢- ما يقال عن الإسلام، عباس محمود العقاد، سلسلة كتاب الهلال، العدد : ١٨٩، دار الهلال،
مصر .
- ٩٣- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط : مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨ م .
- ٩٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق : محمد محى الدين عبد
الحميد، ط، الحلبي، مصر، ١٩٣٩ م .
- ٩٥- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق : محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر،
١٩٤٥ م .
- ٩٦- المجتمع الإسلامى، الدكتور أحمد شلى، ط ٢، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣ م .
- ٩٧- محاضرات في تفسير سورة الاسراء، الشيخ عبد العظيم معانى، دار العلوم، ١٩٦٥ م .
- ٩٨- مختار الصحاح، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، ترتيب : محمود خاطر بك، ط ٨،
المطبعة الأميرية، ١٩١٩ م .
- ٩٩- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، الإمام النسفى (أبو البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود)، ط :
الحلبى، مصر .
- ١٠٠- مذكرة التوحيد، حسن السيد متولى، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ١٩٨٣ م .
- ١٠١- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق .
- ١٠٢- المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، ط : مؤسسة الصباح، الكويت .
- ١٠٣- المعانى الثانية في الأسلوب القرآنى، الدكتور فتحى أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية .
- ١٠٤- معانى القرآن، الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد)، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى، ومحمد على
النجار، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م .
- ١٠٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطى، تحقيق : على محمد بجاوى، ط : دار
الفكر العربى، بيروت .
- ١٠٦- المعجم الوسيط، إخراج مجمع اللغة العربية، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣ م .

- ١٠٧- مفتاح العلوم، السكاكى (سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر)، الحلبي، القاهرة .
- ١٠٨- المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني، ط : دار المعارف للطباعة والنشر .
- ١٠٩- مقالات في النقد الأدبي، الدكتور محمد مصطفى هدارة، ط ١، دار القلم، مصر، ١٩٦٥ م .
- ١١٠- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٠ م .
- ١١١- المنتخب من أدب العرب، جمع وشرح : أحمد الاسكندري وآخرين، ط : دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٣ م .
- ١١٢- منهاج السلفاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن خوجة، ط ١، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦ م .
- ١١٣- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط ٧، دار الشروق، ١٩٨٣ م .
- ١١٤- منهج الزمخشري في تفسير القرآن، الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر .
- ١١٥- من وصف القرآن ليوم الدين والحساب، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، الدكتور شكرى عياد .
- ١١٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن)، ط : كتاب الشعب .
- ١١٧- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق : كمال مصطفى، ط ٣، الخانجي، مصر، ١٩٧٨ م .
- ١١٨- النكت في إعجاز القرآن، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمد خلف الله، والدكتور محمد زغللول سلام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨ م .
- ١١٩- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، ط ١، دار الكتب، مصر، ١٩٢٩ م .
- ١٢٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، شرح وتصحيح : أحمد عارف الزين، ط : صبيح، القاهرة .
- ١٢١- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر)، تحقيق : الدكتور إحسان عباس، ط : دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٧ م .
- 122- William Words Worth، "Preface to lyrical Ballads in English critical Essays"، Ed، the Anglo Egyptian Book shop، Cairo، 1974.

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٣	المقدمة
١٥	تمهيد
	الباب الأول مفهوم المقابلة
٢٧	الفصل الأول : المقابلة عند النقاد والبلاغيين.
٨١	الفصل الثاني : المقابلة في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن.
	الباب الثاني أسلوب المقابلة في القرآن الكريم
١٥١	الفصل الأول : أسلوب المقابلة في القرآن المكي.
٢٤٣	الفصل الثاني : أسلوب المقابلة في القرآن المدني.
٣١٩	الفصل الثالث : أسلوب المقابلة في القصص والأمثال القرآنية.
٣٤٧	الفصل الرابع : مقابلات متميزة في القرآن الكريم.
٣٧٥	الخاتمة
٣٧٩	المراجع

أَسْلُوبُ الْمِقَابَلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دراسة فنية بلاغية مقارنة

في هذا الكتاب : يربط المؤلف بين ظاهرة التقابل في الكون كله وظاهرة التقابل في الأسلوب القرآني ، و يبين أن هذه الثنائية الضدية المذكورة في قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) إنما هي دليل على تفرد الله ووحدانيته .

وستأخذك الروعة والدهشة وأنت تطوف مع المؤلف في رياض المقابلة القرآنية الواسعة المدى والتي تمتاز عما درج عليه البلاغيون القدماء في درس المقابلة ، إذ يوضح المؤلف أن المقابلة القرآنية مقابلة ممتدة بين المواقف الكلية المتعارضة : بين المؤمنين والكافرين ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبين القرآن المكي والمدني ، كما هي ممتدة أيضا في القصص القرآني .

ويكتشف المؤلف مقابلات رائعة بين سورتين وبين أوائل السور وأواخرها . ومن خلال أسلوب المقابلة يتحقق الغرض الديني والجمالي من البلاغة القرآنية . والكتاب بابان رئيسيان : نظري يهتم المتخصصين ، وتطبيقي يمتع المثقفين والقراء العاديين .

ISBN 911-339-227-5



9 789113 392271